

سلسلة شرح الرسائل

لشيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب

شرح
عبد البر بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله

إعقبها وعلق عليها
الأخوين العزيزين

بإشراف الشيخ

الجزء الأول
سنة لله
تقريباً (سنة) للعامة

الجزء الثاني
القرآن الكريم
للهمة والنسبة
والحسنة
قوله من الله
يسف الشبهات

سلسلة
شرح الرسائل
الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

دار الفرقان للنشر والتوزيع ١٤٤٢/٢٠٢٠

ردمك: ٩٧٨-٩٩٣١-٦١٦-٦١-٠

الإيداع القانوني: السادس الثاني ، ٢٠٢٠

Dar Al-furquan Edition . 2020

ISBN : 978 - 9931 - 616 - 61 - 0

Dépôt Légal : 2^{eme} semestre . 2020



دار الفرقان للنشر والتوزيع

20 شارع أحمد حسينة - باب الوادي - الجزائر (العاصمة)

|00213 (0)556 96 58 10

dar.alfurquan@gmail.com



سلسلة
شرح الرسائل

لشيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الجزء الثاني

اغتني بها وعلق عليها
أبو جندل العزيز مشير الزدري

دار الفرقان للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه شروح مفيدة لمتون العقيدة من تأليف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

ﷺ، قام بالتعليق عليها، وتوضيح معانيها، واستخراج فوائدها:

شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله تعالى.

ومن فضل الله علينا ومنتته أن انتشرت هذه الشروحات بين طلبة العلم في أصقاع

المعمورة بعدما طبعت متفرقة، وكنت قد أطلعت شيخنا حفظه الله عليها، والله

الحمد.

وقد رغب بعض الأفاضل في جمعها في مؤلّف واحد للوصول إليها بكل يسر،

فما كان مني إلا الاستجابة لذلك، وها هي بين يدي القراء في طبعة فاخرة، جزى الله خيرا من كان سببا في إخراجها.

وأسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يتقبله، وأن ينفع به.
وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، أزكى صلواته، وأفضل سلامه، وأتمّ تحياته.

وصلّى الله على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ

أَبُو عَبْدِ الْعَزِيزِ مُنِيرُ الدِّينِ

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095



سَيِّدُ الشُّعُوبِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
٣

شَرْحُ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّوَّاحِ

شَرْحُ
عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْحَكِيمِ الْبَدْرِيِّ

إِعْتَقَ بِهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا
أَبُو حَنِيفَةَ الْغَزَّالِي مُنِيرُ الْمَدِينَةِ

بِإِذْنِ الْفَرَقَانِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْضِيحِ

الله أكبر

مقدمة المعتني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلّ الضّالون، أحمده سبحانه
حمد عبد نزه ربّه عما يقول الظّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له وسبحان الله ربّ العرش عمّا يصفون، وأشهد أن نبينا محمّدا عبده ورسوله
وخليله الصّادق المأمون، اللهم صلّ وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم
بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمّا بعد:

فإنّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في
الدّارين، ولا نجاة من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة، إلّا بمعرفة أوّل مفروض
عليهم والعمل به، وهو الأمر الذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به،
وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدّنيا والآخرة،
والجنّة والنّار، وبه حقّت الحاقّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين

وتتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقَاوَة والسَّعَادَة، وعلى حسب ذلك تُقسَم الأنوار ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]»^(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنُوب الشُّرْك بعلام الغيوب ﷺ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» (ثلاثاً).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «الْإِشْرَافُ بِاللَّهِ...»^(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشُّرْك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوّعت كتابات علماء أهل السُّنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوّل ومختصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ «فشمر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عبادِه، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته،

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ونهاهم عن الشُّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كُلِّ زمان من يقول الحقَّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبس الجاهلين المفتونين^(١).

وقد كتب ﷺ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأُمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (القَوَاعِدُ الأَرْبَعُ)، وهو بحث نافع لطيف، ممتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

وَمِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسّة إليه، قُمتُ بالاعتناء بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلُها دروس للشيخ فُرِّغت؛ فاستأذنته في إخراجها في كُتَيْب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إِلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرا^(٢).

وَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ الْمُحَافَظَةَ

(١) «الدُّرر السَّنيّة في الأجوبة النَّجديّة» (١/١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/١٢/٢٠١٧م.

على كلام الشيخ بحروفه إلا ما يقتضيه المقام من إضافة ما يُربط به الكلام لتمام
المعنى مع التعليق على بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير
الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.
وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ

أبو عبد العزيز المنير الأندلسي

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095



مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فقد كان الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- ناصحاً للناس أعظم نصيحة في بيان التَّوْحِيدِ الَّذِي خُلِقُوا لِأَجْلِهِ وَأُوجِدُوا لِتَحْقِيقِهِ، والتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ ﷻ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْإِثَامِ وَأَكْبَرُ الْمُحَرَّمَاتِ. وتنوَّعت مصنفاته -رحمه الله تعالى- في بيان التَّوْحِيدِ وتقديره والتحذير من الشرك وإبطاله، وبيان فسادِه وبطلان شُبُه أهلكه، فألف في ذلك مؤلفات كثيرة

نُصَحًا لِلأُمَّةِ وَبَيَانًا لِلنَّاسِ وَإِعْذَارًا وَإِنْذَارًا، فَكَانَ - ﷺ - نَاصِحًا مُعَلِّمًا مَرِيئًا مُوجِّهًا مُتَمَسِّكًا بِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -^(١).

وَكَانَ - ﷺ - فِي بَيَانَاتِهِ وَتَقَرِيرَاتِهِ لِلتَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ يَنْطَلِقُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، سَائِرًا فِي ذَلِكَ عَلَى سَنَنِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ، فَهُوَ مَاضٍ عَلَى طَرِيقِهِمْ، وَعَلَى الْأَثَرِ فِي الْاِقْتِفَاءِ وَالِاتِّبَاعِ لِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَلِهَذَا كَانَتْ كُتُبُهُ كُلُّهَا قَائِمَةٌ عَلَى الدَّلِيلِ؛ قَالَ اللَّهُ، قَالَ رَسُولُهُ ﷺ. وَلَا يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ أَوْ يُنْشِئُ أَمْرًا تَكْلَفَا مِنْ عِنْدِهِ، حَاشَاهُ وَحَاشَا أُمَّةَ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاءَ السُّنَّةِ أَنْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، بَلْ كَانَ - ﷺ - فِي تَقَرِيرَاتِهِ وَتَأْصِيلَاتِهِ وَتَقْعِيدَاتِهِ مَنْطَلِقًا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الْوَحْيَيْنِ.

(١) قَالَ الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ عَبْدُ الْمُحْسَنِ بْنُ حَمْدٍ الْعَبَادُ الْبَدْرُ حَفِظَهُ اللَّهُ: «دَعَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ - ﷺ - مَبْنِيَّةً عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَبَيَانَ الْعَقِيدَةِ السَّلِيمَةِ الْمُسْتَمَدَّةَ مِنْ هَذَيْنِ الْيَنْبُوعَيْنِ الصَّافِيَيْنِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَوَّلِيَّاتُ فِي التَّأْلِيفِ عِنْدَهُ فِي بَيَانِ الْعَقِيدَةِ، وَالْعُنَايَةُ بِمَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ ﷻ، وَمَعْرِفَةِ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَيَانَ الْأَحْكَامِ الْفَقْهِيَّةِ الْمُسْتَمَدَّةِ إِلَى النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ، وَكَانَ أَوْلَى اِهْتِمَامِهِ وَجَلُّ عُنَايَتِهِ فِي إِيضَاحِ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ الَّذِي أُرْسِلَتْ الرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ الْكُتُبُ مِنْ أَجْلِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (١٥) [الأنبياء]، فَالَّفَ فِي التَّوْحِيدِ كُتُبًا عَدِيدَةً، أَهْمُهَا (كِتَابُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعَبِيدِ)، وَكِتَابُ (الْأَصُولِ الثَّلَاثَةِ وَأَدْلَتِهَا)، وَكِتَابُ (كُشْفِ الشُّبُهَاتِ) «مَنْهَجُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي التَّأْلِيفِ» (ص ١٣).

وقد تنوّعت مصنفاته - رحمه الله تعالى - في بيان التّوحيد وتقريره والتّأصيل له وجمع الشواهد والدلائل عليه من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ .

وكان من عنايته - رحمه الله تعالى - بهذا الباب العظيم هذه الرسالة الصّغيرة الحجم الكبيرة الفائدة، الّتي لا يستغني عنها كلّ مسلم، فهي بحق رسالة عظيمة وكُتِبَ قِيَمٌ في بابٍ هو أعظم الأبواب، وقد جمع - ﷺ - في هذه الرسالة أربع قواعد وذكر أدلتها من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ ، فكان مَن ضَبَطَ هذه القواعد وفهمها لا يلتبس عليه الأمر ولا تشبهه عليه الشُّبه، ولا تنطلي عليه أضاليل أهل الضّلال وأباطيل أهل الباطل .

فهي أربع قواعد عظيمة لا غنى لأي مسلم عنها في باب معرفة التّوحيد والشرك، والتّمييز بين الحقّ الّذي هو التّوحيد، والباطل الّذي هو الشرك . ولقد أصبح معرفة التّمييز بين التّوحيد والشّرك ضرورة ملحّة ولاسيما في مثل هذه الأزمنة المتأخّرة الّتي لُبّس على كثير من النّاس في مفهوم التّوحيد، وأدخلت عليهم صورا من الشرك وأبوابا منه على أنّها ليست مضادة للتّوحيد ولا منافية له .

فمن أعظم الضرورات وأشدّ الحاجات الّتي ينبغي على كلّ مسلم ومسلمة أن يُعني بها: أن يعرف هذه القواعد العظيمة الكبار الّتي قرّرها أئمة الإسلام -رحمة الله عليهم- ليميّز بها المسلم بين الشّرك والتّوحيد، والسنة والبدعة،

وحتى يكون المسلم على بصيرة في دينه وعلى بينة من أمره وعلى نور من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه - صَلَّواتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -.

وأسأل الله أن يتقبَّلَ هذا العمل وأن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه، إنه سبحانه خير مسؤول، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عَبْدُ الرَّزَاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدْرِي



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ
صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ.

فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنوانُ السَّعَادَةِ».

[الشرح]

بدأ -رحمه الله تعالى- هذه الرسالة كعادته في كتبه عمومًا ورسائله بالدعاء
لمن يطلع على كتابه ويقرأ رسالته، ويدعو -ﷺ- بدعوات عظيمة؛ دعوات
جامعة تجمع للمسلم خيري الدنيا والآخرة^(١).

وهذا كذلك من نصحه -رحمه الله تعالى- ومن شففته على الناس عمومًا
ليتبصروا في دينهم، وليعرفوا الحق الذي خلَقُوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه،
وليكونوا على حذر من الضلال والباطل.

بدأ هذه الرسالة بقوله: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وهذه كلمة يُبدأ بها في

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «وصنع المؤلف رحمه الله تعالى يدل على
عنايته وشففته بالمخاطب وقصد الخير له» «شرح ثلاثة الأصول» (ص ١٩).

الدروس والمقالات والكتب والرسائل، وهي مفتاح يُبدأ به طلباً لعون الله ﷻ وتوفيقه وتسديده.

فقولك: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» هذه كلمة استعانة؛ تبدأ كلامك أو كتابك أو دخولك أو خروجك أو غير ذلك مما بسملت لأجله، تبدؤه بالبسملة طالباً بذلك عون الله ﷻ، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: الباء في (بِسْمِ اللَّهِ) باء الاستعانة؛ أي: أبدأ مستعيناً بالله، طالباً عونه ﷻ، متمنياً وطالباً البركة بذكر اسمه ﷻ.

وقولك: (بسم الله) الجار والمجرور هنا متعلق بمحذوف مقدر، يقدر له فعل بحسب حال الفاعل، إن كان خروجا فيقدر: أخرج باسم الله، وإن كان دخولا: أدخل بسم الله، وإن كان كتابة: أكتب بسم الله، وإن كان قراءة: أقرأ بسم الله. وفي البسملة: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» اجتمعت ثلاثة أسماء حسنى لله ﷻ: أولها اسمه ﷻ (الله): ومعناه كما قال ابن عباس ﷺ: «الله: ذو الألوهية، والعبودية على خلقه أجمعين»^(١).

فاسمه ﷻ (الله) يدل على أوصاف الكمال ونعوت الجلال وأوصاف العظمة، التي استحق بها -ﷻ- أن يؤله وأن يُعبد وأن يُخضع له ويُذل -ﷻ-.

ودال أيضا على العبودية التي هي وصف العبد، وأن الواجب على العبد أن

يكون عبداً للإله، ذليلاً له، خاضعاً لجناحه، منكسراً بين يديه، قائماً بطاعته وأمره - ﷺ -، محققاً العبودية التي خُلق لأجلها وأوجد لتحقيقها.

و(الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ): اسمان دالّان على ثبوت الرحمة صفةً لله ﷻ؛ واسمه - ﷻ - (الرَّحْمَنُ) يدل على صفة الرحمة القائمة به سبحانه.

واسمه (الرَّحِيمُ): دال على تعلقها بالمرحومين، كما قال - ﷻ -: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣].

فهذه ثلاثة أسماء عظيمة جاءت في البسملة، وبدأ بها - رحمه الله تعالى - مؤلفه تأسيساً بكتاب الله ﷻ، وتأسيساً بنينا ﷺ في مكاتباته ومُراسلاته - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، وتأسيساً بأئمة المسلمين وعلماء الإسلام في أول الزمان وآخره. قال ﷺ: «أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ (أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ) أي: أطلب منه ﷻ.

(الكريم): اسم من أسماء الله - ﷻ - وهو دال على صفة الكرم؛ وهذه الصفة تعني اجتماع صفات الخير وكوامل الصفات وجوامع النعوت.

فهو سبحانه كثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم في آيات عديدة، ولهذا؛ فإن هذا الاسم من الأسماء التي تدل على أوصاف عظيمة لا على معنى مفرد، فمن الأسماء الدالة على أوصاف عظيمة ونعوت جليلة كثيرة، ثابتة للرب الكريم - ﷻ -^(١).

(١) انظر «فقه أسماء الله الحسنى» (ص ٢٢١)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

قال: «أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

(رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ): ذكر هنا ربوبية الله ﷻ، والربوبية: هي المُلْك والخلق والتصرف والتدبير في هذه الكائنات.

وخصّ بالذكر هنا العرش -ربوبية الله ﷻ للعرش- لأنه أعظم المخلوقات وأكبرها، والله ﷻ وصف عرشه في القرآن الكريم بالعظمة والكرم والمجد، وجاءت أيضاً أوصاف كثيرة له في سنة النبي الكريم ﷺ، فذكر المصنف -رحمه الله تعالى- هنا ربوبية الله ﷻ للعرش، وخصّه بالذكر لأنه أكبر المخلوقات وأعظمها.

ويأتي في بعض الأذكار والدعوات الثابتة عن النبي ﷺ ذكر ربوبية الله للعرش، ويخصّه ﷻ بالذكر، كما في الذكر الذي يقال عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(١).

وكما أيضاً في الدعاء الذي يقال عند النوم: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ...»^(٢) إلى آخر الدعاء، فيأتي مثل ذلك في دعوات النبي الكريم ﷺ.

والعرش مخلوق من مخلوقات الله -ﷻ- العظيمة، وهو أكبر المخلوقات

(١) رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٠٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣).

وأعظمها، ولهذا لما أراد ﷻ في تسيحه لله أن يذكر أثقل الأوزان ذكر العرش، فقال ﷻ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»^(١).

ذكر ﷻ زينة العرش؛ لأن العرش أثقل المخلوقات وأكبرها وأعظمها، وهو مخلوق لله ﷻ، خلقه سُبْحَانَهُ، وأوجده من العدم، وشاء ﷻ أن يستوي عليه، أي يعلو ويرتفع عليه علوًا وارتفاعًا يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه، كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه في مواضع من القرآن في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وكم هو جميل للمؤمن في دعائه لله - ﷻ - ومناجاته له، أن يذكر عظمة ربه - ﷻ - وكماله وكبريائه، وعندما تناجي الله ﷻ وتدعوه متذكرًا ربوبيته ولا سيما ربوبيته - ﷻ - للعرش العظيم، وتذكر عظمة هذا المخلوق وكبره وضالته المخلوقات الأخرى بالنسبة إليه، مما يُعينك على ذكر عظمة الله - ﷻ - وكبريائه. وأن هذا الكون الذي تحت العرش ودونه كله مسخر ومدبّر لله ﷻ، يصرفه كيف يشاء ويقضي فيه بما يريد، لا رادّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، وهو ﷻ فوق عرشه المجيد، عليّ عليه، يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يُحيي ويُميت، ويُعزّز ويُذل، ويُغني ويُقني، ويُضحك ويُبكي، ويُصِح ويُمِرِّض.. إلى غير ذلك من

الأمر التي هي تصرفه وتديره لمملكته ﷻ، لا شريك له في التدبير ولا شريك له في التسخير والقضاء، الأمر أمره، والقضاء قضاؤه، والحكم حكمه - ﷻ -.

فيذكر العبد عظمة الله وجلاله وكماله وربوبيته، ويجعل ذلك وسيلة له إلى الله ﷻ بين يدي دعائه في مناجاته لله، ومنااداته له - ﷻ -.

ولهذا قال - ﷻ -: «أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: (الْعَظِيمُ) أَنْ الْمُرَادَ بِالْعَظِيمِ صِفَةُ اللَّهِ ﷻ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِلْعَرْشِ، وَكُلُّ مِنْهُمَا حَقٌّ؛ فَاللَّهُ ﷻ مِنْ أَسْمَاءِ الْحُسْنَى (الْعَظِيمُ)، وَقَدْ خُتِمَتْ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَهِيَ «آيَةُ الْكَرْسِيِّ» بِهَذَا الْاسْمِ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فَالْعَظِيمُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَالْعَظِيمُ أَيْضًا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْعَرْشِ، فَيَحْتَمِلُ هَذَا وَيَحْتَمِلُ ذَاكَ.

«أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»: يَكُونُ الْعَظِيمُ صِفَةً لِلَّهِ ﷻ.

و «أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»: يَكُونُ الْعَظِيمُ بِهَذَا صِفَةً لِلْعَرْشِ.

قال: «أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ وَمَا قَبْلَهُ وَسِيلَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ: الْمَطْلُوبُ قَالَ: «أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، أَيُّ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لَكَ، فِي دُنْيَاكَ وَأُخْرَاكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا: أَيُّ بِحَفْظِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ وَعَوْنِهِ لَكَ عَلَى طَاعَتِهِ وَإِخْرَاجِهِ لَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَتَبْصِيرِكَ فِي دِينِكَ وَفِي الْحَقِّ الَّذِي خُلِقْتَ لِأَجْلِهِ وَأَوْجَدْتَ لِتَحْقِيقِهِ، وَأَنْ يُثَبِّتَكَ عَلَى هَذَا الْحَقِّ، وَأَنْ يَعِيذكَ مِنَ الضَّلَالِ وَسَبْلِ الْغَوَايَةِ، كُلُّ ذَلِكَ يَتَنَاوَلُهُ قَوْلُهُ: «أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا»؛ فَتَوَلَّى

الله ﷻ لعبده في الدنيا بحفظه في هذه الدنيا من مضلات الفتن وتثبته لعبده على الاستقامة والحق والهدى وعلى صراط الله المستقيم إلى أن يتوفاه ﷻ وهو عنه راض.

قال: «وَالْآخِرَةُ»؛ وتولي الله ﷻ لعبده في الآخرة: يكون بحفظه من أهوالها وشدائدها، ويكون بإنقاذه وإنجائه من النار ومن دخولها، وتوفيقه له بدخول الجنة والفوز بنعيمها، وأن يكرمه ﷻ بأعظم نعمة وأجل منة وهي أن يرى الله ﷻ؛ وهي أكبر النعم وأعظم المنن.

فكل ذلك داخل في قوله -رحمه الله تعالى-: «وَالْآخِرَةُ»، أي أن يتولاك ﷻ في الآخرة؛ بأن يكون ولياً لك، بالحفظ والتوفيق والتسديد والعون.. إلى غير ذلك.

قال: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيَّمَا كُنْتَ»؛ وهذه دعوة من أعظم الدعوات وأجلها وأفخمها وأكبرها، قد قال الله تعالى في ذكر نبيه عيسى ﷺ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]، ولا يكون الإنسان مباركا أينما كان إلا إذا كان في مجالسه كلها صالحا مصلحا، صالحا في نفسه ليس منه شر ولا أذى ولا إفساد ولا نحو ذلك، وأن يكون مصلحا بحيث أنه في كل مجلس من مجالسه يُسمع منه الخير، وتُسمع منه الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، والتنبيه النافع، ونحو ذلك.

ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحه لكل من اجتمع به»^(١).

وبهذا يكون مباركا أينما كان، أي في أي مكان حلّ وفي أي موضع نزل، فهو أينما كان يُتّفع به، مثله كمثّل الغيث أينما حلّ نفع.

قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، وهذا يتناول أن يكون العبد مباركا أيضا في نفسه، في ماله، وورقه، وعمله، وبيته، وحاله، وشؤونه.

قال: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ»؛ دعا بهذه الأمور الثلاثة العظيمة التي جمعت الخير كله والسعادة برمتها^(٢).

ولهذا قال - رحمه الله - في خاتمة هذه الدعوة مُبينًا مكانتها وعظم شأنها، قال: «فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ»؛ أي أن السعادة اجتمعت فيها، وتحققت، ونالها بأعلى صورها وأبهى حللها.

والسعادة من أعظم المطالب التي يسعى الناس لتحقيقها، وتعقد المؤتمرات والندوات والمجالس وتكتب المؤلفات لطلب السعادة، وليس أحد من الناس إلا وهو يريد لنفسه السعادة، حتى الذين يباشرون الفساد ويتعاطون أمور الانحراف يظنون أنها تجلب لهم السعادة وأنها تتحقق لهم بتلك المسالك التي هي في الحقيقة مهالك لهم ومضار عليهم في دنياهم وأخراهم.

فالسعادة لا تُنال إلا بتحقيق هذه الأوصاف الثلاثة التي ذكرها - رحمه الله

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص ٥).

(٢) انظر «الوابل الصيب» (ص ١١).

تعالى - في هذه الدعوة المباركة العظيمة: الشكر والصبر والاستغفار، فهذه الأمور إذا اجتمعت في العبد اجتمعت فيه السعادة وتحققت له.

قال: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ»، ولو تأملت تجد أن أحوال العبد في هذه الحياة الدنيا لا تخرج عن هذه الأمور الثلاثة؛ إما أن يكون مبتلى بمصيبة، أو أن يكون ممتنٌ عليه بنعمة ومنة، أو أن يكون واقعا في ذنب.

والواجب على العبد أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على أن يكون عند البلاء من الصابرين، وعند النعم من الشاكرين للمنع ﷻ، وعند وقوعه في الذنوب من المستغفرين، فإذا كان كذلك جمع لنفسه الخير كله.

فقد قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

فالمؤمن عند المصيبة صابر وعند النعمة شاكر، في المصائب يفوز بثواب الصابرين، وفي النعم يفوز بثواب الشاكرين، فهو فائز في كلا الحالين، في مصائبه فائز وفي نعمه فائز، في مصائبه فائز بثواب الصابرين وفي نعمه فائز بثواب الشاكرين.

والأمر الثالث قال: «وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ»؛ أي إذا وقع في الذنب بادر إلى الاستغفار، ويعلم أن الله ﷻ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات، ولا يتعاضمه

— ﷺ — ذنب أن يغفره، ولهذا لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه، فإنه يبادر بالأوبة والرجوع إلى الله ﷻ.

وقد ذكر النبي ﷺ قصة العبد الذي أذنب ذنبا، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي.

فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَأَعْمَلَ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»^(١)،

قوله ﷻ: «اعمل ما شئت فقد غفرت لك»؛ أي ما دمت على هذه الحال؛ ملازماً للاستغفار، مجاهدا نفسك على أن لا تقع في المعصية وأن لا تقع في الخطيئة، وإن بدر منك زلل أو وقعت في خطأ بادرت إلى الاستغفار، ما دمت على هذه الحال فأنت مغفور لك.

وقد قال ﷻ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(٢)؛ ابن آدم ليس معصوما، ابن آدم خطاء، لكن له رب يغفر — ﷻ — ويتجاوز ويصفح ﷻ.

ولهذا؛ إذا وقع العبد في ذنب جرّته إليه نفسه الضعيفة ودعاه إليه الشيطان، أو

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٣٩).

جَرَّهٖ إِلَيْهِ قِرْنَاءُ السُّوءِ وَخُلُطَاءُ الْفَسَادِ أَوْ أَغْوَتْهُ نَفْسُهُ لِلْوُقُوعِ فِيهِ، عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ فُورًا أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر]، فلا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر ويتجاوز ويصفح - ﷺ -، وأما ابن آدم فضعيف وكثير الخطأ والزلل، ودواعي الخطأ كثيرة جدا، وقد قيل: «لا تعجب ممن هلك كيف هلك؛ ولكن اعجب ممن نجا كيف نجا»^(١).

الأمر التي تجرُّ الإنسان إلى الخطأ كثيرة جدا، لكن لا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر، لهذا لا يزال العبد يجاهد نفسه على البعد عن الذنوب وعدم الوقوع فيها، وإذا انفلتت نفسه ووقع في زلة أو وقع في خطيئة بادر إلى التوبة والاستغفار.

ومن عظيم حب الله ﷻ للاستغفار والمستغفرين ما ثبت عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٢).

ولهذا؛ ربما كانت بعض الذنوب على الإنسان خير له، لأنها تفتح عليه باب ندم عظيم وباب استغفار كثير، ربما بدون هذا الذنب يقل استغفاره، لكنه يقع في ذنب وزلة ثم يقع في قلبه حياء عظيم من الله ﷻ ومراقبة لله وألم وندم على

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٩).

ما وقع فيه من ذنب وخطيئة فيكثر على لسانه الاستغفار كثرة ربما لا تكثر على لسانه لولا أنه ما وقع في هذا الذنب الذي ابتلي به، ولهذا لا يزال العبد بخير مادام أنه إذا أذنب استغفر^(١).

ولهذا؛ قال ﷺ: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ».

الذنب في ابن آدم لا بد منه، أي لا بد أن يقع فيه، وذنوب الإنسان قد تكون كثيرة، ولهذا ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار.

وقد كان سيد ولد آدم أكثر الناس استغفاراً وليس في عباد الله أكثر استغفاراً من

(١) قال الإمام ابن القيم ﷺ: «فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار، والذل والافتقار، والاستعانة به وصدق اللجأ إليه، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه، بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته حتى يقول عدو الله: (يا ليتني تركته ولم أوقعه).

وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقاً وجلاً باكياً نادماً مستحياً من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه؛ حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمين بها على ربه ويتكبر بها، ويرى نفسه ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه؛ فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه» (الوابل الصيب

رسول الله ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه مع ذلك كان أكثر الناس استغفارا، حتى قال أبو هريرة ؓ: «ما رأيت أحدا أكثر من رسول الله ﷺ يقول: أستغفر الله وأتوب إليه»^(١)، وقد رأى أبو هريرة عبَّاد الصحابة وخيار الأمة وأكثر الناس استغفارا وما رأى في ذلك الجيل أكثر من النبي ﷺ ملازمة للاستغفار.

فكان ﷺ ملازماً للاستغفار في حياته كلها، حتى إنه ختم حياته كلها بالاستغفار؛ كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة ؓ أنها قالت سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - وَهُوَ مُسْتَنْدٌ إِلَيَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَالْحَقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(٢).

الشاهد أن العبد تتحقق له السعادة إذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث العظيمة، ألا وهي: الصبر والشكر والاستغفار.

ولعل في هذه الدعوة العظيمة المباركة التي دعا بها المصنف - ﷺ - أن تكون فاتحة باب لك أن تعتني بهذه الأمور الثلاثة التي هي عنوان السعادة: الصبر والشكر والاستغفار، بحيث تكون مجاهدا لنفسك على تحقيقها؛ وإذا كان صبرك ضعيفا فاجتهد في تنميته واسأل الله ﷻ المعونة على ذلك، وإذا كان شكرك قليلا فاجتهد أيضا على تكثيره وتقويته واسأل الله ﷻ المعونة على ذلك،

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٨٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٢٨)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٩٢٤).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٤)، ومسلم (٢١٩١).

قال: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، لا تكون شاكرًا لله ﷻ إلا إذا أعانك الله ويسر لك، وأن تعتني بالاستغفار وأن تكثر منه، وأن يكون استغفارك في مجالسك وفي تنقلاتك وفي حركاتك استغفراً كثيراً. فهذه كما أنها دعوة فهي لفئة من المصنف - ﷻ - إلى العناية بهذه الأمور الثلاثة التي هي أبواب السعادة.

وتكون عنايتك بها من جهتين:

الجهة الأولى: أن تدعو لنفسك بهذا الدعاء أن يسر الله لك - ﷻ - هذه الأمور الثلاثة، التي هي عنوان السعادة.

والأمر الثاني: أن تُتبع الدعاء بفعل السبب؛ وذلك بأن تجاهد نفسك على أن تكون من الذين إذا ابتلوا صبروا، وإذا أنعم عليهم شكروا، وإذا أذنبوا استغفروا.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«إِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ؛ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ؛ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَخْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ، الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ..

[الشرح]

قال -رحمه الله تعالى-: «إِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ».

(إعلم): هذه الكلمة يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة والأمور الكبار، وقد تكرر مجيئها في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في التنبيه على الأمور العظام، ومن ذلكم

قوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فيؤتى بها لشد الانتباه ولفته واستدعاء القلوب للإصغاء ووعي هذه الأمور العظيمة الكبيرة.

قال: «إِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ»، وهنا دعا الإمام ﷺ بهذه الدعوة العظيمة بعد أن دعا إلى الانتباه لما سيقال ولما سيبيته -رحمه الله تعالى-.

(أَرْشَدَكَ): أي جعلك من أهل الرشاد، الذي هو ضد الغواية، وقد قال الله ﷻ في وصف نبيه ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، والضلال ضده الهداية، والغواية ضد الرشاد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ أي أنه سالم من الضلال والغواية، وذلك بأنه اجتمع له ﷻ كمال العلم النافع، والعمل الصالح.

وقد قال نبينا ﷺ في ذكر الخلفاء الراشدين: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ»^(١)، جمع لهم بين هاتين الخصلتين، وهما تعيان صلاح علم الإنسان وصلاح عمله.

الهداية: صلاح العلم.

والرشاد: صلاح العمل.

قال: «أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِبَطَاعَتِهِ» أي: جعلك الله من أهل الرشاد الذين هم عالمون بالطاعة، عاملون بها، محافظون عليها.

«أَنَّ الْخَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»، هذا الأمر

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»

(١) «لسان العرب» (٥٦/٩)، «معجم مقاييس اللغة» (١١٠/٢).

الضلال إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحق، وعن الغواية إلى الرشاد، هذا هو الحنيف^(١).

قال: «الْحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»، وقوله أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، هذا هو التوحيد الذي خلقنا لأجله وأوجدنا لتحقيقه.

ولهذا قال المصنف - رحمه الله -: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]»، فالتوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه هو أن يعبدوا الله ﷻ مخلصين له الدين.

وهذا يتطلب منك أن تعرف:

أولاً: العبادة ما هي، وما حقيقتها، وما أفرادها؟

ويتطلب منك ثانياً: أن تجعلها كلها لله، ولا تجعل لأحد منها شيئاً.

يتطلب منك أن تعرف العبادة التي خلقت لأجلها وأوجدت لتحقيقها، ويتطلب منك أن تجعل العبادة كلها لله ﷻ، لا تجعل لأحد أيّاً كان ومهما كان حظاً ولا نصيباً، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما، فالعبادة حق لله ﷻ وحده.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَالْحَنِيفِيَّةُ هِيَ الْإِسْتِقَامَةُ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُبَّ تَعَالَى وَالدُّلَّ لَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا لَا فِي الْحُبِّ وَلَا فِي الدُّلِّ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَةَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْحُبِّ بِغَايَةِ الدُّلِّ؛ وَذَلِكَ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، وَكَذَلِكَ الْخَشْيَةُ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ» «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٦٦).

قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا»، ومعنى (مخلصًا): أي أن تكون عبادتك لله خالصة، ومعنى خالصة: أي صافية نقية^(١)، ليس فيها شائبة شرك ولا رياء ولا سمعة، ولا نحو ذلك، بل هي صافية لله ﷻ.

وإذا أردت أن تعرف معنى الإخلاص في لغة العرب فاقراً قول الله تعالى في ﴿سورة النحل﴾، والتي تسمى كذلك ﴿سورة النعم﴾، اقرأ قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، (خالصًا): أي صافيًا نقيًا، هذا معنى الخالص.

وقد وصف ربنا ﷻ اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام بأنه خالص في صفائه ونقاؤه، وذكر ﷻ أنه أخرجه من بين فرث ودم، لكنه خرج خالصاً لا ترى فيه نقطة دم ولا قطعة فرث، مع أنه خرج من بينهما، ويخرج أيضاً سائغاً للشاربين، مع أنهم علموا مخرجه؛ لكنه سائغ لهم، أي يشربونه بتلذذ وهناءة وتطعم له وحباً له، فهذه الآية تبين لك معنى الخالص في لغة العرب.

وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، أي: الصافي النقي.

ولهذا؛ العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلا إذا كانت لله خالصة، ومعنى خالصة أي صافية نقية، لم يُرد بها إلا الله ﷻ.

ولهذا؛ إذا خالط العبادة نية أخرى فإنها تخرج عن الإخلاص، وإذا خرجت

(١) قال ابن فارس ﷻ: «الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطَّرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه. يقولون: خلَّصْتُهُ من كذا وخلص هو» «المقاييس في اللغة» (٢/ ٢٠٨).

عن الإخلاص لم تُقبل، ولهذا قال ربنا ﷺ في الحديث القدسي: «قَالَ اللَّهُ ﷻ أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ»^(١)، أي أنه ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان صافيا نقيًا خالصًا لم يُرد به إلا الله ﷻ.

قال: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ -الخلق فعله ﷻ- قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾ أي لم يوجد الثقيلين من العدم إلا لغاية بينها ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فمعنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحدون في العبادة، ليخصوني بالعبادة، لا يعبدوا معي غيري، ليفردوني في العبادة^(٢).

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة فعل العبد، والله ﷻ جعل في العبد مشيئة، وهده النجدين؛ طريق الحق وطريق الضلال، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، فقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقوموا بعبادتي، هذا الذي خلقهم لأجله.

لكن هل كلهم فعل ذلك الذي خُلقوا له؟

الجواب: لا؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

قال: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/٥٥).

مَعَ التَّوْحِيدِ؛ وهذا أصل لا بد أن يعرفه كل مسلم، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه: «اعْبُدُوا اللَّهَ أَيُّ: وَحَدُّوا رَبُّكُمْ»^(١)، لأن العبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد. والعبادة إذا دخلها إرادة غير الله وإشراك غيره - رضي الله عنه - معه في العبادة فلا تكون عبادة التي خلق الله الخلق لأجلها، قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، هذه العبادة التي خلق الله ﷻ الخلق لأجلها هل هي تلك الأعمال التي يمارسها كثير من الناس؛ يسألون الله ويسألون الأحجار، يعبدون الله ويعبدون القباب والأحجار والأشجار وغيرها، هل هذا الذي خلُقوا لأجله؟ هل هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟ حاشا وكلاً، هذا ليس عبادة وإنما هو شرك بالله والعياذ بالله.

ونظر - رضي الله عنه - لذلك بمثال يوضح ذلك قال: «فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ»؛ لو أن إنساناً صلى ركع وسجد وأتى بأعمال الصلاة من أولها إلى آخرها وهو على غير طهارة، هل يقال له صليت أو يقال له لم تصل؟

يقال له: ارجع فصل فإنك لم تصل، أي لم تصل الصلاة التي أمرت بها وطلبت منك، فالذي يصلي بغير طهارة كأنه ما صلى، فصلاته وجودها وعدمها سواء، لأن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع الطهارة^(٢)، والعبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا كانت العبادة قائمة على التوحيد كانت عبادة صحيحة مقبولة.

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٤٥١).

(٢) لأن الطهارة من «شروط الصلاة».

وإذا كانت العبادة ولو كانت كثيرة أمضى فيها الإنسان حياته ودهره إذا لم تكن قائمة على التوحيد، فإنها كلها تذهب سدى وتضيع هباء كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف].

فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يضبطه؛ العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلا بالطهارة، فمن عبد الله بغير التوحيد فهو مشرك بالله، لا يقبل الله عبادته، ومن عبد الله ﷻ بالصلاة من غير طهارة لم يقبل الله منه صلاته، وجود صلاته وعدمها سواء.

فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يضبطه وأن يعتني به؛ وهذا يعني أن تعرف العبادة ما هي.

والأمر الثاني: أن تجعلها كلها لله؛ لأن الإنسان لو جعل لغير الله ﷻ شيئاً من

الشروط جمع شرط، والشرط هو الذي يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود، والمعنى أنه يلزم من كون الإنسان غير متطهر ألا تصح له صلاة، لأن شرط الصلاة الطهارة، لقوله ﷻ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» رواه البخاري (٦٩٥٤) ومسلم (٥٣٧) عن أبي هريرة.

وقد يتوضأ الإنسان ثم يحدث دون أن يصلي صلاة بذلك الوضوء، فلا يلزم من وجود الطهارة وجود الصلاة «شرح شروط الصلاة وأركانها وواجباتها» للشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (ص ٤)، للشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله.

العبادة ولو شيئاً قليلاً أبطل دينه كله، لأن العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا جُعل مع الله ﷻ شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها أبطل العبادة كلها. والشرك في العبادة مثل السّم في الطعام، إذا وُضع السّم في بعض الطعام أفسد الطعام كله وأتلفه أجمعه، ومن الذي يقبل طعاماً وُضع في بعضه سمّ؟

العبادة لا تكون إلا مع التوحيد؛ بأن يكون العبد موحداً لله ﷻ، مخلصاً في عبادته كلها، وهذا يعني أن تكون صلاتك لله، حجك لله، ذبحك لله، نذرك لله، دعاؤك تتوجه به إلى الله، توكلك على الله، رجاؤك من الله، خوفك من الله، كل العبادات لا تصرف شيئاً منها إلا لله ﷻ، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

قال: «فَإِذَا دَخَلَ الشُّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ»؛ الشرك إذا دخل في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة، الإنسان إذا كان على طهارة، توضأ وأصبح طاهراً ثم أحدث فلا تبقى طهارته.

وكذلك الشرك إذا دخل في العبادة أفسدها مثل الحدث إذا دخل على الطاهر فإنه يفسد طهارته ويحتاج أن يتطهر من جديد.

وهذا الشبه بين الطهارة من الحدث والطهارة من الشرك جاء الإشارة إليه في قوله ﷻ: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ قيل في معناها: طهر نفسك من الشرك ومما ينقض الدين ويفسد الإيمان، وقيل في معناه: طهر ثيابك من النجاسة الحسية.

﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾: يتناول الطهارة المعنوية والطهارة الحسية: ﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾ [المدرثر]؛ أي الأصنام، وعبادة غير الله ﷻ.

قال: «فَإِذَا دَخَلَ الشُّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ»
 المثال الذي ذكره المصنف مثال يُجَلِّي هذا الأمر تجلية واضحة، فالذي يعرف
 مكانة الطهارة في الصلاة لا يُقَدِّم على إقامتها وعليه الحدث، وهذا يعرفه عامة
 المصلين، وأن صلاتهم لا تُقبل إلا بالطهارة، فمن عرف ذلك وفي أثناء توجهه
 للمسجد ثم أحدث في الطريق فإنه لا يستمر في سيره للمسجد وإنما يبحث عن
 مكان ليتطهر ثم يدخل ليصلي طاهرا، وهذا أمر معروف.

الأمر تماما في باب العبادة، العبادة لا تكون عبادة مقبولة إلا إذا خلصت
 ونُقِيَّتْ وسَلِمَتْ من الشرك، فإذا دخل عليها في العبادة أفسدها وأتلفها.
 قال: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشُّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَخْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ
 صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ»؛ أي معرفة
 الشرك فإنه مهم جدا لأنه إذا دخل في العبادة جعلها حابطة باطلة غير مقبولة،
 إذا يجب علينا أن نعرفه الشرك من أجل أن تنقي عبادتك وتصفيها لله -ﷻ-،
 وتجعلها خالصة له ليس فيها شيء من الشرك، فإذا يجب على كل مسلم أن
 يعرف الشرك من أجل أن يحذره.

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوْقِيهِ
 فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

لكن إذا لم يعرف الإنسان الشرك وحقيقته ربما دخل الشرك في جوانب من عبادته فأفسدها وهو في قرارة نفسه لا يزال يظن أنه من أهل التوحيد ومن أهل لا إله إلا الله؛ بينما قد أدخل على نفسه أعمالاً من الشرك تفسد عمله وعبادته وتحبط دينه من حيث لا يشعر.

وتأمل دعوة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم].

أي أبعدني وبني من عبادة الأصنام، واجعلني وإياهم في جانب بعيد عن عبادتها والإمام بها، وفي هذا الخوف من عبادة الأصنام والحذر الشديد من ذلك، وليتأمل العاقل ذلك فإن هذا مما يخيف العبد من الشرك ويوجب للقلب الحي الخوف منه، فإذا كان إبراهيم إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده وابتلي بكلمات فأتهمهن وكسر الأصنام بيده يخاف أن يقع في الشرك، ويسأل ربه أن يجنبه بنيه عبادة الأصنام، فما الظن بغيره؟! وكيف يأمن الوقوع فيه من هو دونه بمراتب.

روى الإمام الطبري في تفسيره عن إبراهيم التيمي أنه كان يقص ويقول في قصصه: «ومن يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم]»^(١).

قال: «فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها، وأحبط العمل، وصار صاحبُه من الخالدين في النار»، قوله: «وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ» يدل عليه قول الله في

(١) «جامع البيان في تأويل القرآن» (١٧/١٧)، وانظر فقه الأدعية والأذكار (٤/٣٧١).

القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الزمر]، فقلوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي وحده جل وعلا.

فالشرك إذا دخل العبادة أفسدها وأحبط العمل، وصار صاحبه من المخلدين في النار، والعياذ بالله، لقلوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

«عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ» أي معرفة الشرك لتوقيه ومعرفة التوحيد لتحقيقه.

قال: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ» وانظر هذا الوصف العجيب للشرك، الشرك: شبكة، والشبكة لها خيوط كثيرة ممتدة الأطراف هنا وهناك وإذا لامس الإنسان شيئاً من خيوط هذه الشبكة ابتلي بها وأمسكته وصار من أهلها.

فالشرك شبكة له خيوط، وله فروع كثيرة، وأنواع عديدة، وأبواب متعددة، فإذا عرفت أن الشرك أخطر شيء وأنه إذا دخل العبادة أفسدها أو أبطلها، وجب عليك أن تكون على معرفة به حتى تكون منه على حذرٍ وتوقٍ وبُعدٍ عنه.

وأيضاً هنا يفيدك هذا التعبير من المصنف بقوله: «هَذِهِ الشَّبَكَةُ» أن الشرك له مجالات كثيرة وجوانب عديدة من خلالها يُصطاد الناس ويخرجون عن الإخلاص والصفاء في العبادة لله ﷻ إلى الوقوع في شبكة الشرك، والعياذ بالله.

قوله - ﷺ -: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ وَهِيَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ»، يتطلب منك - كما قدمت وأعيد ذلك لأهميته -:

- أن تعرف الشرك.

- وأن تكون منه على حذر.

- وأن تسأل الله ﷻ أن يعيدك منه.

قد جاء في دعاء عظيم، علّمه النبي ﷺ أصحابه، عندما قال لهم: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشَّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ».

فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»^(١)، فيدعو الإنسان ربه ﷻ أن يخلصه من الشرك، ويعرف الشرك، ويكون منه على حذر.

قال: «وَهِيَ الشَّرْكُ بِاللَّهِ، الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَبِغَيْرِ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿﴾» وهذه الآية وردت في موضعين من «سورة النساء» [٤٨] و [١١٦]، وقد توعّد - ﷻ - المشرك الذي يموت على الشرك ويلقى الله ﷻ مشركاً بأنه لا يغفر له، بل يعذبه في النار ويخلده فيها أبداً الآباد، ولا مطمع له في رحمة الله أبداً إذا مات على الشرك بالله - ﷻ -، ولهذا قال الله تعالى:

(١) رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، فالكافر المشرك يُدخل يوم القيامة النار ويُخلد فيها أبد الآباد، ولا يُخفف عنه من عذابها، بل إنه يزيد، ولهذا قال ﷺ في ﴿سورة النبأ﴾: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ولهذا قال بعض المفسرين إن أشد آية على أهل النار هي هذه الآية؛ لأنهم عندما يدخلون النار لا يزال عندهم بعض الآمال، مثل يعودون إلى الدنيا مرة ثانية: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، أو أن يُقضى عليهم فيموتوا ويسلموا من هذا العذاب ومن هذه الشدائد، ومن الآمال أن يُخفف عنهم العذاب ولو قليلا، ثم يأتيهم هذا الأمر الذي يقطع عليهم كل الآمال: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، أي لن تنالوا في النار إلا زيادة العذاب، لا ينقطع ولا يُخفف ولا يُقضى على أهلها، بل لا يزالون في العذاب أبد الآباد مخلدين في نار جهنم - أجارنا الله وأجاركم ووقانا ووقاكم -.

فإذا يجب على العبد أن يكون على غاية الحذر من هذا الشرك الذي هو أخطر وأعظم ما نهى الله ﷻ عباده عنه.

ولهذا أول أمر يصادفك في القرآن هو الأمر بالعبادة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وأول نهى يصادفك في القرآن النهي عن الشرك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]: هذا أول شيء نهى الله عنه في القرآن الكريم.

ثم قال - ﷻ -: «وَذَٰلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ»؛ وانتبه

لقوله - ﷺ -: «ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ» لتعلم من خلال ذلك أن الرجل -رحمة الله عليه- لا يأتي بشيء من نفسه، لا يتكلف من نفسه؛ وإنما يجمع للناس ما جاء في القرآن، وما جاء في سنة النبي الكريم ﷺ.

قال: «وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَائِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ» ثم ذكرها قاعدة قاعدة، ذاكرًا مع كل قاعدة دليلها وشاهدها من كتاب الله ﷻ.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

القاعدة الأولى:

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَدْخُلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ.
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

[الشرح]

بدأ المؤلف -رحمه الله تعالى- هذه القواعد بقوله: «وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ» يُبَيِّنُ لَنَا الْمَنْهَجَ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ -رحمه الله- في بيان العلم وتقرير الحق والهدى، فهو في كل ما يبيِّنه ويقرِّره يذكر شواهد ذلك من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، لا يأتي بشيء من قبل نفسه، ولا يبيِّن حُكْمًا على الهوى أو على التجربة أو على الذوق أو نحو ذلك من المسالك التي يسلكها كثير من الناس في الاستدلال لما يقومون به من عبادات وأعمال.

وهذه الطريقة هي الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها كل مسلم في عقيدته ودينه، إذ كيف تُعرف العقيدة الصحيحة والإيمان القويم بغير الاعتماد على كلام الله وكلام رسوله ﷺ؟!

وكما قال أهل العلم: «كيف يُرام الوصول إلى علم الأصول بغير معرفة ما جاء به الرسول ﷺ؟»^(١).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كثيراً ما يقول: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ»^(٢).

فهذه جادة مباركة وطريق قويمه كان عليها الإمام المجدد - رحمه الله تعالى -، وكان عليها أئمة أهل العلم من قبله وكذا من بعده، يقيمون أمور الدين على قال الله قال رسوله ﷺ.

ولهذا قال لك هنا: «وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ»، ثم شرع في ذكرها قاعدة تلوى الأخرى؛ بدأ بالقاعدة الأولى، فقال ﷺ: «أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقَرَّنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ».

وهذا أصلٌ عظيم وقاعدة مهمة جداً في هذا الباب؛ أن نعلم أن الكفار المشركين الذين ورد ذمُّهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقاتلهم النبي ﷺ واستباح أموالهم وقاتلهم - رحمه الله - كانوا مقرَّين بأن الخالق الرازق المُنعم هو الله ﷻ، ما كانوا يقولون إن الذي يخلق، أو الذي يرزق، أو الذي يعطي ويمنع هو الأصنام؛ بل يقولون: الخالق هو الله، الرازق الله، المُنعم الله، المدبر الله، كانوا يقولون ذلك ويقرُّون به، والله ﷻ بيَّن لنا ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة

(١) ذكره الإمام ابن أبي العز الحنفى ﷺ في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص: ١٨).

(٢) نقله عنه الإمام ابن القيم ﷺ في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

جدا، وأن المشركين الكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا مقرين بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله ﷻ ولم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، كما بين ذلك المصنف - رحمه الله -، قال: «لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ»؛ لأن الدخول في الإسلام لا يكون بمجرد الإقرار بربوبية الله فقط^(١)؛ بل لا بد مع من الإتيان بلازم هذا الإقرار، ألا وهو أن يُفرد ﷻ بالعبادة وأن يُخصَّ وحده ﷻ بالطاعة، وأن لا يُجعل معه شريك وأن يخلص الدين له ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وكما قال ﷻ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكما قال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وكما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وكما قال ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وكما قال ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وكما قال ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا.

(١) انظر كلام شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه «القول السديد في

الرد على من أنكر تقسيم التوحيد» (ص ٥٧)

فلا يكون المرء موحدًا لله ﷻ إلا إذا أخلص العبادة لله، إذ لا يكون موحدًا إلا إذا جاء بالتوحيد العملي الذي هو: إخلاص العبادة لله ﷻ وإفراده سبحانه بالعبادة دون سواه؛ بأن لا يدعو إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يصلي ويسجد ويركع إلا لله، ولا يذبح ولا ينذر إلا لله، ولا يتوكل ويرجو ويخاف إلا من الله، ولا يصرف شيئًا من العبادة إلا له ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام]؛ أي بهذا التوحيد وهذا الإخلاص لله ﷻ.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

ولمّا كانت هذه الرسالة رسالة مختصرة لا تحتمل الاستيعاب وبسط الدلائل والشواهد اكتفى بذكر دليل واحد من دلائل القرآن الكريم على أن الكفار المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا مقرّين بأن الخالق الرازق المنعم المتصرّف المدبر هو الله ﷻ.

فساق - ﷻ - ما جاء في ﴿سورة يونس﴾ قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ قل أيها النبي موجهًا الخطاب للمشركين الذين بُعثت فيهم قائلًا لهم: من يرزقكم؟ سلهم هذا السؤال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدِيرُ

الْأَمْرَ ﴿يونس: ٣١﴾، سل المشركين الذين يعبدون الأصنام والذين اتخذوا
الآلهة والأنداد وعبدوا مع الله ﷻ غيره، سلهم هذا السؤال: قل لهم من يرزقكم
من السماء والأرض؟ من الذي يمنُّ عليكم بالرزق من السماء؟ أي: بالأمطار
التي تنزل من السماء مُحَمَّلة بالخير والبركة والغيث للناس والعباد والماشية،
ومن الأرض بإخراج النباتات والزرع وأصناف النعم التي يمنُّ - ﷻ - بها
على عباده، ماذا يقولون؟ هل يقولون إن الذي يرزقنا من السماء والأرض هو
الأصنام؟ لا يقولون ذلك، بل يعتقدون أن الأصنام ليست خالقة ولا رازقة ولا
مدبرة ولا متصرفة.

سلهم أيضا: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾: من الذي بيده ملك السمع وملك
البصر وملك كل شيء؟ سيقولون: الله هو المالك للسمع والبصر والمالك لكل
شيء.

سلهم أيضا: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: من هو الذي
بيده الحياة والموت والتصريف والتدبير ويخرج الحي من الميت ويخرج
الميت من الحي؟ لا يقولون الأصنام، بل يقولون: الذي يفعل ذلك هو الله ﷻ،
الخالق لكل شيء، المتصرف في هذا الكون وحده - ﷻ -.

سلهم أيضا: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: أمور هذا الكون من إحياء وإماتة، وعطاء
ومنع، وخفض ورفع، وعز وذل، وغير ذلك من أنواع التدبيرات، من الذي يقوم
بذلك؟ لا يقولون الأصنام هي التي تدبر الأمر، بل يقولون: الله.
ولهذا قال ﷻ: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ هذا الجواب الذي يجيبون به.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي فسيقول المشركون الكفار إذا سألتهم هذه الأسئلة، فيجيبونك: الله ﷻ.

﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾؛ إذا قالوا الذي يخلق هذه الأشياء ويدبر هذه الأمور هو: الله، فقل لهم: ألا تتقون الله؟ لماذا تتخذون معه الأنداد وتتخذون معه الشركاء؟ وأنتم تقرُّون أنه لا خالق لكم غير الله، ولا مدبر للأمر غير الله، ولا مالك إلا الله، ألا تتقون الله، فتُفَرِّدونه بالتوحيد وتخصُّونه بالطاعة وتخلصون له الدين، وقد أقررتم أنه خالقكم ورازقكم والمدبر للأمور كلها؟ ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾؛ أي بترك الشرك والبعد عن الكفر وبالإخلاص لله ﷻ بالعبادة والتوحيد.

فهذه الآية ولها نظائر كثيرة جدا في كتاب الله تركها المصنف مراعاة للاختصار في هذه الرسالة، كلها تشهد وتدل على أن المشركين كانوا يُقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله ﷻ.

ويأتي هنا سؤال قرَّر من خلاله المصنف -رحمه الله ﷻ- هذه القاعدة: هل إقرار المشركين بأن الخالق الرازق المنعم المالك هو الله، هل هذا الإقرار أدخلهم في التوحيد والإسلام؟ هل كانوا بهذا الإقرار موحدين مسلمين؟ أم هم مع هذا الإقرار مشركون بالله كفار؟ وانظر الجواب على هذا السؤال في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

ما معنى قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾؟ أي خالقًا رازقًا مالكًا مدبرًا متصرفًا ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي إلا وهم مشركون معه غيره في العبادة، يقرُّون بأنه الخالق ولكن يدعون غيره، ويتوكلون على غيره، ويذبحون لغيره، ويصرفون

أنواعاً من العبادة لغيره، هذا هو معنى قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

وأيضاً قوله ﷻ في ﴿سورة البقرة﴾: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ ما معنى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ والخطاب للمشركين الذين اتخذوا الأنداد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، تعلمون ماذا؟ تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله، لا رازق لكم غير الله، لا مدبر للأمر غير الله، أنتم تعلمون ذلك، والشواهد على أنهم يعلمون ذلك ها هي أماننا من كتاب الله: من يملك السمع والأبصار؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يدبر الأمر؟ من يخرج الحي من الميت؟ كل ذلك يجيبون قائلين: الله.

إذا هم يعلمون أن الذي يخلق ويرزق ويُنعم ويدبر ويُحيي ويميت ويتصرف يعلمون أن الفاعل لذلك والموجد لذلك والخالق لذلك هو الله ﷻ، ليس له شريك في ذلك.

لكن هنا ينبغي أن نفهم من هذه القاعدة العظيمة التي ذكرها -رحمه الله تعالى- أن إقرار المرء بأن الخالق، الرازق، المنعم، المتصرف، هو الله ﷻ، هذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحداً لله ﷻ، بل لا يكون موحداً لله إلا إذا أتى بلازمه؛ ألا وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة وإخلاص الدين له، كما قال ربنا ﷺ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وكما قال ﷺ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

[الأنبياء: ٩٢]؛ أي عبدوا الرب الذي تفرّد بالخلق والرزق والملك والإحياء والتدبير والتصرف، أفردوه وحده - ﷻ - بالعبادة.

ولهذا كانت هذه الحقيقة التي قررها القرآن واهتدى إليها بعض المشركين كانت سبباً لهدايتهم وتركهم لعبادة الأوثان وتخلّصهم من عبادة الأصنام التي لا تملك شيئاً، لا ضرراً ولا عطاءً ولا نفعاً.

مثل قصة عمرو بن الجموح وكان سيداً في قومه: «وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرفهم، وكان قد اتخذ صنماً من خشب في داره يقال له مناة كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذة إلهاً يعظمه ويظهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة، ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكسا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيبه وظهره ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يوماً، فغسله وظهره وطيبه.

ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع، هذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر من عذر الناس وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى إذا وجده في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من [رجال] قومه فأسلم برحمة الله، وحسن إسلامه^(١).

يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَا نَنْقُوزُ﴾ أي: ألا تتقون الله؟ كيف تعبدون أحجارا أو أشجارا لا تملك لنفسها ضرا ولا منعا ولا عطاء ولا خفضا ولا رفعا، كيف تعبدون هذه الأشياء؟

ثم هنا يأتيك سؤال مهم لأنه سيأتي فيه قاعدة عند المصنف - ﷺ -، قاعدة مهمة، هل الشرك الذي حرّمه الله ﷻ هو عبادة الأحجار والأشجار فقط؟ أم عبادة كل شيء سوى الله؟ مثلا من عبد ملكا من الملائكة، هل يكون مشركا أو لا، من عبد نبيا من الأنبياء كعيسى عليه السلام أو غيره من الأنبياء، هل يكون بذلك مشركا؟ أم لا.

هذه مسألة مهمة، وسيأتي تقريرها وذكر الدلائل عليها من كتاب الله في قاعدة مهمة جدا عند المصنف - رحمه الله تعالى -.

إذا هذه القاعدة (القاعدة الأولى)، قرّر فيها - رحمه تعالى - أن إقرار العبد



بأنَّ الخالق الرَّازِقَ المُنعمَ المتصرفَ المدبرَ هو الله، هذا وحده لا يكفي لأن
يكون به موحِّدًا، بل لا بد مع ذلك أن يُقَرَّ وأن يأتي بلازم ذلك وهو توحيد الله
ﷻ بالعبادة وإخلاص الدين له ﷻ.



[المتن]

ثم قال المؤلف ﷺ:

القاعدة الثانية:

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ.
فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ
قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ:

١. شَفَاعَةُ مَنْفِيَّةٍ.

٢. وَشَفَاعَةُ مُثَبَّتَةٍ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطَلَّبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ
إِلَّا اللَّهُ؛ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٤].
وَالشَّفَاعَةُ الْمُثَبَّتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطَلَّبُ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ،

وَالْمَشْفُوعُ لَهُ؛ مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

[الشرح]

وهذه هي القاعدة الثانية، وهي قاعدة عظيمة ومهمة جدا، وهي متممة ومكملة للقاعدة الأولى، وذلك أننا عرفنا في القاعدة الأولى أن المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يُقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله ﷻ، وأن هذا لم يدخلهم في الإسلام.

إذا يأتي سؤال يطرح نفسه، إذا كانوا يُقرُّون بأن الذي يخلق ويرزق ويُنعم ويتصرف ويُدبر الأمر هو الله ﷻ، فلماذا يعبدون هذه الأصنام التي يُقرُّون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تعطي ولا تمنع؟!

وهم يُقرُّون كذلك أنها لا تخلق ولا تملك ولا ترزق ولا تدبر الأمر؛ كما هو واضح في الدليل الذي ساقه المصنف - ﷻ - في القاعدة الأولى.

يأتي الجواب في هذه القاعدة.

قال - ﷻ -: «أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ»؛ المشركون يقولون: نحن لم نتجه إلى هذه الأصنام ولم نتوجه إلى هذه الأصنام لأنها تخلق أو لأنها ترزق أو لأنها تُحيي، هذه أمور ليست إلا لله ﷻ، نحن لم نعبدوها إلا للقربة والشفاعة.

القربة: أي لتكون وسيلة لنا عند الله، لتكون واسطة لنا عند الله ﷻ، نتوسَّط

بها إلى الله، نطلب منها أن تقربنا إلى الله، فنعبدها من أجل أن تكون واسطة لنا عند الله ﷻ، تقربنا وتُديننا منه ﷻ.

ولهذا قال: «أَنَّهُمْ - أي المشركون - يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلَّا لَطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ».

وقد عرفنا أن المصنف التزم في بداية هذه القواعد أن يذكر دليلها من القرآن، لا يأتي بشيء من عنده؛ وإنما يذكر لك الأمر مضمومًا إليه دليله من القرآن، فهنا ذكر القاعدة الثانية وهي: أن المشركين كانوا يقولون أننا دعونا هذه الأصنام ورجوناها وتوجَّهنا إليها من أجل القربة والشفاعة.

قال: «فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا...﴾»، الآن يأتيك السبب: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، لا لكونها خالقة، ولا لكونها رازقة، ولا لكونها مدبرة، هذه أمور لا تملكها، هم يعتقدون أنها لا تملك شيئًا من ذلك.

﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: من أجل أن تُقربنا إلى الله ﷻ؛ يقولون: نحن أهل ذنوب، وأهل خطايا وأهل إسراف على أنفسنا، وهذه فاضلة وكريمة ولها منزلة ومكانة عند الله، فنحن نعبدها ونتوجه إليها من أجل أن تقربنا إلى الله ﷻ.

قال: «دَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» [الزمر: ٣]، سمى الله ﷻ هذه الأمور التي يمارسها

هؤلاء ويقومون بها كفرًا بالله - ﷻ - (اتخاذ الأنداد والوسائط بينهم وبين الله - ﷻ - من أجل أن تقر بهم إلى الله ﷻ).

إذا هذا الأمر الأول الذي أشار إليه المصنف وهو: القربة، أي أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام من أجل القربة، أي من أجل أن تقر بهم من الله ﷻ.

الأمر الثاني هو: الشفاعة، والدليل على أنهم عبدوها لتكون شافعة لهم عند الله ﷻ: «قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ أي نحن عبدنا هذه التي لا تضر ولا تنفع من أجل أن تكون شافعة لنا عند الله ﷻ.

إذا هذه قاعدة مهمة ينبغي أن يفهمها المسلم حتى لا يلبس عليه الأمر وحتى لا يقع في الشرك من حيث أراد الحق والهدى، وحتى لا يأتي بعض المبطلين ويلبسون عليه هذه الحقيقة ويوقعونه في الشرك بالله من حيث أراد لنفسه الخير والرشاد، ويقولون له: هذه الأصنام أو هذه المعبودات أو هذه القباب والأضرحة إنما تدعى وتوجه إليها من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله ﷻ، تقر بنا إليه زلفى.

يقال له: هذا الأمر هو الذي لأجله عبد الكفار المشركون الأصنام وتوجهوا إليها بالدعاء والرجاء، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

ثم انطلق المصنف من هذا الموضع ليبيّن -رحمة الله عليه- أن الشفاعة نوعان، حتى لا يلبس باب الشفاعة وأمرها عند المسلم.

قال: «وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنَفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثَبَّتَةٌ».

منفية أي نفاها الله تعالى، مثبتة أي أثبتها الله عز وجل.

لأن المسلم عندما يقرأ القرآن الكريم يجد أن الآيات التي جاء فيها ذكر الشفاعة تجد أن في القرآن: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

وإذا كان الأمر كذلك الواجب علينا أن ننفي من الشفاعة ما نفى الله، وأن نثبت منها ما أثبتته الله، أما من يثبت شفاعة نفاها الله ﷻ فهذا عين الضلال والباطل.

قال - ﷺ -: «وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةُ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةُ مُثَبَّتَةٌ؛ فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ».

الشفاعة المنفية - أي التي نفاها الله ﷻ في القرآن - واجب على كل مسلم أن يعرفها، من أجل أن يحذرها وأن يجتنبها وأن لا يقع فيها، لأن الله نفاها وأبطلها. وهي كما قال المؤلف ﷻ: «مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ»؛ لو قال قائل لمخلوق كائناً من كان: أسألك أن تدخلني الجنة أو أن تجيرني من النار، أو أن تثبني على الإيمان، أو أن تعصمني من الخطأ، أو أن تهديني سواء السبيل، أو أن تجنبي مضلات الفتن، أو أن تصلح لي ذريتي، أو أن تمن علي بالزوجة الصالحة، أو تمن علي بالذرية الصالحة، أو أن تكتب لي رزقا وملكا... إلخ، من قدم هذه الطلبات لمخلوق من المخلوقات كائناً من كان، مهما علت درجته وبلغت منزلته - (ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله) - هذه شفاعة نفاها الله في القرآن، ومضى المصنف ﷻ على طريقته يذكر الأمر بدليله، قال: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]»،

هنا: ﴿وَلَا شَفَعَةً﴾ نفى، هذه شفاعاة نفاها الله ﷻ وأبطلها، وهي ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

لو وقف رجل أمام ضريح من الأضرحة أو قبة من القباب، وقال باكيًا راجيًا: يا سيدي فلان، أو يا فلان أرجو أن تمن علي بالولد والذرية، أنا عقيم، مثل ما كان بعض الجاهليين؛ تطوف المرأة حول شجرة وتقول: (يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول)، يعني قبل أن تتم السنة، (يا فحل الفحول) فمن نادى شجرة، أو ضريحًا، أو قبة، أو وليا، أو نبيا، أو ملكا أو غير ذلك، يطلب منه الذرية الصالحة، الأنبياء عندما كانوا يطلبون الذرية لأنفسهم، ممن يطلبونها؟ اقرؤوا ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، في قصة إبراهيم ﷺ، وقصة زكريا ﷺ، وقصص كثيرة، فالأنبياء ما يكونوا يطلبون إلا من الله تعالى.

بعض الناس يخاطب بعض المقبورين يقول: يا كاشف الغم، يا مجيب المكروب، يا مغيث الملهوف، يا جابر الكسير أنا طريح عند بابك، أنا لائد بجانبك إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي، يناجي مخلوقا!

الله تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

هذه أمور لله ﷻ، لا يُلجأ فيها إلا إليه - ﷻ -.

إذا كان الناس في الفلك وتلاطمت بهم الأمواج وأدركهم الغرق، من الذي ينقذهم؟ من الذي يوقف الرياح ويهدئ الأمواج ويسكن السفينة؟ الله رب العالمين.

والله ذكر عن أهل الشرك قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ يعرفون وهم في تلاطم الأمواج وفي الشدائد أن الذي ينجي من الشدائد هو الله ليست الأصنام، فلهذا كانوا يخلصون لله ﷻ في الشدة ويشركون في الرخاء.

مع أن بعض المشركين في الأزمان المتأخرة الذين تعلقوا بغير الله من الأنداد والأولياء والقباب حتى في الشدائد وفي الكربات يفرعون إلى تلك المعبودات. ومما يذكر في هذا أن جماعة كانوا في سفينة وكان معهم رجل مسن (على التوحيد والفطرة) فبدأت الأمواج تتلاطم، وبدأ كلُّ يهتف بمعبوده: يا سيدي فلان، يا مولاي فلان، أدركني يا فلان... يناجون المخلوقين، التفت هذا الرجل وإذا كل من على السفينة ليس فيهم من ينادي ويدعو الله تعالى، فمد يديه وقال: يا رب أغرق.. أغرق؛ فما على السفينة من يعبدك.

فالمشركون الذين بُعث فيهم النبي ﷺ في مثل هذه الحالة، ما كانوا يلتجئون في الشدة إلا إلى الله ﷻ، لهذا قال الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

إذا الشفاعة المنفية: ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

ومثال آخر: ما يقوم به بعض الزوار لما يأتون المدينة النبوية ومعهم خطابات من بعض الناس في بلده موجهة إلى النبي ﷺ، أنا اطلعت شخصيا على شيء منها، أحدهم قرأت كلامه بلفظه، يقول: يا رسول الله، يا سيدي، يا مولاي... يا كذا - ألقاب يذكرها - أنا عبد كسير وفقير ذليل ومحتاج كذا وأنا لائذ بك

وملتجئ إليك، فلا ترد طلبي ولا ترد حاجتي، ثم ذكر حاجته؛ أنه يريد: زوجة صالحة ويريد (فيلا) جميلة ويريد مالاً، وذكر أشياء، هذه كتبها يطلبها من النبي ﷺ، وفي النهاية قال: وعنواني في المكان الفلاني.

أين هذا الكاتب لهذه الورقة من قوله ﷺ لنبئهِ؟! ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].؟

وهنا لطيفة عجيبة في هذه الآية في ﴿سورة البقرة﴾، يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ويتبع ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم كذا، لأنه ﷺ واسطة في إبلاغ الدين ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

هنا في هذه الآية قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ لم يقل: (قل)، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأن التوجه إلى الله توجه بلا واسطة.

أيما تكون في الدنيا واحتجت إلى حاجة سل الله بدون واسطة، لا تبحث عن وسطاء، مباشرة اتجه إلى الله، أسأله مباشرة، ارفع يديك أيما كنت في الدنيا، حتى لو كنت في صخرة مُطَبَّقة عليك في مكان مظلم توجه إليه ﷺ، يراك رب العالمين ويطلع عليك ويكشف كربتك ويزيل همك، ويرزقك من حيث لا تحتسب، لأن الأمور كلها بيده والملك ملكه والخلق خلقه - ﷺ -.

والمثال الذي ذكرته في الخطاب الذي أشرت إليه، يندرج تحت الشفاعة المنفية.

ما نخلط الأمور ونقول دلت الأدلة على أنه ﷺ شفيع للناس، ولذلك تأمل هذا الحديث العظيم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»^(١).

قال: «وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ»: أي التي أثبتها الله في القرآن - هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ - انظر جمال العلم وجمال البيان والنصيحة - «الشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ»: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ؛ الشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّافِعُ يَطْلُبُهَا مِنْهُ ﷻ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] أي: الشَّفَاعَةُ لِلَّهِ.

من أراد أن يشفع لأبداً أن يأذن الله له، بدون إذن الله لا يكون ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبَرَضَى﴾ [النجم: ٢٦]، فإذا هي ملكٌ لله، وبيده ﷻ.

وأيُّ أحدٍ كائنًا من كان يريد أن يشفع عند الله لا بد أن يأذن الله له بالشفاعة، هذا أمر.

وأمر آخر من أراد لنفسه أن يكون الأنبياء والملائكة شفعاء له عند الله يطلبها ممن بيده الشفاعة لأنها بيده سبحانه، فمن أراد لنفسه أن يكونوا شفعاء له عليه أن يقول في طلبه ودعائه: يا رب، يا الله - يسأل الله - شفّع فيّ أنبياءك، أو يقول: اللهم اجعل نبيك محمدا ﷺ شفيعا لي يوم القيامة، وهكذا نقول في دعائنا - نسأل الله ﷻ -، نقول: اللهم اجعل نبيك محمدا ﷺ شفيعا لنا يوم القيامة، اللهم اجعلنا ممن يشفع لهم نبيك ﷺ يوم القيامة، نسأل الله ﷻ، نطلب من الله، لأن الشفاعة مُلْكُ الله ﷻ.

وهي لا تكون إلا بإذنه للشافع ورضاه - ﷻ - عن المشفوع له: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فلو أن شخصا كافرا يعبد الأوثان ومات على عبادتها، وشفّع له عند الله ﷻ، لا تنقذه هذه الشفاعة ولا يخرج بها من النار، قال تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وفي «صحيح البخاري» قصة عظيمة جدًّا تهز القلوب هزًّا، وهي قصة إبراهيم الخليل ﷺ مع والده يوم القيامة ذكرها نبينا ﷺ: فعن أبي هريرة - ﷺ - عن النبي - ﷺ - قال: «يلقى إبراهيمُ أباهُ أزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وجهِهِ أزرَ قترَةٍ وغبرةٍ، فيقولُ له إبراهيمُ: ألمَ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصيك، فيقولُ إبراهيمُ: يا ربِّ إنَّكَ وعدتَنِي أن لا تُخزيني يومَ يُبعثونَ، فأني خزيٌّ أخزى منْ

أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلِكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

واقراً في آخر «سورة التحريم» قول الله ﷻ: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [التحريم: ١٠]، فنبى الله نوح ﷺ لم يغن عن ابنه شيئاً لأنه كان كافراً، ولم يغن عن زوجته شيئاً لأنها كانت كافرة، وكذا نبى الله إبراهيم ﷺ لم يغن عن أبيه شيئاً لأنه كان كافراً.

فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع ورضا الله ﷻ عن المشفوع له.
فعن أبي هريرة أنه قال: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لَأُمْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ

(١) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٩٩).

اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا^(١)، فقوله ﷺ: «لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا» فهي ليست لكل أحد؛ بل خاصة بأهل التوحيد.

ولهذا ففي موضوع الشفاعة ثلاثة فصول مهمة ينبغي أن تحفظها:

- الفصل الأول: أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله.

- الفصل الثاني: أن الشفاعة لا تكون إلا عن من ﷺ (قوله وعمله).

- الفصل الثالث: أن الله ﷻ لا يرضى إلا عن أهل التوحيد.

هذه ثلاثة فصول في الشفاعة احفظها ينفعك الله - ﷻ - بها.

هذه الشفاعة بهذه الضوابط هي الشفاعة التي أثبتها الله ﷻ في القرآن.

قال المصنف: «وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللَّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الْإِذْنِ».

وجُمع بين هذين الشرطين:

الرضا والإذن في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع له، والله ﷻ لا يرضى إلا عن أهل

التوحيد، قال - ﷻ -: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾»

[البقرة: ٢٥٥].

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩)، واللفظ له.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

القاعدة الثالثة:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أَنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِتَائِهِ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَدَلِيلُ الْمَلَائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠].

وَدَلِيلُ الْأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَدَلِيلُ الْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَّاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنْوُطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ...» ^(١) الْحَدِيثُ.

[الشرح]

هذه قاعدة أخرى مهمة للغاية ويحتاجها كل مسلم لمعرفة ما يتعلق بها؛ لأن معرفة هذه القواعد - بإذن الله ﷻ - وضبطها يكون - بإذن الله ﷻ - صمام أمان للمسلم من الوقوع في شبكة الشرك وحبائل أهله ومصائد الشيطان. وقد جاء في التعوذات المأثورة عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَ» ^(٢)، وفي رواية «وَشَرِّكَ» أي حبائله وشباكه التي يضعها للناس ليوقعهم في الشرك بالله ﷻ.

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).
(٢) رواه الترمذي (٣٣٩٢)، وأبو داود (٥٠٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٠١).

قال الإمام النووي رحمته الله: «قوله ﷻ: (وَشَرِّكَ)، روي على وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من الإشراك: أي: ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى.

والشرك - كما كنا عرفنا - شبكة، له جوانب كثيرة ومجالات متعددة، ومن لم يكن في هذا الباب على أصولٍ ثابتة وقواعد راسخة ربما زلت به القدم في أخطر أمر وأعظم باب والعياذ بالله.

ولهذا ينبغي على كل المسلم أن يكون على عناية تامة ورعاية قوية لهذه القواعد التي قررها الإمام - رحمه الله تعالى - وذكر دلائلها وشواهدا من كتاب الله ﷻ، وسنة رسول الله ﷺ.

وهذه القواعد مرتبطة معانيها فيما بينها، يوضح بعضها بعضا، وذلك كالآتي:

سبق معنا القاعدة الأولى التي قررها المصنف - رحمه الله تعالى - أن الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، كانوا يقرُّون بأن الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر للأمور هو: الله ﷻ وحده، كانوا يقرُّون بذلك، وذكر الشيخ - رحمه الله تعالى - الدليل على ذلك من كتاب الله ﷻ، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام.

فَعُلم بذلك أن مجرد الإقرار بأن الله الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر لشؤون الخلائق ليس كافيا وحده لدخول المرء بالإسلام، ما لم يعبد الله مخلصا له الدين، وإذا كان يقرُّ بأن الله الخالق الرزاق المنعم المتصرف ولا يُخلص الدين له - ﷻ - فهو مشرك بالله، كافر بالله العظيم.

ثم بعد ذلك ذكر - رحمه الله تعالى - القاعدة الثانية؛ وهي أن المشركين

الكفار عندما يُسألون: لماذا تعبدون هذه الأوثان وتدعونها من دون الله وأنتم تقرّون أنها ليست خالقة ولا رازقة ولا منعمة ولا متصرفة، ولا تملك عطاء ولا منعاً، ولا خفضاً ولا رفعا، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً؟ لماذا تعبدونها وأنتم تقرّون أنها لا تملك شيئاً من ذلك؟ بل تقرّون أنها نفسها مملوكة لله، خاضعة لله ﷻ، مربية له ﷻ.

ولهذا؛ كانوا يحجون ويقولون في تلبيتهم في الحج: [ليك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك] هكذا يعتقدون: (تملكه): أي هو مملوك لك، هذا الشريك الذي جعلناه لك أنت يا الله تملكه، هو مملوك لك خاضع لك، (وما ملك): هو لا يملك، أي لا يملك لنفسه عطاء أو منعاً أو خفضاً أو رفعا، فضلا عن أن يملك ذلك لغيره، هم يقرّون بذلك، فإذا سئلوا قيل لهم: لماذا تعبدونها وتدعونها وتوجهون إليها وأنتم تعتقدون في قرارة نفوسكم أنها لا تملك، وأنها لا تخلق، وأنها لا ترزق؟ -والدليل على أنهم يقرّون بذلك مرّ معنا في القاعدة السابقة- فإذا لماذا تعبدونها؟ ماذا يقولون؟

يقولون: نحن نعبدها ونتوجه إليها لطلب القربة و الشفاعة:

لطلب القربة: أي من أجل أن تقرّبنا إلى الله، نحن بُعداء عن الله بالذنوب والمعاصي والخطايا والتفريط، فنحن نتوجه إليها لا لشيء إلا من أجل أن تقرّبنا إلى الله ﷻ.

ومن أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله، من أجل أن تكون شفيعا لنا عند

هذه الممارسة التي يفعلها المشركون - والذي هذه خلاصتها - ماذا تسمى في شرع الإسلام وفي دين الله ﷻ؟ هل هم معذورون في هذا التوجيه الذي ذكروه؛ قالوا: نحن لا ندعوها لأننا نعتقد فيها أنها خالقة رزاقة، بل ندعوها لأجل أن تقربنا إلى الله زلفى، هل هذا مُخَوِّلٌ ومُسَوِّغٌ لإعفائهم من تبعة ذلك العمل وتلك الممارسة؟ حاشا وكلا؛ بل هم بذلك كفار مشركون، ولهذا قاتلهم النبي ﷺ، واستباح أموالهم ودماءهم ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فإذا هذه القاعدة الأولى والقاعدة الثانية، ثم تأتي قاعدة ثالثة مهمة جدا، وهي تَبَنِّي على القاعدتين السابقتين، ألا وهي:

هل الشرك الذي ذمه الله وحذّر منه وعاب أهله وتوعدهم وتهددهم، هل هو خاص بمن عبد صنما؟ أو توجه إلى حجر؟ هل هو خاص بذلك، أو أنه شامل لكل ما عبّد من دون الله أيّا كان ومهما كانت صفته؟

لأن بعض من ابتلوا بالباطل والتوجه إلى غير الله ﷻ بالدعاء والرجاء والطلب والسؤال وإنزال الحاجات والطلبات والرغبات، إذا تليت عليه مثل هذه الآيات لوعظه وتنبهه وتذكيره وتحذيره مما هو عليه من ضلالٍ وباطل، يقول: هذه الآيات التي تُتلى في القرآن تختص بمن توجه إلى حجر أو شجر، أما نحن لم نتوجه لا إلى حجر ولا إلى شجر - مثل هؤلاء المشركين - نحن توجهنا إلى أولياء صالحين، أو إلى أنبياء مقربين، أو إلى ملائكة، فكيف تُتلى علينا هذه الآيات ونوعظ بها وهي لا تتناول العمل الذي نقوم به؟ لأن الآيات تتعلق بمن

عبد الأصنام: اللات، العزى، مناة، هبل... الخ، أما الذي يتوجه إلى ولي من الأولياء، أو صالح من الصالحين، أو نبي من الأنبياء أو نحو ذلك، هذه الأدلة والنصوص لا تناوله ولا علاقة لها به -هكذا يقولون ويزعمون-.

فتأتي هذه القاعدة التي ذكرها المصنف -رحمه الله- ليُرسى هذا الأمر ويجلّيه ويزيل الغش الذي قد يصاب به بعض الناس، ويُتلى به بعضهم فيدخلون في وحل الشرك وشبكة الباطل من حيث يظنون أنهم لم يقعوا في هذه الهوة السحيقة: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، لا يشعر أنه وقع في هذه الهوة السحيقة -والعياذ بالله-، فتأتي هذه القاعدة لتجلّي هذا الأمر.

ولهذا ينبغي أن نُرعي هذه القاعدة بالنّا واهتمامنا وأن نحسن فهمها وضبطها لأنها مهمة جدا في هذا الباب.

يقول -رحمه الله- في القاعدة الثالثة: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أَنْاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ»: أي لم تكن عبادتهم مختصة بمعبودات معينة، مثل: الأحجار أو الأصنام، بل كانوا متفرقين في عبادتهم، يعبدون أشياء كثيرة جدا.

فصل الشيخ -رحمه الله- ثم ذكر على كل ما ذكره من تفصيل الدليل عليه من القرآن، قال: «مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْأَشْجَارَ وَالْأَخْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»:

فالنبي ﷺ بُعث في أقوام يشركون، وشركهم ليس منحصرًا في شرك معين من أنواع الشرك كعبادة الأصنام؛ بل إن شرك من بُعث فيهم ﷺ شرك متنوع، و

الأبواب التي سلكها هؤلاء المشركون أبواب متفرقة، منهم من يعبد الملائكة، منهم من يعبد الأنبياء، منهم من يعبد الأولياء والصالحين، منهم من يعبد الأشجار والأضرحة ونحو ذلك، وكل هؤلاء ظهر عليهم النبي ﷺ مُعلنًا دعوة التوحيد - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - والدعوة إلى الإخلاص لله ﷻ ونبذ الشرك أيًا كانت صفته وكان نوعه ^(١).

فهذه القاعدة تأتي جوابًا وإزالةً لتلك الشبهة التي قد يروّجها أهل الباطل. وتقرير القاعدة أن من ظهر عليهم ﷺ وبُعث فيهم كانوا متفرقين في العبادة. وتقول هنا: هات الدليل على ذلك، فيأتي المنصف - ﷻ - بالدليل على كل ذلك من كتاب الله ﷻ؛

أولا قال - ﷻ -: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]».

الآية فيها استشهاد لقول المصنف - ﷻ -: «وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ» أي أجمعين بأنواع الشرك المختلفة التي كانوا عليها، فهؤلاء كلهم قاتلهم، لم يفرّق ﷻ بين من عبد حجرا أو عبد نبيا (كعيسى ﷺ)، أو ملكا من الملائكة (كجبريل أو غيره من الملائكة ﷻ)، لم يفرق بين لا هؤلاء ولا هؤلاء، كلهم يشملهم قول الله ﷻ:

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«حقيقة التوحيد: أن نعبد الله وحده، فلا يدعى إلا هو، ولا يُخشى ولا يُتَّقَى إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا تتخذ الملائكة والنبیین أربابا، فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم» «منهاج السنة النبوية» (٣ / ٤٩٠).

﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كُفُّوا لِلَّهِ ﴾، قاتلهم النبي ﷺ أجمعين، دعاهم إلى هذا الإسلام، وبعث الدعوة وأرسل البعوث وأرسل الرسل ودعا هؤلاء؛ دعا الذين يعبدون الملائكة، ودعا الذين يعبدون النجوم، ودعا الذين يعبدون الأنبياء، ودعا الذين يعبدون الأصنام، كل أولئك دعاهم النبي ﷺ إلى نبذ هذا الشرك، وإلى إخلاص العبادة لله ﷻ.

ثم بدأ يسوق الأدلة دليلاً دليلاً على ما ذكر سابقاً من تفرق المشركين وتنوع شركهم.

قال: «وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» أي: والدليل على أن من الناس من كان يعبد الشمس والقمر ممن ظهر عليهم النبي ﷺ وبُعث فيهم، قوله الله تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ آلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: لأن هناك من كان يعبد الشمس والقمر.

بل إن من رعاية نبينا ﷺ للتوحيد وحفاظه لجانبه وسدّه -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- لذرائع الشرك نهى أمة الإسلام -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أن يُصَلُّوا لله ﷻ مخلصين عند وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، لأن هذا الوقت كان عبادة الشمس يتحرون عبادتها فيه، عند أول طلوع الشمس وعند وقت الغروب عبادة الشمس كانوا يتحرون هذين الوقتين، فيعبدون الشمس في هذين الوقتين، ولهذا جاء النهي الغليظ والمؤكد عن نبينا ﷺ من أن نصلي لله ﷻ مخلصين في هذين الوقتين.

فقال ﷺ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ؛ ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ؛ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ؛ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ»^(١)، وهذا فيه أن الشيطان له فتنة في هذا الوقت لصرف القلوب عن التوحيد إلى الشرك، والتعلق بهذه المخلوقات الكبيرة، البديعة، العجيبة، العظيمة، التي خلقها الله ﷻ.

وذلك لأنه عندما يضعف الإيمان في بعض القلوب قد تتعلق بمثل هذه المخلوقات الكبار وتلجأ إليها، فتدهشها الشمس بغروبها وطلوعها، فتوجه إليها بحاجاتها ورغباتها، فقطع النبي ﷺ الطريق وسدَّ ذريعة الشرك، ونهى أن تُتَحَرَّى العبادة في هذين الوقتين: وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، ولو كان الإنسان لا يقصد بعبادته إلا وجه الله مخلصاً له فإن النبي ﷺ قد نهاه عن العبادة في هذين الوقتين، وجاء عنه في ذلك أحاديث كثيرة، كل ذلك محافظة على التوحيد وصيانة لجانبه وسدّاً للذرائع التي تفضي إلى الشرك بالله ﷻ وأيضاً رباً ﷻ بالأمة أن يكون فيه شيء من المشابهة ولو في الصورة الظاهرة لعبادة هذه المخلوقات (الشمس والقمر)، فنهى -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- عن العبادة في هذين الوقتين.

فهذا من الدلائل والشواهد اليِّنات أن من بُعث فيهم - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - كان منهم من شرَّكه بالله عبادةً للشمس وللقمر.

وما الدليل على أن منهم من كان يعبد الملائكة؟

قال: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠]».

أي من دون الله ﷻ، فهذا شاهد ودليل على أن من الناس من اتخذ الملائكة أرباباً، وعبدوها معه ﷻ، ودعوهم وسألوهم وعرضوا عليهم حاجاتهم وطلباتهم، فكان من الناس من عبد الملائكة، وهم جند مكرمون وعباد مسخرون، لا يستحقون من العبادة ولا مقدار ذرة.

ولهذا؛ في سياق إبطال الشرك في القرآن الكريم في «سورة سبأ»، ذكر الله ﷻ ضعف الملائكة، مُبَيِّنًا ﷻ بذلك أنها مع ضخامة أجسامها وقوتها، وعظم قدرتها التي منحها الله ﷻ إياها، فهي ضعيفة مخلوقة مربوبة لا تستحق من العبادة شيئاً، وتأمل هذا المعنى العظيم في الآيات الواردة لإبطال الشرك، في قول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴿٢٣﴾﴾ - أي الملائكة - ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ].

يُفسَّر هذه الآية قول نبينا ﷺ في الحديث الصحيح: «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلَّسَّمَاءِ صَلَصلةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصِّفَا فَيُصْعَقُونَ فَلَا

يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فَنَزَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ. قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الْحَقُّ؛ فَيَقُولُونَ: الْحَقُّ الْحَقُّ»^(١).

هذه الملائكة الضخمة الأجسام العظيمة القوة والقدرة إذا تكلم الله بالوحي خَرَّتْ صَعْقَةً، «وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أَرْعَدُوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما»^(٢)، فهي مخلوقة ضعيفة، مُسَخَّرَةٌ مربوبة لله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، ولكن لا يستحقون من العبادة أي شيء، ولهذا قال الله ﷻ في شأن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

قال العلامة السعدي رحمه الله: «فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟»^(٣).

وقد وُجد في الناس من عبدتهم، وتوجه إليهم في طلباته ورغباته، وجعلهم

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٩٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥١٤).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٥٢١).

واسطة بينه وبين الله ﷻ في عرض حاجاته، فُبِعِثَ النبي ﷺ لإبطال هذا الشرك -اتخاذ الملائكة أربابا وأندادا وشركاء لله ﷻ في العبادة-.

ثم ذكر- ﷻ - دليل الأنبياء، أي الدليل على أن من المشركين الذين بُعِثَ فيهم ﷻ من كان يعبد الأنبياء فذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦]، إذا كان من المشركين الذين بُعِثَ فيهم ﷻ من كان يعبد الأنبياء من دون الله ﷻ، مثل من كانوا يعبدون عيسى ويتوجهون إليه بالدعاء والطلب والرغبات ويعبدون أمه، وهي ليست نبية وإنما هي صالحة من الصالحات^(١) ومن خيار نساء العالمين، فكانوا يعبدون الأنبياء والصالحين، الأنبياء مثل عيسى ﷻ، والصالحين مثل أمه، كانوا يعبدونها من دون الله، وجعلوهما شريكا لله ﴿قَالُوا إِنْ يَكُنْ اللَّهُ تَالِثَ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]؛ جعلوا المستحقين للعبادة ثلاثة: (الله عز وجل وعيسى ﷻ، وأمه مريم)، وعبدوا هؤلاء الثلاثة كلهم، عبدوا الله، وعبدوا معه عيسى، وعبدوا معه أمه.

إذا من بُعِثَ فيهم ﷻ منهم من كان شركه عبادةً للأنبياء وعبادةً للصالحين.

ثم قال- ﷻ -: «وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) قال الإمام النووي ﷻ: «وقد نقل إمام الحرمين إجماع العلماء على أن مريم ليست نبية» «الأذكار» (ص ١١٩)، وانظر «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/ ٤٧١).

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

هذه الآية دليل واضح على أن بُعث فيهم ﷺ منهم من كان يعبد الصالحين من دون الله ﷻ، وذلك أن معنى الآية وهي: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ تتعلق ببيان حال طائفة من المشركين، واقرأ الآية التي قبلها، وهي قول الله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴿[الإسراء: ٥٧]﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴿أي: أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون المتخذون الأنداد قومٌ هداهم الله ﷻ وعبدوا الله وأخلصوا الدين له - ﷻ﴾، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ «قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيرًا.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، روى البخاري، من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا، وفي رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم.

وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزماني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن

ابن مسعود في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنّيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية^(١).

إذا الآية واضحة في إنكار شرك من كان شركه بعبادة الصالحين والأولياء.

يُقال لمن عبد ولياً أو عبد صالحاً: إن هذا الذي تعبده وتلجأ إليه هو نفسه عبدُ الله، يرجوا الله، ويطمع في مغفرته ورحمته، وإن كان مات فإن هذه الأمور - رجاء الرحمة والعبادة وابتغاء الوسيلة - انقطعت بموته، «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مَنْ صَدَقَ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢)، لا يستطيع أن يقوم بعبادة ولا يستطيع أن يقوم بدعاء أو برجاء أو بخوف أو بأي أمر من الأمور التي هي مجال الإنسان للقيام بها في حياته الدنيا، أما إذا مات انقطع عمله، لا يستطيع أن يدعو لنفسه ولا لغيره، ولهذا قال ﷺ: «لَأَمَ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لَمَّا قَالَتْ: «وَأَرَأَيْتُمْ أَفَعَالِ الْفُجَاءِ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ، فَاسْتَغْفِرُ لَكَ وَأَدْعُو لَكَ»^(٣) يعني وأنا على قيد الحياة استغفرت لك، أما بعد الموت لا يستغفر ﷺ لأحد، هو ﷺ ولا غيره من الذين توفاهم الله - ﷻ، ولهذا قال: «ذَلِكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ».

أما ما يستدل به بعض الناس من أن النبي ﷺ قال: «حياتي خير لكم تحدثون

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٨٨).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

(٣) رواه البخاري (٥٦٦٦).

ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم؛ فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم»^(١).

هذا حديث غير صحيح، يستدل به بعض الناس ويتركون الحديث الذي في «صحيح البخاري»، الذي يقول فيه النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «ذَاكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ» أي بعد الموت لا يستغفر لأحد.

ولهذا؛ الصحابة بعد موته قالوا - كما جاء عن عمر رضي الله عنه -: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»^(٢)، والمراد الدعاء: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا والآن نتوسل إليك بعمة نبينا ﷺ؛ ففي زمن النبي ﷺ ما كانوا يتوسلون بالعباس أو غيره، كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ، يدعو لهم هو - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَيُؤْمِنُونَ عَلَى دَعَائِهِ، أما بعد موته انقطع هذا الأمر، لقوله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ...».

وما دليل عبادة الأشجار والأحجار؟

قال: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿النَّجْمُ: ٢٠﴾».

هذه معبودات كان يعبدونها المشركون ويتوجهون إليها؛ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةُ الثَّالِثَةُ الْآخَرَى.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وكانت (اللات) صخرة بيضاء منقوشة، وعليها

(١) رواه البزار في «مسنده» (١٩٢٥)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٩٧٥).

(٢) رواه البخاري (١٠١٠).

بيت بالطائف له أستار وسَدَنَة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قریش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وحكي عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا (اللات) بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه^(١).

فلما مات بنوا على قبره وعبدوه، وجعلوه واسطة لهم بينهم وبين الله والعياذ بالله، قالوا لأن هذا رجل معروف بيننا بهذا الكرم وهذه الضيافة، فعبدوا قبره، وقيل: عبدوا الصخرة التي كان يعجن عليها السويق، قالوا: هذه صخرة فاضلة مميزة، لها خاصية، سنوات طويلة يُعجن عليها السويق، فما أجمل أن تكون واسطة بيننا وبين الله.

والعُزَّى^(٢): قيل: حجر أبيض، وقيل: شجرة كان يقصدها المشركون، وكان يزيد الشرك والتعلق بهذه الشجرة أن جنية كانت مختفية وإذا جاءوا عند هذه الشجرة خاطبتهم الجنية فيُخدعون بذلك، لأن الشجر لا يُعرف أنه يخاطب الناس، فيُخدعون بذلك ويُستدرجون، فتخاطبهم هذه الجنية وتذكر لهم أمورا، وربما سألوها عن مفقود أو ضائع فأشارت إلى مكانه أو دلتهم على موضعه أو نحو ذلك، ففُتِنُوا فصاروا يتوافدون عليها من الأنحاء العديدة يعبدون هذه

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٥).

(٢) «جامع البيان في تأويل القرآن» (٢٢/ ٥٢٣).

الشجرة، حتى بعث النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد ﷺ فقطع الشجرة وقتل الجنية، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا»، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبُوهَا، أَمَعُوا فِي الْجَبَلِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى يَا عُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُزَّى»^(١).

«وَأَمَّا (مناة) فكانت بالمُشَلَّل - عند قُديد، بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويُهَلَّلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت آخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها»^(٢).

ولا يزال هذا الشرك بين بعض الناس من يتعلقون بأشجار ويعتقدون أنها مباركة، ولهذا يذهبون ويعلقون عليها الخيوط، يتمسحون بها، يضع الواحد منهم صدره على الشجرة يطلب منها البركة، وقد يطوف حولها.

(١) رواه النسائي في «سننه الكبرى» (١١٤٨٣)، وأبو يعلى في مسنده (٩٠٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤٥٦/٧).

كان قديما، وقد أدرك المصنف - رحمه الله - شيئا من ذلك ورآه^(١)، كانوا يطوفون على شجرة (نخلة)؛ تذهب المرأة التي تأخر عنها الزواج وتطوف عليها وتقول: (يا فحل الفحول أريد زوجا قبل الحول)، لا تنجب لسنوات، فتقول لها النساء هناك شجرة مباركة في المكان الفلاني، اذهبي وطوفي بها أشواطاً، واطلبي منها، فهي شجرة مباركة، وربما قالوا لها فلانة جربت وفلانة فعلت.. وهكذا يستدرج الناس إلى الشرك والباطل - والعياذ بالله - فكن يذهبن إلى تلك الشجرة ويظفن عليها، ويقلن ذلك.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخَلْصَةِ»، وَذُو الْخَلْصَةِ طَاغِيَةٌ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ^(٢).

(تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نِسَاءٍ) أي تضرب ألياتهن بعضا من شدة تراحمهن على الطواف على ذِي الْخَلْصَةِ، وهذا فيه إشارة إلى كثرة النساء الطائفات على ذِي الْخَلْصَةِ.

وقال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قِبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمَشْرِكِينَ؛ حَتَّى تَعْبُدَ قِبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»^(٣)، والأحاديث في هذا الباب كثيرة وثابتة عن نبينا ﷺ.

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

(٣) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٣).

وقال ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»؛ تنبه هنا: مَنْ قبلنا فيهم من عبد الملائكة، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، وفيهم من عبد الأشجار، وفيهم من عبد الصالحين، ونبينا ﷺ قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكَوا جُحَرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»^(١).

النبي ﷺ عندما قال لنا: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ» لم يقلها لنا مجرد معلومة نسمعها ونعرفها؛ بل من أجل أن نحذر ونحتاط لأنفسنا من هذا الباطل الذي كان عليه من قبلنا فنحذره ونحرص على مجانبته والبعد عنه.

ثم ختم المؤلف ﷺ بحديث أبي واقد الليثي، وهذا حديث عظيم جداً في هذا الباب، يُبين لنا خطورة حال الإنسان عندما يكون حديث عهدٍ بإسلام أو تكون معلوماته الإسلامية ضعيفة أو يكون نشأ في مجتمع تكثر فيه هذه المخالفات، فهنا فيه خطورة يُبينها ويُجليها لنا هذا الحديث؛ قال أبو واقد الليثي ﷺ: «خرجنا مع النبي ﷺ إلى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ» هذا اعتذار قَدَّمَهُ ﷺ من المقالة التي قالوها، قال: «وَنَحْنُ حُدَنَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ» يعني عهدنا بالكفر كان قريباً، والذي على الكفر من وقت قريب معلوماته الشرعية عن الإسلام وعن التوحيد وعن تفاصيل الشرع تكون ضعيفة، وربما في الوقت نفسه تكون بعض الأمور التي كان عليها في الجاهلية لم يتبين له بعد، ولم يظهر له أنها مصادمة للإسلام الذي اعتنقه ودخل فيه، ومثل هذا الأمر يحدث لمن ينشأ في مجتمعات تكثر فيها أمور الجاهلية ويكثر فيها دعاة الضلال وأئمة الباطل؛ ربما ينشأ لا

يعرف بعض الأمور ولا يفهمها ولا يدركها ويقع في الشرك والضلال من حيث أنه يظن أنه على التوحيد والإسلام، والله المستعان.

يقول أبو واقد رضي الله عنه: «خرجنا مع النبي ﷺ إلى حُنينٍ»، انظر من هم هؤلاء الرجال، - هذه الكلمة مهمة - هؤلاء رجال خرجوا مع النبي ﷺ بائعين أنفسهم في سبيل الله، معهم السيوف يقاتلون، منهم من سيقتل ويموت في سبيل الله، ثم يقولون هذه المقالة التي بُيِّنَتْ في الحديث.

قال ﷺ: «ونحنُ حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سُدرة، يَعْكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم»: وهم في الطريق مرُّوا بسُدرة أي مرُّوا بشجرة للمشركين، قال: «يَعْكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم»، هذا نوع من الشرك؛ الشرك من أنواعه ومجالاته العكوف عند القبر أو عند الشجرة أو عند المكان الذي يُعبد ويُقصد ويُتوجه إليه.

(يعكف عنده): أي يبقى عنده مدة طويلة، ساكنًا خاضعًا متذللاً راهبًا، هذه عبادة، ﴿وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، العكوف: عبادة لله ﷻ، «يعكفون عندها»: يبقى قائما ساعة، ساعتين، أقل أو أكثر، ساكنا خاشعا، ربما لا يتكلم بكلمة، فقط مجرد وقوف، وهو يعتقد في قرارة نفسه أن عكوفه هذا يجلب له بركة، لأن هذه الشجرة مباركة فبركتها تنعكس عليه وتنجذب إليه ويعود إليه نصيب منها، فيعكفون عندها.

وأیضا «ينوطون بها أسلحتهم» أي: يعلقون أسلحتهم لأنهم يعتقدون أن

السلّاح إذا علّق على هذه الشجرة المباركة - بزعمهم - بورك السلّاح وأصبح قوياً في القتال، فكانوا يعتقدون هذه العقائد الباطلة.

«يُقال لها: ذات أنواط»: لكثرة ما يُعلّقون عليها من أسلحتهم - ينطون أي: يُعلّقون - رجاء البركة وطلبها.

قال: «فمررنا بسدرة - أي مرّوا بسدرة أخرى غير تلك - فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»؛ يعني اجعل لنا نحن، وخصّص لنا شجرة معينة نمارس عندها مثل هذه الممارسة؛ نعكف ونعلق السلّاح من أجل طلب البركة.

«فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن» - وفي رواية قال: «سبحان الله» -، قُلتُم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، - ثم قال - : لتبتعن سنن من كان قبلكم».

انظر هذا النصّ العظيم والتحذير البالغ من نبينا ﷺ، وخُذ نفسك مأخذ الحزم والحيطة والحذر، «قُلتُم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿ [الأعراف: ١٣٨]، «لتبتعن سنن من كان قبلكم»، أي: «شبرا شبرا، ذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

بل جاء عنه ﷺ في بعض الروايات في غير هذا الحديث: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا

أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَدَوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»^(١).

يجب على الإنسان أن يحذر، خاصة في زماننا هذا؛ هذا الزمن انفتح الناس انفتاحاً عجيماً على حال المجتمعات الكافرة وأمم الشرك، وأصبح الناس من خلال القنوات الفضائية ومن خلال شبكة العنكبوت (الانترنت)، والإنسان جالس في بيته، والمرأة جالسة في بيتها يفتح عليها العالم كله، وترى وثنية الوثنيين وشرك المشركين وضلال المضلين وشبه المبطلين، ويكون هذا المسكين الذي ينظر هذا كله بضاعته الشرعية وعلمه بالتوحيد علم ضعيف محدود، ثم يرجو لنفسه سلامة!

تَرْجُوا النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْأَلْكَ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَمْشِي عَلَى الْيَبَسِ
أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلِ بِالْمَاءِ

فالشاهد أن هذا الأمر جد خطير، وأن الأمر -كما قرر الشيخ رحمه الله عليه- : أن الشرك الذي كان عليه المشركون في زمن النبي ﷺ ليس عبادة أصنام فقط. فبعض الناس عندما يقرأ الآيات التي فيها التحذير من الشرك يجعل في ذهنه فقط -وهذه من الشبهة التي أُدرجت على الناس-: اللات والعزى ومناة، ويقول: الحمد لله، هذه أصنام ليست موجودة وحُطِّمت في زمن النبي ﷺ ولا يوجد شرك، بل بعض الناس وُجد من أئمة الضلال أنه قال: (أمة محمد ﷺ إلى قيام

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤١).

الساعة لن يوجد فيها شرك)! هذا قيل وكتب في بعض الكتب ولُبس فيه على بعض الجهَّال، وأصبحوا يمارسون ممارسات من الشرك ويقول لهم هؤلاء: أمة محمد ﷺ معصومة من الشرك، وربما استدلوا ببعض الأحاديث ووضعوها في غير بابها، مثل حديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(١)، يستدلون بهذا الحديث ويتركون أحاديث محكمة صريحة في أن العبادة لغير الله ستكون في الأمة، كما سبق ذكره.

إذاً لو قيل لك: هل سيوجد في أمة النبي ﷺ من سيعبد الملائكة، أو الأنبياء أو الصالحين، أو الأشجار والأحجار، أو الشمس والقمر؟

فالجواب: نعم؛ بدليلين:

الدليل الأول: أن هذه آيات بينات في القرآن الكريم، وأن هذه الممارسات كانت موجودة فيمن كان قبلنا.

الدليل الثاني: أن نبينا ﷺ قال: «لَتَتَّبِعَن سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا شَبْرًا ذُرَاعًا ذُرَاعًا، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ».

ولا يعني ذلك وجوده في الأمة بأسرها؛ بل يوجد في أفراد من الناس وآحاد منهم وبعض من يضلون سواء السبيل، فيوجد فيهم هذا الانحراف.

فإذا علمتَ هذا العلم وفهمتَ هذا الفهم ودريتَ هذه الدراية اتق الله ﷻ واحفظ توحيدك وصن إيمانك وابتعد نفسك عن الشرك.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

القاعدة الرابعة:

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكَاً مِنَ الْأَوَّلِينَ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرِّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشَّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شَرَكُهُمْ دَائِمٌ؛ فِي الرِّخَاءِ وَالشَّدَّةِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

تَمَّتْ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

[الشرح]

ثم ختم رحمه الله هذه القواعد بهذه القاعدة العظيمة، المهمة وهي قوله: «أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكَاً مِنَ الْأَوَّلِينَ لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرِّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشَّدَّةِ»: أي وقت الصحة والعافية والأمن والراحة والطمأنينة -ونحو ذلك- يشركون، يعبدون مع الله ﷻ الأشجار والأحجار والملائكة... الخ، أما وقت الشدة عندما تشتد الأمور وتعظم الكربات لا يعبدون شيئاً من تلك المعبودات، بل يتوجهون إلى الله ﷻ وحده مخلصين له الدين، فهكذا كانوا.

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]»، فهذه حالة المشركين الأول:

إذا ركبوا في الفلك وأتت الرياح العاتية، وتلاطمت الأمواج، وأدركهم الغرق، وعظم فيهم الخطب؛ أخلصوا الدين لله، يقولون فقط: يا رب.. يا رب، لا ينجون اللات ولا هبل ولا غيرهما مما كانوا يدعونها في حال الرخاء: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: إخلاص تام في التوجه والسؤال والطلب، أما الوسائط فكلها تسقط وتذهب ولا يتعلقون بشيء منها، بل يخلصون الدين لله وحده، والدليل واضح أمامك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾ - أي المشركين - ﴿فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّحْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعني إذا انتهوا من البحر ومشاكل الغرق وكانوا في البر، وطأت أقدامهم اليابسة، رجعوا للشرك، وبدؤوا ينادون اللات والعزى... إلخ.

ولهذا؛ اقرأ في هذا السياق بيان الله ﷻ لهؤلاء أن الله قادر عليهم في حال كونهم في البحر وفي حال كونهم في البر، الأمر سواء في قدرته ﷻ، وهو سبحانه قادر على إهلاكهم برًا وبحرًا، فيقال للمشرك: إذا كنت تؤمن بأنه لا ينجيك في البحر إلا الله، فكذلك لا ينجيك في البر إلا الله، لأن الله قادر عليك في البر وفي البحر، فما تغني عنك هذه الأصنام من الله شيئاً.

ولهذا اقرأ قول الله ﷻ: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي نُزَّيَ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَجَّحْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ٦٧﴾ [الإسراء]؛

قوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي ذهب كل من تتعلقون به وتدعونهم وترجونهم، ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾: إلا الله؛ وقوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾: تدل أن

هذه الآية أن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، لكنهم في البحر كل من يعبدونه من دون الله يذهب عن قلوبهم وعن أفكارهم وعن توجهاتهم، فلا يعبدون إلا الله ﷻ وحده مخلصين له الدين.

﴿فَلَمَّا بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴿[الإسراء: ٦٨]، الآن وطئت أقدامكم البر وأحسستم بالسلامة والنجاة من كربات وشدة البحر ورجعتم إلى الشرك، هل عندما رجعتم إلى الشرك بعد أن وطئت أقدامكم البر، وأحسستم بالسلامة، هل أمتم أن يخسف الله بكم جانب البر؟ إذا لماذا تعودون إلى الشرك؟

أمر آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، هل تأمنون من ذلك؟

أي وأنتم في البر فيه احتمالات؛ الأول: أن يخسف الله بكم جانب البر، الأرض التي تحتكم تنخسف، وتسقطون في هوة من الأرض لا يعلم مداها إلا الله، وتنطبق عليكم، ولا يرى لكم أثر؛ لأن الله ﷻ قادر على كل شيء، وقد أخبر أنه عاقب من عاقب بشيء من ذلك: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، احتمال آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: وأنتم في البر هل تأمنون أن الله ﷻ يبعث ريحا شديدة قوية تحمل الحصباء فيهلككم وأنتم في البر؟ فهذا احتمال آخر ضعوه في بالكم.

أيضا احتمال ثالث ذكره الله ﷻ: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩].

هذه احتمالات ذكرها الله لهم:

- يُحْتَمَلُ أَنْ تَأْتِيَكُمْ الْعُقُوبَةُ فِي الْبَرِّ خَسْفًا.

- وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَأْتِيَكُمْ الْعُقُوبَةُ فِي الْبَرِّ رِيحًا عَاصِفَةً تَحْمِلُ الْحَصْبَاءَ تَهْلِكُكُمْ.

- وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَعِيدَكُمْ اللَّهُ ﷻ فِيمَا بَعْدَ إِلَى الْبَحْرِ فِي حَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِكُمْ وَطَلَبٍ مِنْ طَلَبَاتِكُمْ وَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي الْبَحْرِ خَاسِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ.

إِذَا مَنْ تُخْلَصُونَ لَهُ فِي الشَّدَةِ وَتَشْرُكُونَ مَعَهُ فِي الرِّخَاءِ حَقُّهُ وَالْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُخْلَصِينَ لَهُ فِي الرِّخَاءِ وَالشَّدَةِ، لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي أَمْنَةٍ مِنْ عِقُوبَتِهِ وَنَقْمَتِهِ، لَا فِي الْبَرِّ وَلَا فِي الْبَحْرِ.

«كَمَا اتَّفَقَ لِعَكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ لَمَّا ذَهَبَ فَارًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَتَحَ مَكَّةَ، فَذَهَبَ هَارِبًا، فَرَكِبَ فِي الْبَحْرِ لِيَدْخُلَ الْحَبْشَةَ، فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ، فَقَالَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ لَا يَغْنِي عَنْكُمْ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ وَحْدَهُ.

فَقَالَ عَكْرَمَةُ فِي نَفْسِهِ: وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ لَا يَنْفَعُ فِي الْبَحْرِ غَيْرُهُ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدٌ، لَئِنْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهُ لَا ذَهَبَ فَأُضْعِنَ يَدِي فِي يَدَيْهِ، فَلَأُجِدَنَّهُ رَوْفًا رَحِيمًا.

فَخَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ، ﷺ وَأَرْضَاهُ»^(١)، فَكَانَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ فِيهَا الْعِظَةُ لَهُ وَالْعِبْرَةُ فِي دُخُولِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَرَجُوعِهِ لِلدِّينِ.

إِذَا أَوْلَتْكَ كَانُوا يَشْرُكُونَ فِي الرِّخَاءِ وَيَخْلَصُونَ فِي الشَّدَةِ، وَيَقُولُ الْمُصَنِّفُ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/٩٦).

- ﷻ - أما المشركون في زماننا فحالهم أنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة، أي أن حالهم عندما يركبون في الفلك ويعاينون شدة الغرق ومقاربة الموت يفرعون إلى المعبودات التي تعلق قلوبهم بها، ففي مثل هذه الحال تراهم يقولون: مدد يا فلان، أدركنا يا فلان، إن لم تلحقنا في هذا من يلحقنا؟ إن لم تنقذنا من هذا الغرق، من الذي ينقذنا؟ يخاطبون أموات! يخاطبون مقبورين! أنا عائذ بك، أنا ملتجئ إليك، أنا في جنابك... الخ، في الشدة يفعلون ذلك، وهذا شرك ما كان المشركون يفعلونه في حال الشدة.

وقد ذكر بعضهم أن جماعة كانوا في سفينة وأدركهم الغرق، فأخذ كلُّ يهتف بمعبوده: مدد يا فلان، ألحقنا يا شيخ فلان، أدركنا يا فلان.. وينادون، كلُّ ينادي شيخه أو معبوده، فكان فيهم رجل مسن على الفطرة والتوحيد، التفت فإذا كل من على السفينة لا ينادون إلا هذه المعبودات، ليس فيهم من ينادي الله، فمدَّ يديه وقال: يارب! أغرق.. أغرق ما على السفينة من يعبدك، فإن كل من على السفينة متجهين إلى غيرك.

فهؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة، والعياذ بالله؛ لأن من وراء ذلك أئمة الضلال وشيوخ الباطل؛ غرسوا في نفوس هؤلاء التعلق بهم، وقالوا لهم - كما هو واضح في كتب بعضهم -: إذا أدركت الكربة وعانت الشدة في أي مكان فاهتف باسمي وستراني بجنبك، حتى بعد موتي لا تنس ذلك؛ فإني أخرج إليك وأخذ بيدك.

وكتب هؤلاء كتباً يعددون كراماتهم -زعموا-، فيقولون ويتداولون أن من كراماتهم أنه كان ينقذ السفن في البحر من الغرق.

والعوام يسمعون مثل هذه القصص ويصدقونها وترسخ في قلوبهم، ثم إذا ركبوا في الفلك يغلظ شركهم على شرك المشركين الأول، فتجده إلى أن يغرق، إلى أن يموت، وهو ينادي شيخه ويهتف باسم شيخه -والعياذ بالله- على الشرك بالله -نسأل الله العافية والسلامة-.

والله إنها حالة مؤلمة جداً ومؤسفة، تفارق روحه الحياة وهو لا يزال يظن أن شيخه سيأتي، ليدركه، وينقذه؛ لا يعبد الله ولا يخلص لله حتى في شدته.

وهذه المسائل والتوسع فيها والرد على الشبه التي يطرحها أهل الشرك والباطل توسع فيها -رحمه الله ﷺ- في كتاب له معروف، اسمه: «كشف الشبهات»^(١) وهو كتاب مهم جداً، لا يستغني عنه طالب العلم، ذكر فيه هذه

(١) قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «اسم الكتاب مطابق لموضوعه، فالشيخ -رحمه الله ﷺ- أورد فيه الشبهات التي ذكرها أهل البدع، ملبسين بها على الدعوة إلى الحق والصراط المستقيم، ومخالفين فيها لما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة ومن سار على نهجهم، وذلك بتعلقهم بالأولياء والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يدعونهم ويستغيثون بهم، فجمع الشيخ -رحمه الله ﷺ- جملاً كبيرة من هذه الشبه، فيذكر الشبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلاً على ذلك بنصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، وكتابه هذا متمم لكتبه الأخرى في العقيدة، التي أوضح فيها ما يجب اعتقاده وفقاً لنصوص الكتاب والسنة، فإنه بهذا الكتاب أجاب على ما يُورد على العقيدة الصحيحة من شبهات، مبيناً بطلانها ومخالفتها للحق والهدى الذي كان عليه سلف هذه الأمة» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص ٢٦).

القواعد مفصلة تفصيلاً أوسع من هنا، وذكر أيضاً أصولاً أخرى، وتقعيدات وتأصيلات يحتاج إليها المسلم في كشف شبهات أهل الشرك والباطل.

فنسأل الله ﷻ أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء على هذا النصح العظيم، والبيان الموفق والإيضاح للتوحيد والتحذير من الشرك الذي كان هو شغله الشاغل - رحمة الله عليه - في حياته، ففزع الله ﷻ بدعوته نفعاً عظيماً، ولا يزال الناس مع مر الأيام يستفيدون من هذه الدعوة، ويستفيدون من هذا النصح، ويستفيدون من هذه الآيات والحجج والبيانات التي جمعها - رحمه الله ﷻ - فاستفاد من ذلك خلق كثير، واهتدى أقوام كثر وكتب الله ﷻ لهم الهداية، والله الحمد.

ثم ختم - رحمه الله تعالى - الرسالة بقوله: «تَمَّتْ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ»: يوجد في بعض المجتمعات من يصدون الناس عن دعوته، حتى إن بعضهم قيل له - كما ذكر لنا بعضهم ذلك - قيل له في التحذير من الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - أنه لا يصلي على النبي ﷺ!! ويصدق الواحد منهم هذا الكذب، والله المستعان، وهذه كتبه شاهدة على حبه واستدلاله بالنبي ﷺ^(١).

(١) وقد قال ﷻ في عقيدته: «أشهد الله ومن حضرني من الملائكة، وأشهدكم: أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة... وأؤمن بأن نبينا محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته، ويشهد بنبوته...» الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٣٢).

قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «وتعجبني قصة لأحد الفضلاء، وهو

ختم - ﷺ - هذه الرسالة المباركة بقوله: «تَمَّتْ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ».

فجزاه الله خيراً على ما قدّم وأعلى درجاته ورفع موازينه في عليين، وجمعنا به أجمعين وبالصالحين من عباده وبأنبيائه وأوليائه في جنات النعيم، وهدانا صراطه المستقيم، وأصلح لنا جميعاً ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا جميعاً ديانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، ونسأله ﷺ أن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَهْدِينَا وَأَنْ يَهْدِيَ بِنَا وَأَنْ يَهْدِيَ لَنَا، وَأَنْ يجعلنا من عباده المهتدين.
وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



الشيخ ثاني المنصور ﷺ من الجبيل في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية سمعتها ممن سمعها منه مضمونها: أنه زار إحدى الدول التي فتن بعض أهلها بالبناء على القبور والغلو في أصحابها، فلقي جماعة في مسجد فيه قبر لمزوه وأهل بلده بأنهم لا يحبون الرسول ﷺ، فقال لهم: هل في بلادكم حانات للخمر وأماكن للعهر والفجور؟ قالوا: نعم كثيرة!، فقال: إن بلادنا ليس فيها ولا محل واحد، وقال لهم أيضاً: ما حكم الصلاة على النبي ﷺ عندكم في الصلاة؟ قالوا مستحبة، قال: فإنها عندنا ركن، إذا لم يأت بها المصلي في صلاته، لا تصح صلاته، فمن يكون الأولى إذا بمحبة الرسول ﷺ؟ «شرح شروط الصلاة وأركانها وواجباتها» (ص ٨٣).

سَيِّدُ السُّلَاطِينِ شَيْخُ الرِّسَالَةِ ④

شَرْحُ

الْأُصُولُ السِّتِيهَا

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّوَّاحِ بْنِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ

شَرْحُ

عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْحَكِيمِ بْنِ عَبْدِ

إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَدُوٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

لَا يُؤْخَذُ بِالْمُؤَلَّفَاتِ الْمُنْهَوَاتِ

بِإِذْنِ الْمَوْضِعِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْضِيحِ

الله اعلم

مقدمة المعتني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلّ الضالون، أحمده سبحانه
حمد عبد نزه ربه عما يقول الظالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له وسبحان الله ربّ العرش عما يصفون، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله
وخليته الصادق المأمون، اللهم صلّ وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم
بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمّا بعد:

فإنّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيبة ولا سعادة في الدارين،
ولا نجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إلّا بمعرفة أوّل مفروض عليهم والعمل
به، وهو الأمر الذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسوله
إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدنيا والآخرة، والجنة والنار، وبه
حقّت الحاقّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصحف، وفيه

تكون الشقاوة والسعادة، وعلى حسب ذلك تقسم الأنوار ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]»^(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذنوب الشُّرك بعلام الغيوب ﷺ، عن عبد الله بن مسعود قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» (ثلاثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ...»^(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشُّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوعت كتابات علماء أهل السُّنة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوّل ومختصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ «فشمر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عبادِه، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشُّرك،

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذِي جعل في كُلِّ زمان من يقول الحق، ويرشد إلى الهدى والصِّدْق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبس الجاهلين المفتونين^(١).
وقد كتب ﷺ العديد من الكتب والرسائل نُصَحاً للأُمَّة فيما ينفعها، وتحذيراً لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (الأُصُولُ السُّتَّة)، وهو بحث نافع لطيف، مائع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعاً - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

وَمِنْ بابِ التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسّة إليه، قُمتُ بالاعتناء بهذه الرِّسالة؛ وأصلها دروس للشيخ فُرِّغت؛ فاستأذنته في إخراجها في كُتَيْب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إِلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيراً^(٢).
وَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ الْمُحَافَظَةَ على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِهِ إِلَّا مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنْ إِضَافَةٍ مَا يُرْبِطُ بِهِ الْكَلَامُ لِتِمَامِ الْمَعْنَى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

(١) «الدُّرَرُ السُّنِّيَّةُ فِي الْأَجُوبَةِ النَّجْدِيَّةِ» (١/١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبَوِيَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/١٢/٢٠١٧م.



سائلًا الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء
كل من أسهم في إخراجه للمتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.
وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مَدْبُكُم فِي اللَّهِ
أَبُو عَبْدِ الْعَزِيزِ مُنِيرُ الدُّرَى

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095



مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صَلَّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فبين أيدينا رسالة قيّمة مختصرة للإمام المجدّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب رحمه الله؛ جمع فيها أصولاً ستّة عظيمة بيّنت في كتاب الله تعالى بياناً وافياً، وذكّرت لها الدلائل البيّنة والشواهد الواضحات في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله؛ بحيث كانت واضحة وضوحاً لا خفاء فيه، وظاهرة ظهوراً لا التباس فيه، ومع ذلك فقد ضلّ فيها أكثر النَّاسِ وانحرفوا فيها عن جادة الصّواب وعن الطّريق السّويّة، وقد نصّح هذا الإمام رحمه الله للأمة بجمعه هذه الرّسالة المشتملة على أصول ستّة من أصول هذا الدّين المبيّنة في الكتاب والسّنة مشيراً إلى أهمّيّتها وعظم شأنها

ومنبهًا في الوقت نفسه على نوع الانحراف الذي وقع فيه أكثر الناس فيما يتعلق بهذه الأصول الستة.

فجزاه الله خير الجزاء، ورحمه رحمةً واسعةً على ما قدّم فيه نفعًا للأمة.
هذا؛ والله الكريم أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله لوجهه خالصا ولسنة نبيه مطابقا، إنه ﷺ خير مسؤول، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عَبْدُ الرَّزَاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدْرِ



[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى و قدس روحه في الجنة -، قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من أعجب العجائب وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بيّنها الله تعالى بيانا واضحا للعوام فوق ما يظن الضانون، ثم بعد هذا غلط فيه كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم إلا أقل القليل».

[الشرح]

الإمام رحمه الله بدأ هذه الرسالة بذكر عظم شأن هذه الأصول الستة، وأنها قد بينت في كتاب الله ﷻ، وفي سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه بيانا وافيا، وقد ذكر رحمه الله هذه الأصول وأشار في بداية حديثه عنها أنها أصول ستة، وذكره رحمه الله لهذا الرقم في بداية حديثه عن هذه الأصول نوع من الإعانة لطالب العلم على ضبط العلم، فلو أنه ذكر هذه الأصول نثرا دون إشارة إلى رقم يجمعها ربما ضعف ضبط طالب العلم لها، لكن إذا قرأها وعرف أنها ستة استجمع ذهنه لضبطها؛ وهذا من هدي النبي ﷺ في سنته ﷺ؛ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»^(١).

وقال: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ،

وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا أُؤْتِمْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ^(١).

وقال ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»^(٢).

فيأتي عنه ﷺ مثل هذا كثير، فلا يذكر الأمور نثراً وإنما يذكر لها رقما يحويها بحيث تُضبط المسائل المقصود بيانها و تقريرها وإيضاحها؛ ولهذا قال ﷺ ستة أصول.

وقوله «أصول»؛ الأصل: هو ما يُبنى عليه غيره، وهو الأساس لغيره، وهذا تنبيه من المصنّف ﷺ إلى أن هذه من الأصول الكبار والقواعد الجوامع الكلية، ومع ذلك إلا أنه قد ضلّ فيها أكثر الناس.

وبدأ ﷺ هذه الرسالة بالتعجب الشديد الذي طرحه ﷺ؛ ليشركه طالب العلم في التعجب والتأمل في هذا الأمر؛ فقال: «من أعجب العجائب» أي: من أشدّ الأمور إثارة للعجب في الأذهان.

«وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب»: هنا نبّه على أمرين:

نبّه على أن الأصول الآتي تقريرها مع مخالفة أكثر الناس لها رغم وضوحها تدلّ على أمر عجيب جدّاً في حال الناس وواقعهم.

وتدلّ أيضاً في الوقت نفسه على كمال قدرة الله ﷻ.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٥٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٧١)، والحاكم في «مستدركه» (٨٠٦٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٤٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

«على قدرة الملك الغلاب»؛ «الملك»: أي الذي بيده الملك، المتصرف في هذا الكون عطاءً ومنعاً، خفضاً ورفعاً، قبضاً وبسطاً، يعزّ ويذل، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضل.

فالذي يتأمل هذه الأصول الستة وواقع الناس معها تدلُّه على كمال قدرة الملك الغلاب؛ و«الغلاب» كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ^(١): أي حكمه نافذ، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، يتصرف في مملكته وفي مخلوقاته كيف شاء، ويدبرها كما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، فالأمر بيده .

وَمِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِهِ هَذِهِ الْأَصُولُ السَّتَةُ الْوَاضِحَةُ وَالْبَيِّنَةُ وَضُوحُ الشَّمْسِ، ومع ذلك يضلُّ أكثر الناس فيها عن سواء السبيل وينحرفون عن الجادة السويّة؛ فهذا أمر مدعاة للتعجب الشديد، وفي الوقت نفسه فيه دلالة على قدرة الله وكمال ملكه، وأنه غلب على أمره، وأنَّ حكمه نافذ وأنَّ الأمور بيده، يحكم في خلقه بما يشاء ويقضي فيهم بما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه .

قال: «وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بينها الله تعالى بياناً واضحاً للعوام فوق ما يظن الظانون»: هذا تأكيد من المصنّف على

(١) يُنظر: «فقه الأسماء الحسنی» (ص ٢٦١) لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه

وضوح هذه الأصول الستة، ووضوحها وبيانها في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ ؛ قال: «بينها الله بياناً واضحاً» أي: جعلها أموراً بيّنة ليست ملتبسة، أي ظاهرة لكل أحد، فليس فيها خفاء ولا يكثر ثنها غموض، ولا يلبسها تعقيد، بل هي واضحة ظاهرة في كتاب الله ﷻ، وكذلك في سنة نبيه ﷺ.

«بياناً واضحاً للعوام»: أي أن وضوح هذه ليس أمراً مختصاً بأهل العلم أو بالراسخين فيه فقط؛ بل هي واضحة حتى للعوام؛ فضلاً عما هو أرفع وأعلم وأفقه منهم، فهي واضحة للعوام تماماً «فوق ما يظنه الظانون»: يعني وضوحها فوق ما قد يُظنّ، فقد يظنها الإنسان واضحة لكن وضوحها القوي الظاهر البين فوق ما يظنه الظانون، ومتى يظهر هذا المعنى الذي قاله الشيخ ﷺ؟ عندما يتأمل المسلم أنواع الأدلة الواردة في الكتاب والسنة في تقرير هذه الأصول، وأنها أقيمت عليها الحجج البيّنات بأنواع من الأدلة؛ بحيث أن هذا البيان لهذه الأصول فوق ما قد يُظنّ، لا من حيث تنوع الأدلة فقط، بل حتى من حيث كثرة عددها.

فمثلاً الأصل الأول الذي سيأتي الكلام عنه وهو (إخلاص الدين لله وبيان ضده الذي هو الشرك...)؛ قال الإمام ابن القيم ﷺ «وغالب سور القرآن بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد؛ بل نقول قولاً كلياً إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه»^(١).

فالشاهد أن هذه الأصول بُيّنت بياناً واضحاً لا خفاء فيه، وليس هذا البيان

لأهل العلم فقط؛ بل يفهمها كلُّ مَنْ يفهم اللسان العربي الَّذي أنزل به القرآن الكريم.

«ثُمَّ بعد هذا كله غلط فيها كثير من أذكىء العالم»: أي رغم وضوحها الشديد وبيانها البين وكونها لا خفاء فيها ولا التباس؛ ومع ذلك كله غلط كثير من أذكىء العالم، هنا قوله: «غلط فيها» هذا موضع العجب، وهنا ظهور الآية الَّتِي قال: «آيات دالة على قدرة الملك».

فتعجب غاية العجب عندما يكون هناك طريق يوصل إلى البلد المقصود، واللوحات الإرشادية للطريق كثيرة جداً، فكلّما تمشي خطوتين تجد لوحة إرشادية، مثلاً: طريق مكة وسهم يشير إليه، ثُمَّ تمضي وفي الطريق أيضاً تجد السهم يشير، ثُمَّ في الوقت نفسه تجد كثيراً من الناس يريدون مكة ولكنهم يأخذون ذات اليمين وذات الشمال يضيعون ويضلون وينحرفون!! هذا أمر في غاية العجب؛ لأنك إذا تأملت وضوح الطريق وكثرة اللوحات الإرشادية الدالة عليه ثُمَّ نظرت إلى أكثر الناس ينحرفون عنه، تتساءل وتقول: هل الطريق غير واضح؟ ثُمَّ تجيب نفسك: وهل أوضح من هذا؟! هل فيه أزيد من هذا الوضوح؟! فهذا أمر في غاية العجب، كثرة الدلائل والحجج والبراهين، ثُمَّ في الوقت نفسه كثرة المنحرفين والزائغين والضالين، وفيه أيضاً دلالة على أَنَّ الأمور بيد الله ﷻ: الهداية، الاستقامة، صلاح العبد، التوفيق، وسلوك العبد للطريق القويم.

وقد سُئل أعرابيٌّ قيل له: بما عرفت ربَّك؟ قال: «بنقض العزائم وصرف

الهِمَم»^(١)؛ عرفتُ ربِّي بهذا، أنْ عزمي على شيء أو همَّتي على أمرٍ مِنَ الأمور فتنتقض، وأتجه إلى غيره وأنا عازم إلى أمر معين وإذا بي أتوجه إلى آخر، فهذا يدلُّ على أنَّ الأمور بيد الله ﷻ، وليس هذا معناه أن العبد لا مشيئة له ولا اختيار؛ بل له مشيئة تدل عليها النصوص في كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ ويدل عليها واقع الإنسان، ولو تأمل الإنسان واقعه وحياته وأموره يجد أنَّ عنده مشيئة واضحة يختار بها طريق الخير وطريق الشر، ولكن مشيئته تحت مشيئة الله، قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير].

قال: «غلط فيها كثير من أذكاء العالم» وهذا فيه دلالة على أنَّ الذكاء وحده لا يكفي العبد في استقامة أموره وصلاح أحواله، فكم ممن ذكأؤهم مفرط، وذهنهم وقاد، وفهمهم قوي، لكنهم يضلُّون كما قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم]، فذكأؤه خارق وقوي جدا، لكن أهمَّ أمر خُلِق لأجله ووُجد لتحقيقه ليس عنده منه علم؛ بل تُعرض عليه حجج واطِّحات ودلائل مقنعات فيرفضها ويأبأها ولا يقبلها! لا لكونه لا يفهم، بل هو يستوعب أمورا دقيقة وعسيرة الفهم، ثمَّ يُعرض عليه أبين الأمور وأوضحها فلا يفهمها ولا تقبلها نفسه!

قال: «ومع ذلك غلط فيها كثير من أذكاء العالم وعقلاء بني آدم» وهؤلاء الَّذِينَ وصفهم الشيخ رحمه الله بالذكاء هم في الحقيقة كما يقول شيخ الإسلام ابن

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعليقا على هذا الكلام: «فالإنسان يعزم على الشيء ثمَّ لا يدري إلا وعزمته متقضة، بدون سبب ظاهر» «القول المفيد» (٢/ ١٧٠).

تيمية ﷺ: «أُوتُوا ذَكَاءَ وَمَا أُوتُوا زَكَاءَ، وَأُعْطُوا فَهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا، وَأُعْطُوا سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً» ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذَا كَانُوا بِجَحْدُونَ﴾ بَيَّانَتِ اللَّهُ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾ ﴿[الأحقاف]﴾^(١)؛
فما أغنى عنهم ذكاؤهم ولا أغنت عنهم عقولهم ولا انتفعوا بها، وإذا كان عنده انتفاع بعقله فانتفاعه به محدود ينتهي بموته وليس لعقله ثمرة بعد ذلك؛ ولهذا يندم أهل النار غاية الندم لعدم استعمالهم لعقولهم فيما خلقت له وأوجدت لتحقيقه، ويقولون نادمين: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿[الملك]﴾، لكن فساد العقل وانحرافه يفضي بالإنسان إلى هذا الزلل، والعياذ بالله.

قال: «إِلَّا أَقْلُ الْقَلِيلِ» أي: أن أكثر الناس ضلُّوا في هذا الباب، قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿[يوسف]﴾.

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿[سبأ]﴾، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿[يوسف]﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فأقلُّ القليل هم الذين هُودوا إلى صراط الله المستقيم واستقاموا على الجادة السويّة، وأكثر الناس ضلُّوا عن سواء السبيل.

والمؤلف ﷺ قصد بهذه المقدمة أن ينبّه طالب العلم على أهميّة هذه الأصول الستّة وعظيم مكانتها - هذا من جهة - وأن ينبّه طالب العلم على ضرورة إقباله

الصَّادِقَ عَلَى اللَّهِ ﷻ لِيَهْدِيَهُ وَيُثَبِّتَ قَلْبَهُ وَأَنْ لَا يَزِيغَهُ عَنْ سَوَاءِ الصِّرَاطِ، وَمِنْ دَعَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١).

وَمِنْ دَعَوَاتِهِ ﷺ أَيْضًا: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْحَيُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»^(٢).

وَأَرَادَ أَنْ يَنْبِّهَهُ أَيْضًا عَلَى ضَرُورَةِ الْعَنَاءِ بِهَذِهِ الْمَسَائِلِ؛ بِضَبْطِهَا وَإِتْقَانِهَا، وَأَرَادَ أَنْ يَنْبِّهَهُ أَنَّ الذِّكَاءَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي إِذَا لَمْ يُرْزَقْ صَاحِبُهُ السَّدَادَ وَالتَّوْفِيقَ مِنَ اللَّهِ ﷻ، فَلَا يَغْتَرِ الْإِنْسَانُ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ ذِكَاءٍ وَمَا لَدَيْهِ مِنْ نَبَاهَةٍ، فَكَمْ مِنْ ذَكِيٍّ لَمْ يَنْتَفِعْ بِذِكَايِهِ وَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْهُ، وَأَرَادَ أَنْ يَنْبِّهَهُ أَيْضًا عَلَى خَطَرَةِ الشُّبُهَاتِ وَأَنَّهَا تُضِرُّ بِالنَّاسِ غَايَةَ الضَّرَرِ لِأَنَّهَا تَقْلِبُ الْحَقَائِقَ وَتَخْلُطُ الْأَوْرَاقَ وَتُرْدِي بِالنَّاسِ وَتُخَلُّ بِالْعُقُولِ وَتَفْسِدُ الْأُذْهَانَ، فَالشُّبُهَاتُ غَايَةُ فِي الْخَطَرَةِ، وَإِذَا أَصْغَى الْإِنْسَانُ لَهَا وَأَعْطَاهَا سَمْعَهُ أَضَرَّتْ بِعَقِيدَتِهِ، وَبِعِبَادَتِهِ، وَبِصِلَتِهِ بِرَبِّهِ ﷻ.

فَهُنَا تَنْبِيهُ مِنَ الْمَصْنُفِ ﷻ لَطَالِبِ الْعِلْمِ أَلَّا يَخَاطِرَ بِدِينِهِ بِسَمَاعِهِ لِلشُّبُهَاتِ وَمُطَالَعَتِهِ لَهَا؛ لِأَنَّهَا خَطِيرَةٌ جِدًّا وَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ مَلَقَّنُ حِجَّتَهُ؛ أَيُّ شِبْهِهُ عَلَى النَّاسِ وَيَلْبِسُ عَلَيْهِمْ، فَمَنْ أَرَخَى لِنَفْسِهِ الْعَنَانَ فِي سَمَاعِ الشُّبُهَاتِ وَأَصْغَى إِلَيْهَا أَفْسَدَتْ قَلْبَهُ.

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢١٤٠)، وَابْنُ مَاجَهَ (٣٨٣٤)، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٢٠٩١).

(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٢٠)، وَمُسْلِمٌ (٢٧١٧)، وَاللَّفْظُ لَهُ.

ولا يقول الإنسان في هذا المقام: أنا عندي ذكاء وعندي عقل أُمَيِّز ولا تضرّني! فقد كان أئمة السلف وعلماء السُنَّة رحمهم الله على ما آتاهم الله ﷻ مِنَ العلم والفهم والذكاء، ما كانوا يصغون إلى مجادل ولا لأرباب الشبهات وأهل الأهواء ولا يتيحون لهم الحديث في مجالسهم، حتى ولا نصف كلمة كما جاء عن بعضهم، كلُّ ذلك حفظاً للدين ومحافظة عليه وصيانة له مِنَ الزَّلَل .



[المتن]

قال ﷺ:

«الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم».

[الشرح]

قال ﷺ: «الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له»: بدأ هذه الأصول بهذا الأصل العظيم لأنه أصل الأصول وبقيتها تبع له، لأنها أصول تعين على تحقيق هذا الأصل، فالمقصود أصالة هذا الأصل، وهي الغاية التي خلق الناس لأجلها وأوجدوا لتحقيقها.

وهو «إخلاص الدين لله»: ومعنى الإخلاص لله ﷻ: أي أن يأتي العبد بالدين خالصاً لله ﷻ، أي نقيّاً صافياً لم يجعل مع الله ﷻ فيه شريك؛ لأن معنى الخالص في لغة العرب: أي الصافي النقي، ما لا شائبة فيه تكدره.

ويوضح لنا هذا المعنى من حيث اللغة قول الله تعالى: ﴿وَأَن لَّكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ ۚ فُتَقِمْ كُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل].

فقوله ﴿لِّبَنَاءٍ خَالِصًا﴾: وصف اللبن بأنه خالص، أي: يتصف بالصفاء والنقاوة،

وأخبر ﷺ أن هذا اللبن الخالص قد خرج من بين فرث ودم، حتّى قال بعض أهل الخبرة: إنّ خروجه من بين الفرث والدم يكون عند الحلب وفي وقته.

ومن الدلائل على ذلك من حيث الواقع أنّ النّاقة على سبيل المثال إذا أراد صاحبها حلبها يأتي إلى ثديها فيحلب لا يجد حليباً، فإذا قرّب ولدها منها ونظرت إلى ولدها عند ضرعها أدّرت الحليب ثمّ حلب، فيحلب من جهة ولدها يرضع من جهة أخرى، فيخرج الحليب من بين فرث ودم صفته خالص أي: لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث وهو للتو خرج من بين الفرث والدم، صافٍ مصفّى نقي منقى، أخرجّه الله تعالى بهذه الصفة خالصاً، ثمّ جعله أيضاً ﷺ سائغاً، مع علم الإنسان بمخرجه لكنه يستسيغه ويستلذه ويرى له طعمًا لذيذاً.

الشّاهد قوله: ﴿خَالِصًا﴾ أي صافيا نقيّاً لا شائبة فيه، فاللبن لما لم يكن فيه نقطة دم وقطعة فرث خرج صافيا وصف بهذا الوصف ﴿خَالِصًا﴾ أي صافيا نقيّاً^(١).

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ٥﴾ [البينة]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، هو الدّين الصافي النقي الذي لم يقصد به إلا الله: لم يُتَقَرَّبْ به إلا لله، فإذا دخل نية العبد في دينه وفي قرباته سوى الله ﷻ، وقصد التقرّب إليه خرج

(١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «قوله: ﴿مَنْ بَيْنَ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أي: يتخلّص الدّم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدّته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الصّرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكلُّ منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغيّر به» «تفسير القرآن العظيم»

من الإخلاص لأنه لم يصبح صافياً، ولهذا كان الشُّرك: عدل غير الله ﷻ بالله، فالمشرك خرج من الإخلاص لأنه عدل غير الله بالله وسوَّى غيره ﷻ به في إعطاء غير الله من حق الله ﷻ وخصائصه سبحانه، وهذا نقيض الإخلاص.

ولهذا يمكن أن نعرّف الإخلاص بمعناه بحيث نقول: الإخلاص هو الدِّين الصَّافي النَّقي الَّذي لم يرد به إلَّا الله.

ويمكن أن نعرفه بنفي ضده، فنقول: الإخلاص هو الَّذي لا شرك فيه.

والشرك نوعان: نوعٌ ينافي التَّوحيد من أصله، ونوعٌ ينافي كماله الواجب.

نوع ينافي التَّوحيد من أصله: وهو الشُّرك الأكبر النَّاقِل مِنْ مِلَّةِ الإسلام؛ وهو تسوية غير الله بالله ﷻ فيما هو مِنْ خصائصه ﷻ.

والشُّرك يقع في أنواع التَّوحيد الثلاثة: الشُّرك في الربوبية، والشُّرك في الألوهية، والشُّرك في الأسماء والصفات، فإعطاء غير الله شيئاً من خصائص الله في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، هذا شرك أكبر ناقل من مِلَّةِ الإسلام، والمعتك بين الأنبياء وأقوامهم هو في شرك العبادة، أما ما يتعلق بالإقرار بربوبية الله فالغالب يقرون بأنَّه الرَّبُّ الخالق الرَّازِق، ومن أنكر منهم أنكر على وجه المعاندة والاستكبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فالغالب جحد مَنْ جحد عن استكبارٍ ومعاندة، والمعتك في هذا الباب بين الأنبياء وأقوامهم في باب العبادة وإخلاصها لله ﷻ وعدم جعل الشريك معه فيها كما سبق.

والنوع الثاني: الشُّرك الأصغر: وهو كل ما جاء في النُّصوص وصفه شركاً ولم يصل إلى رتبة الشُّرك الأكبر النّاقِل من المِلَّة؛ كيسيّر الرِّياء، وكشرك الألفاظ، مثل حلف الإنسان بغير الله، وقوله: (ما شاء الله وشئت)، وقوله: (لولا البط لأتانا اللُّصوص)، ونحو ذلك من الألفاظ الشُّركية الّتي يصدر من الإنسان لفظها ولا يعتدّ حقيقتها ومضمونها من تسوية لغير الله ﷻ بالله (١).

قال: «الأصل الأوّل: إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له»: إخلاص الدّين لله أي: إخلاص تدين العبد لله، وتقربه إليه بالأعمال الصّالحات والطّاعات الزّاكيات.

إخلاص الدّين لله: أي لا لغيره؛ بأن يقع العمل من العامل مبتغيّاً به وجه الله ﷻ، لا يريد به إلّا الله والتّقرب إليه ونيل رضاه ﷻ.

وفي قوله ﷻ: «إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له» تنبيه إلى أنّ الإخلاص له ركنان لا يكون إلا بهما؛ وهما: الإثبات والنّفي.

١/ الإثبات في قوله: «وحده».

٢/ والنّفي في قوله «لا شريك له».

فلا يكون العبد مخلصاً إلّا بالنّفي والإثبات وهما ركنا التّوحيد؛ إثبات العبادة بكلّ معانيها لله وحده ونفيها عمّن كل من سواه كما هو واضح في كلمة التّوحيد

(١) انظر كلاماً مهمّاً ومفصّلاً حول هذا المبحث من كلام شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه «شرح الدُّروس المهمّة لعامة الأُمَّة» (ص ١٠٤).

«لا إله إلا الله» فإنَّها قائمة على هذين الركنين: نفي عام في أولها، وإثبات خاص في آخرها.

«لا إله» نفي للعبودية عن كل من سوى الله، و«إلا الله» إثبات للعبودية بكلِّ معناها لله ﷻ وحده، فمن نفي ولم يثبت لا يكون موحدًا، ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحدًا، بل لا يكون من أهل التَّوحيد إلا بالنَّفي والإثبات، من نفي بدون إثبات قال «لا إله» واكتفى بهذه الكلمة دون أن يثبت الألوهية لله بعد نفيها عنِّ سواه فإن هذا إلحاد، وعقيدة الملاحدة: (لا إله والحياة مادة) نفي لوجود الإله أصلاً.

ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحدًا؛ من قال: أنا أو من بأنَّ الله معبود ولكن لا أنفي العبودية عنِّ سواه؛ هذا لا يكون موحدًا بل هو مشرك.

والإخلاص بُيِّن في القرآن والسُّنة النَّبوية ورُغِب فيه، والشُّرك كذلك بُيِّن وحذَّر منه فيهما، وتنوعت الدَّلالاتُ فيهما في بيان الشُّرك وبيان خطورته والتَّحذير منه وسوء عاقبته على أهله، وتمرَّك في القرآن آيات كثيرة فيها ذكر الشُّرك والتَّحذير منه وذمَّ المشركين والتَّحذير منهم، ولو أنَّك رجعت إلى بعض المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن عند كلمة (شرك) وتصريفاتها تجدها وردت فيه وروداً كبيراً في مواضع كثيرة جداً؛ ذمًّا له وتحذيراً من أهله وبياناً لسوء عواقبهم في الدُّنيا والآخرة، هذا ما كان منها بلفظ (شرك)، وكذلك لو نظرت إلى الألفاظ الأخرى: ﴿وَمَنْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ﴾ - مثلاً - هذا أيضاً تحذير من الشُّرك ولو لم تذكر الكلمة نفسها؛ كقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) [فاطر].

وقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٧) ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨) [الشعراء].

فهذا كله ذمٌ للشرك، فقد ذم في القرآن بذكره بلفظه، وذكر أيضاً بالفاظ ومعاني وتقارير أخرى، فبين بياناً وافياً واسعاً شافياً كافياً في كتاب الله ﷻ. قال: «وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى؛ القرآن أكثره في بيان هذا الأصل من وجوه شتى، هذه الكلمة تفتح لك باباً شريفاً من العلم وأنت تقرأ القرآن، فأعظم الأمور المبيّنة في القرآن هو التوحيد والتحذير من ضده وهو الشرك، وبيّن في القرآن بياناً شافياً يفهمه الناس، فلم يكتب المؤلف ﷺ بقوله: يفهمه العامة، بل قال: «يفهمه أبلد العامة» أي: واضح جداً، وبأنواع من الأدلة؛ فكيف يليق بمسلم عاقل يمرّ عليها ولا يدري ما هي؟! ولا يفهم معناها، أو يتجاهلها، أو يعرض عن فهمها، أو يرتكب المسلك الذي يرتكبه من ضلوا عن سواء السبيل بالصد عن تدبر القرآن - وهذا سيأتي الكلام عليه عند المصنّف - صدّ الناس عن تدبر القرآن وفهم آياته، وبعض العوام إذا ذكر له آيات التوحيد والتحذير من الشرك يقول: (هذه آيات من القرآن، وفهمه ليس لكل أحد) هكذا يقول بعضهم! أي: إنّما فهم القرآن خاص بالمجتهدين، والمجتهد صفة كذا وكذا، ونحن لا نفهم ولا يجوز لنا أن نحاول أن نفهم، فهكذا لبس على كثير منهم، وأصبح يقرأ آيات

التوحيد والآيات المحذرة من الشرك ولا يحاول أن يفهم منها شيئاً، ويبقى فهمه على ضوء ما قرّر له أשיأخه.

وقد مرّ معي في بعض الكتب قصّة جميلة في هذا الباب: وهي أن أحد الذين منّ الله عليهم بفهم التوحيد جلس مع رجل من العوام ثمّ وجده وقع في أمر شركي فنهاه عن الشرك وتلا عليه آية من القرآن في التحذير منه، كقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، أو ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فقال له ذلك الرجل: لِمَاذَا تذكر لنا آيات القرآن، وأنت لست من أهل الاجتهاد؟ ومثلي ومثلك لا يمكن أن يذكر الآيات ويستدل بها، فردّ كلامه بهذه الطريقة، فالرجل سكت ولم يتكلّم معه، ثمّ انتظر بعد قليل وكانوا في بيت ذلك الرجل، فجاءت ابنة صغيرة له فسأله: مَنْ هذه؟ قال: هذه ابنتي عمرها سبع سنوات، قال: فلماذا لا تتزوجها؟ قال: اتّق الله! هذه ابنتي، كيف تقول هذا الكلام؟! قال: لماذا لا تتزوجها؟ إيش المانع؟! فغضب الرجل، وقال: ما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

فلاحظ الآن صاحب الهوى لما يؤتى له بالدليل الذي يرد هواه وباطله يمتنع بهذه الشبهة، لكن إذا تحدّث في الأمور الأخرى التي يرتضيها تجده يستدل بالقرآن، فإذا قرئت عليه آيات الشرك ردّها بطرق عديدة، وإذا تليت عليه آيات في الأخلاق أو في الآداب أو في المعاملات أو في أمور أخرى يتقبلها، أما آيات الشرك فلما قام

في قلبه من الشبهة التي صرفته عن التوحيد وجرفته عنه يمتنع من قبول الآيات، ودعاة الضلال وضعوا في هذا الباب قاعدة سيأتي ذكرها عند المصنّف والتنبية على خطورتها في أصل قادم، قال: «وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة».

«ثم لما صار على أكثر الأمة ما صار»: أي من الجهل بالدين ودروس العلم وقلة الفهم بكلام الله وكلام رسوله ﷺ وتكاثر الشبهات على الناس، «أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم»: فانظر إلى مكر الشيطان بهؤلاء؛ أظهر لهم الإخلاص في صورة تنقص الصالحين، وأنّ المخلص الذي لا يريد أن يُقصد بالعمل إلا الله ﷻ يقولون في حقّه هذا لا يعرف قيمتهم ومكانتهم، وجاههم، ولا يعرف فضلهم، وربما قالوا: هذا لا يحبهم، وربما ارتقوا أيضاً وقالوا: هذا يشتم الصالحين ويسبهم، وهكذا يأتي ركام من الكلام الباطل الذي هو من مكر الشيطان بهؤلاء.

قال ﷻ: «أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقهم» بمعنى: أن الذي لا يذهب إلى القبر متوجّهاً إلى صاحبه ملتجئاً إليه باكيًا بين يديه متذللاً منكسراً بزعمهم لم يعرف قيمة هذا الولي الصالح، وأصبحت معرفة مكانته وقدره عند هؤلاء ارتبطت بالشرك، فلا يعرف منزلته إلا من جعله شريكاً لله - هذا بزعمهم -.

ومن لا يستنجد بهم، ولا يستغيث بهم، ولا يذبح لهم، ولا ينذر لهم، ولا

يصرف لهم من أنواع العبادة هذا يتنقصهم ولا يعرف مكانتهم، فهذا بزعم هؤلاء الذين مكر بهم الشيطان.

كذلك «وأظهر لهم الشُّرك في صورة محبة الصالحين واتباعهم» بمعنى: أن الذي يقوى فيه التقرب إلى الصالحين بما لا يُتقرب به إلا إلى الله ﷻ، هذا محبٌ لهم وعرف قدرهم، وأما من سواه فهو لا يعرف قدر الصالحين ولا يحبهم، وبهذا المكر ضل أكثر الناس عن سواء السبيل، مع أنه لا ارتباط بين الأمرين!

فباب الإخلاص هذا حقٌّ لربِّ العالمين وحده، وأما محبة الصالحين ومعرفة قدرهم لا يرتبط لا من قريب ولا من بعيد بإعطائهم شيء من خصائص الله ﷻ، ولهذا كان النبي ﷺ مع بيانه للتوحيد سدَّ كل المنافذ التي تفضي إلى الشُّرك: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ؓ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجْعَلْتَنِي وَاللَّهِ عَدْلًا بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(١).

وما رُوِيَ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»^(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ ؓ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٧)، والحاكم في «مستدرکه» (٧٦٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٩)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٨٦٢).

فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجِرِبَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»^(١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ ﷻ»^(٢).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا^(٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنهما ذَكَرَتَا كَنِيْسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا نَصَاوِيرٌ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَوْلَيْكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ

(١) رواه أبو داود (٤٨٠٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢١١).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٤) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَصَوِّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ مُعَوِّذٍ رضي الله عنه قَالَتْ دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنَيَّ عَلَيَّ ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي ، وَجُورِيَّاتٍ يَضْرِبْنَ بِالْذُّفِّ ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولِي هَكَذَا ، وَقُولِي مَا كُنْتَ تَقُولِينَ»^(٢) ، وجاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة جداً.

فقد بين ﷺ التَّوْحِيدَ وَحَذَرَ مِنَ الشُّرْكِ وَحَمَى حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدَّ الذَّرَائِعَ الَّتِي تَفْضِي بِالنَّاسِ إِلَى الشُّرْكِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٢٨) [التوبة: ١٢٨].

بَيَّنَّ ﷺ الْبَيَانَ الْوَافِي ، وَمَعَ وَضُوحِ هَذَا الْأَمْرِ وَجَلَاءِهِ وَعَدَمِ خَفَائِهِ إِلَّا أَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ ضَلُّوا فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ ؛ بِسَبَبِ الشَّبَهَاتِ ، وَبِسَبَبِ مَكْرِ الشَّيْطَانِ بِهِؤَلَاءِ ، وَإِصْغَائِهِمْ لِدَعَاةِ الضَّلَالِ وَالْبَاطِلِ ، وَكَذَلِكَ بِسَبَبِ النَّشْأَةِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الَّتِي لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا صَوْتَ مَنْ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ ؛ بَلْ إِلَى صَوْتِ أَهْلِ الشَّبَهَاتِ فَقَطْ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

وَلَا أُنْسَى قِصَّةَ مَرَّتِ عَلَيَّ مَعَ شَخْصٍ كَانَ جَالِسًا إِلَى جَنْبِي فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ مِنْذُ سَنَوَاتٍ ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَكَانَ مَادًّا يَدِيهِ يَدْعُو ، ثُمَّ أَزْدَادُ فِي

(١) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) رواه البخاري (٤٠٠١).

اجتهاده بالدعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه؛ فأثر في خشوعه، ثم رفع صوته قليلاً في دعائه فإذا به يقول في دعائه متذللاً: (يا رسول الله)، ويعرض حاجاته، مستغيثاً مستنجداً! فتحدثت معه طويلاً: بدأت حديثي معه أولاً بسؤاله عن صحته وعن بلده وعن أولاده وعن سفره وعن أمور عديدة، ثم لما اطمأن للحديث معي انتقلت إلى جانب آخر وهو أهمية الدعاء ومكانته في الدين، وأخذت أسوق له آيات وأحاديث عديدة في فضله، ففرح بها لأنه كان يدعو، ثم التفت إليّ وكأن الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويكي يريد من الرسول ﷺ أن يكشفها عنه ويجليها، ثم انتقلت إلى حديث آخر أبين فيه أن الدعاء حق لله ﷻ وحده، وأن هذه المسألة بينت في القرآن بياناً واضحاً لا خفاء فيه، وأخذت أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ نَادَعُوا رَبَّهُمْ فَلْيَسْمِعُوا دُعَاءَهُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَهُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ ۝١٣﴾ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء].

وقوله ﷻ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ ۝٢٢﴾ [سبأ].
وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۝٥٥﴾ [الأحقاف].

وآيات في هذا المعنى عديدة، ثم انتقلت إلى السنة وبدأت أذكر له أحاديث نبوية

في ذلك، وكل ذلك وهو يصغي إليّ، ثم ذكرت له أمثلة من أدعية النبي ﷺ، قلت له: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(١).

وكان إذا خرج ﷺ من بيته قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(٢).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلًا فَقَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْبَجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(٣).

وذكرت له نماذج واضحة لا لبس فيها يفهمها العامي فضلاً عن غيره، أنهيت وهو يسمع بكلّ إصغاء وإنصاتٍ، فأحببتُ أن أطمئن هل فهم الرجل أم لا؟ وهل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحْتُ عليه سؤالاً: ما رأيك؟

فقال لي: تقول لي ما رأيك؟! وأنت تقرأ عليّ آيات وأحاديث؟!!

فقلت: لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

استوعبت وفهمت وعقلت معاني هذه الآيات والأحاديث أم لا؟ فقال لي كلمة عجيبة: أنا من بلد كذا وكذا - سمى لي بلده - ما أعقل أن أحدا قال لي هذا الكلام! أي أنه نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات، وإذا حضر درساً أيضاً عرضت عليه شبهات، وإذا قرأ كتاباً من الكتب التي حوله تعرض عليه كذلك، ثم ينشأ ويكبر ولا يسمع إلا هذا الكلام الباطل، وأما آيات التوحيد التي هي واضحة حُجبت وغُيِّبَتْ عنه، و حُذِّرَ أيضاً من فهمها بقواعد باطلة، وسيأتي كلام المصنف لاحقاً عن هذا الأمر .

فهذا أصل الأصول وأعظمها، ويُنَبِّه في القرآن بياناً وافياً يفهمه أبلد العامة؛ ومع ذلك ضلَّ فيه أكثر الناس! والله ﷻ هو الهادي إلى سواء السبيل، والتَّوْفِيقُ بيده وحده ﷻ .



[المتن]

قال الإمام رحمه الله:

«الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبين الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلّفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرق فيه، ويزيده وضوحاً ما وردت به السُّنة من العجب العجائب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقّه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق مجنون».

[الشرح]

قال المصنف رحمه الله: «الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبين الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلّفوا قبلنا»: هذا الأصل من الأصول العظيمة المبيّنة بياناً وافياً شافياً في كتاب الله ﷻ وفي سنة نبيه ﷺ، وقد تكاثرت النصوص في ذلك وتضافرت في تقريره والدعوة إلى الاجتماع والنهي عن الافتراق، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام].

وقال ﷻ: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ

مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال].

وقال ﷻ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال ﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قوله ﷺ: «ونهى عن التفرق فيه» أي: التفرق في الدين، بل اجتمعوا عليه ولا يتخذ كل لنفسه منهاجاً وطريقاً فتتفرقون في الدين، كل له رأي وكل له قول وكل له وجهة، وإنما المطلوب من أهل الإيمان أن يجتمعوا على دين واحد وهو دين الله ﷻ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن يطرحوا التفرق والشقاق والتدابير والتباغض والتعادي؛ فإن ذلك لا خير فيه، والخير والرحمة في الاجتماع، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»^(١): الاجتماع رحمة للأمة، فيجتمعون على دين الله وعلى كتاب الله وعلى كلمة سواء وعلى تناصح وتعاون وتعاطف وتراحم، محققين قول النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»^(٢).

وقوله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(٣).

وهذه المعاني العظيمة لا يكون لها تحقق إلا بالاجتماع ونبد الفرقة، لأنها إذا وجدت بين الناس وجد معها كل شر، والاجتماع إذا وجد بينهم وجدت الرحمة والخير والأمن والراحة والطمأنينة، وذهب عنهم الشيطان؛ ولهذا قال ﷺ عن

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٤٩٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

التفرق «إِنَّ تَفَرَّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ»^(١)، قال راوي الحديث: «كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ» ، فانظر إلى حرص الدين على الاجتماع، ففي أي مكان يدعو إليه.

وقال ﷺ: «فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ الْقَاصِيَةَ»^(٢)، بينما إذا اجتمعوا وتقاربوا في حلق العلم، في مجالس الذكر، وفي مجالسهم العامة، يتقاربون ويكون بينهم الألفة والمحبة والتراحم والتآخي؛ كل هذه معانٍ دعا إليها الإسلام وهي من أصوله التي حثَّ على تحقيقها، لتكون الأخوة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وفي الحديث يقول ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا»^(٣).

وكما أن الإسلام دعا إلى الاجتماع ونهى عن الفرقة، فإنه حذر أشدَّ التحذير من كل أمر يחדش فيه أو يخل به: كالغيبة والنميمة والحسد، وحرَم التناجش والتدابر والتباغض، لأنها تفرِّق بين المسلمين، وتشتت شملهم، وتوجد الفرقة بينهم.

ولهذا من يطالع الأدلة في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ المشتملة على الأمر بالاجتماع والنهي عن الفرقة يجدها كثيرة جداً، بُيِّنَتْ - كما قال المصنّف رحمه الله - بياناً وافياً: «أمر الله بالاجتماع في الدين ونهيه عن التفرق فيه، فبين الله هذا بياناً شافياً

(١) رواه أبو داود (٢٦٢٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣٦٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٤٧)، والنسائي (٨٤٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٥٥٦).

(٣) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

يفهمه العوام» يفهمه العوام فضلاً عَنْ غيرهم من طلاب العلم أو العلماء، من ذا الذي يخفى عليه بيان الله في كتابه، وبيان رسوله ﷺ في سنته بالأمر بالاجتماع؟!

قال: «ونهاننا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا»؛ مما جاء بيانه في الكتاب والسنة أيضاً حول هذا الأمر: الإخبار عَنْ عواقب المتفرّقين مِمَّن كانوا قبلنا، وأنهم لم يبوؤوا بتفرقهم إلاّ الفشل والخسران وضياع الدّين وتشّتت الشّمل، وهلكوا.

والتّفرّق في الدّين يعني لم يجتمعوا على ما بلغهم ووصل إليهم، وإنّما وأصبح كلّ على قبيل وكلّ على وجهة.

قال: «وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرّق فيه» وهذا في آيات كثيرة مرّ الإشارة إلى بعض منها.

قال ﷺ: «ويزيده وضوحاً» أي: يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً «ما وردت به السنة من العجب العجائب في ذلك» أي: أنّ تبيان السنة لهذا الأمر وأمر النّبّي ﷺ بالاجتماع وتحذيره مِنَ الفرقة جاء في السنة مبيناً بياناً وافياً، جاء في السنة من بيان ذلك العجب العجائب كما عبّر بذلك المصنّف رحمه الله؛ يعني كمّاً كبيراً وقدرّاً عظيماً من الأحاديث عَنْ رسول الله ﷺ في الأمر بالاجتماع والتحذير مِنَ الفرقة، وجاء الأمر به في أحاديث كثيرة بالنّص على هذا اللفظ «الاجتماع»، وجاء في أحاديث أخرى عديدة بالمعنى الذي يدل عليه والمقصد الذي يرمي إليه، وكذلك التحذير من الفرقة وَمِنْ كُلِّ أمرٍ يؤدّي أو يفضي إليها.

وما أحوج النّاس إلى الوقوف على كلامه ﷺ في هذا الباب حتّى يعالج ما في

الصدور من شتات وميل إلى الافتراق وأخذ بأسبابه؛ ولهذا من البحوث المقترحة في هذا الباب أن يُجمع أنواع دلالات السُّنة على الاجتماع وذم الفرقة في أحاديث النبي ﷺ.

كم يحتاج النَّاس إلى الوقوف على ذلك!! وهو باب كما قال المصنف رحمه الله ورد فيه في السُّنة عجبٌ عجاب، فلو وقف عليها طالب العلم وجمعها وصنَّفها إلى أنواع بحيث يجتمع قدرٌ عظيم من هذه الأحاديث في موضع واحد، والذي ورد عنه ﷺ في هذا الباب قدر كبير جداً كما أشار المصنف رحمه الله إلى ذلك.

ثمَّ مع وضوح هذا الأمر في الكتاب والسُّنة وكثرة الدلائل فيهما عليه يقول المصنّف رحمه الله: «ثم صار الأمر» أي: عند الناس وفي واقعهم وفي حياتهم «إلى أنَّ الافتراق في أصول الدِّين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدِّين، وصار الأمر بالاجتماع في الدِّين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون»: يعني انقلب الأمر رأساً على عقب؛ أصبح لكثرة الشَّتات وتفرق النَّاس الدَّاعي إلى الاجتماع مذموماً، والدَّاعي إلى الافتراق محموداً، صار واقع النَّاس في هذا الباب أنَّ الافتراق في أصول الدِّين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدِّين! بل يُمدح، ولعلنا نسمع في حياتنا وواقعنا من يرفعون رايات يمجِّدونها ويعدُّونها هي صميم العلم وهي كبد الحقيقة فيقولون: (حرِّية الاعتقاد)، (حرِّية الرأي)، (حرِّية الكلمة)، كلمات من هذا القبيل تُطلق ونظائرها كثير؛ أي: أنَّ الكلَّ له رأيه الخاص به، وكل له عقل، وكل له عقيدة، ومعنى ذلك أنَّ هذا دعوة للتَّفَرُّق وحمد له وثناء عليه، ولا يمكن أن يكون اجتماع

إِلَّا عَلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لَهَا وَجْهَةٌ وَكُلُّهُمْ لَهَا عَقِيدَةٌ وَكُلُّهُمْ لَهَا مَذْهَبٌ فَكَيْفَ يَجْتَمِعُونَ إِذَا؟

قَالَ أَحَدُ أَهْلِ الْعِلْمِ: «لَوْ أَخَذْنَا مِثَالًا: رَجُلٌ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ ارْضَ عَنِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ، وَآخِرُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنِ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٍ، أَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟! لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا اجْتِمَاعٌ».

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ: هُنَا حُرِّيَّةُ الْكَلِمَةِ أَوْ حُرِّيَّةُ الرَّأْيِ، هَذَا مِثَالٌ وَإِلَّا قَسَّ عَلَيْهِ بَقِيَّةَ الْأُمُورِ فِي الدِّينِ: شَخْصٌ يَقُولُ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَآخَرُ يَقُولُ: لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، أَوْ آخَرُ يُثَبِّتُ الْقَدْرَ وَيُؤْمِنُ بِهِ، وَآخَرُ يَنْفِيهِ وَيَجْحَدُهُ، وَهَكَذَا؛ اخْتِلَافٌ فِي الْعَقِيدَةِ وَاخْتِلَافٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَهَذِهِ الْأُمُورُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْجَدَ وَيَبْقَى مَعَهَا اجْتِمَاعٌ.

وَلِهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الدِّينِ، وَالتَّفَرُّقُ لَا يَكُونُ فِيهِ الدِّينُ؛ قَالَ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ كَلِمَةً عَظِيمَةً فِي مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَلَا تَبَاغَضُوا» قَالَ: «وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «وَلَا تَبَاغَضُوا» فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى النَّهْيِ عَنِ الْبَدْعِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْفِرْقَةِ وَالتَّبَاغُضِ، فَالَّذِي يُحَدِّثُ بَدْعًا، أَوْ يَنْشُرُ مُحَدِّثًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ يَكُونُ بِذَلِكَ فَرَقٌ صَفَّهُمْ، وَلَيْسَ الَّذِي يَرُدُّ عَلَيْهِ وَيَنْقُضُ بَاطِلُهُ وَيَرُدُّ عَلَى بَدْعَتِهِ، هُوَ الَّذِي فَرَّقَ صَفَّ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

فَالْبَدْعَةُ تَفَرَّقُ وَالسُّنَّةُ تَجْمَعُ، وَلِهَذَا يَقَالُ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَهْلُ الْبَدْعَةِ وَالْفِرْقَةِ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَغَالِطَ فِي حَقَائِقِ الْأُمُورِ وَنَطْلُبَ الْاجْتِمَاعَ عَلَى الْبَدْعَةِ؛ بَلْ بَعْضُهُمْ قَعَدٌ فِي هَذَا قَاعِدَةٌ عُدَّتْ أَصْلًا فِي الْعِلْمِ لَدَى أَقْوَامٍ، وَهِيَ: (نَجْتَمِعُ عَلَى مَا

(١) لَشَيْخِنَا عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْبَدْرِ حَفَظَهُ اللَّهُ رِسَالَةً نَافِعَةً فِي هَذَا الْبَابِ بِعَنْوَانِ: «مَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي تَوْحِيدِ الْأُمَّةِ».

اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه^(١)، بحيث كلُّ أحد على عقيدة وكلُّ واحد على رأي أو على مذهب ما، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه! وهذا في الحقيقة ضياع للدِّين، و دعوة لافتراق المسلمين وعدم اجتماعهم، وتقعيد لذلك.

فالمصنّف رحمه الله يقول هنا: «صار الأمر أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدِّين»: أصبح الكلمات التي تطلق ويُدعى فيها إلى الاجتماع على غير كلمة سواء، وإنّما كلُّ على فكره وكلُّ على رأيه وكلُّ على عقيدته ونحلته ومذهبه؛ أصبحت مثل هذه الدَّعوات هي الدَّعوة الصَّحيحة في أفهام كثير من الناس.

وفي مقابل ذلك «صار الأمر بالاجتماع في الدين» وَضَعَ إشارة عند قوله: «في الدين» «وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون» فهناك شعارات تُرفع للدَّعوة إلى الاجتماع، لكن أين الشُّعار الذي يرفع للاجتماع في الدِّين؟! أي الدِّين الصَّحيح المتلقَّى مِنْ كتاب الله وسنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون» أي: عند

(١) قال العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله في نقد هذه القاعدة: «يجب أن نتعاون فيما اتَّفَقنا عليه من نصر الحقِّ والدَّعوة إليه والتَّحذير ممَّا نهى الله عنه ورسوله، أمَّا عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على إطلاقه بل هو محلُّ تفصيل، فما كان من مسائل الاجتهاد التي يخفى دليلها فالواجب عدم الإنكار فيها من بعضنا على بعض، أمَّا ما خالف النَّص من الكتاب والسُّنَّة فالواجب الإنكار على مَنْ خالف النَّص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن عملاً» «مجموع فتاويه» (٣/ ٥٨).

هؤلاء أهل الافتراق، أصبح لا يدعو إلى الاجتماع في الدين إلا من هو عندهم زنديق أو مجنون، ومن يحذر من البدع التي تفرق، ومن يحذر من الأهواء التي تفرق يصفونه بصفات شنيعة وألقاب سيئة، ويتهمونه في عقله وفكره، وفي قصده ونيته، ويقعون في عرضه، وهو لم يفعل إلا أن دعا إلى السنة وحذر من نقيضها وضدّها وهي البدعة والإحداث في دين الله.

وهنا ينبّه المصنّف ﷺ إلى أن الدّعوة للاجتماع ليست دعوة لاجتماع كيف ما اتّفق وكيف ما كان، وإنّما هي دعوة للاجتماع على دين الله وعلى كتابه وعلى سنّة رسوله ﷺ.

وربّ العالمين أمر العباد بالاجتماع والاعتصام فقال جل جلاله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ حبله قيل: القرآن، قيل: السنّة، قيل: الإسلام، وهذا كلّه صحيح، كلّها حبل الله ﷻ؛ حبله ودينه الذي دلّ عليه كتابه وسنّة نبيه ﷺ^(١).



(١) ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة بعنوان: «حبل الله الممدود».

[المتن]

قال ﷺ:

«الأصل الثالث: أن من تمام الاجتماع السَّمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشياً، فبين النبي ﷺ هذا الأصل بياناً شائعاً كافياً بوجوه من أنواع البيان شرعاً وقدرًا، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟».

[الشرح]

ثم ذكر ﷺ الأصل الثالث: «أن من تمام الاجتماع السَّمع والطاعة لمن تأمر علينا ولو كان عبداً حبشياً، فبين الله هذا بياناً شائعاً كافياً»: شائعاً: أي ذائعاً منتشرًا، وكافياً: أي فيه الكفاية والغنية.

«بوجوه من أنواع البيان شرعاً وقدرًا» شرعاً: أي فيما جاء من الدلائل على ذلك في الكتاب والسنة.

والأدلة في القرآن والسنة في السَّمع والطاعة كثيرة، قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي سنة النبي ﷺ أحاديث كثيرة جداً في السَّمع والطاعة تجد أحاديث عديدة منها في كتاب الإمارة من «صحيح مسلم»؛ فقد أورد ﷺ أحاديث كثيرة جداً فيها الأمر بالسَّمع والطاعة لمن تأمر.

وأشار المصنف ﷺ هنا إلى حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: وَعَظَنَا رَسُولُ

اللَّهُ ﷻ مَوْعِظَةٌ، وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَُا مَوْعِظَةٌ مُودِّعٍ، فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

وَجَاءَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسَهُ زَيْبَةً»^(٢).

فَإِذَا تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ وَصَارَتْ لَهُ الْغَلْبَةُ وَتَوَلَّى الْأَمْرَ وَاسْتَبَبَّ لَهُ الْأَمْرُ فَالْسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ»^(٣).

وَجَاءَتْ أَحَادِيثُ فِيهَا الْوَعِيدُ لِمَنْ نَزَعَ الْيَدَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَأَنَّهُ إِذَا مَاتَ عَلَى ذَلِكَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيُضِرِّ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٤).

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦٩٣).

(٣) رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).

(٤) رواه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

فهذا الأمر يُبين في الكتاب والسنة كما أشار المصنّف بياناً شافياً كافياً بوجوه من أنواع البيان^(١).

بل إنّ هذه الأصول الثلاثة^(٢) التي ذكرها المصنّف ﷺ هنا مترابطة: الإخلاص في العبادة، وأداء النَّاس عبادتهم مطمئنين بأمن وأمان وسلامة وطمأنينة، وهذا لا يتحقّق لهم إلّا بالاجتماع، أمّا إذا كانوا متفرّقين متعادين متباغضين شغلّتهم الفرقة عن الدّين وعن العبادة وعن الإخلاص، وصاروا متشتّتين في آرائهم وأفكارهم ووجهاتهم عن العبادة التي خلّقوا لأجلها.

والقيام بالعبادة يحتاج إلى اجتماع، ولا بد فيه من ولي أمر (إمام)، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، ولهذا إذا انفرط العقد في هذه انفرط في جميعها: إذا نزع اليد من الطاعة ووجد تبعاً لذلك الفرقة، وإذا وجدت الفرقة ضاع الدّين وضلّ النَّاس.

وقد أشار المصنّف ﷺ قال: «ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا

(١) قال شيخنا عبد الرزّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «أفترح على طلبة العلم بحثين:

البحث الأول: وجوه أنواع البيان في الأمر بالاجتماع.

والآخر: وجوه أنواع البيان في السّمع والطّاعة لولاة الأمور.

وهذا الأمر مرتبط بالذي قبله أو هذا الأصل مرتبط بالأصل الذي قبله؛ الأصل الأوّل: الاجتماع، والثاني: السمع والطاعة، وهذان أصلان مترابطان لا يتحقّق الأوّل منها إلّا بالثاني؛ لأنّه لا اجتماع إلّا بإمام، ولا إمام إلّا بسمع وطاعة».

(٢) تنبيه: يقصد شيخنا عبد الرزّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله بالأصول الثلاثة هنا:

١/ إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الذي هو الشّرك.

٢/ الأمر بالاجتماع في الدّين والنّهي عن التفرّق.

٣/ من تمام الاجتماع السّمع والطّاعة للأمراء.

فهلکوا»: فالفرقة هلاک وضياع للدين وتشتت للشمل، فكيف تتحقق للناس عبادة؟ وكيف يتحقق لهم طلب علم؟ وكيف تتحقق لهم ممارسة مصالحهم العامة والخاصة إذا كانوا متفرقين متعادين متباغضين؟ وكيف تقام الحدود؟ وكيف يطمئن الناس على الأموال والأعراض؟ فكل هذه الأمور لا تتحقق إلا بجماعة، والجماعة لا تتحقق إلا بإمام، والإمامة لا تكون إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا كان من الأصول التي أكّد عليها ﷺ: السمع والطاعة؛ بل إنه ﷺ ضمّ هذا الأصل في بعض أحاديثه إلى فرائض الإسلام كما قال في حجة الوداع ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا إِذَا أَمَرَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»^(١)؛ فذكر الطاعة لذي الأمر مضمومة إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وجعل هذه كلها من موجبات دخول الجنة قال: «تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»، فأكّد ﷺ على هذا الأمر.

وجاء عنه أيضاً في حجة الوداع الجمع بين هذه الأصول الثلاثة التي أشار إليها المصنّف ﷺ في حديث واحد:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي فَقَالَ: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ غَيْرُ فِقْهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِرِوَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»^(٢).

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٦٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح

فجمع ﷺ بين هذه الأمور الثلاثة في حديث واحد، وأخبر ﷺ أن قلب المسلم لا يُغَلَّ على هذه الأمور، لا يُغَلَّ: أي لا يوجد فيه غلٌّ وأنفة من هذه الأمور، بل يتقبلها بانسراح وقبول ولا يستنكف ولا يستكبر؛ بل يتقبلها بكلِّ اطمئنان: الإخلاص، ولزوم الجماعة، والسَّمْع والطَّاعة، خلافاً ما كان عليه أهل الجاهليَّة^(١).

والمصنّف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لما صنّف كتابه: «مسائل الجاهليَّة التي خالفها الإسلام» بدأها بأضداد هذه الثلاثة، قال: المسألة الأولى: الشُّرك، والمسألة الثانية: التَّفَرُّق، والمسألة الثالثة: عدم السَّمْع والطَّاعة^(٢).

والاستكبار عن السَّمْع والطَّاعة من الجاهلية (شرك، وتفرُّق، وعدم سَمْع وطاعة)، والإسلام جاء بالتَّوحيد، وحثَّ على الاجتماع، وجاء بالسَّمْع والطَّاعة، وهي أمور مترابطة كما سبق.

وقوله ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ» أي: من وُجد عنده هذه الأمور

التَّغْيِب» (٤).

(١) انظر: رسالة شيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله «خطب ومواعظ من حَبَّة الوداع» (ص ٦٢).

(٢) قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رسالته «مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهليَّة» (ص ٣٦):

«المسألة الأولى: أَنَّهُمْ يَتَعَبَّدُونَ بِإِشْرَاكِ الصَّالِحِينَ فِي دَعَاءِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ يَرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ

الثانية: أَنَّهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي دِينِهِمْ ...

الثالثة: أَنَّ مَخَالَفَةَ وَلِيِّ الْأَمْرِ وَعَدَمَ الْإِنْقِيَادِ لَهُ فَضِيلَةٌ، وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ذُلٌّ وَمِهَانَةٌ».

الثلاثة الإخلاص لله، ولزوم الجماعة، والنصيحة لولاة الأمر انتفى من قلبه الغلّ، فليس له في قلبه مكان.

أما الإخلاص: فإنّ قلبه متّجه في أعماله كلّها لطلب رضا الله، لا لمطمع دنيوي، ولا لشهرة يريدّها، ولا لحظوظ تخصه يطمع بها، وإنّما أعماله يقوم بها مبتغيًا بها وجه الله ﷻ، ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نَزِيدُكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (١) [الإنسان].

فهو في معاملته للنّاس ومجالسته ومحادثته لهم كل ذلك قائم عنده على الإخلاص والمراقبة لله ﷻ؛ فمن كان هذا شأنه فلا سبيل للغلّ إلى قلبه، بل هو معمور بالإخلاص للمعبود ﷻ.

ثمّ ينضم إلى ذلك حرصه على الجماعة ونبذه للفرقة ورغبته في اجتماع الدين واجتماع أهله عليه، فمثل هذا الذي هو ملازمٌ للجماعة حريص عليها، لأنّ قلبه متجه إلى اجتماع كلمة المسلمين ونبذ الفرقة، والغلّ ليس له سبيل على قلبه.

وإذا كان ناصحًا لولاة الأمر في قلبه بالدعاء وسؤال الله ﷻ صلاحهم وهدايتهم، وتقديمه للنصيحة لهم ما استطاع بالوسائل والطرق الشرعية، لا يكون في قلبه غلٌّ؛ ولهذا هنا تجد الفرق بين العالم وبين صاحب الهوى، كما قال الإمام البرهاري رحمه الله: «إذا رأيت الرجل يدعو للسُّلطان فاعلم أنّه صاحب سُنّة، وإذا رأيت يدعو على السُّلطان فاعلم أنّه صاحب بدعة» (١).

وهنا يتبيّن الفرق؛ صاحب السُنّة يهتّم اجتماع المسلمين، ويعرف أن اجتماعهم لا يكون إلّا على إمام، ويعلم أنّ صلاح الإمام صلاح للرعيّة؛ ولهذا كان الفضيل

بن عياض رحمته الله يقول: «لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلا للسلطان، قيل له: يا أبا علي فسر لنا هذا؟ قال: إذا جعلتها في نفسي لم تغدني، وإذا جعلتها في السلطان صلح، فصلح بصلاحه العباد والبلاد، فأمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا؛ لأنَّ جورهم وظلمهم على أنفسهم، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين»^(١).

فهذه درجة في الفقه عالية ما يصل إليها كلُّ أحد؛ لأنَّه استوعب الأمة بالدعوة المستجابة، ولم يخصها لنفسه فقط؛ فهو يعلم إذا دعا للسلطان وأصلحه الله رحمته الله فالرعية تبع، «وإن طاب الملك طابت جنوده»، والناس تبع لملوكهم في الغالب، وإلا قد يفسد الرئيس أو الوالي ويصلح عدد من الرعية والعكس أيضاً، لكن الأصل أن الناس تبع لملوكهم في الغالب.

وتجد في المقابل من الناس من في قلبه غلٌّ وتجارت به الأهواء فيقطعن في الولاية ويسبهم، بل صحَّ في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا تَسُبُّوا أَمْرَاءَكُمْ»^(٢)، فنهى عن ذلك؛ وإذا كان الإنسان له دعاء فليدعُ لهم بالصلاح والهداية والاستقامة؛ لأنَّ صلاحهم يعود على رعيته، وعلى مجتمعهم، بل وعلى المسلمين.

وهذا باب من الفقه ما يصل إليه من أهل الأهواء، ولا يصل إليه الإنسان إلا إذا أَمَرَ السُّنَّةَ على نفسه.

(١) «شرح السُّنَّة» (١٠٧)، «حلية الأولياء» (٨ / ٩١)، «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٤٣٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٣)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٨٤٧)، وقال الألباني (إسناده جيّد)، في «ظلال السُّنَّة» (١٠١٥).

فالشَّاهد أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جمع بين هذه الأصول الثلاثة في حديث واحد قاله في مسجد الخيف بمنى، وهذا الحديث: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب امرئ مسلم» وأوله: «نُصِرَ الله امرءًا سمع مقالتي» حديث متواتر رواه عن النَّبِيِّ ﷺ أكثر من عشرين صحابيًا، ولعلَّ من أسباب تواتر الحديث أَنَّهُ أُلْقِيَ في مجمع عام وفي خطبة عامة يسمعها الجميع، فهذا كُلُّهُ من نصح النَّبِيِّ ﷺ لأُمَّتِهِ وبيانه لأُمَّتِهِ صلوات الله وسلامه عليه^(١).

وقول المصنّف رحمه الله: هنا: «إِنَّ هَذَا بَيِّنٌ شَرْعًا وَقَدْرًا»:

«شَرْعًا»: أي بما جاء في كتاب الله وسُنَّةُ نَبِيِّهِ ﷺ مِنَ الأدلة على ذلك.

وبيانه «قَدْرًا» أي: بما يُرى ويشاهد ويُعاين من الوقائع والأحداث المدمية المؤلمة بسبب التفرق، وأيضًا ما يشاهد ويعاين من الأحداث المفرحة بسبب الاجتماع، وكيف أَنَّهُ به تتحقّق الرّحمة للنّاس، وبالفارقة يبوؤون بالعذاب ويصبحون نهبة للأعداء، وإذا تنازع أهل الإيمان وتفرّقوا ذهبت هيبتهم وضعفت كلمتهم وتسلّط عليهم عدوهم، فهذا أمر مبين قدرًا، ومن ينظر في حال النّاس، وفي واقعهم عبر التّاريخ يرى أثر الاجتماع واضحا ويرى أيضًا أثر الفارقة والاختلاف. ثمَّ يقول المصنّف رحمه الله بعد بيانه لهذا الأمر: «ثُمَّ صَارَ هَذَا الْأَصْلُ لَا يُعْرَفُ عِنْدَ أَكْثَرِ مَنْ يَدْعِي الْعِلْمَ فَكَيْفَ الْعَمَلُ بِهِ»: هذا الأصل الَّذِي هُوَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لَا

(١) ولشيخنا العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله بحث قيّم حول هذا الحديث بعنوان: «دراسة حديث نُصِرَ الله امرءًا سمع مقالتي...رواية ودراية» وهو ضمن «كتب ورسائل عبد المحسن بن حمد العباد البدر» (٣/ ٢٩٧).

يُعرف عند أكثر أهل العلم - يعني فضلاً عن العوام - «فكيف العمل به» أي: فكيف يعمل به ويحقق السَّمْع والطَّاعة التي أمر بها!! إذا دخلت الأهواء القلوب عميت عن السُّنَّة، وأصبح يشتغل من هو معتنٍ بالعلم بالوقعة في الولاية وإغارة الصدور عليهم، وملأ القلوب بالحقْد وغير ذلك من المعاني التي ليست في القرآن ولا في الأحاديث ولكنه يدعو إليها، وترى في الأحاديث وأقوال الأئمة وبكثرة: أمر بالسَّمْع والطَّاعة، أمر بالاجتماع، الحث على الدعاء للولاية، والنصيحة لهم، ولا يوجد حديث واحد فيه الأمر بسبِّهم، أو بغشِّهم، أو بإغارة الصدور عليهم، أو ملأ النفوس حقداً عليهم.

فمن عمل بهذه الأمور - أعني الغش والغل والسب - هل رائده في هذه الأعمال السُّنَّة؟ إن قال: نعم، فليأت بحرف واحد في السُّنَّة يدل على ذلك، وإن كان قائده الهوى - وهو فعلاً رائده - فهذا يهلك نفسه ويهلك غيره.

فالسُّنَّة ليس فيها إلا الدعوة للاجتماع والمناصحة، حتَّى لو حصل من ولي الأمر فساد وجور وظلم ففي هذا المقام أكَّد النبي ﷺ أيضاً على السَّمْع والطَّاعة، بقوله ﷺ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعْ وَأَطِع»^(١).

وهذا فيه لفت انتباه إلى عموم النَّاس أن ضياع حظِّ الإنسان ونصيبه الدُّنيوي ليس مخوِّلاً لنزع اليد من الطَّاعة، وكم من أناسٍ نزعوا أو كان سبب نزع اليد من طاعة هو فوات حظِّه الدُّنيوي^(٢)، لم يحصل كذا وكذا فيبدأ بسبب الولاية ويطعن

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

(٢) قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: «لو استأثر ولي الأمر بشيء من أموال أو أراضٍ أو غيرها

فيهم ويوغر الصدور عليهم، وإذا فتشت عن سبب هجمته هذه لا تجدها نصرةً للدين وإنما نظرًا لحظّ النَّفس، ولهذا لفت النَّبيُّ ﷺ الانتباه لهذا الأمر فقال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»^(١).

وجاء عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، أَوْ يُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّةً مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ»^(٢)، وكثير من الناس عندما يدخل في هذه القضية يدخل لحظوظه الدنيوية؛ إمّا كان يريد رئاسة فما حصلت له، أوزعامة لم تتحقّق له، أو مالا، أو غير ذلك: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾^(٣) [التوبة].

لكن النَّاصح الَّذي ليس في قلبه غل همّه دين الله ﷻ، حتّى لو فات بعض حظه؛ لأنّ اجتماع النَّاس وصلاح أمرهم أهم وأولى عنده بالعناية.

فعليك السَّمع والطَّاعة، حتّى لو فرض لك من بيت المال أقلّ مِنْ كفايتك، وهو يأخذ مِنْ بيت المال ما شاء، فهذا استأثار بلا شك، فلا تقل: لماذا لا تعطيني مثل ما تأخذ؟ بل نقول: عليك السَّمع والطَّاعة ولو وجدة الأثرة عليك.

وهذا في الحقيقة هو الَّذي يضبط الأُمَّة؛ لأنّه لو بقيت الأُمَّة هذا يقبل ويمتثل، وهذا لا يقبل ويعاند صارت الفوضى، وصار الشر والفساد.

فالواجب: السَّمع والطَّاعة على كل حال ما لم يأمرُوا بمَعْصِيَةٍ «التَّعليق على صحيح مسلم» (٢٥٥/٩).

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (٣٧١٩٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١٤٩).

أتى رجلٌ من الخَوارج الحسنَ البصري، فقالَ لَهُ: ما تقولُ في الخَوارج؟
قالَ: هُم أَصْحَابُ دُنْيَا.

وقالَ: ومن أينَ قلتَ وأحدُهُم يمشي في الرَّمح حتى ينكسرَ فيه، ويخرج من أهله وولده؟

فقالَ الحسنُ: حدثني عن السلطان أَيْمَنُكَ من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة،
والحجِّ والعُمرة؟
قالَ لا.

قالَ: فأراه إنما مَنَعَكَ الدُّنْيَا فقاتلتَ.

قال الإمام الشوكاني رحمته الله: «اجتمعت في أيام الطُّلب بجماعة من أهل العلم،
فسمعتُ مِنْ بعض أهل العلم الحاضرين ثلثًا شديدًا لوزيرٍ مِنَ الوزراء، فقلت
للمتكلم: أُنشدك الله يا فلان أن تجيبني عما أسألك عنه وتصدقني، قال: نعم، قلت
له: هذا الثُّلب الَّذي جرى منك، هل هو لوازع ديني تجده من نفسك لكون هذا
الَّذي ثلبه ارتكب منكرا، أو افترى مظلمة أو مظلما؟ أم أن ذلك لكونه في دنيا حسنة
وعيشة رافهة؟ ففكر قليلا ثم قال: ليس ذلك إلا لكون الفاعل ابن الفاعل يلبس
الناعم من الثياب ويركب الفاره من الدواب، ثم عدَّ من ذلك أشياء، فضحك
الحاضرون، وقلتُ له: أنت إذا ظالم له، تخاطب بهذه المظلمة بين يدي الله،
وتحشر مع الظلمة في الأعراض، وذلك أشدُّ من الظلم في الأموال عند كل ذي
نفس»^(١).

(١) «التعليق على رسالة رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلطين» (ص ٤٠).

فهذه الأمور ما تصلح إلا بالسنة، ولا بد فيها من قراءة أحاديث النَّبِيِّ ﷺ بتجردٍ من الأهواء.

وكثير من الناس بسبب غلبة الأهواء عليهم يستوحش من قراءة الأحاديث التي فيها الأمر بالسَّمع والطاعة، يقرأ بلا استيحاش الأحاديث التي في الصلاة، ويقرأ بلا استيحاش الأحاديث التي في الزكاة، وإذا جاء إلى مثل كتاب الإمارة من «صحيح مسلم» - مثلاً - استوحش من هذه الأحاديث! فالَّذي أمر بالصَّلَاة والصَّيَام هو الَّذي أمر بالسَّمع والطاعة، ومصلحة المسلمين في هذا كله.

فهذا باب عظيم وأصل مهم؛ لكن عندما تغلب على النَّاس الأهواء يضيِّعونه، ويكون تضييعهم له ليس مبنياً على قواعد شرعية، وإنما مبني على أهواء تتجارى بالنَّاس وتذهب بهم المذاهب.

وفي هذا الباب تجد من يسلك هذا المسلك -مسلك الفرقة والوقعة في الولاية- يوصف بين عوام المسلمين بالَّذي لا تأخذه في الله لومة لائم!، ويقول كلمة الحق ولا يبالى!، وغيرها من الألقاب التي تطلق في غير محلّها حتّى يُنفخ في النَّاس، وحقيقة أمره أنّه يشقُّ صفَّ المسلمين ويفرِّق كلمتهم ولا يتحقّق على يديه خيراً؛ لأنَّ الخير والرَّحمة بالاجتماع، وبإصلاح الأمور، وبالنَّصيحة والدُّعاء والتَّعاون، وباللِّين، وليس بإيغار الصدور، وتفريق الكلمة، وتشيت الشَّمْل^(١).

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنّهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم كما دلّت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النَّبِيِّ ﷺ؛ لأنَّ الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، ولعلّه لا يكاد يُعرف

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقهاء والفقهاء وبيان من تشبه بهم وليس منهم، وقد بين الله تعالى هذا الأصل في أول (سورة البقرة) من قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠) إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (البقرة: ٢٢١) الآية، ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعالمي البليد، ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقهاء هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم».

[الشرح]

قال المصنف رحمه الله: «الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء، والفقهاء والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم»: هذا الأصل عقده المصنف رحمه الله وأورده هنا لأنه أصل التبس على كثير من الناس واختلط عليهم دعاة الخير من دعاة الشر، وأصبحوا

يأخذون عن كلِّ متكلم، ولا يميّزون بين أهل الحق والباطل؛ بل ليس عندهم آلة يميزون بها بينهما.

و قد أرشد رب العالمين ﷺ في كتابه السائلين والمستفتين والمتعلمين إلى الأخذ عن أهل الذكر فقال سبحانه: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) [النحل].

فلا يكون الأخذ عن كلِّ أحد؛ وإنما عن أهل الذكر، وهم أهل العلم والفقه بدين الله ﷻ.

وعندما يختلط هذا الأمر على الناس يصبح أخذهم عن كلِّ أحد وتلقّيهم عن كل متحدث، وهذا من أعظم أسباب الانحراف عن دين الله ﷻ، وقد صحَّ في الحديث عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَأِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»^(١).

وأئمة الضلال هم من يلبسون لبوس العلم ويتزينون بزي العلماء ولكنهم ينشرون البدع في الأئمة والخرافات والأهواء والضلالات وما لا أصل له في دين الله، ويلبسون الحق بالباطل، ويكتمونه ويحجبون الناس عنه؛ فتنتشر على أيديهم البدع والخرافات، ولا يزال أتباعهم يحسّنون بهم الظنّ، ويظنون أَنَّهُم يبيّنون دين الله ﷻ، وتراه يؤيّد باطله إمّا بحديثٍ مكذوب، أو بآيةٍ يحرفها عن معناها، أو قصّةٍ يخترعها، أو رؤيةٍ منامية يدّعيها، أو تجربة يزعمها، أو نحو ذلك من المسالك المتبّعة عند هؤلاء في نشر ما عندهم من خرافة وباطل.

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

ولضعف البصيرة في النَّاس والفهم والدَّراية يروِّج عليهم كلام أمثال هؤلاء.
ولهذا عقد المصنِّف رحمه الله هذا الأصل نصحاً للنَّاس، وبياناً لهذا الأمر؛ أن يُعرف
الفقه والفقهاء والعلم والعلماء.

والعلم والفقه أيَّ النَّافع؛ الَّذي أمر الله ﷻ به، فليس كل كلام يُلقى أو بيان يبيِّن
هو فقه، وإنَّما مدح الله ﷻ أهله ورغب النَّبي ﷺ في تحصيله وتلقيه هو العلم
الشَّرعي المستمد من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

العلم قال الله قال رسول الله **قال الصحابة هم أولو العرفان**

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة **بين الرسول وبين رأي فلان**

هذا هو العلم على ضوء فهم الصَّحابة الكرام ومن اتَّبَعهم بإحسان؛ وهذا هو
الَّذي امتدحه الله وهذا هو ميراث الأنبياء، كما قال ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ
عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ
الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ
الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ،
وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ
أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١).

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وقال الألباني: (حسن

لغيره) في «صحيح التَّرجيب» (٧٠).

وهذا هو العلم الَّذي شهد عليه النَّبِيُّ ﷺ لصاحبه بالخيرية في أحاديث كثيرة:

قوله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١).

وقوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٢).

فكلُّ الأحاديث الَّتِي وردت في التَّغْيِيبِ في العلم والحثِّ عليه فالمراد بها العلم الشرعي، والمراد بالفقه الَّذي يُستمد من كتاب الله ﷻ وَمِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ على ضوء فهم السلف الصَّالح رحمهم الله.

وهذا الفقه قد يقصد به (الفقه الأكبر) الَّذي هو العقيدة وأصول الدِّين، أو (الفقه الأصغر) الَّذي هو الأحكام والفروع، فهذه كلُّها فقه في دين الله ﷻ^(٣).

وعندما لا تميَّز هذه الحقيقة وتُخلط الأمور في هذا الباب وتسمَّى علماً فتُضرُّ بالنَّاس غاية الضرر، ومن أعظم ذلك خطراً عليهم وأدهاء عليهم علم الكلام الَّذي بنى عليه أربابه فهم دين الله ﷻ بمعزل عن كتاب الله وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، وصار الواحد منهم في تقريره لأمر دينه وأمور الاعتقاد يذكر عقليات وتصورات وفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا أراد أن يقرر عقيدة قال: (بما أنه كذا يكون كذا)، (ولو كان كذا لكان كذا)؛ فيمضي بهذا الأسلوب في تقرير الاعتقاد وبين يديه كتاب الله ناطق بالحق وبين يديه سنة رسول الله ﷺ شاهدة بالحق ودالة عليه فيعرض عنهما،

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٣) انظر: «قطف الجنى الدَّاني» (ص ٥٥)، للعلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه

ثُمَّ يَقْحَمُ عَقْلُهُ الْقَاصِرَ وَتَصَوُّرَاتِهِ الضَّعِيفَةَ! فَيَقْرُرُ فِي الْإِعْتِقَادِ مَا لَا أَسَاسَ لَهُ وَلَا أَصْلَ عَلَيْهِ، خَوْضًا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَفِي دِينِ اللَّهِ وَفِي شَرْعِهِ بِلاَ عِلْمٍ؛ وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَحْرَمَاتِ وَأَكْبَرِ الْآثَامِ: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (٣٣) [الأعراف]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣١) [الإسراء].

وبات علم التوحيد الذي هو أعظم العلوم وأجلها يسمى - بسبب تعلق هؤلاء بعلم الكلام - يسمى «علم الكلام»! يسمى علم التوحيد عندهم أو علم العقيدة بهذا، ويبدأ هؤلاء في تقرير الاعتقاد على الكلام الباطل والخوض في دين الله ﷻ بالعقليات والآراء، وقد قال الإمام ابن أبي العزّ ﷺ: «فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ، بِغَيْرِ اتِّبَاعٍ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؟!»^(١) أي: لا يمكن للإنسان أن يصل إلى الأصول الصحيحة والعقيدة السليمة دون أن يتلقّى ذلك عن رسول الله ﷺ، ولا يمكن أيضاً أن يعرف العبادة الصحيحة إلا بالتلقّي عن الرسول ﷺ.

ولهذا فكلُّ طريق إلى الله ﷻ مسدود؛ إلا عن طريق الرسول ﷺ، ولا يمكن للإنسان أن يصل إلى الهدى والحق، وإلى العلم النافع السديد أو القول والعمل الصالح إلا بالاتباع للرسول ﷺ، وجعله أسوة وقدوة في عقيدته وعبادته وعمله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢) [الأحزاب].

ومن فارق ما جاء به ﷺ ضلّ ولا شك، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يقول: «من فارق الدليل ضلّ السبيل، ولا دليل إلا ما جاء به الرسول ﷺ»^(١). فكلُّ أحدٍ يُستدلُّ لقوله لا به إلا الله ورسوله ﷺ، لأنَّ كلام الله وكلام رسوله ﷺ هو الحُجَّة، وكلام غيرهما ليس بحُجَّة، وإنَّما تُطلب له إن وجدت في الكتاب أو السُّنة، فإن وجدت وإلّا ردّ عليه قوله، وهذا معنى قول الإمام مالك رحمه الله: «إنَّما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في قلبي؛ فكلُّ ما وافق الكتاب والسُّنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسُّنة فاتركوه»^(٢).

وكما يشير المصنّف رحمه الله هنا؛ المصيبة عظمت على النَّاس في هذا الباب لأنَّهم أصبحوا لا يميِّزون بين دعاة الحقِّ وأدعياء الباطل؛ بل أصبح بعض العوام يميل في تلقّيه وفي استفثائه إلى من يراه يفتيه بما يريد أو من يراه يفتيه على هواه، وتجده يتنقل بين من يفتون واحداً تلو الآخر إلى أن يقع على شخص يرخص له فيما يريد، ليس منشوده الحقِّ ومطلوبه دين الله ﷻ، وإنَّما مبتغاه الأمر الذي اتَّجه للسُّؤال عنه أو طلب الرُّخصة فيه، وهذه من المصائب العظيمة، فأصبح في النَّاس مَنْ لا يميِّز بين الفقه والفقهاء والعلم والعلماء، وأصبح الدَّاعية للبدعة الذي لا يُسمع منه تقرير الاعتقاد الصَّحيح والدين القويم على ضوء الدليل المستمدِّ من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ يُعد عند بعض النَّاس عالماً وفقياً، وأصبح أيضاً عكس ذلك؛ العالم المنضبط بضوابط الكتاب والسنة المتقيّد بما جاء في كتاب الله وسُنَّة نبيّه ﷺ

(١) نقله عنه الإمام ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٨٣).

(٢) ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله في «إعلام الموقعين» (١/ ٧٥).

يُرمى بأوصاف ينقَرُّ بها النَّاسُ عنه، والأوصاف الَّتِي يرمون بها العلماء الَّذِينَ هم على السُّنَّةِ وعلى التَّلَقِّيِّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷺ كثيرة جداً في القديم والحديث.

قال: «بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبَّه بهم وليس منهم»: يشير هنا إلى أَنَّ في النَّاسِ من يتشَبَّه بأهل العلم ويتظاهر به وهو في الواقع يدسُّ البدع وينشر الباطل والخرافة بينهم.

فلا ينشر دين الله ﷻ، وإنَّما هي الخرافات الباطلة والبدع الضالة؛ فهذه بضاعته؛ لكنَّه يتظاهر بمظهر العلم والفقه والبصيرة في دين الله فيغر العوام ويخدع الجهال.

قال: «وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصل في أول (سُورَةُ الْبَقَرَةِ) من قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٢] الآية».

يشير ﷻ إلى أَنَّ في هذا السِّيَاق بياناً لهذه الحقيقة، وإيضاحاً إلى أَنَّ العالم الحق شأنه ذكر نعمة الله عليه وفضله عليه وشكره لها ﷻ، وعدم لبسه الحقَّ بالباطل، وعدم كتمانهِ للحق، ومحافظة على ما أُمِرَ مِنْ إقامة الصَّلَاة وإيتاء الزَّكَاة، والبعد عن أن يكون شأنه شأن من يدعو إلى الشيء ولا يعملهُ، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فهذا السياق المبارك عندما يتأمَّلُهُ المسلم وطالب العلم يجد فيه ضوابط يميِّز بها بين العلماء والأدعياء، فالعلماء لهم صفاتهم، والأدعياء لهم نعوتهم، وكلُّها مبينة في هذا السياق وفي مواضع أيضاً أخرى من كتاب الله ﷻ تكشف هذا الأمر وتجلِّي هذه الحقيقة.

قال: «ويزيده وضوحاً» أي: يزيد هذا الأمر وضوحاً وبياناً «ما صرّحت به السُّنة في هذا الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد» أي: أن السُّنة جاءت ببيان العلماء وصفات أهل العلم، ولو وقف طالب العلم على بعض الكتب المصنّفة في هذا الباب - وبخاصة كتاب: «جامع بيان العلم وفضله» للإمام ابن عبد البر رحمه الله - لوجد فيه من السُّنة ذكر فضل العلم وعلامات أهله وصفاتهم في ضوء سنة النبي الكريم ﷺ، فهو أمرٌ بين في الوحي غاية البيان؛ بل كما قال المصنف رحمه الله: بياناً واضحاً حتّى للعامي البليد، ذكر في القرآن والسُّنة نصوص توضّح مَنْ هم العلماء وما هي صفاتهم وغير ذلك؛ لكن المعرض والمتبع لهواه ونحو هؤلاء تختلط عليهم الأمور وتلتبس إمّا بسبب الجهل أو بسبب اتباع الأهواء.

قال: «ثم صار هذا أغرب الأشياء» يعني: معرفة العلماء وعلاماتهم، والفقهاء وصفاتهم، صار هذا أغرب الأشياء، لا يكاد يعرفه إلّا القليل منهم، والأمر الغريب: الَّذي لا يعرفه إلّا القلّة من النَّاس.

«وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات» أي: العلم الصّحيح المستمد من الكتاب والسنة هو البدع والضلالات، وأصبح كثير النَّاس ينكرون السُّنن ويسمّونها بالبدعة، وينكرون العقيدة الصّحيحة ويصفونها بالضلال، وينكرون العبادات الثّابتة عن الرّسول ﷺ ويصفونها بالباطل؛ هذا معنى قوله رحمه الله: «وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات»: أي أن هؤلاء أصبحوا يصفون العلم الصحيح والفقه السّليم بأنّه بدعة وضلالة، وأمّا العلم عندهم هي البدع التي يمارسونها، التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.

«وخيار ما عندهم»: يعني أفضل شيء عند هؤلاء «لبس الحق بالباطل»: وهذا أمر لا خير فيه، فأئى خيرية في أن يلبس الحق بالباطل، وتُخلط على الناس المفاهيم الصّحيحة، وتغيّب عنهم الحقيقة النّاصعة المأخوذة من الكتاب والسّنة؟! فإذا كان هذا خيار ما عندهم فمعنى ذلك أن هؤلاء في ضياع تام وإعراض عن كتاب الله ﷻ وسنّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال ﷺ: «وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديقٌ أو مجنون»؛ قوله ﷺ: «لا يتفوه به إلا زنديقٌ أو مجنون» أي بزعم هؤلاء؛ فيصفون الذي يتفوّه بالعلم الشرعي المستمدّ من الوحي بالجنون، وربّما وصفوه بالزّندقة الّتي هي: المروق عن دين الله ﷻ، وأسوتهم في ذلك المشركون الّذين وصفوا النّبى ﷺ بالسّاحر والكاهن والمجنون والمفترى إلى غير ذلك من الأوصاف الّتي لقبوه بها، ولُقّب بنظائرها أتباعه المتمسكين بهديه السّائرين على نهجه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «وصار من أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه والنّهي عنه هو الفقيه العالم»، قوله: «وصار من أنكره وعاداه» الضّمير هنا يعود إلى العلم والفقه الصّحيح المستمدّ من الكتاب والسّنة، فصار من أنكر العلم والفقه الصّحيح، وصنّف في التّحذير منه والنّهي عنه هو الفقيه العالم!! وهذا موجود في عصرنا، تُصنّف كتب في ردّ السُّنن والإشادة بالبدع وإحياء الضّلالات ويوصف أصحابها بالعلماء ويلقّبون بالفقهاء، ورُبّما قيل في حقّه إمام! أو إمام الأئمة من قبل أتباعه من الغوغاء والجهّال؛ وهو ليس عنده إلاّ نشر الخرافة، كالتلّلقّ بالقبور والكذب على

رسول الله ﷺ، أو نشر الأحاديث الواهية الضعيفة، أو تحريف الآيات عن معانيها، أو حكاية القصص وذكر الرؤى والمنامات، ويكون الكتاب كله مبنياً على هذا الأمر ولا ترى فيه مثلاً لحديث النبي ﷺ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١)، وغيره من الأحاديث الصَّحيحة في هذا الموضوع، وإنما تجد فيه إما آية يحرفونها عن معناها ويصرفونها عن مدلولها.

وقد يستشهد هؤلاء وغالب من كتب منهم في هذا الباب بقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِجَعَلُوا آيَاتِ اللَّهِ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ثَبَتْنَا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف].

والجواب عنهم: أن هذا أمر ذكره الله ﷻ عن أهل الغلبة، والظاهر من سياق الآية أنهم كفار، فيستدلون به لفعل هؤلاء، ويتركون ما قاله النبي ﷺ قبل أن يموت: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

ولا يصح أن نقول هذا شرع من قبلنا لأنه لو كان كذلك: أَيْصَحُّ أَنْ يَقُولَ ﷺ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»؟

أيلعنهم على أمر هو مشروع عندهم؟ هذا لا يقال؛ بل اتَّخَذَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ هو باطل في أديان جميع الأنبياء والمرسلين، والآية ذكرٌ لحال أهل الغلبة من غير المسلمين: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾ [الكهف].

فالسِّيَاق واضح ووصف لحالهم^(١)، فيستدلون بعمل أهل الغلبة في مساق ليس مساق مدح؛ بل في سياق ذم ويتركون أحاديث رسول الله ﷺ !!

والعامي المسكين إذا قالوا له: يقول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾^(٢)، هذا القرآن ناطق باتخاذ القبور مساجد، فكيف

(١) قال العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في ردّه على هذه الشبهة: «فالجواب عنها من ثلاثة وجوه:

الأوّل: أنّ الصّحيح المتقرّر في علم الأصول أنّ شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: «أُعْطِيتْ خَمْسًا لَمْ يَعْطُهَا أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي... (فذكرها وأخرها) وكان النَّبِيُّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى النَّاسِ كَافَّةً».

فإذا تبيّن هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدلّ على أنّ جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا.

الثّاني: هب أنّ الصواب قول من قال: «شريعة من قبلنا شريعة لنا» فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم هنا؛ لأنّ الأحاديث تواترت في النّهي عن البناء المذكور كما سبق فذلك دليل على أنّ ما في الآية ليس شريعة لنا.

الثالث: لا نسلم أنّ الآية تفيّد أنّ ذلك كان شريعة لمن قبلنا؛ غاية ما فيها أنّ جماعة من النَّاس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فليس فيها التّصريح بأنّهم كانوا مؤمنين، وعلى التّسليم فليس فيها أنّهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبي مرسل؛ بل الظّاهر خلاف ذلك؛ قال الحافظ ابن رجب في «فتح الباري في شرح البخاري» (٦٥ / ٢٨٠) من «الكواكب الدراري» «حديث لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: وقد دلّ القرآن على مثل ما دلّ عليه هذا الحديث وهو قول الله ﷻ في قصّة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، فجعل اتّخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور وذلك يشعر بأنّ مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنّه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى...» «تحذير السّاجد من اتّخاذ القبور مساجد» (ص ٥٥).

يقول هؤلاء: لا يجوز؟! وهذه آية من (سُورَةُ الْكَهْفِ)، ثُمَّ يردفون هذه الآية الَّتِي حَرَفُوا معناها بأحاديث المكذوبة باطلة يوردونها - مثلاً -: «من اعتقد في حجر نفعه»!!، أو أشياء من هذا القبيل، ثُمَّ بعد ذلك يردفونها بقصص واهية، ثُمَّ قد تُجمع هذه الشُّبه في كتاب ويُعدُّ علماً، ويُعدُّ مؤلفه عالماً فقيهاً، وكلُّه كذب على الله وعلى رسوله ﷺ، وقولٌ على الله بلا علم، وتلفيقٌ وتزويرٌ وكنمٌ للحقِّ ولبسه بالباطل، وخلطٌ للأمور، وَالَّذِينَ يَكْتُونُونَ من جمرَةِ هؤلاء من علماء السُّوء إِنَّمَا هم العوامُ الجُهَّال، فيغترون ويقعون في أنواعٍ مِنَ الباطل، والله المستعان.

فهذا مثال واحد، وقلْ في جميع أبواب الدِّين مثل هذا، فعندما يتصدَّر للنَّاس دُعاة للباطل والضَّلال فيفسدون في النَّاس بمثل هذه الطريقة.

فالمؤلف ﷺ وضع هذا الأصل نصحاً للنَّاس حتَّى لا يختلط الأمر على عوام المسلمين وعلى المبتدئين وعلى طلبة العلم، ويعرفون الحقيقة كما هي.



[المتن]

قال رحمه الله تعالى:

«الأصل الخامس: بيان الله سبحانه للأولياء وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية (الْعَمَلُ إِنَّا) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١)، وآية في (سُورَةُ الْبَنَاتِ) وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (الآية)، وآية في (سُورَةُ يُنُسُ) وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٣)، ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن اتبعه فليس منهم، ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا نسألك العفو والعافية إِنَّكَ سَمِيعُ الدَّعَاءِ».

[الشرح]

قال رحمه الله: «الأصل الخامس»: وهذا أصل عظيم ومفيد جداً للمسلم، والناس بحاجة ماسة للعلم به ولفهمه.

يقول رحمه الله: «بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار» هذا أصل مهم يجب على المسلم أن يفهمه في ضوء كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ولعلنا نلاحظ الطريقة المباركة والنهج السديد الذي عليه

هذا الإمام في توضيحه للأمور، فلما أراد أن يذكر علامة العلماء وأمانة الفقهاء أورد آيات وأشار إلى أحاديث تُعرف بها ومن خلالها علاماتهم، ولما أراد أن يبين علامات أولياء الله ﷺ أيضاً أورد آيات من كتاب الله ﷻ تعرف من خلالها علاماتهم؛ منبهاً بذلك أن الحق وأهله ودعائه إنما يُعرفون من جهة دلالة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال: «بيان الله سبحانه لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار»؛ فأولياء الله لهم علامات ذكرت في القرآن والسنة، وأولياء الشيطان الذين يدعون أنهم أولياء الله أيضاً لهم علامات ذكرت فيهما الكتاب، وقد صنّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مصنفًا عظيم النفع كبير الفائدة سماه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، وهو كتاب عظيم جداً ذكر فيه ما يُميّز به بين ولي الله، وولي الشيطان، ومن لم يميّز خدعه أولياء الشيطان وغرّوه وصرفوه عن دين الله ﷻ.

قال: «ويكفي في هذا آية (الْعَمَلُ إِنَّ) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١)، وآية في (سُورَةُ الْمَائِدَةِ)، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الآية، وآية في (سُورَةُ يُوسُفَ) وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾».

فيكفي أن تعرف الأولياء حقًا وصدقًا من خلال هذه الآيات الثلاث فقط؛ ففيها كفاية لك في معرفة من هو الولي، وما هي علاماته.

فالعلامة الأولى: في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران].

أي: اتباع النبي ﷺ، ولقد كان بعض أهل العلم يسمّون هذه الآية «آية المحنة»؛ أي أن من أراد أن يمتحن نفسه في صدق وقوة محبته لرسول الله ﷺ وقبل ذلك محبته لرب العالمين؛ فلينظر أو ليقس ذلك على ضوء الاتباع الذي عنده، فإنه كلما كان أعظم أتباعًا وتمسكًا بهدي الرسول ﷺ فإن هذه أمانة على صدق المحبة، وكلما ضعف فيه الاتباع فهذا أمانة على ضعفها، فكيف يكون وليًا وهو لا يتبع الرسول ﷺ؟! (١).

وقد تجد في بعض البلدان من يزعم ويدّعي أنه ولي، ويجلس متكئًا على سارية

(١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ زِدٌّ»، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تحب، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٢).

في المسجد أو يكون في الشارع جالساً وتقام الصَّلَاة ويصليّ النَّاس وهو لا يصليّ معهم! فأين الصلاة التي فرضها الله على عباده؟

يقول أحد الأشخاص: «مررتُ ببلدٍ وفي مكان ما وإذا برجل كلما مررت به أراه جالساً لا يقوم حتى إلى الصلوات المفروضة! فسألتُ عنه: من هذا؟ فقالوا: سبحان الله ما تعرفه! هذا وليٌّ من أولياء الله، وكلّ الناس يشهدون له بالولاية! وقد نذر أن لا يقوم من هذا المكان أبداً، فيجلس فقط ويصلي على النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قالوا: لو كان عندك مشكلة اجلس عنده بدون ما تكلمه وهو يعرف مشكلتك، وهو يلقي في قلبك الدواء لها».

فالعوام يُخدعون بمثل هذا الكلام، ثُمَّ إذا قيل لهم: فلان جرّب أو فلانة جرّبت فلا تسأل عن ركضهم إلى مثل هذا زرافات ووحداناً، وهذا هو الضياع بعينه، والله المستعان، وأصبحتُ العبرة في الولاية مثل هذه المقاييس الفاسدة، أمّا التي في الكتاب والسنة لا تجدهم يعرّجون عليها ولا يقفون عندها.

فأين الولاية بدون الاتباع؟! وأين الصَّلَاة المفروضة التي افترضها الله على عباده وأمر بها ودعا إلى إقامتها في المساجد أتترك هكذا؟

وإذا كان الشخص لا يصلي ولا يشهد الصَّلَاة مع الجماعة فهذا بالتأكيد ولي من أولياء الشيطان، وليس من أولياء الرحمن.

وأين الاقتداء بالرسول ﷺ وبسنته، ومن أعظم ما يكون في ذلك شأن الصَّلَاة، فقد كان بعض المتقدمين إذا أراد أن يذهب إلى مكان ليتلقّى العلم عن شخص يذهب وينظر في صلاته؛ فإذا وجده من أهلها والمحافظين عليها اطمأنّ لعلمه

وأخذ عنه، وإذا كان مضيّعاً لها فهو لما سواها أضيع^(١)، «ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلّاة»^(٢)، لأنّها الميزان الحقيقي لإسلام الشخص.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أنّ أبا بكرٍ كان يصليّ لهم في وجع النّبيّ صلى الله عليه وآله الذي تُوفيّ فيه، حتّى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلّاة، فكشف النّبيّ صلى الله عليه وآله سترَ الحجرة ينظر إلينا، وهو قائم كأن وجهه ورقة مّصحف، ثمّ تبسم يضحك، فهممنا أن نفتن من الفرح برؤية النّبيّ صلى الله عليه وآله، فنكص أبو بكرٍ على عقبيه ليصل الصفّ، وظنّ أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله خارج إلى الصلّاة، فأشار إلينا النّبيّ صلى الله عليه وآله أن أتموا صلاتكم، وأزخى السّتر، فتوفيّ من يومه»^(٣).

تهلّل وجهه صلى الله عليه وآله والنّاس يراهم وهم صفوف يصلون في المسجد خلف خير أصحابه أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه، فهذه هي الولاية، بالصلّاة وفي عبادة الله واتباع الرّسول صلى الله عليه وآله، وهذه علامة واضحة بيّنت في القرآن لا تحتاج إلى بيان، لكن مع ذلك التبس على كثير من العوام والجهّال، وأصبح بعض العوام لا ينظر إلى هذه العلامة.. وإنما ينظر إلى طول العمامة؛ أو الشكل، وأصبح بعضهم يعتقد أنّ الولاية

(١) «عن أبي العالية، قال: كنت أرحل إلى الرّجل مسيرة أيّام لأسمع منه، فأتفقّد صلاته، فإن وجدته يحسنها، أقمت عليه، وإنّ أجده يضيّعها، رحلت ولم أسمع منه، وقلت: هو لما سواها أضيع» «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٩)، وانظر: (٧/ ١١١).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٥١)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلّاة» (٩٢٣)، وغيرهما؛ وصحّحه الألباني في «الإرواء» (٢٠٩)، وانظر: مبحث (مكانة الصلّاة) من كتاب «تعظيم الصلّاة» لشيخنا عبد الرزّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

(٣) رواه البخاري (٨٦٠)، ومسلم (٤١٩).

نوع من اللباس أو زِيٍّ معيّن، أو حركات تُفعل إذا وُجدت أصبحت مقياساً، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران].

يقولون مثلاً: (الأولياء لا يطوفون بالبيت، وإنما يطوف بهم البيت)، وهذا ليس كلاماً يقال عنهم فحسب؛ بل كلام موجود في كتبهم ويُنشر بينهم.

وقد حَدَّثْتُ عن شخص أنه جاء ووصل إلى مكّة ولم يطف بالكعبة، وقال: الأولياء هم الَّذِينَ يطوف بهم البيت!!.

والمتمائل في سيرة إمام الأولياء عليه السلام يجد أنه حَجَّ واعتمر أربع مرّات، فطاف بالبيت طوافاً متكرّراً، ثُمَّ يدّعي هؤلاء أن الولي لا يطوف بالبيت وأحقّيته ومكانته أن البيت يطوف به!

حتّى إنّه في أحد كتب الفقه عُقدت مسألة فقهية!! في كتاب الصلّاة مبنية على خرافة هؤلاء: إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصليّ الناس؟ قال صاحب الكتاب: اختلف أهل العلم على قولين: قال بعض العلماء يصلّون إلى الكعبة باعتبار الأصل وباعتبار أن الناس لا يستطيعون معرفة أين ذهبت الكعبة، والقول الآخر: لا بدّ أن يتحرّى الناس أين ذهبت الكعبة ويستقبلونها.

فهذا بُحث في أحد الكتب!! وتروّج عند العوام، وفيها مثل هذه الخرافات ما الله به عليم، وتنشر على أنّها علامة للأولياء، فلا صلاة ولا طواف ولا عبادة ويُدّعى أنّه وليّ من أولياء الله!! وهو وليّ للشيطان بلا شك ولا ريب، إي والله وليّ للشيطان

ليس ولياً للرحمن، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، لأنَّ الولاية بمثل هذا: ضياع والضلال وباطل.

وأيضاً جانب التقوى لا تراها فيهم - أقصد الغلاة - بل تراه يمارس بعض المحرّمات الصّريحة الواضحة البيّنة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

لكنّه يمارسها والعياذ بالله باسم الولاية، وقد قرأتُ في بعض الكتب لهؤلاء وحدّثني بعض المهتدين منهم: أنَّ المريد يأتي إلى شيخ الطريقة المزعوم أنّه ولي في ليلة زواجه مع زوجته البكر إلى شيخه ويتوسّل إليه ويتذلّل بين يديه أن يتكرّم بافتضاض بكارتها، ثمّ يخلو بها ويفتض بكارتها من أجل البركة - زعموا -، ثمّ تخرج من عنده ويقبّل هذا المريد قدمي شيخه شكراً له على هذا الإحسان، وربّما أعطاه أيضاً مالا على إحسانه له.

فهذا يمارس الفواحش والعياذ بالله، وأمور منكّرة باسم الولاية، فهؤلاء أولياء الشيطان - إي والله - ليسوا أولياء الله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزّين: ١٢] ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٦٣].

«فكل من كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً»^(١)، فلما اختلطت الأمور على النَّاس أصبحت هذه العلامة غير واضحة عندهم، وأصبحت الخرافات تُبَثُّ والضلالات تنشر بين النَّاس وأصبحت هي المقياس.

ولكن قد يغتر العوام عندما تؤتى لهم بقصص وحكايات، ويظنون فعلاً أن هذا

من أولياء الله، وهذا خطأ عظيم فولى الله علامته واضحة، وأعظم ما يكون فيه فعل الفرائض، فإذا ضيَّع الفرائض فهو ليس من أولياء الله، ولا تحتاج هذه إلى مفصلة واضحة؛ ومن ضيَّع الفرائض فهو لما سواها أضيع.

ولهذا فالولاية درجتان بُيِّنَتْ في قوله ﷺ عن الله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»^(١).

فالأولياء على درجتين:

١. درجة فعل الفرائض؛ فالذي يحافظ عليها ويترك المحرمات هذا من أولياء الله، وهي درجة في الولاية.

٢. أعلى منها درجة: من يفعل الفرائض ويترك المحرمات، وينافس في فعل الرغائب والمستحبات، وهذا معنى قوله تعالى: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) قال العلامة عبد الرحمن السَّعْدِي رحمه الله: «هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الأولياء، وفضلهم ومقاماتهم.

فأخبر أنَّ معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له، ومن كان متصدِّياً لعداوة الرَّبِّ ومحاربة مالك الملك فهو مخذول، ومن تكفَّلَ الله بالذَّبِّ عنه فهو منصور، وذلك لكمال موافقة أولياء الله الله في محابَّه، فأحبَّهم وقام بكفائتهم، وكفاهم ما أهمَّهم.

الآية الثانية الَّتِي ذكرها المؤلف هي قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَزِيدَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة] ذكر لهم أربع علامات:

١. أذلة على المؤمنين؛ يعني في قلوبهم رحمة للمؤمنين، ومحبة للخير لهم، ونصح، ودعاء، وتعاون معهم على الخير.
٢. أعزة على الكافرين؛ قلوبهم فيها عزة ومنعة، وفيها أيضاً بغض وكرهية للكفار وأعداء دين الله ﷺ.
٣. وفيهم أيضاً الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ﷻ ونصرة دينه.
٤. وفيهم أنهم لا يخافون في الله لومة لائم في بيان الحق وإيضاحه والدعوة إليه ونشره.

مثل هذه إذا وجدت هذه علامات على أن للإنسان من أولياء الله ﷻ.

ثم ذكر صفة الأولياء الصفة الكاملة، وأن أولياء الله هم الذين تقرَّبوا إلى الله بأداء الفرائض والنوافل أولاً: من صلاة وصيام وزكاة وحج، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وجهاد، وقيام بحقوقه وحقوق عباده الواجبة.

ثم انتقلوا من هذه الدرجة إلى التَّقرُّب إليه بالنوافل، فإن كل جنس من العبادات الواجبة مشروع من جنسه نوافل فيها فضائل عظيمة تكمل الفرائض، وتكمل ثوابها.

فأولياء الله قاموا بالفرائض والنوافل، فتولَّاهم وأحبَّهم وسهَّل لهم كل طريق يوصلهم إلى رضاه، ووفَّقهم وسدَّدهم في جميع حركاتهم، فإن سمعوا سمعوا بالله، وإن أبصروا فله، وإن بطشوا أو مشوا ففي طاعة الله «بهجة قلوب الأبرار» (ص ١٢٤).

ثُمَّ خَتَمَ الْمُؤَلِّفُ ﷺ بِعَلَامَةٍ أَخِيرَةٍ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

ثُمَّ ذَكَرَ عَلَامَتَهُمُ ﷺ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ [يونس]: والعلماء رحمهم الله يقولون: إذا جُمِعَ بين الإيمان والتَّقوى في آية واحدة أو في نصٍّ واحد؛ يكون الإيمان يتناول العقائد الصَّحيحة وفعل الأوامر، والتَّقوى: البعد عن العقائد الزَّائفة الباطلة وترك النَّواهي، فالإيمان: اعتقاد الأمر الصحيح والعمل بالطَّاعات الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، والتَّقوى: البعد عن العقائد الباطلة واتِّقَاؤَهَا، وأيضاً اتِّقَاءُ المحرمات وما نهى الله عنه ﷺ. ويأتي في مقدِّمة ذلك الشُّرْكُ بالله تعالى، والعياذ بالله.

فذكر لهم علامتان: الإيمان والتَّقوى؛ ولهذا من كان مؤمناً تقيّاً كان لله وليّاً - كما سبق -، هذا أمر واضح في كتاب الله ﷻ.

ولهذا قال المصنف: «ثُمَّ صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من أهل العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرِّسُول»؛ يعني أصبحت العلامة للولي: ترك تعاليم الدين، كما ذكرنا من أمثلة سابقة.

«ومن تبعهم فليس منهم» يعني من تبع الأنبياء وسار على منهاجهم ليس منهم، لأنَّه لا يكون منهم إلا بترك الاتِّباع هكذا فُهِمَتُ الْأُمُورُ عندهم.

«ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى
فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم»: هذه المقاييس التي في الآية تركوها
وأصبحت الولاية عندهم بعكس ذلك؛ ولهذا دعا المصنّف ﷺ بهذه الدّعوة قال:
«يا ربّنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء».



[المتن]

قال رحمه الله تعالى:

«الأصل السادس: ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة؛ وهي: أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر؛ فإن لم يكن الإنسان كذلك فليعرض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمها؛ فسبحان الله وبحمده! كم بين الله سبحانه شرعاً وقدرأً خلقاً وأمرأً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) «غافر».

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) ﴿يس».

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه

وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين».

قال ﷺ: «ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة».

إنّ الشيطان وضع لأهل الأهواء وأرباب الباطل شبهة صدّتهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(١)، وأصبح هؤلاء يروّجونها بين الناس، وكانت النتيجة إعراض هؤلاء في التلقّي والأخذ عن الكتاب والسنة، وأصبحوا يأخذون عن دعاة الباطل وما يوجّههم إليه أئمة الضلال، فوضع لهم شبهة خبيثة:

أولاً: «لا يقرأ القرآن ولا يتدبره إلا مجتهد».

ثانياً: «لا يكون الإنسان مجتهداً إلا بأن يكون موصوفاً بصفات كثيرة» كما قال المصنّف رحمه الله: «لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر».

بل وصل الأمر بهم إلى قول: «لا يوجد في زماننا مجتهدين».

إذا نستنتج من كلامهم أنّ قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] ألغى بهذه الشبهة، وأصبحوا لا يتدبرون القرآن، ويقرؤونه إلا للبركة فقط وبدون

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «قال بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغان: إمّا إلى تفريط وتقصير، وإمّا إلى مجاوزة وغلو ولا يبالى بأيّهما ظفر.

وقد اقتطع أكثر الناس إلّا أقلّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، وادي المجاوزة والتّعدي، والقليل منهم جدّاً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه»
«إغاثة اللّهفان» (١/١١٦).

محاولة لفهمه، بل بعضهم ينه غيره ويقول: (انتبه وأنت تقرأ لا تحاول أن تفهم؛ لأنك إن فهمت شيئاً من القرآن فإن دينك على خطر، يُخشى عليك الانحراف!). فإذا قيل له: نهى الله ﷻ عن الشرك، والدليل قوله تعالى كذا، وأمر بكذا والدليل قوله كذا، يقول: لا تتكلم في هذا، لأن هذا خاص بأهل الاجتهاد.

والعلماء رحمهم الله يقولون: الذي جاء في القرآن أمور كثيرة واضحة لكل أحد، فلما قال الله ﷻ (مثلاً): ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فهذه الكلمة واضحة ولا تحتاج إلى اجتهاد ومعرفة بالمقدمات التي ذكروها؟ لأن شهر رمضان معروف عند كل أحد، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥] نزول القرآن في رمضان أيضاً واضح، والأمثلة في ذلك كثيرة:

من الذي لا يفهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] أو ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

فهل تحتاج إلى مجتهد مطلق حتى يفهم معنى غَضُّ البصر؟!

خاطب الله ﷻ الناس بلسان عربي معلوم مفهوم يعلمون معناه، وهناك أمور تحتاج إلى استنباطات واجتهادات كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، أي دقائق المسائل التي تحتاج إلى فقه واستنباط، أما أن يُهجر القرآن ويُترك تدبره، ويقال يقرأ فقط للبركة هذه شبهة أردت بكثير من الناس إلى

الضلال المبين، وأصبحوا معرضين عن كلام الله سبحانه وعن دلالته، منشغلين بالخرافة وبالأحاديث الموضوعية، وبالقصص الواهية، وبالحكايات وبالمنامات، وبينهم كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ - نسأل الله العافية..

فهذه شبهة وضعها الشيطان لهم وأثرت في كثير منهم، من أجل ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وإذا ترك أخذ الدين والتدبر للقرآن الكريم وسنة النبي ﷺ فمن أين يأخذ الناس دينهم؟ فهذا عين الضياع والضلال.

فالشبهة: «هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق»، هذه مقدمة أولى.

المقدمة الثانية: «والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر».

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء].

فالرد إلى الله: الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول ﷺ: الرد إلى سنته، ولكن على ضوء هذه الشبهة يخالف القرآن؛ فلا يُردُّ لا إلى الكتاب ولا إلى السنة.

قال: «فإن لم يكن الإنسان كذلك» يعني: بتلك الأوصاف للمجتهد «فليعرض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه» هكذا يقولون، وبعضهم بمثل هذه

الألفاظ يهزُّ العوام ويخلخل ثوابتهم؛ ويجعل ترك تدبر القرآن فرضاً حتماً لا شك ولا إشكال فيه.

قال: «ومن طلب» يعني هذا كلامهم، «الهدى منهما» أي: من الكتاب والسنة، «فهو إما زنديق» لأنه خاطر بدينه، «وإما مجنون» لأجل صعوبة فهمهما، فهو يحاول أن يفهم من القرآن ما لا يمكن أن يفهم منه؛ وهذا نوع من الجنون!!

والشيخ الإمام الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» عند قول الله تعالى في (سُورَةُ مُحَمَّدٍ): ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]، وقف وقفة مطوّلة عند هذا الموضوع، وأورد هذه الشبهة وأجاب عليها بإجابة موفقة، وأشار إلى بعض من قالها، وتوسّع توسّعاً طويلاً في ذلك؛ بل تصلح أن تكون هذه المعاني العظيمة، والتقريرات المفيدة التي ذكرها رحمه الله في رسالة مفردة^(١).

ثمّ ختم المؤلف رحمه الله رسالته بتسبيح الله وحمده؛ تسبيحه: تنزيهه رحمه الله عن مثل هذه الافتراءات، والقول الباطل في كلامه سبحانه وكلام رسوله ﷺ.

وحمداً: على نعمة التوفيق للخير والهداية والسّلامة من هذه الشرور.

قال رحمه الله: «فسبحان الله وبحمده كم بين الله سبحانه شرعاً وقدرّاً خلقاً وأمرّاً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حدّ الضروريات العامة، ولكن أكثر

(١) قال رحمه الله في ذلك الموضوع: «يجب على كل مسلم، يخاف العرض على ربّه، يوم القيامة، أن يتأمّل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطّاعة الكبرى، التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة.

وهي ادّعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنّة رسوله، استغناء تامّاً، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدوّنة» «أضواء البيان» (٧/ ٢٦٢).

الناس لا يعلمون» أي: هذه الشبهة زيفها مكشوف تماماً، وكم يُبَيِّن في القرآن والسنة من الدلائل على فساد هذا الكلام وبطلان هذا التقرير الفاسد حتَّى أصبح في درجة العلم بها من الدِّين بالضرورة، ولكن استطاع الشَّيطان بمكره ومصائده أن يُقنِع أناساً بها، فأخذوا يروِّجونها ويصدِّون بها النَّاس عن كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ثمَّ ختم هذه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) ﴿[يس: (١)].

ثمَّ قال: «آخره» أي: آخر هذا الكتاب أو هذه الرسالة، «والحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين» (٢).

ونسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنَى وصفاته العلا أن يجزي هذا الإمام وغيره من أئمة المسلمين على نصحتهم وبيانهم ودعوتهم وجهادهم ومجاهدتهم وبذلهم، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتهم، وأن يلحقنا أجمعين بالصَّالحين من عباده.

(١) قال العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «هذه الآيات في المعرضين عن تدبُّر كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وفي آخرها الَّذِي مَنْ الله عليه وهو ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ [يس: ١١] فهذا مثل الفريقين.

(٢) ختم الرسالة بمثل ما بدأها به بحمد الله والصَّلاة والسَّلام على رسوله، وهذا مِنْ محاسن التَّأليف والتَّعليم، وذلك بالثناء على الله أولاً وآخرًا «سلسلة شرح الرِّسائل» (ص ٥٠).

ونسأله ﷺ أَنْ لَا يَزِغَ قُلُوبَنَا، فَاللَّهُمَّ ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ [آل عمران].
 اللَّهُمَّ أَصْلَحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عَصْمَةُ أَمْرِنَا، وَأَصْلَحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشِنَا،
 وَأَصْلَحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي فِيهَا مَعَادُنَا، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ وَالْمَوْتَ
 رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هِدَاةَ مُهْتَدِينَ غَيْرِ ضَالِّينَ وَلَا
 مُضِلِّينَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا وَاهْدِ بِنَا وَاهْدِ لَنَا، وَيَسِّرْ الْهَدْيَ لَنَا، وَاشْرَحْ صُدُورَنَا لِلْخَيْرِ يَا
 رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وَأَنْتَ أَهْلُ الرَّجَاءِ، وَأَنْتَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.



سلسلة شيوخ الربانيين ٥

شَيْخُ

وَلَدِ بَنَاتِنَا نَحْوَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّوَّاحِ بْنِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ

شَرْحُ

عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدْرِيِّ

إِعْتَقَ بِهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا

أَبُو حَنِيفَةَ الْعَزِيزُ بْنُ مُسْلِمٍ الْهَرَوِيُّ

بِإِذْنِ الْمَوْقَاتِلِ النَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

الله اعلم

مُقدِّمةُ الْمُعتَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالُّون، أحمده سبحانه
حمد عبد نزه ربِّه عما يقول الظَّالِمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له وسبحان الله ربَّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أن نبينا محمَّدًا عبده ورسوله
وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذِينَ هم
بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أَمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين،
ولا نِجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل
به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسوله
إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه
حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه

تكون الشقاوة والسعادة، وعلى حسب ذلك تقسم الأنوار ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]»^(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذنوب الشُّرك بعلام الغيوب ﷺ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» (ثلاثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ...»^(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشُّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوّعت كتابات علماء أهل السُّنة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوّل ومختصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ «فشمر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشُّرك،

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كُلِّ زمان من يقول الحقَّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبس الجاهلين المفتونين^(١). وقد كتب ﷺ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأُمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المغمورة (واجبنا نحو ما أمرنا الله به)، وهو بحث نافع لطيف، ممتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

وَمِنْ باب التعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسّة إليه، قُمْتُ بالاعتناء بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلُهَا دروس للشيخ فُرِّغَتْ؛ فاستأذنته في إخراجها في كُتَيْبٍ، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إِلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا^(٢). وما كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ الْمُحَافَظَةَ على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِهِ إِلَّا مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنْ إِضَافَةٍ مَا يُرْبِطُ بِهِ الْكَلَامُ لِتَمَامِ الْمَعْنَى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

(١) «الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/١٢/٢٠١٧م.

سائلًا الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء
كل من أسهم في إخراجه للمتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.
وصلَّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُذَبِّحُكُمْ فِي اللَّهِ
أَبُو عَبْدِ الْعَزِيزِ مُنِيرُ الدُّرَى

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095



مَقْدَمَةُ الشَّارِحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فبين أيدينا رسالة قيمة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في بيان الواجب على كل مسلم نحو ما أمره الله تبارك وتعالى به، والله تعالى أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور عديدة، جاءت في كتابه تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، فما الواجب علينا، نحو ما أمرنا الله به، ونحو ما نهانا عنه؟

فلا شك أن هذا من الأمور العظيمة التي ينبغي أن يعيها كل مسلم ومسلمة؛ وفي هذه الرسالة القيمة للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، بين أن الواجب علينا

نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به أمور سبعة بينها واحدا تلو الآخر نقرأها في رسالته
ﷺ أولا، ثم أعلق عليها بما ييسره الله ﷻ، والله الموفق لا شريك له.

وقبل هذا أذكر بعض ما تتميز به مصنفات الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد
الوهاب ﷻ أشير إليها إجمالا^(١):

الميزة الأولى: أن النصيحة للمؤمنين، والحرص عليهم، وعلى نفعهم، وهداية
المخالف منهم والضال عن سواء السبيل، ظاهرة بارزة فهي شغله الشاغل ﷻ.

والميزة الثانية: أن رسائله أتت على مهمات الدين، وقواعد الشريعة، وأصول
الإيمان وأمره الكبار، فكان يعتني بهذه المسائل التي يجهلها الكثير من الناس
عناية بالغة لمسيس الحاجة إليها من جهة، والبيان المغلوط لها من أئمة الضلال
وترويج الباطل فيها بين الناس من جهة أخرى

والميزة الثالثة لمصنفاته ﷻ: أنها مختصرة، وموجزة أي: يوجز القول ويقلل
الكلام، ولكنه يأتي بجوامع الخير تقريراً وتقعيداً وتأصيلاً بدون إطالة مملة أو
اختصار مخل.

والميزة الرابعة: عنايته الدقيقة ﷻ بالدليل: قال الله، قال رسوله ﷺ، وهذه ميزة
عظيمة تميزت بها مؤلفاته ﷻ وهو سائر في ذلك على سنن السلف الصالح، وأئمة

(١) للشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله رسالة نافعة بعنوان: «منهج شيخ
الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف».

الهدى، وقد جاء عن مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ رضي الله عنه قَالَ: «كَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا كَانَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَثَرِ فَهُوَ عَلَى الطَّرِيقِ»^(١).

فهذه من الأمور والميزات التي تتميز بها مصنفات هذا الإمام رضي الله عنه ويلاحظ فيها نحسبه كذلك والله حسيبه، أنها نابعة عن إخلاص وصدق، ولهذا بارك الله تبارك وتعالى فيها بركة عظيمة في العالم كله، ونفع الله تبارك وتعالى بها نفعا عظيما، وتبصر الناس وعرفوا التوحيد، وعرفوا السنة، وعرفوا الإيمان الصحيح وسلموا من شبهات أهل الباطل، وأضاليل أهل الضلال، وكل ذلك حصل لمن كتب الله تبارك وتعالى له التوفيق من عباده.

وفي هذه الرسالة التي بين أيدينا - وهي رسالة عظيمة جدا وقيمة للغاية - يجب فيها رضي الله عنه عن سؤال ربما يطرحه كل مسلم، أو ربما يشغل بال كل مسلم ناصح لنفسه، ألا وهو ما الذي يجب علينا نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به؟

فالله سبحانه أمرنا بأوامر كثيرة في كتابه، وأمرنا برسوله صلى الله عليه وسلم بأوامر العديدة في سنته، ونهانا ربنا تبارك وتعالى عن نواه كثيرة في كتابه، ونهانا برسوله صلى الله عليه وسلم عن نواه عديدة في سنته، فما الذي يجب علينا معاشر المسلمين نحو ما أمرنا الله وتعالى به، وما أمرنا رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحو ما نهانا الله تبارك وتعالى عنه، ونهانا عنه رسوله صلى الله عليه وسلم؟

فيلخص لك الإمام رضي الله عنه الواجب نحو ما أمرنا الله به في أمور سبعة، فاحفظها واعتن بها ينفعك الله تبارك وتعالى بها نفعا عظيما.

(١) رواه الدارمي في «سننه» (١٤١)، وانظر على سبيل المثال: «الإبانة الكبرى» (٢٤٢)، و«الشريعة» (٣٠).

فيجب عليك نحو ما أمرت به ونهيت عنه في القرآن والسنة أموراً سبعة بينها وجمعها ﷺ في هذه الرسالة المختصرة، ولعل من الدوافع - والله تعالى أعلم - لتأليف هذه الرسالة أن كثيراً من الناس يعلمون الأوامر وتبلغهم ولكنهم لا يدرون بدقة ما الذي يجب عليهم فكان تأليف هذه الرسالة، ولهذا ستلاحظ في رسالة الشيخ ﷺ أنه ركز على هذا الجانب، ألا وهو بيان حال الناس وواقعهم مع هذه الأوامر لما عرض الأمور السبعة أشار إلى واقع كثير من الناس معها، وأن القليل من الناس هم الذين كملوها ورعوها واعتنوا بها، وأن كثيراً من الناس فرطوا في هذه الأمور فتجده إما عمل ببعضها وفرط في باقيها، أو فرط في جميعها، وأما القليل من الناس هم الذين وفقهم الله بالعمل بهذه الأمور السبعة مجتمعة ورعوها واعتنوا بها محققين بذلك إسلامهم ومتممين إيمانهم، ولهذا أيها الأخ الموفق ينبغي أن تعير هذه الأمور اهتمامك وأن تعتني بها حفظاً أولاً، وفهماً ثانياً، ثم عناية بتطبيقها.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له في رسالته «واجبنا نحو ما أمرنا الله به»:

«إِذَا أَمَرَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِأَمْرٍ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ:

الأولى: العلمُ به.

والثانية: محبته.

والثالثة: العزمُ على الفعل.

والرابعة: العملُ.

والخامسة: كونه يقَعُ على المشروعِ خالصًا صوابًا.

والسادسة: التحذيرُ من فعلٍ ما يُحِبُّطُهُ.

والسابعة: الثباتُ عليه.

إِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَحَلَّ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُورَ بِهِ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ الْمَنْهَى عَنْهُ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ بِالسَّأَلِ الْأَوَّلَى، وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ، أَكْثَرُ النَّاسِ عِلْمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الرِّبَا وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَجَوَّازَ الْأَكْلِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَوَلَّى مَالِ الْيَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ.

المرتبة الثانية: محبة ما أنزل الله وكفر من كرهه، لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١) [سورة محمدية] فأكثر الناس لم يحب الرسول بل أبغضه، وأبغض ما جاء به ولو عرف أن الله أنزله.

المرتبة الثالثة: العزم على الفعل، وكثير من الناس عرف وأحب ولكن لم يعزم خوفاً من تغيير دنياه.

المرتبة الرابعة: العمل وكثير من الناس إذا عزم أو عمل وتبين عليه من يعظمه من شيوخ أو غيرهم ترك العمل.

المرتبة الخامسة: أن كثيراً ممن عمل لا يقنع خالصاً، فإن وقع خالصاً لم يقنع صواباً.

المرتبة السادسة: أن الصالحين يخافون من حبوط العمل، لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) [سورة المجزات]، وهذه من أقل الأشياء في زماننا.

المرتبة السابعة: الثبات على الحق، والخوف من سوء الخاتمة، لقوله ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ».

وهذه أيضاً من أعظم ما يخاف منه الصالحون، وهي قليل في زماننا، فالتفكر في حال الذي تعرف من الناس في هذا وغيره يدلُّك على شيء كثير تجهله، والله أعلم^(١).

[الشرح]

قال ﷺ: «إِذَا أَمَرَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِأَمْرٍ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ».

قوله ﷺ: «وَجَبَ» يدل على أن هذه الأمور السبعة التي يذكرها ﷺ هي من الواجبات على كل مسلم ومسلمة نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به، ونحو أيضا ما نهانا تبارك وتعالى عنه، ثم ذكرها أولا مجملة ثم بعد ذلك فصلها بعض التفصيل قال ﷺ:

الْأُولَى: الْعِلْمُ بِهِ.

وَالثَّانِيَّةُ: مَحَبَّتُهُ.

وَالثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ.

وَالرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ.

وَالْخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَى الْمَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا.

وَالسَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ فِعْلٍ مَا يُخْبِطُهُ.

وَالسَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

فهذه أمور سبعة عظيمة تجب عليك أيها المسلم نحو كل ما أمرك الله تبارك وتعالى به، وقد جمعت لك الخير كله، وهي ليست أمورا غامضة، بل أمور واضحة يفهما العامي فضلا عن طالب العلم أو العالم، وهي بينة وظاهرة، ولا تحتاج إلى شرح وبيان^(١).

(١) الإمام ابن القيم ﷺ يبين أن العلم منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفائي وساق

قال ﷺ: «الأولى: العلم به» أي: إذا أمرك الله تبارك وتعالى بأمر، فإن أول ما يجب عليك نحوه أن تعلمه، ولهذا قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [شُورَةُ مُحْتَشِدًا : ١٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [١١٤].

أن تعلم الذي أمرت به، لتعبد الله تبارك وتعالى على بصيرة، ومن كان لا يعلم الأمور فإنه لا يعلم ما أمره الله تبارك وتعالى به، فكيف يعبد الله وهو يجهل دين الله؟ ولهذا أول واجب علينا نحو ما أمرنا به أن نتعلمه، أمرنا بالتوحيد، فما واجبنا الأول نحو التوحيد؟ أن نتعلمه، وأن نفهمه فهما صحيحا.

وأمرنا بالصلاة وهي من أعظم الأوامر بعد التوحيد، فما واجبنا نحوها؟ أن نتعلمها: فنعرف الصلاة بأركانها، واجباتها، شروطها، كما أمرنا ربنا بذلك، وكما جاء في سنة نبينا ﷺ القائل: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(١)، ولا يمكن أن يصلي الإنسان كما كان رسول الله ﷺ يصلي إلا بالعلم، وهكذا قل في بقية الأوامر التي أمرك الله تعالى بها، ولهذا قدم ﷺ العلم قبل الأمور الأخرى التي ذكرها، لأن العلم به يبدأ، كما قال الله تعالى في القرآن ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [شُورَةُ مُحْتَشِدًا : ١٩].

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، ولهذا العلم أول ما يبدأ به من أمور الدين، أن يتعلم الإنسان دينه، وأن يتعلم الأوامر التي أمره الله تبارك وتعالى بها، وأن يتعلم

التفصيل في ذلك، فمما ذكره ﷺ: «إن العلم بالمفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلما جهله وهو أنواع... وأما فرض الكفاية» «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٧).

(١) رواه البخاري (٦٣١).

النواهي التي نهاه الله تبارك وتعالى عنها، ليكون في عبادته لله تبارك وتعالى على بصيرة لا أن يعبد الله بالجهل، أو يعبد الله بالأهواء، أو يعبد الله بالبدع والضلالات، فقد قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، ولا يمكن أن تعمل العمل الذي عليه النبي ﷺ إلا بالعلم النافع الذي تقتدي به وتعرف به الحق والهدى، وتميز به بين الحق والباطل، وتعبد الله على بصيرة وبينة، وإنَّ من الدعوات العظيمة النافعة التي كان النَّبِيُّ ﷺ يُلَازِمُ المحافظةَ عليها كُلَّ صباح ما ثبت في «مسند الإمام أحمد» و«سنن ابن ماجه» من حديث أم سلمة ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا»^(٢).

وذلك أن اليوم هو للعمل، وتحقيق الأهداف العظيمة التي يسعى إليها المسلم ذكرت في هذه الدعوات المباركة، فبدأ بالعلم النافع قبل الرزق الطيب، وقبل العمل المتقبل، وذلك فيه تنبيه إلى أهمية العلم فبه يميز بين الرزق الطيب والخبيث، وبين العمل المتقبل والمردود.

قال ﷺ: «وَالثَّانِيَةُ: مَحَبَّةُ» أي: محبة الشيء الذي أمرك الله به، والمحبة مكانها القلب ولذلك ينبغي على المسلم أن يعود نفسه دائماً على محبة الشيء الذي أمره الله به، لأن المحبة هي التي تسوق إلى الجد في العمل؛ فإذا أحب المأمور حبا عظيما وأحبه قلبه حبا قويا تحركت نفسه للعمل به.

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٣٢٢ / ٦)، وابن ماجه (٩٢٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

بينما إذا انعدمت المحبة فإن العمل سيضعف أي يذهب تبعاً لذلك، ولهذا يعود المسلم نفسه دائماً أن يحب الشيء الذي أمره الله تبارك وتعالى به، ويعود نفسه على محبة ذلك وعلى بغض الشيء الذي نهى الله عنه، لأن الله لا يأمر بك شيء إلا هو خير للعبد في دنياه وأخراه ولا ينهى تبارك وتعالى إلا عما فيه مضرة عليه في دنياه وأخراه.

«قال بعض الأعراب وقد سئل بم عرفتم أنه رسول الله؟

فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليتّه ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال: ليتّه أمر به»^(١) أي: أن الذي يأمر به أمور عظيمة فيها مصالح رفيعة وعظيمة للإنسان في دنياه وأخراه، والذي ينهى عنه ﷺ أمور تضره في دنياه وأخراه.

ولهذا الواجب على كل مسلم نحو الأوامر أن يحب ما أمر الله تعالى به وأن يبغض الأشياء التي نهى الله عنها.

فمثلاً نهانا عن الكفر فنبغض الكفر، ونهانا عن المعاصي فنبغض المعاصي، ونهانا عن الفسوق فنبغض الفسوق، ونهانا عن الزنا والكذب والغش والخيانة.. إلى آخره فنبغض هذه الأشياء ونكرها من قلوبنا.

وأمرنا سبحانه بالصلاة والصيام وبر الوالدين وبصلة الأرحام وبالوفاء وبالأمانة وبالصدق وبالحياء وبالخشية.. إلى آخره، فنحب هذه الأشياء التي أمرنا تبارك الله تعالى بها فهي أساس عظيم ومطلب جليل.

أما والعياذ بالله إذا انقلبت حال الإنسان وأصبحت نفسه تبغض المأمورات:

(١) «مفتاح دار السعادة» (٦/٢).

فتبغض الشيء الذي أمر الله به أو تبغض بعضه، وفي الوقت نفسه تحب المنهيات والفواحش، فمن أين يريد أن يأتيه الخير إذا كانت نفسه رديئة إلى هذا الحد ودنيئة إلى هذا القدر؟

فتجد نفسه والعياذ بالله تحب الزنا وأماكن الفواحش والمحرمات، وتنكمش وتقبض من المساجد وبيوت الله وأماكن الطاعات، ويقول نفسي ما تميل للذهاب للمساجد وتنشرح نفسه لأماكن الخمارات وأماكن الرقص وأماكن العهر والفجور ويقول: نفسي ترتاح وتميل لذلك، وإذا ذكرت له الصلاة اشمأزت نفسه، فكيف يمكن أن يصل الخير إلى قلبه وأن يبلغ منه المبالغ العالية الرفيعة؟

ولهذا قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١)، فهذا القلب إذا صلح - ومن أعظم ما يصلح به المحبة - أن تحب أولاً بقلبك الله جل وعلا ونبه ﷺ، وأن تحب كل ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال، وتحب الأنبياء والأولياء والصالحين، وتحب الطاعات والأوامر التي أمرك الله تبارك وتعالى بها، ولهذا قال ﷺ: «أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ لِلَّهِ، وَتُبْغِضَ لَهُ»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٥٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٨).

الإِيمَان»^(١)، وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(٢)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

إذا الواجب الثاني علينا نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به أن نحبه محبة صادقة من قلوبنا نعمر قلوبنا بمحبة الله ومحبة كل ما يحبه الله تبارك وتعالى^(٣).

وليعتن في هذا المقام بالأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها، وهي عشرة: «أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إثارة محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسليم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

(١) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٣) قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كلام جميل له: «فالمحب الصادق: إن نطق نطق الله وبالله، وإن سكت سكت الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضات الله، فهو الله وبالله ومع الله» «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٠).

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومبانيها فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباحة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل^(١).

ثم ذكر المرتبة الثالثة: ألا وهي «العَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ»: علمت أحبيت، علمت ما أمرك الله به وأحبيته.

فالأمر الثالث الذي تقوم به، والشيخ رحمه الله في هذه الأمور راعى ترتيبها من حيث الوقوع:

(١) «مدارج السالكين» (١٨/٣).

أولاً: العلم به تبدأ.

ثانياً: المحبة؛ تحب هذا الشيء الذي أمرك الله تبارك وتعالى به.

ثالثاً: العزم على الفعل، والعزم مكانه القلب، ولهذا بعد أن تعلم وتحب تعزم في قلبك عزمًا صادقًا على العمل بهذا الذي أمرت به.

مثال ذلك: حضرت درسا أو سمعت خطبة أو موعظة وعلمت هذا الشيء الذي وعظت به وعلمته، وقلبك ارتاح له وأحببت ما أمرك الله به، فانتقل بعد هذا العلم وهذه المحبة إلى عزم صادق في قلبك لكي تقوم بهذا الذي تعلمته.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ» وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البدوات لهن أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتها، فإذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»^(١).

فإن أعطاك الله هذه الدعوة «وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ» لم يبق لك من الخير شيء إلا وثلته وفزت به.

ومعنى «وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرَّشْدِ»: بمعنى أنك إذا علمت شيئا من الرشد وشيئا من دين الله تبارك وتعالى تعزم بهمة عالية وإقبال صادق من قلبك على القيام بهذا الذي

أمرت به، ولهذا لا ينبغي علينا أن نفوت على أنفسنا العناية بهذه الدعوات وهي تتعلق بالأمر الثالث^(١).

لأن المرتبة الأولى: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا»، والمرتبة الثاني: ثبت عن نبينا ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ»^(٢).

والمرتبة الثالثة: العزم على الفعل؛ ومن أعظم الدعاء في هذا الباب ما ثبت عنه ﷺ: عن شداد بن أوس ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا شداد بن أوس إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، ولسانا صادقا، وأسألك خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب»^(٣).

ثم ذكر المرتبة الرابعة: وهي «العَمَلُ» أي: أن تعمل بما أمرت به؛ علمت وأحببت وعزمت في قرارة نفسك وفي قلبك، أن تقوم بما أمرت به، فالمرتبة الرابعة أن تعمل وتقوم وتنطلق للشيء الذي أمرت به، وقيامك بالعمل أيضا لا غنى لك

(١) العزيمة على الفعل.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح المشكاة» (٦٠).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٣٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

فيه عن عون الله، ومن المشروع للمسلم أن يقول أدبار الصلوات ما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه، ففي «سنن أبي داود» و«سنن النسائي» وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْمًا وَقَالَ: يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١)، وهذا الدعاء يكون دبر الصلاة^(٢)، وهو في غاية المناسبة لأنك إذا صليت فالذي أعانك هو الله ﷻ، ولذلك تطلب العون مرة أخرى لأن أمامك صلوات وعبادات وأمور لا غنى لك فيها عن عون الله تبارك وتعالى ولهذا يحافظ على هذا الدعاء محافظة تامة دبر كل صلاة كما وجه ذلك نبينا ﷺ، والأحاديث التي فيها طلب العون على العمل والقيام به كثيرة معلومة عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

إذن المرتبة الرابعة: أن تعمل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾ [سُورَةُ النَّاسِ: ٦٦]، فالمطلوب منك أن تفعل الشيء الذي وعظت به، وينبغي أن تعلم أن المقصود من طلب العلم ومجالسه: العمل.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل»^(٣).

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٢) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «ودبر الصلاة المذكور في هذا الحديث والذي قبله يحتمل قبل السلام وبعده، قال ابن القيم رحمته الله: «وكان شيخنا - يعني ابن تيمية رحمته الله - يرجح أن يكون قبل السلام، فراجعته فيه، فقال: دبر كل شيء منه كدبر الحيوان وبالله التوفيق» «فقه الأديعية والأذكار» (١٠٣/٢).

(٣) رواه ابن عساكر في «ذم من لم يعمل بعمله» (ص ٣٨).

يقصد ﷺ بالعلم أن يعمل الإنسان بما علم وإلا كان علمه حجة عليه كما قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»^(١).

وقال ﷺ: «وَالْفُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» خرجهما الإمام مسلم ﷺ في «صحيحه».

قال ﷺ: «الْمَرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَى الْمَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا»: فعمل العبادة لا يكون باتباع الهوى، بل لابد من شرطين ألا وهما:

١ / الإخلاص للمعبود.

٢ / المتابعة للرسول ﷺ.

فيحرص العبد على أن يقع منه العمل خالصا لله صوابا على سنة رسول الله ﷺ. وفي الدعاء المتقدم قال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٢)؛ لأن العبادة لا تقبل إلا إذا اتصفت بالحسن ولا تكون العبادة متصفة بالحسن إلا بالإخلاص والمتابعة، قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُفِّرُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سُورَةُ الْمَلِكِ : ٢]، قال الفضيل بن عياض ﷺ في معنى الآية: «أَي: أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ»، قيل: يا أبا علي وما أَخْلَصَهُ وَأَصَوَّبَهُ؟

قال: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ مَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ مَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»^(٣).

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص ٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨ / ٩٥).

إذن علمت وأحببت وعزمت في قلبك على العمل وعملت مع حرصك على أن يكون العمل منك حين يقع على الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ.

والدليل على أن الله لن يقبل العمل الذي ليس قائما على الإخلاص قوله تعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١).

والدليل على أن الله لا يقبل العمل إذا لم يكن صوابا على السنة قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢): أي مردود على صاحبه وغير مقبول منه، فهذه المرتبة الخامسة.

قال ﷺ: «الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ الْعَمَلِ» أي: أن تحذر من فعل شيء يحبط عملك، فالصالحون كانوا يخافون من حبوط الأعمال، وفرق بين الصالحين مع أعمالهم وبين غير الصالحين؛ فغير الصالح يقوم بالعمل ثم يمن بعمله: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمَنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٧﴾ [سُورَةُ الْحَجَرَاتِ]، بينما الصالح يقوم بالعمل وهو خائف أن يحبط وأن لا يقبل كما قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠﴾ [سُورَةُ الْمُؤْتَفُونَ] .

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟

قَالَ ﷺ: «لَا يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ،

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ^(١).

ومحبطات الأعمال عديدة^(٢) جاء بيانها في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه، ومن أعظم الأمور التي تحبط الأعمال الرياء والسمعة سواء كانت وقت العمل أو بعده:

فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَكِّرُ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟». قَالَ: قُلْنَا بَلَى.

فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيَزِينُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»^(٣).

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٤).

قال العلامة الألباني رحمته الله: «والسر في خوف المؤمنين أن لا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم أن لا يوفيههم الله أجورهم... وإنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله ﷻ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْجَزْمَ بِأَنَّهُمْ قَامُوا بِهَا عَلَى مَرَادِ اللَّهِ، بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَصَرُوا فِي ذَلِكَ، وَلِهَذَا فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ، فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُؤْمِنُ هَذَا عَسَى أَنْ يَزِدَّادَ حِرْصًا عَلَى إِحْسَانِ الْعِبَادَةِ وَالِإِتْيَانِ بِهَا كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَذَلِكَ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا لَهُ، وَاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ ﷺ فِي هُدْيِهِ فِيهَا» «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٦١).

(٢) قال الإمام ابن القيم رحمته الله: «ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر؛ وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه» «الوابل الصيب» (ص ١٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٩٤)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٩).

فيحسن الصلاة لا لأجل الله وإنما لأجل نظر الناس إليه، أو بعد العمل فيحاول أن يبرز عمله للناس من أجل ثنائهم عليه.

مثال ذلك: قام شخص الليل خاشعاً باكياً مخلصاً متبعاً سنة النبي ﷺ، ثم جلس مع رفقاءه يحدثهم: كنت في صلاة، وكنت في خشوع وبكاء، وهو يقصد بذكر هذه الأمور أن يحمد بذلك وأن يشتهر وأن يعرف وأن يثنى عليه، فهذه مصيبة من المصائب! وقد فشت في الناس أن عدداً من الحجاج يلتقط لنفسه صوراً تذكارية في المشاعر وأماكن العبادات، ورأيت بأم عيني عند الجمرات أحد الحجاج يمد آلة التصوير التي معه لصاحبه ثم يقف ويعطي ظهره للجمرات بسرعة ويمد يديه وأخذ يحركها كهيئة الداعي لأن التصوير بالفيديو، ثم بعد ذلك يحملها إلى بلده ويعرضها على رفقاءه وزملائه ويقول: انظروا وأنا في الجمرات، وفي عرفة، وفي الطواف.. وهكذا.

فالنبي ﷺ لما حج حجة الوداع وصل إلى الميقات ولبس الإحرام متوجهاً إلى مكة ماذا قال؟

الجواب: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حجَّ النبي ﷺ عَلَى رَحْلِ رَثٍّ وَقَطِيفَةٍ تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمٍ أَوْ لَا تُسَاوِي ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةً»^(١).

أي: لا يُقصد بها إلا وجهك الكريم، ولا يبتغى بها أي شيء آخر: لا أحد يثنى علي، ولا أحد يمدحني، لأن الله سبحانه لا يقبل العمل الذي فيه شركة، فإذا حج وهو يريد ثواب الله أو يريد مدح الناس له وثناءهم عليه إلى آخره.. فالله لا يقبل

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٩٠)، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (٢٨٨).

هذا العمل الذي جعل له معه شريكا، ولهذا قال في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ»^(١): فلا يقبل العمل إلا إذا كان خالصا لوجهه الكريم ﷺ، ولهذا قال ﷺ في آخر آية من [سُورَةُ الْكَافُرَاتِ]: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١١٠): فإذا كنت ترجو لقاء الله بعملك الذي يثيبك عليه ويكون العمل الذي قمت به من صالح عملك الذي تلقى الله به يوم القيامة فليكن عملا صالحا ولا تشرك مع الله أحدا لا في قليل ولا في كثير.

ولهذا إذا علمت وأحببت وعزمت وعملت وأخلصت واتبعت كما مر في المراتب الأولى احرص بعد ذلك ألا تأتي بشيء يحبط العمل ويبطله، وأعظم مبطل للعمل ومفسد ومتلف له تماما الشرك بالله والعياذ بالله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ^(١٦٦) [سُورَةُ الزُّمَرِ]، ولهذا إذا وجد من يدعو غير الله أو يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله أو غير ذلك من العبادات فإن هذا من مبطلات الأعمال كلها، فلا صلاة ولا صيام ولا حج ولا صدقة.. لأن الشرك والعياذ بالله إذا دخل على الأعمال أبطلها برمتها.

قال تعالى عن أهل الشرك: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [سُورَةُ الْفُرْقَانِ]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(١٠٤) [سُورَةُ الْكَافُرَاتِ].

إذن فليحذر العبد كل الحذر من محبطات الأعمال ومبطلاتها حمانا الله وإياكم ووقانا ووقاكم.

قال رحمه الله: «الْمَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ» أي: أن تثبت على هذا الأمر إلى أن يتوفاك الله تبارك وتعالى وهو عنك راضٍ والله تعالى يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) ﴿سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ﴾، وكان أكثر دعاء نبينا ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

فعن شهر بن حوشب قال: قلتُ لأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرَ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟

قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرَ دُعَائِهِ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قَالَتْ: قلتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَأَكْثَرَ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟

قَالَ: «يَا أُمُّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ أَدْمِي إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ»^(١). والله يقول في القرآن الكريم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدَى مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْرَ لَكُمْ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ حَسَرَاتٍ إِنْ لَمْ يَدْرِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨) ﴿سُورَةُ قَطَرٍ﴾، ولهذا الأمر السابع الذي ينبغي أن تحرص عليه نحو المأمورات الثبات على ذلك إلى أن يتوفاك الله، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) ﴿سُورَةُ فَصَّلَتْ﴾.

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) [سُورَةُ الْاِحْقَافِ].

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ رحمته الله قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ.

قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، فَاسْتَقِمْ»^(١).

وتأمل معي أيضا في هذه الدعوة التي كان يدعوا بها نبينا ﷺ وهي ثابتة في «الصحيحين» كان يقول ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»^(٢).

ومن الأذكار العظيمة النافعة للمسلم عند خروجه من منزله ما ثبت في «سنن أبي داود» و«ابن ماجه» وغيرهما عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا رَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي، أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(٣).

إذن الثبات على الأمر والدوام عليه والبقاء عليه والمحافظة عليه إلى أن يموت الإنسان على هذه الحال فهذا الذي ينال به الإنسان المقصود.

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٢٧١٧).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

أما والعياذ بالله لو أن الإنسان ختم له في آخر حياته بخاتمة سيئة كما قال المصنف رحمه الله: «الْمَرْبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْخَوْفُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ، لِقَوْلِهِ ﷻ: «إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ» ولهذا مما يخافه الصالحون السوابق والخواتيم^(١)، السوابق فيما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ]، فيخاف السابق أي في الكتاب، ويخاف الخاتم التي يختم عليه بها وأمره بيد الله ولهذا يلجأ دائما إلى الله أن يثبتته: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سُورَةُ الْأَعْمَالِ]، أن يعيده من الضلال وأن يجنبه الزلل.. وغير ذلك من الدعوات العظيمة المباركة الثابتة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه، وأن يجنبه الفتن إلى غير ذلك من الدعوات العظيمة المباركة الثابتة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه.

فهذه مراتب سبعة عرضها المصنف رحمه الله عرضا مجملا ثم شرحها بشيء من الاختصار مع ضرب مثال يوضح المقصود.

قال رحمه الله: «إِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَحَلَّ لَوْلِيهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُورَ بِهِ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ،

(١) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: «كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون بماذا يختم لنا؟! وقلوب المقربين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟!» «جامع العلوم والحكم» (ص ٥٧).

وَيَعْلَمَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَيَسْأَلُ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ بِالسَّأَلِ الْأُولَى، وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ وَالشُّرْكِ، أَكْثَرَ النَّاسِ عِلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ وَالشُّرْكَ بَاطِلٌ وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الرَّبَا وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَجَوَّازَ الْأَكْلِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَوَلَّى مَالِ الْيَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ».

فعليك أن تعرف التوحيد ما هو وأن تعرف الشرك ما هو؛ إذ كيف يكون موحدًا من لا يعرف التوحيد وكيف يسلم من الشرك من لا يعرف الشرك؟ ولهذا قيل: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟»^(١).

أي: كيف تتقي المنهيات وأنت لا تعرفها؟

وكيف تفعل الأوامر وأنت لا تعرفها؟

إذن الخطوة الأولى والمرتبة الأولى التي تجب علينا نحو المأمور أن يعلمه.

قال ﷺ: «وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُورَ بِهِ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ» لأن هذا الدين خلقنا الله تبارك وتعالى لأجله، ولهذا يجب على العبد أن يتعلم، ومن طرق التعلم سؤال أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ النِّحْلِ].

وهذا العلم ليس خاصًا بالأوامر فقط، بل النواهي كذلك فيسأل أهل العلم ويبحث عنها حتى يعرف الشيء الذي نُهِيَ عنه، ولهذا ألف غير واحد من أهل العلم في الكبائر ومنهم المصنف رحمه الله، وكذلك الإمام الذهبي رحمه الله، وأوصي كثيرا بكتاب «الكبائر» له، وأن يقرأه المرء ولو مرة واحدة على أهل بيته؛ لأن المجتمعات

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨ / ٣٦٥).

كثرت فيها الكبائر والنواهي فتكون براءة ذمته بتعلمه وتعليمه لأولاده وأهله؛ لأن العلم إذا وجد يبين الناس الحق من الضلال.

إذن المرتبة الأولى العلم، قال ﷺ: «واعتبر ذلك بالمسألة الأولى، وهي مسألة التوحيد والشرك، أكثر الناس علم أن التوحيد حق والشرك باطل»، ولكن أعرض عنه ولم يسأل عنه الكثير من الناس. والمؤلف ﷺ يقول: «التوحيد زين»^(١)، ولكن رغم فضائله العديدة والكثيرة إلا أن بعض الناس لا يخصص الوقت ليتعلم هذا الزين، ولو سأله عن التوحيد والشرك يقول لك: التوحيد زين وجميل، والشرك شين وقبيح؛ لكن ما يخصص وقتا يتعلم فيه التوحيد وما يتعلق به، وكذلك ما يتعلق بالشرك حتى يحذر منه ويجتنبه، ولهذا المصنف ﷺ يقول: «أكثر الناس علم أن التوحيد حق، والشرك باطل؛ ولكن أعرض عنه ولم يسأل» فيتعلم أشياء كثيرة من أمور الدنيا ولكن يعرض عن أعظم موضوع وهو التوحيد، فأكبر خسارة يخسرها الإنسان أن يخرج من الدنيا وهو ما عرف أحسن شيء فيها، وقد قال الله ﷻ عن الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (٧) [سورة البروج].

فأخطر ما يكون على الإنسان أن يخرج من الدنيا ولم يعرف أجمل ما يكون، ولم يتعلم عن أزين ما فيها وهو توحيد رب العالمين، وكما قال المصنف ﷺ عندما تسأل كثيرا من الناس عن التوحيد وعن الشرك يقول لك: التوحيد زين، ويقول لك: الشرك شين، ولكن ما عنده وقت بل معرض عن التعلم.

وكذلك مما جعل إعراض بعض الناس عن تعلم التوحيد أئمة الباطل ودعاة

الضلال وأهل الصد عن دين الله تبارك وتعالى فصرفوا الناس عن التمييز بين الحق والباطل، وفي الوقت نفسه علموهم الضلال والبدع والخرافات، فصرفوهم عن التوحيد وعن السنة وعن معرفة الحق الذي بعث به رسوله صلوات الله وسلامه عليه حتى إن بعض الناس - وهذا من التناقضات العجيبة - يسأل عن التوحيد ثم يمد يديه ويقول: (مدد يا فلان) فأين التوحيد زين؟ مدد يا فلان! أدركني يا فلان! من الذي يدركني؟! من ألوذ به سواك؟! فيخاطب مخلوقاً، ويدعو ميتاً من دون الله والعياذ بالله، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٤) [سُورَةُ قَطَرٍ: ١٠].

قال ﷺ: «وَعَرَفَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الرِّبَا وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ» لأنَّ أهم سؤال عنده كيف تكون الأرباح؟ وكيف السبيل لتحصيلها؟ فإذا كانت النسبة عالية دفع ولم يبال، لكن نوع البيع هل هو جائز أم لا؟! ما يسأل رغم أنه قريب من الشيخ الفلاني، وفي الحديث: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

وفي الحديث الآخر: «دَعُ ما يريُّكَ إلى ما لا يريُّكَ»^(١) أي: عليك بالواضح البين وإياك بأمر فيه شبهة وفيه باطل أو تخاطر بدينك^(٢).

وبعض الناس في هذا الباب أهم سؤال عنده في هذه المسألة عن الربح، وقد يقع في الربا والعياذ بالله التي قال الله عنها: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [سُورَةُ الْبَقَّةِ]، وبعض الناس لما تركوا السؤال والتعلم حول هذه المسائل فباعوا واشتروا وقعوا في أمور كثيرة، وبعض الناس أموالهم ضاعت وصحتهم تلفت وأصيب بعضهم بأمراض عديدة، والله المستعان.

وقد قرأت في أحد الكتب (ومؤلفه رجل غير مسلم) - وهذا قبل أكثر من خمسين سنة - عن حال بعض الناس في بلاد الكفر، وأرى أنها وجدت في عدد من المجتمعات المسلمة؛ قال: «بات من المقرر أنه كلما نزلت نسبة الأرباح في الأسهم زادت نسبة السكر في الدم».

قال ﷺ: «وَعَرَفَ تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَجَوَازَ الْأَكْلِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَتَوَلَّى مَالِ الْيَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ» هذه مصيبة أخرى، يعلم أن الله حرم أكل مال اليتيم ويكون تحته يتامى وعنده أموال لهم فيأكل من مال اليتيم ولا يسأل عما يجوز مما لا يجوز، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٤٧).

(٢) قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «مِمَّا يُسْتَفَادُ مِنَ الْحَدِيثِ:

١- ترك ما يكون فيه ريبة، والأخذ بما لا ريبة فيه.

٢- أن ترك ما يُرتاب فيه فيه راحة للنفس وسلامتها من القلق» «فتح القوي المتين» (ص ٥١).

نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ]، ويقول سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿١١﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ].

فهذا إعراض بعض الناس عن العلم بالتوحيد، والعبادات والمعاملات إلى غير ذلك.

قال ﷺ: «الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: مَحَبَّةُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَكُفْرٍ مِنْ كَرِهَهُ، لقول الله تعالى: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١١﴾ [سُورَةُ الْمُحْتَشِبِينَ] فَأَكْثَرَ النَّاسِ لَمْ يُحِبِّ الرَّسُولَ بَلْ أَبْغَضَهُ، وَأَبْغَضَ مَا جَاءَ بِهِ وَلَوْ عَرَفَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ».

أي: تجد بعض الناس يعرف أن الذي جاء به الرسول ﷺ حق، وأنه منزل من عند الله تبارك وتعالى ولكنه يبغضه.

وبعض الناس يكون بغضه للرسول ﷺ أو ما جاء به لأطماع أو أغراض دنيوية؛ لأن ما جاء به الرسول ﷺ لا يوافق هواه ولا يتماشى مع رغباته وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»^(١).

قال ﷺ: «الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَرَفَ وَأَحَبَّ وَلَكِنْ لَمْ يَعْزَمْ خَوْفًا مِنْ تَغْيِيرِ دُنْيَاهُ» فهذا سبب من الأسباب، أي: أن بعض الناس

(١) رواه الخطيب في «التاريخ» (٣٦٨/٤)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤)، وضعفه الألباني في «ظلال السنة» (١٥).

يعرف ويحب قلبه لكن ما يعزم على الفعل لأنه لو يعزم عليه فإن دنياه تتغير إما رئاسة أو مكانة، وهكذا.

فخوفه على التغير يجعله يحجم، وفي قصة أبي طالب عم النبي ﷺ دروس وعبر، فقد كان ﷺ يدعو للإسلام دعوة متكررة فعرف أن الدين حق وأدرك أنه شيء محبوب وشيء طيب، ولكنه لم يعزم على العمل خوفاً من تغير الدنيا، وهو نفسه يقول:

وعرضت ديناً قد عرفت بأنه من خير أديان البرية ديناً

إذن لماذا لم تعمل ولم تعتق هذا الدين الذي وصفته بهذه الأوصاف؟ يقول بعد ذلك:

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً^(١)

فيخاف التغير أن يلام وأن يسب وأن يقال له: صبأت وتركت دين الآباء إلى آخره، فيخاف من تغير دنياهن مما يجعله لا يعزم.

وبعض الناس يعرف السنة ويقول: هذا حق والأدلة واضحة، ثم تأتيه الشبهة فيقول: إذا ذهبت إلى بلدي سينشغل بعض الناس بي ويلمزوني بأبشع الصفات والتصنيفات، ولا أنسى شاباً قبل ما يقارب عشرين سنة حدثني بنفسه لما أراد أن يأتي للحج أو العمرة، فقال له أحد الشيوخ في منطقته: إذا ذهبت إلى هناك فانتبه

(١) انظر: «دلائل النبوة» (٢/٦٣)، و«زاد المعاد» (٣/٥٥٧)، و«البداية والنهاية» (٣/٥٦)، و«الإصابة» (٧/٢٣٥).

للشيوخ الوهابية وأخذ يصف لهم العلماء والدعاة بأوصاف شنيعة، ثم قال: واحذر أن يخدعوك فلهم صفة واضحة يعرفون بها، يقولون: قال الله، قال رسوله»، نسأل الله السلامة آيات قرآنية وأحاديث نبوية ثم يُصد ويُطعن في أهلها، لأنهم استبدلوها بأفكارهم السقيمة وتجاربهم الفاسدة، وبينون عقائدهم على منامات ثم يعيشون على ضلال مبين، ومن أراد منهم أن يقبل على الحق والهدى وضعوا حواجز دونه ودونها حتى لا يقبل عليها.

قال ﷺ: «الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا عَزَمَ أَوْ عَمِلَ وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَنْ يُعَظِّمُهُ مِنْ شُيُوخٍ أَوْ غَيْرِهِمْ تَرَكَ الْعَمَلَ».

فيعمل فعلا بعد ما أحبه وعزم على فعله؛ فيظهر عليه بعض شيوخه أو بعض المُعَظَّمِينَ عنده قالوا له: بعد كل هذه السنوات الطويلة والعمر المديد ومضيئنا فيه على يد واحدة وعقيدة واحدة، عقيدة الآباء والأجداد والعشيرة ثم تتغير بهذه السهولة وتُخدع؟!!

فتجده يترك الحق والهدى حتى لا يتكلم عليه من هو معظم عنده، والله المستعان.

وقوله ﷺ: «وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَنْ يُعَظِّمُهُ»: أي اطلع عليه ووقف على عمله بعض من يعظمه من الشيوخ والآباء، وقصة هرقل مشهورة لما دعا عظماء الروم وقال لهم: «يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ، وَأَيَسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَّ».

وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنٍ هَرَ قُلْتُ^(١).

قال ﷺ: «الْمَرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ: أَنْ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لَا يَقَعُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا».

هذه مسألة تحتاج إلى مجاهدة من العبد في كل عمل على أن يقع منه بإخلاص ومتابعة.

فالإخلاص للمعبود ﷻ، والمتابعة للرسول ﷺ، وقد قال سفيان الثوري رحمه الله: «ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نَيْتِي»^(٢).

ثم ذكر ﷺ: «الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ الْعَمَلِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٣) [سُورَةُ الْحُجُرَاتِ] أي: أن تبطل بعمل العبد أعمال أخرى، فيخاف أن تبطل أعماله التي مضت كلها.

«لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٤)»: يقول الشيخ رحمه الله منها على أهمية هذا الأمر، «وَهَذِهِ مِنْ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا» أي: أقل الأشياء وجوداً، يعني قليل من الناس الذي يخاف على عمله أن يحبط؛ بل ولا يبالي ويمارس أموراً كثيرة ربما تكون سبباً لحبوط عمله، فيقول المصنف رحمه الله منها على ذلك: «وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا».

ثم ختم ﷺ فقال: «الْمَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ، وَالْخَوْفُ مِنْ سُوءِ

(١) رواه البخاري (٧).

(٢) رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٦٩٢).

الْخَاتِمَةِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيُخْتَمَ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ».

جاء في «الصحيحين»: «فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ»^(١).

فهاتان الكلمتان «يسبق» و«يختم» يخاف منها الصالحون؛ من السوابق: ما سبق في علم الله أن يموت عليه العبد، ويخاف كذلك من الخواتيم أن يموت على خاتمة سيئة والعياذ بالله، فهذا مما خافه الصالحون، فهذا الخوف عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله تبارك وتعالى، وتحرك في نفس المؤمن الدعاء المستمر لله بالثبات والهداية، وأن لا يزيغ قلبه.

وتثمر فيه المجاهدة المستمرة الدائمة على الاجتهاد في الأعمال الصالحات والاستقامة على دين الله تبارك وتعالى، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه من الأعمال التي لا ترضيه، بل تغضبه وتسخطه.

قال ﷺ: «وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا»: وهو مما يخاف منه الصالحون ولكن هو قليل في زماننا أي: الخوف من الخاتمة.

ثم ختم بتنبية عام فقال ﷺ: «فَالْتَفَكَّرْ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ يَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ» أي: عندما تقرأ هذه الأمور بتأن ثم تتفكر في أحوال الناس فإن هذا يدللك على شيء كثير تجهله.

وجعل آخر رسالته قوله ﷺ «وَاللهُ أَعْلَمُ».

وهي رسالة عظيمة ونافعة ولعلها تكون من الرسائل التي نحرص على تهاديها لجيراننا وأقربائنا وإخواننا، وأن نتدارس هذه المعاني العظيمة الموجودة فيها، ونتعاون على البر والتقوى وعلى تحقيق التوحيد والإيمان والسنة ونجاهد أنفسنا على هذا الخير العظيم.

ونسأل الله ﷻ أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء، وأن يعلي درجاته وأن يلحقنا به وبعباده بالصالحين، وأن يهدينا جميعا سواء السبيل، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.



سلسلة شرح السنن ٦

شَرْحُ

بَوَاقِضِ الْأَسْئَلِ الْأَكْبَرِ

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّوْحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

شَرْحُ

عَبْدِ الرَّزَاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدْرِيِّ

إِعْتَقَ بِهَا وَعَلَّقَ عَلَيْهَا

أَبُو حَنِيفَةَ الْعَزِيزُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبَزْزِيُّ

بِإِذْنِ الْفُرْقَانِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

الله اعلم

مُقدِّمةُ الْمُعتنِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعده ضلَّ الضَّالُّون، أحمده سبحانه
حمد عبد نزه ربِّه عما يقول الظَّالِمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له وسبحان الله ربَّ العرش عَمَّا يصفون، وأشهد أن نبينا محمَّدًا عبده ورسوله
وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذِينَ هم
بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أَمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين،
ولا نِجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل
به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله
إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه
حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه

تكون الشقاوة والسعادة، وعلى حسب ذلك تقسم الأنوار ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]»^(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذنوب الشُّرك بعلام الغيوب ﷺ، عن عبد الله بن مسعود قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» (ثلاثًا).
قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ...»^(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشُّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوّعت كتابات علماء أهل السُّنة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوّل ومختصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ «فشمر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشُّرك،

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كُلِّ زمان من يقول الحق، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبس الجاهلين المفتونين^(١).
وقد كتب ﷺ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأُمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (نواقض الإسلام)، وهو بحث نافع لطيف، ممتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

وَمِنْ بابِ التَّعاونِ على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسّة إليه، قُمْتُ بالاعتناء بهذه الرِّسالة؛ وأصلها دروس للشيخ فُرِّغت؛ فاستأذنته في إخراجها في كُتَيْبٍ، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إِلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا^(٢).
وَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب والتَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ الْمُحَافَظَةَ على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِهِ إِلَّا مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنْ إِضَافَةٍ مَا يُرْبِطُ بِهِ الْكَلَامُ لِتِمَامِ الْمَعْنَى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

(١) «الدُّررُ السَّنِيَّةُ فِي الْأَجُوبَةِ النَّجْدِيَّةِ» (١/١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبَوِيَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/١٢/٢٠١٧م.



سائلًا الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي خير الجزاء
كل من أسهم في إخراجه للمتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.
وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُذَبِّحُكُمْ فِي اللَّهِ
أَبُو عَبْدِ الْعَزِزِ مُنِيرُ الدُّرَى

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095



مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فهذا تعليق مختصر لرسالة قيمة للإمام المصلح المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، عنوانها: (نواقض الإسلام)، وقد كتبها ناصحاً ومحذراً؛ لأن المسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق والهدى ليحبه ويسلكه فإنه مطالب أيضاً بمعرفة الباطل والضلال والردى ليبغضه ويجتنبه، والله ﷻ بين في القرآن سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، وأعمال المؤمنين وأعمال المجرمين، وأوصاف هؤلاء وأوصاف هؤلاء، وعاقبة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وما أعده للمؤمنين من الثواب العظيم، وللمجرمين من العذاب الأليم.

ولهذا فإن المسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق ليسلكه فهو كذلك مطالب

بمعرفة الباطل ليجتنبه، ومن لم يعرف الباطل ربما وقع فيه من حيث لا يشعر، وقد جاء في «الصحيحين» أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُذَكِّرَنِي»^(١).
وقد قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ لَكِنْ لِتَوَقُّيهِ
فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

وقيل أيضًا: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!». أي: كيف يتقي المحرمات ويجتنب المنكرات، وهو لا يعرفها، ولا يعرف خطورتها، ولا يعرف العقوبات التي وردت في نصوص الشرع محذرة منها؟!^(٢).
فالله ﷻ أمرنا باتقاء الشرك والكفر والباطل والضلال، ولا يتسنى للعبد اتقاء ذلك إلا بعد أن يعرفه، ولهذا كتب أهل العلم في المكفرات، وفي محبطات الأعمال، وكتبوا عن الشرك، وعن الكفر، وعن النفاق، وكتب الأحكام يعقد فيها باب في الردة وما يرتد به الإنسان عن الدين، وكذلك كتب العقائد بسطت فيها هذه المسائل، بل أفرد أهل العلم في هذا مصنفات.

وكتب شيخ الإسلام رحمته الله كعاداته في مصنفاته ورسائله فيما تمس إليه الحاجة،

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) انظر: «شرح الدروس المهمة لعامة الأمة» (ص ٢١٢)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله تعالى.

وكان يكتب أيضًا في حدود الحاجة، فتأتي رسائله دائمًا مختصرة ووافية ونافعة للغاية، فقد نفع الله ﷻ بها نفعًا عظيمًا.

وهذه الرسالة المسماة بـ (نواقض الإسلام) كتبها ﷻ في صفحتين تقريبًا لكنها حوت على معاني عظيمة في هذا الباب: على أهم ما ينبغي أن يُعرف، فذكر عشرة نواقض، وذكره لها ليس للحصر، ولكنه ذكر أمهات النواقض وما ترجع إليه النواقض الأخرى التي لم تذكر، ويمكن أيضًا أن ترجع إلى أربعة نواقض:

الناقض الأول: ما ينتقض به الدين مما يتعلق بالقلوب.

الناقض الثاني: ما ينتقض به الدين مما يتعلق بالأقوال.

الناقض الثالث: ما ينتقض به الدين مما يتعلق بالأفعال.

الناقض الرابع: انتقاض الدين بالشك.

وهذا الموضوع تمس الحاجة لمعرفة ليكون المسلم منها على حذر.

وبدأ ﷻ رسالته بقوله: «اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض» كما سيأتي.

فاختار هذا الاسم: نواقض الإسلام، ويمكن أن تُسمَّى: ما يرتد به الإنسان عن الدين، أو الأمور المخرجة عن الملة، أو التي يكفر من وقع فيها، فيمكن أن تسمى بعدة أسماء، واختيار الشيخ لهذا الاسم له فيه سلف من أهل العلم والأئمة، وهي لفظة درج أهل العلم على استخدامها في هذا الباب، وهو استخدام صحيح في محله من حيث المعنى اللغوي، ومن حيث المدلول الشرعي.

والنواقض: جمع ناقض، من النقض الذي هو ضد الإبرام، والنقض للشيء

إفساد له، فنقض الشيء المبرم إفساد لإبرامه، ولهذا يقال: نقض الغزل أو نقض الحبل أو نقض البناء أو نقض البيت، كل ذلك يراد به الإفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢]، ومنه قوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

ونقض الدين أو نقض الإسلام أو نقض الإيمان فعل شيء يفسده ويبطله، ولهذا الناقض للدين أو الإسلام لا تطلق هذه الكلمة إلا في حق ما من شأنه إبطال الدين إذا وقع وإفساده، ولهذا قال أهل العلم: الإسلام له نواقض وله نواقص. والنواقض هي التي تفسده وتبطله تمامًا، والنواقص هي التي تخل بكماله الواجب، ويقال أيضًا: قوادح، وهذه الكلمة تطلق على النواقض وعلى النواقص؛ لأن القوادح منها ما يقدح في الأصل فتكون ناقضًا للدين، ومنها ما يقدح في الكمال الواجب فتكون منقصة له، ولكل منهما يقال له: قوادح.

وأما النواقض فهي التي تنقض الدين وتبطله ويكون صاحبها أو فاعلها أو مرتكبها خارجًا من ملة الإسلام ومن حظيرة الدين ومرتدًا وكافرًا بالله العظيم، وإذا مات على ذلك يكون يوم القيامة من أهل النار، وينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وهذه في حق من يموت ويلقى الله ﷻ وهو مرتكب لناقض من نواقض الدين.

ولهذا كان من الأهمية بمكان والحاجة شديدة والضرورة ملحة إلى أن يعرف كل مسلم نواقض الدين ليحذر منها هو في نفسه، وليحذر منها من تحت يده،

وينصح الناس من هذا الجرم الذي هو أكبر جرم، ومن هذا الذنب الذي هو أعظم ذنب، ولهذا تعد هذه الرسالة ونظائرها مما كتبه أهل العلم في هذا الباب رسالة مهمة للغاية، يحتاج كل مسلم إلى معرفتها.

وبين يدي دراسة هذه الرسالة أذكر كلامًا كنت كتبه سابقًا في كتابي «فقه الأدعية والأذكار»^(١)، حول بيان أهمية معرفة المسلم لنواقض الإسلام وحاجته الشديدة إلى ذلك، جعلتها في المقدمة بين يدي ذكر نواقض الإسلام العشرة:

وإنَّ مما ينبغي أن يهتم به المسلم في هذا الباب العظيم معرفة نواقض هذه الكلمة ليكون منها في حذر، فإنَّ الله ﷻ قد بيَّن في كتابه سبيل المؤمنين المحقِّقين لهذه الكلمة مفصَّلة، وبيَّن سبيل المجرمين المخالفين لها مفصَّلة، وبيَّن سبحانه عاقبة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا نَبَّأَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ومن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبين له طريقهم أوشك أن يقع في بعض ما هم فيه من الباطل، ولذا قال أمير المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: (إنَّما تُنْقِضُ عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية). ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة المحذرة من أسباب الرِّدة

وسائر أنواع الشرك والكفر المناقضة لكلمة التوحيد لا إله إلا الله، وقد ذكر العلماء رحمهم الله في باب حكم المرتد من كتب الفقه: أن المسلم قد يرتد عن دينه بأنواع كثيرة من النواقض إذا وقع فيها، أو في أي شيء منها ارتد عن الدين وانتقل من الملة، ولم ينفعه مجرد التلفظ بـ «لا إله إلا الله»؛ إذ إن هذه الكلمة العظيمة التي هي خير الذكر وأفضله لا تكون نافعة لقائلها إلا إذا أتى بشروطها واجتنب كل أمر يناقضها.

وما من ريب أن في معرفة المسلم لهذه النواقض فائدة عظيمة في الدين، إذا عرفها معرفة يقصد من ورائها السلامة من هذه الشرور، والنجاة من تلك الآفات، ولهذا فإن من عرف الشرك والكفر والباطل وطرقه وأبغضها وحذرهما وحذر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش إيمانه، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لتلك الأمور ونفرة عنها كان له في معرفته هذه من الفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله، والله سبحانه يحب أن تعرف سبيل الحق لتحب وتُسلك، ويحب أن تعرف سبيل الباطل لتجتنب وتبغض؛ إذ المسلم كما أنه مطالب بمعرفة سبيل الخير ليطبّقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة سبيل الشر ليحذرهما، كما سبق في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

وإذ كان الأمر بهذه الحال وعلى هذا القدر من الأهمية فإن الواجب على كل مسلم أن يعرف الأمور التي تناقض كلمة التوحيد لا إله إلا الله ليكون منها على حذر، وهي كما تقدّم تنتقض بأمور كثيرة، إلا أن أشدّ هذه النواقض خطرًا وأكثرها وقوعًا عشرة نواقض ذكرها غير واحد من أهل العلم رحمهم الله ^(١).

(١) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٣٢ وما بعدها)، «فقه الأدعية والأذكار»

وهذا الكلام جله مخلص من كتاب «الفوائد» للإمام ابن القيم رحمه الله تحت عنوان: «قاعدة جليلة أهل الهدى وأهل الضلال»^(١)، وأورد قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وأيضاً قول الله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا نَبَيْنَاهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَوْنَاهُ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وذكر رحمه الله أن الله تعالى بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلاً، وبين سبيل المجرمين مفصلاً، وبين عاقبة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، كل ذلك جاء مبيناً في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه. ثم إنه رحمه الله أشار إلى أن الناس في هذا الموضع الذي هو معرفة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ينقسمون إلى أربعة فرق:

الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها، فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل، وإن لم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفته ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة

من سلمت نفسه من إرادة الشهوات، فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه بخلاف
الفرقة الأولى فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها... إلى
آخر كلامه ﷺ.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المجرمين
مجملة، وهذه حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع فعرفها
على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن
تفصلت له في بعض الأشياء.

وكما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق وسبيل أهل الإيمان والهدى ليسلك
ذلك، فإنه أيضاً مطالب بمعرفة الباطل وسبيل أهله ليكون منه على حذر، ولهذا
الغرض كتبت مثل هذه الرسائل في بيان نواقض الدين أو بيان الأمور التي يرتد بها
الإنسان، وكذلك كتبت الكتب التي في البدع وفي الكبائر، كل ذلكم كتب من أجل
أن يعرفه الإنسان ليعضه وليكون منه على حذر^(١).

عَبْدُ الرَّزَاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْبَدَايُ

(١) ينبغي للمسلم أن يخاف على نفسه أشد الخوف من الوقوع في هذه النواقض والعياذ بالله،
وأن يسأل الله ﷻ دوماً وأبداً أن يعيذه من الكفر والشرك والنفاق، ومن موجبات سخطه وأليم
عقابه، وقد جاء عن نبينا ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ
الْقَبْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ تُعِيدُهَا ثَلَاثًا حِينَ تُصْبِحُ وَثَلَاثًا حِينَ تُمَسِّي»، والأدعية في هذا المعنى عنه
صلوات الله وسلامه عليه كثيرة، ومن ذلك تعليمه ﷺ لأصحابه أن يقولوا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
أَنْ أَشْرَكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ».

[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى و قدس روحه في الجنة -، قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«اعلم أن نواقض الإسلام عشرة».

[الشرح]

قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم»: بدأ هذه الرسالة بالبسملة تأسيًا بكتاب الله ﷺ، ويهدي نبينا صلوات الله وسلامه عليه في مراسلاته ومكاتباته ﷺ، والبسملة المراد بها الاستعانة، والبدء باسم الله تيمناً وتبركاً بذكر اسمه ﷺ، وطلباً للمد والعون منه سبحانه.

والباء في بسم الله باء الاستعانة، والمعنى: أبدأ كتابي هذا مستعيناً بالله، قائلاً بسم الله، فهي كلمة استعانة، ولهذا يُشرع للمسلم أن يقولها في دخوله، وفي خروجه، وعند تناوله لطعامه، وعند قراءته لكتاب الله ﷺ، وفي مواضع عديدة جاءت بها السنة، فيأتي بها طالباً البركة والمد والعون والتوفيق من الله ﷺ.

قوله: «اعلم»: جرت عادة الشيخ في أغلب رسائله أن يبدأ بهذه الكلمة: اعلم، وهي كلمة يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة الكبيرة المهمة التي يحتاج إليها كل مسلم، وفي القرآن مواضع عديدة تُبدأ بهذه الكلمة، مثل قول الله ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فيؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة استدعاء للسمع،

وشدًا للانتباه وإحضارًا للقلب، وتنبهًا للسامع أن ما سيلقى عليه من العلم أمر عظيم يحتاج إلى إصغاء وانتباه وحسن استماع، ولهذا بدأ ذلك بقوله: اعلم، أي سيلقى عليك أمر عظيم من أبواب العلم يحتاج منك إلى انتباه وإلى عناية ورعاية. قوله: «أن نواقض الإسلام عشرة»: عرفنا أن التعبير بنواقض في المكفرات وما يرتد به المسلم عن دينه تعبير سديد، ودرج عليه السلف عليهم السلام في هذا الباب، وهناك أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»^(١).

وهناك أثر آخر لابن عباس رضي الله عنه في هذا الباب استعمل هذه اللفظة فقال: «القدر: نظام التوحيد، فمن وحد الله تعالى وآمن بالقدر، فهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن وحد الله تعالى وكذب بالقدر، فإن تكذبه بالقدر نقض للتوحيد»^(٢). والشاهد أن اللفظ درج أهل العلم على استعماله من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان في الأمور التي يكفر بها المرء ويخرج بها من الدين.

(١) ذكره بهذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٣٠١)، والإمام ابن القيم في «الفوائد» (ص ١٤٢) بهذا اللفظ.

رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣١٣٩)، والحاكم في «مستدرکه» (٨٣١٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٥) بلفظ: «قَدْ عَلِمْتُ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ مَتَى تَهْلِكُ الْعَرَبُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَتَى يَهْلِكُونَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: حِينَ يَسُوسَ أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يُعَالِجِ الْجَاهِلِيَّةَ وَلَمْ يَصْحَبِ الرَّسُولَ ﷺ».

(٢) رواه الآجري في «الشریعة» (٤٥٦)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٦٢٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٢٢٣).

وهنا أيضًا وجه مشابهة بين إطلاق النواقض على هذه الأمور والنواقض على مفسدات الوضوء، فتجد في كتب الأحكام يقال: نواقض الطهارة، وأن الطهارة تنتقض بكذا وكذا، وهناك ارتباط بين الطهارة والتوحيد، والله ﷻ قال: ﴿وَتَبَاكَ فَطَهَّرَ﴾ [المدثر: ٤]، وأهل العلم في معنى الآية قالوا: طهر ثيابك أي بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، وقيل: من النجاسات، وكما أن الطهارة تنتقض بالوقوع في شيء من نواقضها المعلومة كخروج الريح أو البول أو نحو ذلك، فإن التوحيد ينتقض بحصول شيء من نواقضه المعلومة المبينة في كتب التوحيد وأيضًا في كتب الأحكام.



[المتن]

«الأول: الشرك في عبادة الله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر».

[الشرح]

قوله: «الأول: الشرك في عبادة الله تعالى»: بدأ المصنف بالشرك لأنه أخطر النواقض، وأعظم ذنب عصي الله ﷻ به، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

فالشرك بالله هو أعظم ذنب عصي الله ﷻ به، وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه سبحانه، كالربوبية، والأسماء والصفات، أو حقوقه، وهي أن يفرد وحده بالعبادة وأن يخص وحده بالذل والخضوع فلا يُجعل معه شريك في شيء من ذلك ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فكما أنه ﷻ وحده تفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتفرد بصفات الكمال ونعوت العظمة

والجلال، وتفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى، فإنه يجب أن يُفرد وحده ﷻ بالعبادة.

فالشرك به أن يسوى غيره به ﷻ في شيء من خصائصه سبحانه وشيء من حقوقه، والشرك هو التسوية والمساواة بين الشيئين في أمر ما، فمن سوى غير الله بالله في شيء من حقوق الله أو خصائص الله ﷻ فهو مشرك بالله، كافر بالله العظيم، نقض شركه دينه وأبطل أعماله، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

والشرك أظلم الظلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهو هضم لحقوق الله ﷻ من العبادة والذل والخضوع، وانتقاص لجناب ربوبيته سبحانه، وسوء ظن برب العالمين، وهو أكبر الكبائر، وفي الحديث: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَايِرِ؟» ثَلَاثًا. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّوْرِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ^(١)، فهو أكبر الذنوب وأعظم الجرائم.

ولهذا بدأ المصنف به فقال: «الشرك في عبادة الله»: أي بأن يجعل مع الله ﷻ شريكاً في العبادة، ومن العبادة: الدعاء والاستعانة والتوكل والركوع والسجود والذبح والنذر، وغير ذلك، والعبادة حق لله على عبده، فلا يجوز أن يشرك مع الله

﴿غيره في شيء منها﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿[الجن: ١٨]: أي أحد كان، ولو كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا، أو وليًا من الأولياء، فالعبادة حق لله رب العالمين.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]: ساق ﴿آيتين: الأولى وردت في موضعين من سورة النساء، وفيها دلالة ظاهرة على خطورة الشرك، وأنه الذنب الذي لا يُغفر لمن لقي الله ﷻ به، وفي حق من مات على ذلك﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴿: أي من مات على ذلك.

وأما الإنسان الحي المشرك فإن الله يغفر له شره إن تاب منه، ولهذا قال الله ﷻ في سورة الزمر: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فالله ﷻ يغفر الذنوب جميعًا بما فيها الشرك، ولا تعارض بين قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، في هذه الآية، وقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]؛ لأن آية [سورة النساء] في حق من مات على ذلك، وآية [سورة الزمر] في حق من تاب من ذلك^(١).

(١) العلامة محمد الأمين الشنقيطي ﷻ في كتابه القيم «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص ١٢٤) وضح ذلك فقال: «دلت على غفران جميع الذنوب، مع أنه دلت آيات أخر على أن من الذنوب ما لا يغفر وهو الشرك بالله تعالى. والجواب: أن الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ مخصصة لهذه، وقال بعض العلماء هذه

فَاللَّهُ ﷻ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا أَيُّ لِّلتَّائِبِينَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾: أَيُّ فِي حَقِّ مَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ وَلَقِيَ اللَّهَ ﷻ مُشْرِكًا بِهِ، فَهَذَا لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ، وَلَا مَطْمَعُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَغْفِرَةِ اللَّهِ، بَلْ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ خَالِدًا فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ.

قَوْلُهُ: «وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ ۖ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]»: وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ أَنَّ الْمَشْرُكَ لَا مَطْمَعُ لَهُ فِي الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا النَّارُ خَالِدًا مُّخْلِدًا فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ.

قَوْلُهُ: «وَمِنْهُ»: أَيُّ مِنَ الشَّرْكِ.

قَوْلُهُ: «الذَّبْحُ لِغَيْرِ اللَّهِ كَمَنْ يَذْبَحُ لِلْجَنِّ أَوْ لِلْقَبْرِ»: فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الشَّرْكِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وَقَالَ ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وَنُسُكِي أَيُّ ذَبْحِي.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ عَلِيٍّ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ» ^(١).

مُقِيدَةٌ بِالتَّوْبَةِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فَإِنَّهُ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾، وَعَلَيْهِ فَلَا إِشْكَالَ وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ كَثِيرٍ.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٩٧٨).

[المتن]

«الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة، ويتوكل عليهم كفر إجماعاً، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].»

[الشرح]

قوله: «الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم»: هذا الناقض الثاني من نواقض الإسلام، وهو جعل الوسائط بين العبد وبين الله ﷻ لكي يتقرب إلى الله زلفى كما هو زعم المشركين هو من باب اتخاذ الأنداد والشركاء، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]^(١)، ومن باب تسمية الأمر بغير اسمه، وهذه فعلة المشركين يتخذون الأنداد ويصرفون لهم حقوق الله على العباد من الذل والخضوع والذبح والنذر والدعاء ونحو ذلك، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، أي اتخاذنا لهم هو من باب اتخاذ الوسائط، ومن ذلكم ما جاء في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]: أي وسائط لنا عند الله، فهذا نوع من الشرك

(١) ومعنى الآية كما قال العلامة السعدي رحمه الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئاً «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٧١٨).

بالله، ونوع من اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله ﷻ، ويسمون هؤلاء الأنداد وسائط ووسائل وشفعاء، يقربون الداعي لهم بزعمهم من الله ﷻ.

وقد فعلوا ذلك قياساً منهم للخالق ﷻ بالمخلوق حيث رأوا أن ملوك الدنيا والعظماء لا يتوصل إليهم إلا من خلال الوسطاء والمقربين عندهم فقاموا الله ﷻ بخلقه، وصرفوا لبعض خلقه شيئاً من حقوقه طامعين بأن يقربهم هذا الوسيط إلى الله ﷻ زلفى، وهذا شرك بالله ﷻ.

قوله: «يسألهم الشفاعة»: فالشفاعة مُلك لله، قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤]، ومن أراد الشفاعة فليطلبها بتوحيد الله لا باتخاذ الأنداد، ولهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة ؓ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنَّ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(١).

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(٢)، فالشفاعة لله جميعاً ولا تنال إلا بتوحيده سبحانه وإخلاص الدين له.

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٥)، ومسلم (١٩٩)، واللفظ له.

وأما اتخاذ الوسطاء تحت مسمى الشفاعة فهذا نوع من الشرك والتنديد لا يزيد الإنسان عن الله ﷻ إلا بُعدًا.

قوله: «ويتوكل عليهم»: أي يعتمد عليهم في جلب النعماء ودفع الضر والبلاء.
قوله: «كفر إجماعًا»: أي بإجماع أهل العلم أن هذا ناقض للدين ويخرج به المرء من ملة الإسلام^(١).



(١) نقل الإجماع على هذا غير واحد من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فقال ﷺ: «فَمَنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ جُلْبَ الْمَنَافِعِ وَدَفَعَ الْمَضَارِّ مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ غُفْرَانَ الذَّنْبِ وَهِدَايَةَ الْقُلُوبِ وَتَفْرِيجَ الْكُرُوبِ وَسَدَّ الْفَاقَاتِ: فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ» «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٤)، وانظر: «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (ص ٤٢٧).

[المتن]

«الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر».

[الشرح]

قوله: «الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر»: هذا الناقض الثالث من نواقض الإسلام، وهذه ثلاثة أمور ذكرها المصنف: الأمر الأول: من لم يكفر المشركين، أي لا يرى كفرهم ولا يعتقد ذلك، كأن يقول مثلاً: إن اليهود ليسوا كفاراً، أو النصارى، أو المجوس، أو عبدة الأصنام ليسوا كفاراً؛ فهو بهذا لا يكفر المشركين، ولا يعتقد كفرهم ولا يقول بهذا فهذا كافر؛ لأنه لم يكفر من كفره الله، وكفره رسوله ﷺ، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، فإذا قال قائل: لم يكفروا، فيكفر من يقول ذلك.

الأمر الثاني: (من شك في كفرهم): أي شك في كفر من كفره الله ورسوله، ومن حكم الله عليه وحكم عليه رسوله ﷺ بالكفر، فمن شك في كفر الكافر كفر، إذ الواجب على المسلم أن لا يقع في قلبه شيء من التردد أو الشك في كفر من كفره الله، أو كفر من كفره رسول الله ﷺ.

الأمر الثالث: (أو صحح مذهبهم): كأن يقول في شيء من عقائد الكفار الكفرية الناقلة من الملة: هذا فعل صحيح، أو هذا قول صحيح، أو هذا عمل صائب، أو هذا أمر لا شيء فيه، فمن صحح مذهب الكفار أو شيء من عقائدهم الكفرية الناقلة

من الملة فهو كافر، فهذه ثلاثة مكفرات ونواقض للملة: عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم أو تصحيح مذاهبهم.



[المتن]

«الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر».

[الشرح]

قوله: «الرابع»: أي الناقض الرابع من نواقض الإسلام.

قوله: «من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه»: هذا ناقض من نواقض الإسلام العشرة وهو أن يعتقد الإنسان أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هدي النبي ﷺ، وهذا كفر بالله ﷻ؛ لأن هدي النبي ﷺ وحي نازل من السماء، وهدي غيره ﷺ أمر نابت في الأرض، وشتان بين الثرى والثريا.

وقد كان ﷺ يقول إذا خطب الناس يوم الجمعة: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١)، فهديه صلوات الله وسلامه عليه هو صراط الله المستقيم، ودين الله القويم الذي رضى الله ﷻ لعباده ولا يرضى لهم ديناً سواه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ أي هذا الوحي الذي نزل عليه ﷺ، ﴿نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ^(٥٣) [الشورى: ٥٢، ٥٣].

فهديه ﷺ هو خير الهدى وأتمه وأكمله وأقومه، فمن اعتقد أن هدى غيره ﷺ أكمل من هديه ﷺ فهذا كافر بالله، وخارج من ملة الإسلام.

قوله: «أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر»: أي ومن اعتقد أن حكم غير النبي ﷺ أكمل من حكمه ﷺ فهو كافر بالله، وخارج من ملة الإسلام، وحكمه صلوات الله وسلامه عليه وحي من الله، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

فمن اعتقد أن حكم غير النبي ﷺ خير من حكمه ﷺ فهو كافر بالله؛ لأنه ارتضى حكم الجاهلية، واختاره على حكم الإسلام وحكم النبي ﷺ، فهذا كافر بالله، وكافر برسوله ﷺ، ومؤمن بالطاغوت، وقد قال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠]، فهذا من التحاكم إلى الطاغوت وهو كفر بالله؛ لأن العبد لا يكون من أهل لا إله إلا الله ولا يكون من أهل التوحيد إلا إذا كفر بالطاغوت، ولهذا قال الله ﷻ في الآية التي تلي آية الكرسي، وآية الكرسي فيها تقرير التوحيد وذكر براهينه^(١)، فقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالكفر بالطاغوت ركن من أركان الاستمسك بـ «لا إله إلا الله» التي هي العروة

(١) ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة قيمة بعنوان: «آية الكرسي وبراهين التوحيد».

الوثقى، فمن لم يكفر بالطاغوت ليس من أهل لا إله إلا الله، والذي يفضل حكم
 غير النبي ﷺ على حكمه ويعتقد أن حكم غيره أحسن من حكمه فهو مفضل لحكم
 الطاغوت، ومن كان مفضلاً لحكم الطاغوت فهو كافر بالله.

قوله: «كالذي يفضل حكم الطواغيت»: جمع طاغوت وهو مشتق من الطغيان
 وهو ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع.



[المتن]

«الخامس: من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به كفر».

[الشرح]

قوله: «الخامس»: أي الناقض الخامس من نواقض الإسلام.

قوله: «من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به كفر»: سواء من العقائد الدينية التي هي أصح العقائد وأقومها، أو العبادات الشرعية وهي أكمل العبادات وأحسنها، أو الآداب المرعية وهي أجمل الآداب وأطيبها، فمن أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ أي وقع في قلبه بغضة له وكراهية وعدم حب له فإنه كافر ولو عمل به، أي ولو عمل بهذا الذي أبغضه؛ لأنه بمجرد بغضه لما جاء به الرسول ﷺ فإنه يكفر، وكفره كفر نفاق؛ لأن كفر النفاق كما بين أهل العلم ينقسم إلى أقسام عديدة، منها: بغض شيء مما جاء به الرسول ﷺ، فهذا البغض محبط للأعمال مخرج من الدين.

والمؤمن هو الذي رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وأما الذي يبغض ما جاء به الرسول ﷺ، أو في قلبه كراهية لشيء مما جاء به الرسول ﷺ فهذا يتنافى مع حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام: الاستسلام لله ﷻ والرضا بشرعه ودينه ﷺ.

قوله: «ولو عمل به كفر»: أي ولو عمل بهذا الشيء الذي أبغضه، فإنه يكفر بمجرد وجود البغض له في قلبه.

[المتن]

«السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿[التوبة: ٦٥، ٦٦]».

[الشرح]

قوله: «السادس»: أي الناقض السادس من نواقض الإسلام.

قوله: «من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه»: أي الذي أعده ﷺ لعباده المتقين، فالذي يستهزأ بالدين سواء منه العقائد أو العبادات أو الآداب فإنه بهذا الاستهزاء يكفر، وكذلك من يستهزأ بالثواب، سواء الأمور الدنيوية التي يعجل فيها لعباده المؤمنين بالمشوبة أو ما أعد لهم في الدار الآخرة من الثواب العظيم والنعيم المقيم والنجاة من النار، فمن استهزأ بشيء من ذلك فإنه كافر، سواء استهزأ بدين الله أو شيء منه أو استهزأ بثواب الله الذي أعده لعباده المؤمنين فإنه يكفر بذلك.

قوله: «أو عقابه كفر»: أي العقوبات التي أعدها للكفار أو أعدها للعصاة فإنه بهذه الفعلية يكفر ويتنقل من الملة، وهذا أيضًا من كفر النفاق، ومن أوصاف المنافقين، ومن أعمال أهل النفاق.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿[التوبة: ٦٥، ٦٦]».

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا: مَا رَأَيْتُ

مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ لَا أَرْغَبُ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبُ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ لِأَخْبَرَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْكِبُهُ الْحَاجِرَةُ وَهُوَ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَيَا اللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١).

فَقَوْلُهُ: ﴿فَدَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ دليل على أن هؤلاء قبل هذا الاستهزاء كانوا على الإيمان وبه كفروا وخرجوا من الملة، أي قد كفرتم بعد أن كنتم من أهل الإيمان، وهذا مما يدعو العاقل إلى الخوف الشديد من نواقض الإسلام، كلمة قالها هؤلاء ثم اعتذروا فقالوا: أردنا أن نقطع عناء الطريق ونذهب ملل السفر، ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، ما قصدنا حقيقة الكلمة، فقال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا فَدَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

فالاستهزاء بالدين أو بالثواب أو بالعقاب هذا من أوصاف النفاق، ومن الأمور التي تُخرج من دين الإسلام؛ لأن هذا الاستهزاء لا يصدر ممن عرف الله ﷻ حق المعرفة، وعرف دينه، وعرف شرعه، وعرف ثوابه، وعرف عقابه، فلا يصدر إلا من قلب أصيب بمرض النفاق، والعياذ بالله.



(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٦٩١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٧).

[المتن]

«السابع: السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].»

[الشرح]

قوله: «السابع»: أي الناقض السابع من نواقض الإسلام.

قوله: «السحر»: وهو عقد ونفث في تلك العقد وصلة وارتباط بالشياطين وتقرب من الساحر لهم، وكفر بكتاب الله ﷺ، وله حقيقة وهو يضر ويؤذي، وله تأثير، فمنه ما قد يقتل ومنه ما قد يمرض، ومنه ما قد يفرق بين المرء وزوجه، قال سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فيقع بسببه أنواع من المضرات من موت أو فرقة أو قتل أو غير ذلك، ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ لأن الأمر كله بيد الله ﷻ، فالسحر كفر بالله ﷻ.

قوله: «ومنه الصرف والعطف»: أي من أنواع السحر: الصرف والعطف، وهو بهذه الكلمة يشير إلى أنه أنواع عديدة، ولهذا لما عقد في كتابه (التوحيد) باباً في السحر والتحذير منه، عقد بعده باباً في بيان أنواع السحر؛ لأن السحر أنواع عديدة، وأشار إلى هذا المعنى بقوله: (ومنه الصرف والعطف)، أي أن السحر أنواع عديدة ومن أنواعه الصرف والعطف.

وخص المصنف هذا النوع بالذكر هنا لكثرة وقوعه، وكثره افتتان الناس به،

والصرف أي: صرف الإنسان عما يحبه ويميل إليه، والعطف: عطف الإنسان أي إيماله إلى ما لا يحب ولا يرغب فيه، فهذا من السحر، وكثيراً ما يقع، ويتسلط به السحرة على الناس من هذا الباب: بين الزوجين، بين الشريكين، بين المتعاملين، في محيط التجار، والطلب للربح والكسب للمال، فتحت هذا النوع من السحر يزعم الساحر لمن يرتاده ويأتيه أنه يستطيع أن يستميل إليه الناس ويعطفهم إليه، ومن لا يرغب فيهم يصرفهم عنه، وهذا كفر بالله.

فقوله ﷺ: ﴿فَتَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهذا سحر صرف، أي يصرف الزوجين بعضهما عن بعض ويوجد بينهما العداوة والبغضاء، فهذا من الكفر.

والساحر لا يكون ساحراً إلا إذا كفر بالله، والسحر من الموبقات المهلكات وهو مما ينقل صاحبه عن الملة، ولهذا ذكره المصنف رحمه الله في نواقض الإسلام.

قوله: «فمن فعله»: أي تعاطى السحر وكان من أهله فإنه يكفر بذلك.

قوله: «أو رضي به كفر»: أي ومن رضي بالسحر حتى إن لم يكن ساحراً فإنه يكفر؛ لأنه رضي الكفر، ومن رضي الكفر كفر، مثل الذي يرضى بعبادة الأصنام، أو يرضى بقول من يقول: إن الله ثالث ثلاثة. أو غير ذلك من الكفریات.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]»: وهذا تنصيص على أن الإنسان إذا باشر السحر وكان من أهله

كفر بالله، ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾: أي فإنك إن تعاطيته وباشرته وفعلته وكنت من أهله تكفر بالله، والمصنف اكتفى بهذا الجزء من الآية مستدلاً به على كفر الساحر وإلا فإن الآية بتمامها مع الآية التي قبلها^(١) دلت على كفر الساحر من وجوه سبعة، بينها الشيخ حافظ حكمي بياناً نافعاً في كتابه «معارج القبول»^(٢).



(١) يقصد الشيخ حفظه الله بالآية التي قبلها قول الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ وَرَيْقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

(٢) «معارج القبول» (١/٣٠٧).

[المتن]

«الثامن: مظاهره المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله

تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

[الشرح]

قوله: «الثامن»: أي الناقض الثامن من نواقض الإسلام.

قوله: «مظاهره المشركين ومعاونتهم على المسلمين»: وهذا لا يكون إلا من شخص كافر بالله، والمراد بالمظاهرة النصر؛ أي: نصره المشركين ومعاونتهم على المسلمين بحيث إذا وقعت حرب بين أهل الإسلام وأهل الكفر يقف في صف أهل الكفر ويناصرهم ويعاونهم، ويكون صفًا واحدًا معهم في الانتصار على أهل الإسلام، فهذا من الكفر بالله ﷻ.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]: أي فمن يتولهم منكم فإنه منهم في الكفر بهذا التولي، والمراد به في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾: نصره الكافر على المسلم عند وقوع حرب بينهما قاصدًا بهذه النصره ظهور دين الكفار، ويكون محبا بقلبه لانتصار الكفار على المسلمين، وهذا لا يقع من مسلم البتة، فالمسلم لا يحب نصره الكفار على المسلمين، ولا يحب ظهور دين المشركين، ولكن يحب ظهور دين الله، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالذي يحب ظهور دين الكفار على دين الإسلام ليس من أهل الإسلام.

وثمة فرق بين التولي وبين الموالة، والله جعل وعلا يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا

تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴿١﴾ [الممتحنة: ١]، فالموالاة هي محبة الكفار وموادتهم لأجل الدنيا وليس من أجل ظهور دين الكفار ولا رغبة في دينهم، ولا حباً في ظهور دينهم على دين الإسلام، ولكن لأجل الدنيا، فهذا فسق وهو من كبائر الذنوب وليس كفرًا ناقلاً من الملة، ولهذا خاطب الله ﷻ بمن وقع منهم ذلك بوصف الإيمان ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]: المراد بالظلم هنا الكفر.



[المتن]

«التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ﷺ فهو كافر».

[الشرح]

قوله: «التاسع»: أي الناقض التاسع من نواقض الإسلام.

قوله: «من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ﷺ فهو كافر»: لأن في هذا تكذيب بشريعة محمد ﷺ التي هي شريعة للعالمين، وقد بُعث ﷺ إليهم أجمعين، وكان من قبله يبعث في قومه خاصة، وهو ﷺ بعث في الناس عامة، كما جاء في «الصحيحين»: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(١).

وشريعته ليست لفئة من الناس، أو لقوم دون آخرين، بل هي للناس عامة، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷺ: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فإذا قال قائل: إن من الناس من يسعه أن يخرج على شريعته بحيث لا تكون شريعة محمد ﷺ شاملة له. فهذا كفر، واستدلال من يقول بذلك من أهل الكفر والضلال بأن الخضر وسعه الخروج عن شريعة موسى ﷺ فهذا استدلال في غير باب، بل قال ﷺ: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»^(٢)، فموسى ﷺ كليم الله وهو من

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٤٦٣١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٦)، وابن أبي شيبة في

أولي العزم من الرسل، ومعه رسالة من رب العالمين ولو كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبع النبي ﷺ، فكيف بأفراد الناس وآحادهم؟! بأن يقال: إن من الناس من يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، فهذا كفر ناقل من ملة الإسلام بلا شك.

وأما تنظير هؤلاء بأن الخضر وسعه الخروج عن شريعة موسى ﷺ فهذا استدلال باطل، وإيراد للأمر في غير باب، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ جواب موسع في رد هذه الشبهة، وهي تثار عند غلاة الطريقة من المتصوفة وأرباب الباطل، فأجاب عن هذه الشبهة بجواب موسع وواف وكاف.

ومما قاله في ذلك الموضع ﷺ: «وَمِمَّا يَبِينُ الْغَلَطَ الَّذِي وَقَعَ لَهُمْ فِي الْاِخْتِجَاجِ بِقِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَى مُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ: أَنَّ مُوسَى ﷺ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ وَلَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْخَضِرِ مُتَابَعَتَهُ وَطَاعَتَهُ؛ بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: إِنَّ الْخَضِرَ قَالَ لَهُ: «يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ»^(١)، وَذَلِكَ أَنَّ دَعْوَةَ مُوسَى كَانَتْ خَاصَّةً.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: فِيمَا فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»^(٢) فَدَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الْعِبَادِ لَيْسَ لِأَحَدٍ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَلَا اسْتِغْنَاءٌ عَنْ رِسَالَتِهِ كَمَا سَأَغَ لِلْخَضِرِ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَى وَطَاعَتِهِ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ. وَلَيْسَ

«مصنفه» (٢٦٤٢١)، وانظر: «الإرواء» (٣٤ / ٦).

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

لِأَحَدٍ مِّمَّنْ أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ أَنْ يَقُولَ لِمُحَمَّدٍ: إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ وَمَنْ سَوَّغَ هَذَا أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ: الزَّهَّادِ وَالْعَبَّادِ أَوْ غَيْرِهِمْ لَهُ الْخُرُوجُ عَنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَتَابَعَتِهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَلَالِ هَذَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذَكَّرَ هُنَا»^(١).



[المتن]

«العاشر: الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به؛ والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].»

[الشرح]

قوله: «العاشر»: أي هذا الناقض العاشر من نواقض الإسلام، والأخير من النواقض التي ذكرها المصنف رحمه الله.

قوله: «الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به»: أي يكون معرضاً تماماً عن دين الله، وهذا من أنواع الكفر ويسميه أهل العلم كفر الإعراض، وقال أهل العلم في بيانه: إذا عدم في الإنسان الأصل الذي يدخل به في الإسلام وأعرض عنه بالكلية لا يتعلم ولا يعمل، كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدق له ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة»^(١). فمن كانت هذه حالة فهو كافر، وكفره بالله ﷻ كفر إعراض، وهذا هو المراد بكفر الإعراض.

وأما الذي إعراضه بترك بعض الواجبات مما لا يصل به إلى حد الكفر، أو ترك المستحبات فليس داخلاً في هذا الباب، وإنما المراد كما ذكرنا وهو أن يُعدم في الإنسان

الأصل الذي يكون به مسلماً، ويعرض عن هذا تماماً، فلا يتعلم ولا يعمل ولا يقبل ولا يصغي، فهذا كفره كفر إعراض.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]: فقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾: الاستفهام هنا بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها.



[المتن]

«ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطراً، وأكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرهما، ويخاف منها على نفسه.

نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

[الشرح]

قوله: «ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف»: أي كلهم سواء يكفرون، سواء وقع في هذه النواقض ودخل فيها بسبب الخوف أو دخل فيها بسبب الهزل والمزاح واللهو واللعب، أو كان جاداً، فلا فرق في جميع هذه النواقض.

قوله: «إلا المكره»: أي إذا وصل الأمر إلى حد الإكراه بأن أكرهه على الكفر وفعله أو قاله فإن الله ﷻ لا يعذبه على ذلك ولا يكون بذلك من الكافرين، كما قال ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فإذا بلغ الأمر مبلغ الإكراه، والإكراه لا يكون إلا على القول والفعل وأما العقيدة التي في القلب فليس عليها إكراه؛ لأنه لا يُدرى ماذا في قلب الإنسان وما يكون في صدره، فلو أكره الإنسان إلى أن يقول كلمة الكفر، أو أكره الإنسان أن يفعل الكفر، فقال الكفر أو فعله تحت وطأة الإكراه وتحت سوط الإكراه ففعله أو قاله فإنه لا يكفر بذلك.

ودليل الإكراه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:

١٠٦]، فلم يستثن الله ﷻ إلا المكره.

قوله: «ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره»:
للمصنف رحمه الله في هذه المسألة وبيانها والاستدلال لها كلام عظيم النفع كبير الفائدة ختم
بها رحمه الله كتابه (كشف الشبهات).

فقال رحمه الله: «ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة تفهم مما تقدم،
ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها وكثرة الغلط فيها فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا
بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً.
فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط
فيه كثير من الناس، ويقولون هذا حق، ونحن نفهم هذا ونشهد أنه الحق، ولكننا لا
نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار، ولم
يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار،
قال تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات،
كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فإن عمل بالتوحيد عملاً
ظاهراً وهو لا يفهمه أو لا يعتقد به بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص ﴿إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وهذه المسألة مسألة كبيرة
طويلة تبين لك إذا تأملت في السنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف
نقص دنيا أو جاه أو مداراة لأحد، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألت عما
يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه، ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿لَا تَعْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، فإذا
تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها

على وجه المزح واللعب تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحدٍ أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿النحل: ١٠٦، ١٠٧﴾، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكرهه مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفاً أو مداراة أو مشقة بوطنه، أو أهله، أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره، فالآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ [النحل: ١٠٦]، فلم يستثن الله تعالى إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين، والله ﷻ أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم^(١).

قوله: «وكلها من أعظم ما يكون خطراً»: أي فكل هذه النواقض العشرة من أعظم ما يكون خطراً، فهي أخطر الأمور، وأضر الأشياء، وأعظم الموبقات، وأكبر المهلكات.

قوله: «وأكثر ما يكون وقوعاً»: أي اجتمع فيها أمران:

الأمر الأول: أنها أخطر ما يكون.

الأمر الثاني: أنها أكثر ما يكون وقوعاً، فتقع كثيراً.

فإذا علمت أنها أخطر ما يكون على الإنسان، وأنها أكثر ما يكون وقوعاً في الناس فهذا يستجلب الخوف من هذه النواقض، ولهذا قال: فينبغي للمسلم أن يحذرها.

قوله: «فينبغي للمسلم أن يحذرها، ويخاف منها على نفسه»: وللمصنف رحمه الله في كتابه (التوحيد) باب عظيم نافع مهم للغاية بعنوان: باب الخوف من الشرك، وأورد فيه قول الله ﷻ: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ونقل عن إبراهيم التيمي قوله: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم»^(١).

فإذا كان إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء الذي حطم الأصنام بيده خاف وقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ٣٥ رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]، فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم عليه السلام!.

ولذلك إذا علم المسلم خطورة هذه الأمور، وأنها أعظم ما يكون خطراً، وأكثر ما يكون وقوعاً فهذا يجلب للقلب الخوف من هذه النواقض، وشدة الحذر منها.

قوله: «نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه»: ختم المصنف رحمه الله بهذه الدعوة العظيمة المباركة، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، فهذه العشرة المذكورة هي أعظم موجبات غضب الله.

قوله: «وصلّى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم»: وكذلك ختم بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبهذا نصل إلى ختام الكلام على هذه الرسالة القيمة (نواقض الإسلام) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

ونسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يعيّننا أجمعين من نواقض الإسلام، وأن يحفظ لنا ديننا، اللهم احفظنا بالإسلام قائمين، واحفظنا بالإسلام قاعدين، واحفظنا بالإسلام راقيدين، اللهم اصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، اللهم إنا نعوذ بك من الكفر ومن الفقر، اللهم لك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا، نعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنا، فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايعنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.



سلسلة شرح السنن **٧**

شرح

كشف الشبهات

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

عبد الرزاق ابن عيسى المحسن البدر

إعتق بها وعلق عليها

أبو جندل العزيز مشير الزدري

دار الفرقان للنشر والتوزيع

الله أكبر

مقدمة المعتني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالُّونَ، أحمده سبحانه
حمد عبد نزه ربِّه عما يقول الظَّالِمُونَ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له وسبحان الله ربَّ العرش عَمَّا يصفون، وأشهد أن نبينا محمَّدًا عبده ورسوله
وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذِينَ هم
بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أَمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين،
ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل
به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله
إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه
حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه

تكون الشقاوة والسعادة، وعلى حسب ذلك تقسم الأنوار ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]»^(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذنوب الشُّرك بعلام الغيوب ﷺ، عن عبد الله بن مسعود قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» (ثلاثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ...»^(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشُّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوّعت كتابات علماء أهل السُّنة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوّل ومختصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ «فشمر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشُّرك،

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذِي جعل في كُلِّ زمان من يقول الحق، ويرشد إلى الهدى والصدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبس الجاهلين المفتونين»^(١).

وقد كتب ﷺ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأُمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (كُشْفُ الشُّبُهَاتِ)^(٢)، وهو بحث نافع لطيف، مائع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

وَمِنْ بابِ التَّعاونِ على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسّة إليه، قُمتُ بالاعتناء بهذه الرِّسالة؛ وأصلها دروس للشيخ فُرِّغت؛ فاستأذنته في إخراجها في كُتَيْبٍ، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إِلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا^(٣).

(١) «الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ فِي الْأَجُوبَةِ النَّجْدِيَّةِ» (١/١٦).

(٢) سئل الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز ﷺ: «أحسن الله إليكم شيخنا ماهي المسوغات التي دفعت الشيخ محمد بن عبد الوهاب ﷺ لتأليف هذا الكتاب؟

الجواب: إيضاح الشبهات التي اعترض بها عباد القبور ولبسوا بها على المسلمين» «شرح كشف الشبهات» (ص ١١).

(٣) كان ذلك في بيته بالمدينة النبويّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ

وَمَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهْذِيبُ وَالتَّرْتِيبُ، وَالتَّوْثِيقُ وَالتَّدْقِيقُ، بَلْ حَاوَلْتُ الْمُحَافَظَةَ عَلَى كَلَامِ الشَّيْخِ بِحُرُوفِهِ إِلَّا مَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ مِنْ إِضَافَةٍ مَا يُرْبِطُ بِهِ الْكَلَامُ لِتِمَامِ الْمَعْنَى مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْهَا.

سَائِلًا اللَّهَ ﷻ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَجْزِيَ خَيْرَ الْجَزَاءِ كُلِّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهِ لِلْمُتَنَفِّعِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

مُحِبُّكُمْ فِي اللَّهِ
أَبُو عَبْدِ الْعَزِيزِ مُنِيرُ الدُّرَى

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095



مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن من نعم الله العظيمة على عبده المسلم أن ييسر له في حياته تعلم التوحيد الذي خلق لأجله، وأوجد لتحقيقه، ومعرفة دلائله وحججه وبياناته، وأيضاً أن يعرف ما يضاد التوحيد وويناقضه أو ينقص كماله ليكون على حذر تام من كل أمر يناقض التوحيد أو ينافيه، ومن كل أمر ينقص من كمال التوحيد، ويكون التوحيد عند المرء المسلم أثمن شيء وأعلى كنز وأعظم أمر يعنى به في حياته كلها وتكون عنايته بتوحيده مقدمة على العناية بكل أمر، واهتمامه بتوحيده مقدماً على الاهتمام بكل أمر، لأن التوحيد أعظم مطلب وأجل مقصد وأنبل غاية وهو أساس هذا الدين، وأصله الذي عليه يبنى، وهو أساس قبول الأعمال، وزكاء

الطاعات وصلاتها، وأساس قبولها عند الله - ﷻ - وكل عمل يقوم به الإنسان ولا يكون قائماً على توحيد الله ﷻ فإنه يذهب هباءً، ولا ينتفع به عامله أي شيء ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، قد قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال - ﷻ -: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، ولهذا فإن عقد المجالس لدراسة التوحيد وبذل الأوقات بمعرفته ومعرفة دلائله وحججه وقراءة ما كتبه أئمة أهل العلم في هذا الباب هو من أهم المهمات وأعظم المطالب التي ينبغي على طالب العلم أن يعنى بها.

والعناية بالتوحيد تتناول جانبين لا بد منها:

الجانب الأول: معرفة التوحيد من حيث تقريره وتأصيله وذكر دلائله وحججه وبيئاته.

والناحية الأخرى: معرفة الأمور التي هي من نواقض التوحيد أو من نواقصه؛ لأن للتوحيد نواقض وله نواقص، وطالب العلم والمسلم عموماً كما أنه مطالب بمعرفة التوحيد ليحققه، فإنه في الوقت نفسه مُطالب بمعرفة نواقضه ونواقصه ليحذرهما، لتكون مستبينة له، واضحة عنده، فيكون منها على حذر، ويكون أيضاً محذراً الناس من الوقوع فيها ومن سوء مغبتها وعاقبتها على من وقع فيها في دنياه وآخره، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وفي «الصحيحين» عن حذيفة ﷺ، قال: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ

الله ﷻ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي»^(١)، فهذا مطلب لا بد منه، فكما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليتبعه فإنه كذلك مطالب بمعرفة الباطل ليحذره، ولأجل هذا ألف العلماء -رحمهم الله- مؤلفات مفردة في الكبائر وبيانها وعدّها، وممن ألف في الكبائر، مؤلف هذا الكتاب الذي أعني شيخ الإسلام الإمام الهمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- له كتاب في الكبائر من أنفس ما يكون، ومن قبله للإمام الذهبي وغيرهما من أهل العلم فقد ألفوا في بيان الكبائر، وأكبر الكبائر الشرك بالله ﷻ، وهو ناقض التوحيد، وقد قيل قديماً: «كيف يتقي من لا يدري من يتقي؟!»^(٢)، كيف يتقي الشرك من لا يعرفه! وكيف يتقي المحرمات من لا يعرفها، ولهذا فالمسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق فإنه مطالب أيضاً بمعرفة ما يناقض الحق أو ينقصه ليحذر من الوقوع فيه، ويؤكد هذا الأمر عندما تموج الشبهات وتكثر الفتن، ويتعاون أهل الباطل على تشكيك أهل الحق في ثوابتهم ومسلماتهم، بطرح الشبهات العاصفة التي تفتن الناس، وتلبس عليهم دينهم وتصرفهم عن الحق الذي خلقوا لأجله، وأوجدوا لتحقيقه، وقد خاف النبي ﷺ على أمته من أئمة الضلال قال: «وإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»^(٣)، فخاف ﷺ على أمته من أئمة الضلال ودعاة الباطل؛ لأنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق؛

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٣١٦/٩).

(٣) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»

لأنهم يوردون الشبهات على الناس، وكم من أناس حرفت عقائدهم وصرفوا عن الجادة السوية بسبب دعاة الباطل وأئمة الضلال؟ بل إن دعاة الباطل يستमितون في جلد عجيب ودأبٍ وجدٍ واجتهاد في تمكين الشبهات وغرسها في الناس، ليعدوهم عن دين الله - ﷻ -، ولا يزال أهل الباطل يشبهون على الناس ويفتنونهم في دينهم في قديم الزمان وحديثه، وقد قال الله - ﷻ - عن هؤلاء واصفاً حالهم على مر العصور واختلاف الأزمان قال: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، فهي متشابهة في الصد عن الحق والتمكين للباطل وطرح الشبهات على الناس ليعدوهم عن دين الله - ﷻ -.

ولقد عظمت المصيبة في زماننا هذا عندما انفتح على الناس من وسائل الاتصال الحديثة ونقل المعلومات السريعة، بحيث يمكن للإنسان أن يقول الكلمة فتصل في اللحظة الواحدة إلى أطراف الدنيا، من خلال القنوات الفضائية ومن خلال الانترنت الشبكة العنكبوتية، ومن خلال الهواتف ولا سيما الهاتف النقال الذي يحمله كثير من الناس، وأصبح أهل الباطل يجدون من خلال هذه المجالات وسائل سهلة لهم لنشر باطلهم، والذي يدمي القلب ويحزن الغيور أن ترى في كثير من أبناء المسلمين وبناتهم من يجد متسعاً من وقته ليسمع لمن يلقون الشبهات، ولا يجد متسعاً من وقته ليتعلم التوحيد؛ بل بعضهم ما جلس لتعلم التوحيد ثم فتح قلبه لأصحاب الشبهات ليوذعوا في قلبه سم شبهاتهم وركام باطلهم، وهنا تتلوث العقول وتفسد العقائد وتخرب الأديان وتفشوا الضلالات، ومما يتطلب على أهل الحق والغيرة على دين الله - ﷻ - أن يبذلوا ما استطاعوا من جهودٍ لتعلم

العلم والجلوس لمدارسته ومذاكرته من ثم بثه ونشره في الناس وتعليمه لهم، ولهذا أدعوك أخي القارئ أن تحتسب في قراءتك لمثل هذه المؤلفات أن تكون متعلماً للخير، ناصراً لدين الله - ﷻ - فتفقه الدين لتعرف التوحيد، وتعرف الحق والهدى وتعرف أيضاً شبهات أهل الباطل وطريقة أهل العلم في ردها لتكون بإذن الله - ﷻ - من أنصار هذا الدين ومن دعاة الحق ومنارات الخير، ومن العاملين في صد هذه الأباطيل ورد هذه الشبهات.

ومن عجيب وغريب أمر كثير من الناس أعني عوامهم وجهالهم أن صار أمرهم في مجالسهم تطارح شبهات ويحارون في جوابها، وترى كلاً منهم يتكلم ويهرف بما لا يعرف!، مما سمعوه من تلك القنوات، ولا يجد هؤلاء وقتاً لدراسة الحق والهدى على بابهِ الصحيح ووجهه القويم.

إن شبهات أهل الباطل التي أثاروها في قديم الزمان ولا يزالون يثيرونها في كل زمان وأوان، تحتاج من دعاة الحق وأهل الخير إلى وقفة صادقة في الذب عن دين الله - ﷻ - وحماية حماه، وإذا كان نبينا ﷺ عدّ من شعب الإيمان العظيمة وخصاله الجليلة إمارة الأذى عن الطريق^(١)، أي: أن تجد شيئاً من القذر أو الشوك أو الأمور المؤذية في طريق الناس فتميطها عن طريقهم لئلا تؤذيهم، فكيف بإمارة الشبهات التي هي أقذع الأذى وأشدّه؟ لأنها في طريق السائرين إلى الله ﷻ بالإخلاص والتوحيد، وإذا ابتلي الناس بهذه الشبهات ربما أخرجتهم عن صراط الله المستقيم، فإذا كان إمارة الأذى عن طريق المسلمين شعبة من شعب الإيمان،

فإن إمطة الشبهات بكشفها وتعريتها وبينان حقيقة أمرها وإيضاح زيفها ووهائها من أجل القربات وأنفع الطاعات التي يتقرب بها إلى الله - ﷻ -، وهنا ندرك الفضل العظيم والخير الكبير الذي حبا الله - ﷻ - به من حبا من عباده في أن كانوا أنصاراً للحق ببيانه ورد الشبهات التي يثيرها أهل الباطل صدأً عن الحق والهدى، ولا أبالغ عندما أقول إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا أعني كتاب (كشف الشبهات) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - لم يؤلف في بابة مثله! مع وجازة الكتاب واختصاره في مادته العلمية ومباحثه، ولا غرو في ذلك فإن من كتب هذا الكتاب إمامٌ مجدد وعلم مصلح وإن رغمت أنوف، نصر الله ﷻ به دينه وأعلى به كلمته، وانتشر دين الله ﷻ الصافي النقي في أنحاء المعمورة، في دعوة مباركة يسر الله - ﷻ - هذا الإمام للقيام بأعبائها، وكان من جهوده في نصرة الحق وبيانه أن ترك مؤلفات عظيمة نافعة لا تزال زاداً لطلاب العلم، وبركة هذه المؤلفات ظاهرة، في عقد الدروس والمجالس الكثيرة لمذاكرتها، وكتابة المؤلفات الكبيرة في شرحها وبيانها، وترجمتها إلى كثير من لغات العالم، وهذه بركة طرحها الله ﷻ في دعوة هذا الإمام الدعوة الصافية النقية إلى توحيد الله ﷻ وإخلاص الدين له، واتباع رسوله - صلوات الله وسلامه عليه -.

ولما كان - رحمه الله تعالى - في زمانه متحملاً أعباء الدعوة، ناشراً للتوحيد في الناس مبيناً دلائله وحججه، كان دعاة الباطل وأهل الأهواء في زمانه يثيرون الشبهات في الناس لصدهم عن هذه الدعوة، وأثاروا شبهات كثيرة، أرادوا من ورائها صد الناس عن الدعوة إلى التوحيد التي قام بأعبائها هذا الإمام ﷻ، فانبهرى - رحمه

الله تعالى - وأتى على أبرز شبهات هؤلاء وجمعها في هذه الرسالة وأجاب عنها بأجوبة مقنعة وكشف ما فيها من زيف وضلال وباطل بما لا مزيد عليه، ولم يكن - رحمه الله تعالى - في هذا الكتاب مقتصرًا على كشف تلك الشبهات التي أثّرت في زمانه من دعاة الباطل؛ بل كان - وهذا من تمام نصحه رحمه الله تعالى - مؤصلًا في كتابه الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم في موقفه من الشبهات وفي طريقة ردها وبيان فسادها، وشبهات أهل الباطل كثيرة وعديدة، قد لا يتسنى لكل طالب علم أن يعرف بشبهات أهل الباطل وأجوبة أهل العلم لها معرفة تفصيلية، قد لا يتسنى هذا لكثير من طلبة العلم، فوضع ﷺ في مقدمة كتابه كشف الشبهات تأصيلًا مباركًا وتقريرًا نافعًا لطالب العلم يسير على ضوئه في رد شبهات أهل الباطل، ولا سيما إذا لم يكن على معرفة تفصيلية بكشف تلك الشبهات، ومن أهم ما يكون في ذلك أن يعرف الحق الذي بعث به النبي ﷺ واجتمعت عليه دعوة الأنبياء والمرسلين فكانوا من أولهم إلى آخرهم دعاة له، يعرف ذلك معرفة جيدة، ويعرف دلائله وحججه وبياناته، ويعرف أيضًا في الوقت نفسه دين المشركين الذي بعث النبي ﷺ بإبطاله ونقضه وهدمه، ماذا كان عليه المشركين من دين، يعرف ذلك، فإذا عرف دين النبي ﷺ وعرف دين المشركين الذي بعث النبي ﷺ بإنكاره، إذا عرف هذين الأمرين معرفة جيدة سلم من جُلّ شبهات أهل الباطل، فإذا عرف الحق وعرف ضده، عرف صحة الحق وعرف بطلان ضده، فإنه بإذن الله - ﷻ - لا تنفق عنده شبهة ولا تروج، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] ولهذا مهّد الشيخ - رحمه الله تعالى - بتمهيد نافع جدًّا جعله في صدر الكتاب وأوله

في بيان دين نبينا ﷺ ودين الأنبياء واجتماعهم على توحيد الله وإخلاص الدين له وبيان دين المشركين وحقيقة دينهم الذي بعث النبي ﷺ وبعث الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم - من قبله لإنكاره وإبطاله، مهّد لذلك ثم بعد ذلك ذكر تقريراً مجملًا في رد الشبهات وكشفها، ثم ذكر أبرز الشبهات التي أثيرت في زمانه من أرباب الباطل وأهل الأهواء، فأجاب عنها إجابة تفصيلية، وبهذه الأمور الثلاثة يكون ﷺ وضع النقاط - كما يقال - على الحروف، ووضع المنهج السديد في السلامة من الباطل وشبهات أهله أيًا كانت، فنسأل الله ﷻ أن يجزيه خير الجزاء وأن يرفع قدره، وأن يعلي مقامه في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وأن يبارك في جهوده العظيمة وأن يرزقنا جميعًا حسن الاستماع وحسن الانتفاع، إنه ﷻ سميع الدعاء.

وأما مؤلف الكتاب فهو غني عن التعريف - رحمه الله تعالى -، وأما مؤلفه فهو الذي بين أيدينا كتاب (كشف الشبهات)، فسنتف بإذن الله على مضامين هذا الكتاب العظيمة، وأشير إلى أن هذا الكتاب حظي بشروحات عديدة مكتوبة وصوتية من أكابر أهل العلم، وأنصح بمطالعة الشروحات لهذا الكتاب ولا سيما شرح الشيخ محمد بن بن إبراهيم - رحمه الله تعالى -، وهو مطبوع جمع من تقريراته - ﷻ -، جمعه تلميذه الشيخ محمد بن عبد الرحمن القاسم - ﷻ -، وأيضًا شرح الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله تعالى -، والشيخ ابن عثيمين - رحمه الله تعالى -، والشيخ صالح الفوزان - حفظه الله تعالى -، وجميعها موجودة صوتًا وكتابةً، فرغت من الأشرطة وهي شروحات نافعة ومفيدة جدًا لطالب العلم، ونسأل الله

ﷺ أن يمن علينا أجمعين بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن
ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يسلك بنا جميعاً في الباب العظيم
من أبواب الخير، فإنه ﷺ ولي التوفيق والسداد.

عَبْدُ الرَّزَاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُجِيسِّ بْنِ عَبْدِ



[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى و قدس
روحه في الجنة -، قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللهُ- أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ ﷻ بِالْعِبَادَةِ، وَهُوَ دِينَ
الرَّسْلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ».

[الشرح]

الشيخ رحمه الله تعالى هذا الكتاب سماه (كشف الشبهات)^(١)، والكشف في
اللغة معناه معروف، عندما يقال كشف الشيء أي أزال عنه ما يغطيه، يقال كشف
فلان اللثام عن وجهه أي: أماطه وأزاله عن وجهه، فأصبح وجهه بدل أن كان خفياً

(١) قال الشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله: «منهجه في تأليف كتاب
كشف الشبهات: اسم الكتاب مُطابِقٌ لموضوعه، فالشيخ ﷻ أورد فيه الشبهات التي ذكرها أهل
البدع، ملبِّسين بها على الدعوة إلى الحقِّ والصراط المستقيم، ومخالفين فيها لما كان عليه
سلف هذه الأمة من الصحابة ومن سار على نهجهم، وذلك بتعلُّقهم بالأولياء والصالحين،
وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يدعونهم ويستغيثون بهم، فجمع الشيخ ﷻ جُملاً كبيرة من
هذه الشُّبُهَة، فيذكر الشبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلاً على ذلك بنصوص الكتاب والسنة
وما كان عليه سلف الأمة، وكتابه هذا متممٌ لكتبه الأخرى في العقيدة، التي أوضح فيها ما
يجب اعتقاده وفقاً لنصوص الكتاب والسنة، فإنَّه بهذا الكتاب أجاب على ما يُورَد على
العقيدة الصحيحة من شبهات، مبيناً بطلانها ومخالفتها للحقِّ والهدى الذي كان عليه سلف
هذه الأمة» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص ١٢).

أو غير ظاهرٍ أصبح ظاهراً، فكشف الشيء بأن يُماط عنه ما يغطيه، والشبهات هي الأمور التي يلبس فيها الحق والباطل، يشبه فيها على الناس بحيث عندما تثور هذه الشبهات تجعل الأمر ليس واضحاً، فيلتبس عليهم الحق بالباطل وتشتبه عليهم الأمور، فلا يكون الحق مستبيناً لهم أنه حق، ولا يكون أيضاً الباطل مستبيناً لهم أنه باطل، فتلتبس عليهم الأمور وتختلط عندهم، ويصبح الأمر بدل أن كان واضحاً يصبح ملتبساً مختلطاً غير واضح^(١)، وكشف الشبهات أي: تعريتها وبيان فسادها وبطلانها بحيث يكون ظهور بطلانها واضحاً للناس، والشبهة إذا ثارت التبس الأمر على الناس فلم يميزوا بين حق أو باطل، فإذا قىض الله -ﷻ- لهم عالماً ناصحاً فكشف عنهم الشبهة رأوا الحق، فالشيخ -رحمة الله عليه- سمي كتابه (كشف الشبهات)؛ لأنه أزال فيه بتوفيق الله -ﷻ- ما يثيره أهل الباطل من أمور يلبسون بها على أهل الحق وأهل التوحيد، وبدأ ﷻ كتابه بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» تأسيساً بكتاب الله ﷻ، وتأسيساً بالنبي الكريم ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، والباء في «بسم الله» باء الاستعانة، وقوله «بسم الله» أي أبدأ بذكر اسم الله -ﷻ-، أبدأ كتابي هذا -أو أكتب كتابي هذا- مستعيناً بالله -ﷻ-، ذاكراً اسمه -ﷻ-.

قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم رحمك الله أن التوحيد هو أفراد الله بالعبادة».

(١) قال الإمام ابن القيم ﷺ: «الشبهة هي اشتباه الطريق على السالك بحيث لا يدري أعلى حق هو أم على باطل» «مدارج السالكين» (٣/ ٣١٨).

«اعلم»: هذه كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة المهمة التي تحتاج إلى استدعاء انتباه السامع وشد ذهنه وجمع قلبه، وعنايته بالموضوع الذي يلقي عليه، فيؤتى بها للتنبيه وشد الانتباه ويؤتى بها في الأمور العظام، وفي القرآن الكريم أتت في مواضع عديدة، جلها فيما يتعلق بتوحيد الله ﷻ ومعرفة عظمته وجلاله وكماله وأسمائه وصفاته - ﷻ -، منها قول الله ﷻ: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]، قال: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فهي كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة التي يستدعي المقام شد انتباه الناس لهذه الأمور حتى يحسنوا الاستماع ومن ثم يحصل بإذن الله - ﷻ - الانتفاع.

«اعلم رحمك الله»: وهذا أيضاً من نصحه، بدأ الكتاب بهذه الدعوة لمطالع هذا الكتاب وقارئه والمستفيد منه، دعا له بالرحمة، والرحمة تارة تذكر مع المغفرة وتارة تذكر مفردة، كما ذكرها الشيخ هنا ﷻ، فإذا ذكرت مع المغفرة فإن المراد بالمغفرة ستر ما مضى وكان، والمراد بالرحمة التوفيق فيما يستقبله المرء من الأيام والأزمان، وإذا ذكرت الرحمة وحدها هنا جمعت الأمرين، فقوله «رحمك الله» أي: بأن يغفر لك ما مضى وهذا من رحمة الله بعبده، وأن يوفقك فيما بقي من حياتك، وإذا أطلقت الرحمة والدعاء بالرحمة يشمل الأمرين.

«اعلم رحمك الله»: يشمل غفران ما مضى من رحمة الله بك أن يغفر لك ما مضى وما سلف وما كان، ومن رحمة الله - ﷻ - بك أن يوفقك لسديد الأعمال وصالح الأقوال فيما بقي من حياتك.

(أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة) التوحيد: هذه الكلمة مصدر للفعل وَّحَدَ يُوْحِدُ توحيداً وهو أصلٌ يدل على الإفراد، وتوحيد الله ﷻ هو إفراده - ﷻ - بخصائصه - ﷻ - في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيته، ليفرد - ﷻ - بكل ما هو مختص به ﷻ من الأسماء الحسنى والصفات العليا وبربوبيته وأنه سبحانه المتفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتصرف والتدبير إلى غير ذلك، وأن يفرد - ﷻ - وحده بالعبادة، فلا يجعل معه شريكاً في شيء منها، هذا هو التوحيد، توحيد الله ﷻ أن يفرد - ﷻ - بخصائصه ﷻ، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ولهذا قال أهل العلم التوحيد ينقسم إلى أقسام ثلاثة^(١) توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الألوهية، والشيخ -رحمة الله عليه- عرّف التوحيد هنا؛ بل كثيراً ما يأتي هذا التعريف في مصنفاته ﷻ ورسائله ومكاتباته؛ لأنه تعريف مختصر وجامع.

قال: «اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة» إفراده بها أن لا يجعل معه فيها

(١) فائدة:

قَالَ الْعَلَامَةُ بُكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو زَيْدٍ ﷻ: «هَذَا التَّقْسِيمُ الاسْتِقْرَائِيُّ لَدَى مُتَقَدِّمِي عُلَمَاءِ السَّلَفِ: أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ مِنْدَه، وَابْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ، وَغَيْرُهُمَا، وَقَرَّرَهُ شَيْخَا الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَابْنُ الْقَيِّمِ، وَقَرَّرَهُ الزَّيْدي فِي (تَاجِ الْعُرُوسِ)، وَشَيْخُنَا الشَّنْقِيطِيُّ فِي (أَضْوَاءِ الْبَيَانِ)، وَآخِرِينَ رَحِمَ اللَّهُ الْجَمِيعَ.

وَهُوَ اسْتِقْرَاءٌ تَامٌّ لِنُصُوصِ الشَّرْعِ، وَهُوَ مُطَرَّدٌ لَدَى أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ كَمَا فِي اسْتِقْرَاءِ النُّحَاةِ: كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَى (اسْمٍ، وَفِعْلٍ، وَحَرْفٍ)، وَالْعَرَبُ لَمْ تَفْهَمْ بِهِذَا وَلَمْ يُعْتَبَرْ عَلَى النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ عَاتِبٌ، وَهَكَذَا مِنْ أَنْوَاعِ الاسْتِقْرَاءِ «التَّحْذِيرُ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ الصَّابُونِي فِي التَّفْسِيرِ» (ص ٢١)، وَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ شَيْخِنَا عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْبَذَرِ حَفِظَهُ اللَّهُ بِعُنْوَانِ: «الْقَوْلُ السَّيِّدُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ تَقْسِيمَ التَّوْحِيدِ».

شريك، بأن يخص بها - ﷻ - وحده، فلا يجعل معه شريك في شيء منها، قال (اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة) وهنا يتطلب أيضاً الأمر أيضاً من الموحد أن يعرف العبادة ماهي؟ حتى لا يصرف شيئاً منها لغير الله، وحتى يخص بها الله - ﷻ -، وإذا كان لا يعرف العبادة ماهي فربما صرف شيئاً منها لغير المستحق لها وهو الله - ﷻ -، والعبادة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»^(١)، وهو التعريف الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ في كتابه: «العبودية»، وتناقله عنه أهل العلم، وهو من أجمع ما قيل في بيان حد العبادة وتعريفها.

فالعبادة حق لله ﷻ يجب أن يفرد بها ﷻ، ولم يذكر هنا ما يتعلق بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لأن هذا التعريف أو هذا التوحيد؛ توحيد الألوهية متضمن للتوحيدين أي: توحيد الألوهية الذي هو إفراد الله بالعبادة متضمن للتوحيدين، فلا يكون عبداً لله - ﷻ - مخلصاً له العبادة إلا من عرفه رباً خالقاً رازقاً مدبراً له الأسماء الحسنى والصفات العليا، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، أما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية، وإذا قلنا أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات فمعنى ذلك: أنه لا يكون موحداً لله ﷻ في ألوهيته إلا من عرفه رباً وعرف أسمائه وصفاته، وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية، قد يكون الإنسان مقراً بالربوبية بأن

(١) «العبودية» (ص ٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩).

الله هو الرب الخالق الرازق المنعم؛ ولكن لا يخلص العبادة لله ولا يفرد الله ﷻ في العبادة، وهذا أمر سيأتي تبينه وتوضيحه وذكر الأدلة عليه في كلام المصنف -رحمه الله تعالى-.

قال: «اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلي عباده».

وهذه الحقيقة عظيمة جدا ينبغي العناية بها أن هذا التوحيد الذي هو إفراد الله ﷻ - بالعبادة هو دين الرسل.

«دين الرسل» أي: من أولهم إلي آخرهم، كلهم متفقون عليه مجتمعون على الدعوة إليه، لا خلاف بين نبي وآخر فيه، كلمتهم فيه واحدة، وقولهم فيه سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال -ﷺ-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال -ﷺ-: ﴿وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

ومعنى قوله ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ النذر: هم الرسل. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: أي كلهم تواردت كلمتهم واتفقت دعوتهم على هذا الأمر: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وكلهم متفقون كلمتهم واحدة، الرسل من أولهم إلي

آخرهم كلمتهم واحدة، ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ على ماذا؟ على أي شيء؟ ﴿أَلَا تَعْبُدُونَا إِلَّا اللَّهَ﴾، هذه هي دعوة جميع المرسلين الرسل عليهم صلوات الله وسلامه - كلمتهم واحدة ودعوتهم واحدة، كلهم دعاة إلي توحيد الله - ﷻ، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ في «الحديث الصحيح»: «الأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَمَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»^(١)، فقلوه: «وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ» أي: فعقيدتهم واحدة، لا خلاف بين نبي وآخر في الأصول، الأصول واحدة، أمور التوحيد وأمور العقائد عند الأنبياء واحدة، لا اختلاف بين نبي أو آخر في شيء منها، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: «العقيدة ليس فيها نسخ، لا في شرائع الأنبياء، ولا في شريعة النبي الواحد»، ولا يدخل العقيدة نسخ، النسخ يدخل على الأحكام فقط، فقد يأتي نبي وينسخ شيئاً من الأحكام التي أتى بها النبي الذي قبله، وأيضاً قد يأتي النبي بشيء من الأحكام ثم تنسخ في شريعته هو؛ لكن العقيدة لا يدخلها نسخ، لا في شريعة النبي الواحد، ولا في شرائع الأنبياء عموماً، أمور ثابتة لا يطرأ عليها تغيير أو تبديل وكلمة الأنبياء فيها واحدة، وهذا هو معنى قوله -رحمه الله تعالى -: «وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلي عباده»، فالله ﷻ أرسل الرسل إلي عباده بهذا الدين، بتوحيده وإخلاص الدين له ﷻ.

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «والعلات بفتح المهملة والضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى» «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/٤٨٩).

[المتن]

قال: «فأولهم نوح ﷺ أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا».

[الشرح]

ثم قال ﷺ: «فأولهم نوح ﷺ أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»، نوح ﷺ هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما جاء هذا المعنى في حديث الشفاعة: «اتُّوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»^(١)، وفي القرآن الكريم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، فنوح ﷺ أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ولهذا قال الشيخ ﷻ: «فأولهم نوح ﷺ أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين».

هنا يبين ﷻ هذه الإشارة إلى أساس المشكلة عند قوم نوح وأن سبب البلاء والشر الذي وقع فيه هؤلاء هو: الغلو في الصالحين، والغلو في الصالحين تجاوز الحد في حقهم، فيتجاوزون الحد في حق الصالحين من جهة تعظيمهم ورفع أقدارهم إلي أن يضيفوا عليه شيئاً من خصائص الله - ﷻ - وما لا يليق إلا به - ﷻ - وما لا يصلح إلا له.

قال: «لما غلو في الصالحين» وهذه إشارة منه - رحمه الله تعالى - إلي أساس المشكلة، قد قال ﷻ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنتُ مِنَ الْغُلُوفِ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ

(١) رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

قَبْلَكُمْ الْغُلُو فِي الدِّينِ»^(١)، فالغلو ولاسيما في الصالحين هو أعظم أسباب الفساد والوقوع في الشرك بالله -ﷻ-، ومن المعلوم أن للصالحين مكانة في نفوس الناس ومنزلة في قلوبهم اكتسبوها عبر أيام طويلة عاشوها مع الناس بالاخلاق الفاضلة والآداب الطيبة والمعاملات الحسنة والدعوة إلى الخير، فأصبح لهم في قلوب الناس مودة وأصبح لهم إلى نفوس الناس قرب ومكانة، والشيطان وجد هذا مدخلا على الناس لصرفهم عن دين الله -ﷻ- وعن التوحيد الذي خلقوا لأجله.

وقد جاء في «صحيح البخاري» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «..أَسْمَاءُ رَجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصَبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَخَ الْعِلْمُ عُيِدَتْ»^(٢).

فكان من أمره أنه لما مات عدد من الصالحين في قوم نوح وهم خمسة ذكرت أسمائهم في القرآن: وَدَّ وَسَوَاعٍ وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، لما مات هؤلاء الصالحون وقد كانت لهم في نفوس الناس مكانة عليّة ومنزلة رفيعة أتى الشيطان إلي أقوامهم بعد وفاتهم ونفوسهم متأثرة بفقدانهم فدعاهم إلي أمرين:

١- دعاهم إلي العكوف عند قبورهم أي البقاء الطويل والمكث الطويل عند القبور، وبدأ معهم هذا الأمر بنية أو بقصد تذكر هؤلاء الصالحين، تذكر فضائلهم،

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٠).

وتذكر دعوتهم، وتذكر نصائحهم، فدعاهم إلى العكوف، أن يبقى عند قبر الرجل الصالح وقتاً طويلاً، والقصد في هذا الأمر في بداية الأمر هو أن يذكر، قال لهم: «لا يليق بكم أن يموت وتنسونه تشغلون بمصالحكم وحاجتكم؛ بل تخصصون أوقاتاً تمكثون فيها مكثاً طويلاً عند قبورهم وتبقون بقاءً طويلاً عند قبورهم من أجل ذكر فضائلهم ذكر دعواتهم ذكر نصائحهم ذكر مآثرهم إلي غير ذلك»، هذا الأمر الأول.

٢- والأمر الثاني -دعاهم إليه بعد الأمر الأول- أن يتخذوا لهم تصاويراً؛ لأنه ربما يشق عليهم في كل مرة أو يتكرر منهم الذهاب للقبور والعكوف عندها، فأرشدهم إلى أمر آخر وهو أن يتخذوا لهم تصاوير تحقق لهم نفس الغرض وهو بقاء ذكر هؤلاء وبقاء الصلة بهؤلاء وعدم نسيانهم، قال: «تتخذون لهم تصاوير وتكون هذه التصاوير قريبة منكم، تكون مع الإنسان في بيته وتكون في تجارته، تكون في طريقه، تذكركم هؤلاء الصالحين».

فأرشدهم إلى هذين الأمرين: العكوف عند قبور الصالحين، واتخاذ التصاوير لهم، وترك هذا الجيل، اكتفى مع هذا الجيل بهذين الأمرين وتركهم إلى أن مات هؤلاء واندرس العلم، فأتى إلى الجيل الذي بعده وهذا يستفاد منه أن الشيطان -أعاذنا الله وإياكم منه- طويل النفس في دعوته؛ يعني ممكن يضع الغرس الآن ولا يطلب ثمرته إلا بعد مائة سنة فما عنده مشكلة، يضع الغرس الآن وتكون الثمرة ليس للجيل القادم ولا الجيل الذي بعده ما عنده مشكلة، فعنده طول نفس في دعوته وإضلال الناس عن دين الله -ﷻ-، ولهذا اكتفى مع الجيل الأول بهذين الأمرين،

ثم لما مات هؤلاء وُدّرس العلم ونُسي وقلّ في الناس العلماء، جاء للجيل الذي بعدهم وقال لهم: «أتدرون لما كان آباؤكم وأجدادكم كانوا يعكفون عند تلك القبور ولماذا كانوا يتخذون لها التصاوير؟، هل تعرفون السبب؟، إن السبب في ذلك أنهم كانوا إذا استغاثوا بها أغيثوا، وإذا سألوا بها أُعطوا»، فأدخلهم من هذه البوابة على الشرك، ولا يزال الشيطان ماضيًا في الطريقة نفسها لإدخال الناس إلى الشرك من الباب نفسه، مع أن الله تعالى ذكر لنا هذا الأمر في القرآن وبيّنه النبي ﷺ في السنة إلا أنه لا يزال أناس كثيرون يدخلون إلى الشرك من البوابة نفسها ومن الطريق نفسه، العكوف عند قبور الصالحين واتخاذ التصاوير لهم، وإذا فتشت فيما يقع فيه الناس من شرك يقع فيه الناس في هذا الزمان أو قبل هذا الزمان لو فتشت عن أعظم سبب له تجد أنه من خلال هذين الأمرين: العكوف عند القبور، وهذا ينتظم تشييد القبور وزخرفتها ووضع الستور عليها والأشياء التي تدعوا الناس إلى العكوف عندها والبقاء، واتخاذ التصاوير، ولهذا خصهم النبي -خص هذين الأمرين- بالذكر في أحاديث كثيرة مثل: حديث علي قال ﷺ: «أَنْ لَا تَدْعَ تِمْنَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَيْتَهُ»^(١) خص هذين الأمرين بالذكر، قال أيضًا في الحديث الآخر: «إِنَّ أَوْلَيْكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوْرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، فذكر هذين الأمرين.

قال: «فأولهم نوح ﷺ أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»، «غلوهم

(١) رواه مسلم (٩٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

في الصالحين^(١): عكوفهم عند قبورهم واتخاذ التماوير لهم ومن ثم بالتوجه إليهم في السؤال والدعاء وطلب الغوث والإلتجاء، قال: «لما غلوا في الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر» هذه الأسماء الخمسة جاءت في موقع البدل من قوله في الصالحين فتكون تقرأ مجرورة «ودٍ وسواعٍ ويغوثٍ ويعوقٍ ويعوقٍ ونسرٍ» بدل من قوله في الصالحين، فالصالحين الذين غلا فيهم قوم نوح هو هؤلاء الخمسة: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فهذه الاسماء الخمسة أسماء رجال صالحين، والطريقة التي سار الناس بسببها إلي عبادة هؤلاء الصالحين من دون الله هي التي شرحتها قبل قليل، قد قال الله تعالى في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿ [نوح: ٢٣-٢٤]، فهذه الأسماء الخمسة كما جاءت عن ابن عباس ؓ وغيره أسماء رجال صالحين من قوم نوح ؑ لما ماتوا عكف الناس على قبورهم واتخذوا لهم تماويرا إلي أن عبدوا من دون الله - ؓ -.

العجيب في الأمر أن هذا أول شرك وجد وهذا مدخله وهذا سببه وبعث أول رسول وهو نوح ؑ أول رسول بعث إلي أهل الأرض؛ بعث لتحطيم هذا الشرك وبيان بطلانه ومضى في قومه داعية إلي التوحيد ومحذرا من هذا الشرك، مضى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿ [نوح: ٥-٦].

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين ؓ: «الصالح هو الذي قام بحق الله، وبحق عباد الله» «شرح كشف الشبهات» (ص ١٦).

فمضى فيهم سنوات طوال وعمر مديد يدعوهم وهم مصرون على هذا الشرك، إلى أن أمر الله - ﷻ - نوحا ﷺ أن يصنع الفلك، وأخذ يصنع الفلك ويمر به قومه ويسخرون منه؛ لأنه يصنعه في الصحراء، فكان قومه كلما مروا به سخروا منه، ثم أذن الله - ﷻ - للأرض فأخرجت الماء، وأذن للسماء فنزل المطر، حتى طغى الماء على الأرض وغطى الجبال ولم ينجوا من الماء إلا من كان في السفينة، وأصبحت السفينة مضرب مثل في الحق ولزومه، مثل ما قال الإمام مالك - رحمه الله عليه - قال: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق»^(١)، فلم ينجو إلا من ركب السفينة، وعم الماء الأرض وغطى الجبال وهلك كل من على وجه الأرض، وقد ذكر في كتب التاريخ أن هذه الأصنام الخمسة مع الطوفان والمياه حملت المياه هذه الأصنام وألقته في جدة على شاطئ البحر وغطتها الرمال وبقيت مدفونة إلى أن جاء في زمن ما قبل بعثة النبي ﷺ بوقت ليس بطويل عمرو بن لحي، فقد جاء في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرُو بْنُ لَحْيٍ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ»^(٢)، وجاء في بعض الروايات أنه أول من غير دين إبراهيم، وذكر أن لعمر بن لحي (رئي) من الجن وكان صاحب كهانة فأتاه رئي من الجن وهتف به أن: «عَجِّلِ السَّيْرَ وَالظَّنَّ مِنْ تِهَامَةٍ، بِالسَّعْدِ وَالسَّلَامَةِ، إِنَّتِ جُدَّةٌ، تَجِدُ فِيهَا أَصْنَامًا مُعَدَّةً، فَأَوْرِدْهَا

(١) «ذم الكلام وأهله» (٨٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٢١٢)، ومسلم (١٢٧٧).

تِهَامَةً وَلَا تَهَبْ، ثُمَّ اذْعُ الْعَرَبَ إِلَى عِبَادَتِهَا تُجَبْ»^(١)، إلى آخر ما سمعته، فذهب إلى جدة وحفر عن تلك الأصنام وجاء بها ودعا إليها العرب فأجابوه، وعبدوا نفس الأصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، وأضافوا إليها أيضاً أصناما كثيرة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصْبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَجَعَلَ يَقُولُ: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]^(٢)، فكسر الأصنام، ومن جملة الأصنام التي كسرها ﷺ هذه الأصنام الخمسة، ولهذا قال الشيخ: «وأولهم نوح أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودّاً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً، وآخر الرسل - محمد ﷺ -، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»^(٣)؛ أي المعبودة على عهد نوح ﷺ، وهي صور ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ولهذا يقول الشيخ محمد بن إبراهيم في تعليق عظيم له على هذا الموضع يقول: «فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقت متى تزول وتنمحي»، هذه الأصنام التي وجدت، متى كُسرَت؟ وُجِدَت قبل زمن أول رسول يُبعث، وُبعث للتحذير منها، ولم تُكسر إلا زمن آخر رسول، ثم قال ﷺ:

(١) انظر: «الأصنام» (ص ١٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨٠).

(٣) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «وهكذا ينبغي ويجب على طلبة العلم والدعاة أن يهتموا بهذا الأمر وأن يجعلوا الدعوة للتوحيد وإنكار الشرك ودحض الشبهات من أولويات دعوتهم فهذا هو الواجب وهذه دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأن كل أمر يهون دون الشرك، فما دام الشرك موجودا فكيف تنكر الأمور الأخرى!» «شرح كشف الشبهات» (ص ٢٤).

«فإن هذه الأصنام بقيت من يوم عبادت من دون الله حتى بُعث محمد ﷺ وكسرها، فالشرك إذا وقع عظيم رفعه وشديد، فإن نوحا مع كمال بيانه ونصحه ودعوته إياهم ليلا ونهارا، سرا وجهارا، أخذ ألف سنة إلا خمسين عاما ما أجابه إلا قليل، ومع ذلك أغرق الله أهل الأرض كلهم من أجله، ومع ذلك تلك الأصنام الخمسة ما زالت حتى بعث محمد ﷺ وكسرها فيفيدك عظم الشرك إذا خالط القلوب صعب زواله، كيف أن أصناما عبادت على وقت أول رسول وما كسرها إلا آخرهم»^(١) هذا كلام الشيخ محمد بن ابراهيم رحمته الله.



[المتن]

قال: «وآخر الرسل محمد ﷺ، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله الله إلي أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله؛ ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله ﷻ، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله - تعالى - ونريد شفاعتهم عنده مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين».

[الشرح]

قال - رحمه الله تعالى - : «وآخر الرسل محمد ﷺ»، آخرهم: أي خاتمهم الذي ختم به النبيون، كما قال الله ﷻ ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»^(١).

«وآخر الرسل محمد ﷺ، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين.» أي: يوم فتح مكة، لما فتح مكة ودخلها ﷺ فاتحًا أخذ يحطم الأصنام بيده ويكسرها ﷺ بيده وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فطهر الله ﷻ ببعثته ﷺ ودعوته ﷺ البيت من الأصنام ومن المشركين ومن أعمال

المشركين، فهدى الله ﷻ به من الضلالة، وبصر به من العمى، وفتح به قلوبا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا - صلوات الله وسلامه عليه -.

قال: «وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»، «هؤلاء الصالحين» أي: هؤلاء الخمسة وما أضيف إليها من الأصنام الكثيرة التي كانت داخل البيت؛ داخل بيت الله ﷻ؛ داخل الكعبة وأيضاً حول الكعبة، وهنا أيضاً ندرك نعمة الله - ﷻ - علينا بأن أكرمنا ببعثة هذا النبي ﷺ، الأصنام كانت داخل البيت؛ داخل بيت الله، انظروا إلى التحول إلى الوثنية والضلال، الأصنام جعلوها بسبب شبهات أهل الباطل وضلالهم وإضلالهم جعلوا الأصنام داخل بيت الله، وجعلوها أيضاً مُحْتَفَّةً ببيت الله، فَمَنْ الله ﷻ وأكرمنا ببعثته ﷺ فحطم الأصنام كما أنه حطم الشرك، وأنقذ الله - ﷻ - به من شاء من عباده من الشرك وهداهم إلى صراط الله المستقيم، وينبغي أن يستشعر المسلم عِظَم هذه النعمة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، مَنَّةٌ من أعظم المنن وأجلّها أن بعث فينا - ﷻ - هذا الرسول الأمين - صلوات الله وسلامه عليه -.

قال: «أرسله الله إلي أناسٍ» - وانتبه إلي هذه الفائدة العظيمة - قال: «أرسله الله إلي أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً» هذه كلها أمور كانوا يفعلونها، الذين بعث فيهم ﷺ شأنهم كما وصف شيخ الإسلام ﷻ، كانوا: «يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً»، وأيضاً يعرفون بصلة الأرحام

ويعرفون بإكرام الضيف ويعرفون أيضاً بأخلاق فاضلة ربما لا ترى بعضها في بعض المسلمين، واسمع إلى أحد الشعراء الجاهليين المشركين حيث يقول في أبيات له:

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

وهو شاعر جاهلي!

الآن يوجد في بعض المسلمين من يتلصص على بيوت الجيران حتى ينظر إلى جيرانه، فكان عندهم أمور أخلاق وكرم، عندهم عبادة، عندهم ذكر، عندهم حج يحجون ويلبون ويقفون بعرفة ومزدلفة يقومون بهذه الأعمال.

قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً»

وهذا الذي قال:

وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

هو الذي يقول أيضاً لمعشوقته ومحوبته:

يَا عِبْلُ أَيْنَ مِنَ الْمَنِيَّةِ مَهْرَبِي إِنْ كَانَ رَبِّي فِي السَّمَاءِ قَضَاهَا

فيؤمن بالقضاء، وأن القضاء بيد الله، وأن الله -ﷻ- في السماء، كل هذه يؤمن بها، يؤمن بأن الله في السماء، وأن القضاء -ﷻ- بيده، «إن كان ربي في السماء قضاه»، وعندهم أخلاق، عندهم عبادات، عندهم ذكر لله -ﷻ-، إذا ما هي مشكلتهم -مادام أن هذه الأمور كلها موجودة-؟، وأيضاً يقرون بأن الذي خلقهم ورزقهم وأوجدهم هو الله، ويقرون بأسماء وصفات لله ﷻ يؤمنون بها، ويؤمنون بعلوه على خلقه، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَأَبِي «يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ

الْيَوْمَ إِلَهًا؟»، قَالَ أَبِي: سَبْعَةٌ سِتًّا فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟». قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ^(١)، رب العالمين يقول: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]، كانوا يقولون أن الله في السماء، ويؤمنون بالقضاء، يؤمنون بأن الرب الخالق الرازق، وأيضا يعبدونه ويحجون ويصلون ويقفون بالمشاعر، هذه الأمور كلها يقومون بها.

فالمشركين الذين بعث فيهم ﷺ وبعث في قتالهم يقومون بهذه الأمور، ولهذا نتبه جيدا وأنه يجب على المسلم أن يعرف دين المرسلين ودين المشركين، ومن لم يعرف دين المشركين ربما عمل شيئا من أعمالهم، وهو يظنها أنها من دين المرسلين، وهذا الذي وقع فيه عباد القبور وأرباب الباطل في قديم الزمان وحديثه. قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا؛ ولكنهم...» -هنا تعرف المخالفة التي وقع فيها هؤلاء- «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ﷻ، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله -تعالى- ونريد شفاعتهم عند الله» أي: عندهم عبادة: حج، صدقة، ذكر لله، وأخلاق كالكرم، وصلة أرحام، وعندهم إقرار بأن الرب الخالق الرازق هو الله، وإقرار بالقضاء والقدر، الإيمان بعلو الله على خلقه، أمور موجودة؛ لكن المشكلة التي بعث النبي ﷺ لكشفها وبيان بطلانها وتحذيرهم منها وإنذارهم من مغبتها هي

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣)، وأحمد (٤/ ٤٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥٥)، والبزار (٣٥٨٠)، وإسناده جيد.

هذه، قال: «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده».

«نريد منهم التقرب إلى الله» أي: نريد منهم أن يقربونا من الله؛ لأن منزلتهم عند الله أعظم من منزلتنا، ونحن عندنا تقصير وعندنا خطأ وعندنا خلل عندنا ذنوب، وهؤلاء لهم مكانة عند الله ولهم منزلة ولهم قدر عند الله - ﷻ -، فنحن نريد منهم أن يقربونا إلى الله، قال الله ﷻ عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، هذا هو قصدنا، قصدنا من عبادتهم ودعائهم وسؤالهم والتوجه إليهم أن يقربونا إلى الله، هذا معنى قوله: «يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله».

والأمر الثاني: قال: «ونريد شفاعتهم عنده»، مثل ما قال الله ﷻ عن المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، قالوا: نحن نريد شفاعتهم عنده؛ أي أن يشفعوا لنا عند الله - ﷻ -؛ ولهذا يتجهون إليهم مباشرة: (مدد يا فلان)؛ (ادركني)؛ (الحقني)؛ (اشفع لي)؛ (أعطني)؛ (إن لم تنقذني من الذي ينقذني)؛ (إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي)؛ (مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم)؛ إلي غير ذلك من الكلام، التجاء إلي مخلوقين لله - ﷻ - بقصد أن يقربوهم إلى الله - ﷻ -، وبقصد أن يكونوا شفعاء لهم عند الله - ﷻ -.

قال: «مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين»، والشيطان وجد هذا هو المدخل الأبلغ تأثيراً في نفوس الناس، لأن مكانة الأنبياء والصالحين والملائكة مكانتهم في قلوب الناس عظيمة ومنزلتهم عالية فدخل من هذا المدخل،

وهو أمر محبب إلى نفوس الناس وهو محبة الصالحين ومكانته، قال: «مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين»، وفي الشرح يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله، يقول: «وأهم شيء معرفة دين المرسلين فيتبع، ومعرفة دين المشركين والشیاطين فيجتنب، فإن من لم يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام، وللشيخ -يعني محمد بن عبد الوهاب رحمته الله - مؤلف في مسائل الجاهلية»^(١).



(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ٣٢).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فبعث الله تعالى محمداً ﷺ يجدد لهم دينهم دين أبيهم إبراهيم، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله تعالى، لا يصلح منه شيءٌ لغيره لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، وإلا فهو لاء المشركون يشهدون أن الله الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن والأراضين السبع ومن فيها، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره».

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- بعد أن بدأ بالمقدمة التي مرت معنا في كتابه (كشف الشبهات)؛ والتي أوضح فيها اتفاق النبيين على الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وإخلاص الدين له، وكسر الأصنام وتحطيمها، وكسر صور الصالحين التي يتعلق بها من أشرك بغير الله ﷻ، وأن من أرسل فيهم هؤلاء الأنبياء أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً لكنهم جعلوا بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ﷻ تقربهم بزعمهم إلى الله زلفى وتكون لهم شفعاء عند الله ﷻ فيقول ﷻ: «فبعث الله محمداً ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم»؛ لأن العرب كانوا على دينه، وكانوا حنفاء على دين أبيهم إبراهيم -عليه صلوات الله وسلامه- إلى أن حصل فيهم التحول من التوحيد إلى الشرك؛ بسبب عمرو بن لُحَي الذي سَيَّب السوائب وغير دين إبراهيم.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ

يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ»^(١) وَغَيْرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وَالَّذِي جَاءَ بِالْأَصْنَامِ مِنْ جَدَّةٍ وَنَشَرَهَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَتِهَا وَالْإِعْتِقَادِ فِيهَا، فَتَحَوَّلُوا مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشِّرْكِ، فَبُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِإِعَادَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ، لِإِعَادَتِهِمْ إِلَى الْإِعْتِقَادِ الصَّحِيحِ الَّذِي هُوَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ إِمَامِ الْحَنَفَاءِ - عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ -.

قال: «يَجِدُّ لَهُمْ دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ»، وَالتَّجْدِيدُ يَكُونُ لَمَّا أُنْدِرِسَ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَلَمَّا غُيِّرَ وَبُدِّلَ مِنْهُ، بِأَنْ يَبِينَ لَهُمْ الْحَقُّ التَّوْحِيدَ الْخَالِصَ وَالْإِيمَانَ الصَّافِيَ وَيَحْذَرَهُمْ ﷺ مِنَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ ﷻ.

قال: «وَيُخْبِرُهُمْ» أَي: يُخْبِرُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ ﷺ «أَنْ هَذَا التَّقَرُّبُ وَالْإِعْتِقَادُ» أَي: الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ فِي الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَمَا يَصْرِفُونَهُ لَهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّقَرُّبَاتِ وَأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، مِنَ النَّذْرِ وَالذَّبْحِ وَالِدُعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ: «يُخْبِرُهُمْ أَنْ هَذَا التَّقَرُّبُ وَالْإِعْتِقَادُ مُحَضُّ حَقِّ اللَّهِ» أَي: خَالِصٌ وَحَقُّ اللَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ شَرِكَةٌ، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ حَقُّ اللَّهِ - ﷻ - وَحْدَهُ، فَبُعِثَ ﷺ لِيَبِينَ لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي يَمَارِسُونَهَا مَعَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ هِيَ حَقُّ اللَّهِ ﷻ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ أَيُّ أَحْقِيَّةٍ فِيهَا سِوَاكَ كَانَتْ صُورَ صَالِحِينَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا مُحَضُّ حَقِّ اللَّهِ؛ أَي: حَقُّ خَالِصٍ لِلَّهِ ﷻ، لَا يَسْتَحِقُّهَا أَيُّ مَخْلُوقٍ كَائِنًا مِنْ كَانَ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ وَلَا وَلِيٌّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَلَا صَالِحٌ مِنَ الصَّالِحِينَ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ، هَذِهِ أُمُورٌ لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا الْخَالِقُ الْعَظِيمُ وَالرَّبُّ الْجَلِيلُ - ﷻ -.

«أن هذا التقرب» أي: الأعمال التي يقدمونها للأصنام متقربين بها إليها، من أجل أن تقرّبهم إلى الله ﷻ من ذلكم الذبح والنذر والدعاء والاستغاثة وغير ذلك، «والاعتقاد» أي: اعتقادهم في هذه الأصنام أنها وسائط بينهم وبين الله تقرّبهم إلى الله ﷻ وتدنيهم منه، فهم يعتقدون فيها ذلك؛ ولهذا يدعونها وينذرون لها ويذبحون لها ويصرفون لها أنواعاً من العبادات بهذا الاعتقاد الذي قام في قلوبهم تجاه هذه الأصنام.

قال: «لا يصلح منه» - أي التقرب والاعتقاد - شيءٌ لغير الله، لا يصلح شيء منه لغير الله؛ أي: أنه حق الله ﷻ، وهنا أيضاً يُنبّه إلى أنه لا يشفع لمن يقدم هذه الأعمال التي لا تصلح إلا لله لغيره، لا يشفع له أن يسميها أو يسميها له أشياء غير اسمها، كأن يدعو غير الله ويستغيث بغير الله، ويطلب المدد والعون من غير الله، ويقول: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، فهذا لا يشفع له، لا يشفع له صرف حق الله لغيره تحت مسميات أيّاً كانت، كما نبّه العلماء - رحمهم الله - في هذا المقام: (تغيير الأسماء لا يغير الحقائق والمسميات)، وعبر التاريخ يمكر أهل الباطل بالناس مكرًا كُبَارًا من هذا الباب، يغيرون أسماء المحرمات الشرعية والمناهي في الكتاب والسنة، بأسماء أخرى حتى تنفّق عند الناس وعند الجُهاال، وهذا كثير جداً كتسمية الربا بالفوائد، وتسمية الرشوة بالإكرامية، وتسمية المخدرات والمسكّرات بالمشروبات الروحية، إلى غير ذلك من الأسماء التي يُمكن أصحاب الباطل بطرحها للباطل في نفوس الناس، فالشاهد أن تغيير الأسماء لا يغير الحقائق، وهؤلاء وإن سمو أعمالهم شفاعاة أو توسلاً أو نحو ذلك من الأسماء هو في الحقيقة شرك بالله،

اسمه الشرعي؛ واسمه الحقيقي الشرك بالله، ومن يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويصرف أنواعاً من العبادة لغير الله، اسم عمله الشرك، هذا هو اسمه، ولا يتغير عن حقيقته وإن سمي توسلاً أو سمي شفاعاً.

قد قال المشركون قديماً - كما ذكر الله عنهم في القرآن - قال ﷺ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهذا القول لا يسوِّغ لهم هذا الباطل، ولا يزال أهل الضلال والانحراف في هذا الباب يسمون هذه الأعمال الشركية والممارسات الشركية توسلاً أو شفاعاً أو نحو ذلك من الأسماء.

قال: «لا يصلح منها شيء لغير الله، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل» خص بالذكر الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين؛ لأنهم أفضل خلق الله، أفضل عباده، ملائكته المقربون وأنبيائه المرسلون هم أفضل خلق الله ﷺ، وأفضل عباده، فإذا كان هؤلاء الصفوة وهؤلاء العباد المصطفون لا أحقية لهم في العبادة ولا في شيء منها، فإن غيرهم من باب أولى قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهؤلاء الصفوة من عباد الله ﷻ لا يستحقون من العبادة أي شيء، فغيرهم من باب أولى وأحرى؛ ولهذا فإن الشيخ - رحمه الله تعالى - عقد في كتابه التوحيد بابين متتاليين:

الأول: بين فيه أن الأنبياء لا يستحقون شيئاً من العبادة.

وبالباب الآخر: بين فيه أن الملائكة لا يستحقون شيئاً من العبادة.

باب قول الله تعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]،

والباب الثاني: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣].

يَبْنِي فِي الْأَوَّلِ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْعِبَادَةِ أَيُّ حَقٍّ، وَأُورِدَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ لِنَبِيِّهِ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وَأُورِدَ مِنَ النُّصُوصِ وَالشُّوَاهِدِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَأُورِدَ أَيْضًا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ خَرَّتِ الْمَلَائِكَةُ صَعِقَةً خَضَعَانًا لِقَوْلِهِ ﷻ، حَتَّى إِذَا زَالَ الْفَزَعُ عَنْ قُلُوبِهِمْ أَيُّ قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ، ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ [سبا: ٢٣] فَهَذَا يَبِينُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مَعَ كِبَرِ خَلْقِهَا وَشِدَّةِ قُوَّتِهَا لَا تَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادَةِ أَيُّ شَيْءٍ، وَشَأْنُهَا مَعَ اللَّهِ ﷻ هُوَ هَذَا أَنَّهَا تَفْزَعُ وَتَخْرُ صَعِقَةً وَلَا تَمْلِكُ مِنْ أَمْرِهَا وَأَمْرٍ غَيْرِهَا شَيْءً، الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﷻ، وَهَكَذَا الشَّأْنُ فِي الْأَنْبِيَاءِ، وَإِذَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونَ وَالْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ لَا يَسْتَحِقُّونَ مِنَ الْعِبَادَةِ أَيُّ شَيْءٍ، فَإِنْ غَيْرَهُمْ مِنْ بَابٍ أَوْلَى وَأَحْرَى، قَالَ: «لَا لِمَلِكٍ مُقْرَبٍ وَلَا لِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا».

قَالَ: «وَالْأَفْهَوْلَاءُ الْمُشْرِكُونَ» أَيُّ: الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ ﷻ مُقَرَّرُونَ «يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ وَحْدَهُ»، هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مُقَرَّرُونَ أَيُّ: مُقَرَّرُونَ لِلَّهِ ﷻ بِالرَّبُوبِيَّةِ، مُقَرَّرُونَ لَهُ بِذَلِكَ، التَّفَرُّدُ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَإِذَا سَأَلُوا مِنْ خَلْقِكُمْ؟ مِنْ خَلْقِ السَّمَاءِ؟ مِنْ خَلْقِ الْأَرْضِ؟ مِنْ خَلْقِ الْجِبَالِ؟ مِنْ خَلْقِ الْأَنْهَارِ؟ مِنَ الَّذِي بِيَدِهِ أَرْزَمَةُ الْأُمُورِ؟ كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُونَ: اللَّهُ، فَهُمْ مُقَرَّرُونَ لِلَّهِ - ﷻ - بِالرَّبُوبِيَّةِ، وَيَشْهَدُونَ أَنَّهُ - ﷻ - رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتَحْيِي وَتَمِيتُ

وتتصرف في هذا الكون، لا يعتقدون ذلك، يعتقدون أن هذا كله بيد الله ﷻ، يقرُّون بذلك، والآيات على ذلك كثيرة وسيأتي بعضها عند المصنّف - رحمه الله تعالى - .

مُقرُّون «يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن، والأراضين السبع ومن فيهن؛ كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره»، هذا من الأمور التي يعتقدونها المشركون الذين بُعثَ فيهم ﷺ، يعتقدون ذلك كله؛ بل وأيضاً - وهذا نبه عليه المصنّف قريباً - يعبدون الله: يحجون ويتصدقون ويصلون الأرحام ويطعمون الطعام ويتصفون بأخلاق فاضلة، عندهم مثل هذه الأشياء، ومشكلتهم - كما نبهنا على ذلك - في توحيد العبادة، لا يجعلونه خالصاً لله، نعم يعبدون الله؛ لكن لا يجعلون العبادة خالصة لله - ﷻ -؛ بل يجعلون مع الله الشركاء في العبادة، ولا يجعلون مع الله الشركاء في الربوبية، الربوبية يرون ويعتقدون أن الله هو المتفرد بها، إذا قيل لهم من خلقكم؟ يقولون الله، لا يقولون الله والأصنام، من يرزقكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يحييكم ويميتكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يدبر الأمر؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام.

وإذا قيل لهم من تعبدون؟ ومن تلجؤون إليه في دعائكم وسؤالكم، وفي طلبكم؟ لا يقولون: الله والأصنام!

وهذا سيأتي دلائله وشواهد من القرآن، أما في توحيد العبادة من تعبدون؟ لا يقولون الله وحده، كما يقولون ذلك إذا قيل: من خلقكم؟ من رزقكم؟ من

يحييكم؟ من يميّتكم؟ يقولون الله وحده، لا يقولون: الله والأصنام، فإذا قيل: من تعبدون؟ يقولون الله والأصنام.

ومر معنا الحديث: «يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟»، قَالَ أَبِي: سَبْعَةٌ سِتًّا فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟»، قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ^(١).

ولو قيل لهذا: كم خالق لك؟ كم رازق لك؟ كم مدبر لأمرك؟ ماذا يقول؟ يقول: واحد، الذي في السماء هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يدبر الأمر؛ لكن العبادة هي التي عندهم فيها خلل، والخلل الذي وقع فيه هؤلاء في باب العبادة من جهة اعتقادهم أن هذه الأصنام وسائط بينهم وبين الله ﷻ تقربهم إلى الله، مثل ما يفعل سواء بسواء عُبَادُ الْقُبُورِ الَّذِينَ يَعْكِفُونَ عِنْدَهَا وَيَذْبَحُونَ لَهَا وَيَنْذِرُونَ لَهَا النَّذُورَ وَيَكُونُ عِنْدَهَا وَيَتَذَلَّلُونَ وَيَخْشَعُونَ وَيَخْضَعُونَ، فإذا قيل لهم لماذا هذه الأعمال؟ يقولون: هؤلاء لهم مكانة عند الله ومنزلة عند الله ونريد أن يقربونا إلى الله زلفى، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

قال: «يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي إلا هو، ولا يميّت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو»، لاحظ عبارة الشيخ دقيقة، قال: «أن الله هو الخالق وحده»، هكذا يعتقدون أن الله الخالق وحده لا شريك له؛ أي لا شريك له في الخلق، حتى إنهم كانوا يقولون في تلييتهم في تقرير هذه الحقيقة،

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣)، وقال: هذا حديث غريب، وأحمد (٤/ ٤٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥٥)، والبزار (٣٥٨٠)، وإسناده جيد.

كانوا يقولون في حجهم وفي تلييتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»^(١)؛ أي: أن هذا الذي نعبد معك ونتخذ شريكاً لك هو مملوك لك، أنت تملكه وهو لا يملك، هكذا يعتقدون، يعتقدون أنها مملوكة لله، مخلوقة لله، وأن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر هو الله وحده - ﷻ - لا شريك له، أيضاً السماوات ومن فيهن، الأرضون ومن فيهن كلهم عبيد لله ﷻ وتحت تصرفه، وقوله: «كلهم عبيده» المراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الذل والخضوع لأمر الله ﷻ، وقضائه وقدرته - ﷻ - لهم شاملة، ومشيتته فيهم نافذة، وهم طوع تسخير وتدييره، له الأمر - ﷻ - من قبل ومن بعد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكلهم عبيد الله أي: تحت تصرفه وتدييره، لا خروج لأحد منهم عن تدبير الله ﷻ وتسخير سبحانه، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

قوله: «وتحت تصرفه وقهره» توضيح لقوله: «كلهم عبيده» أي: أنهم ممالك له مربوبون مسخرون يتصرف فيهم - ﷻ - كيف يشاء ويحكم - ﷻ - فيهم بما يريد، لا راداً لحكمه ولا معقب لقضائه ﷻ.



(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٢٠٣)، و«البداية والنهاية» (٢/٢٣٧).

[المتن]

قال: «إِذَا أُرِدْتَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [وَاسْتَحْلَ دِمَاءَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ وَسَبَى نِسَاءَهُمْ] يَشْهَدُونَ بِهَذَا، إِذَا أُرِدْتَ الدَّلِيلَ فَاقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [يونس: ٣١]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٨٥ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ ٨٧ ﴿قُلْ مَنْ يَدْبِرُ الْمَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٨ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ٨٩ ﴿[المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ».

[الشرح]

جادة الشيخ رحمه الله هي جادة أهل السنة والجماعة: اتباع الدليل وقفو النصوص، ولا يقول ما يقول إلا مستنداً على دليل، ولهذا درج أهل السنة في كتب الاعتقاد وعموم ما يؤلفون ذكر الحكم أو الأمر مضمون إلى دليله من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، خلافاً لما عليه أهل الأهواء وأهل الباطل الذين لا تراهم يعولون على كتاب الله ولا على سنة نبيه ﷺ؛ بل يتخذون لأنفسهم مصادر شتى ومنابع مختلفة عنها يأخذون اعتقادهم ويتلقون دينهم، أما أهل السنة فاتخذوا إمامهم كتاب الله وسنة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، فلما ذكر هذه الحقيقة في شأن المشركين أنهم يشهدون أن الخالق وحده الله، الرازق وحده الله، المحي هو الله، المميت هو الله لا

شريك له في شىء من ذلك، قال: إذا أردت الدليل على أن المشركين يشهدون بهذه الأمور اقرأ هذه الآيات، ليس أمراً جاء به من عنده ﷺ أو ادعاه، وإنما أمر هو مقرر في كتاب الله - عز وجل -، «إذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ [واستحل دماءهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم] يشهدون بهذا»، «يشهدون بهذا» الإشارة إلى ما سبق، وهو أنهم يقرون بأن الخالق الرازق المحيى المميت المدبر هو الله، هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد قاتلهم النبي ﷺ، وهنا تعجب غاية العجب إذا علمت أن في أمة محمد ﷺ من يعتقدون أن معنى (لا إله إلا الله): لا خالق إلا الله، وهذا من غاية العجب!، ويثبتونه في كتب تُقرأ وتُحفظ وتُروج بين الناس: أن لا إله إلا الله معناها لا خالق إلا الله!، لو كان معناها لا خالق إلا الله لما نشب قتال ولا وُجد خصومة بين النبي ﷺ وبين المشركين ولم تُرق دماء ولم تذهب أرواح، إذا كان معنى لا إله إلا الله: لا خالق إلا الله، هل يتردد المشركون في قبول ذلك؟، فهذا من غاية العجب!، وهو أمر يأتي التنبيه عليه لاحقاً.

الشاهد: أن المشركين كانوا يعتقدون أن الخالق الرازق المحيى المتصرف في هذا الكون هو الله وحده لا شريك له، والدلائل على ذلك كثيرة، قال: «إذا أردت الدليل على ذلك فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ...﴾ أي: أيها النبي لهؤلاء المشركين، قل لهم: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾»، ماذا سيكون جوابهم؟ «﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾» أي: الله وحده هو الذي تفرّد بهذه الأشياء، تفرّد برزقنا من السماء والأرض، تفرّد بملك السمع والبصر، تفرّد بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي،

تفرد بتدبير الأمور، لا يعتقدون في أصنامهم أنها تفعل بشيء من ذلك أو تقوم بشيء من ذلك، ولهذا قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي: سيقول لك المشركون عندما تسألهم هذا السؤال: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي: الله وحده، فقل لهم حينئذ: ﴿أَفَلَا نُنْقِوُ؟﴾!، مادمتم تعتقدون هذا الاعتقاد وتقررون هذا الإقرار، وتؤمنون هذا الإيمان، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] معنى الآية كما قال ابن عباس وغيره: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ قال ﷺ: «من إيمانهم، إذا قيل لهم: من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون»^(١).

﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: معه في العبادة، فقل لهم: ﴿أَفَلَا نُنْقِوُ؟﴾! أي: ألا تتقون الله!، تعلمون أنه وحده الخالق، وحده الرازق، وحده المحيي، وحده المميت، وحده المدبر للأمر، وتتخذون معه شركاء ألا تتقون الله، قال: ﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوُ؟﴾! أي: أفلا تتقون الله ﷻ وتطرحون هذا الشرك الذي تمارسونه، والباطل الذي تقترفون، وتخلصون لله رب العالمين التوحيد فلا تعبدون إلا إياه ولا تسألون إلا إياه، أفلا تتقون؟!

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٨٤] أي: قل أيها النبي لهؤلاء المشركين الذين يتخذون الأنداد قل لهم: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ من المالك للأرض؟ من المدبر للأرض؟ من الذي سخر الأرض؟، من الذي أوجد الأرض؟، ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: من الناس والدواب

والأشجار والمخلوقات، لمن هذه الأشياء؟ هل هي لهذه الأصنام التي تعبدونها؟
 يقولون: لا، الله، ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٥] هذا جوابهم وهذه عقيدتهم
 وهذا هو إيمانهم وهذا الذي هو يعتقدونه في قرارة نفوسهم كما أخبرنا بذلك رب
 العالمين - ﷺ -، وكما أخبرنا من بعث في هؤلاء محمداً ﷺ رسولاً وبشيراً ونذيراً،
 أخبرنا عنهم - سبحانه - أنهم إذا سئلوا هذه السؤالات يقولون: الله، ﴿ سَيَقُولُونَ
 لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، أين تذكرهم؟! أين تفكرهم في الأمر؟!،
 أين تدبرهم للحقيقة؟!، لماذا تتخذون الأصنام؟! لو تذكرتم قليلاً وتدبرتم الأمر
 قليلاً لوجدتم أن هذه الأصنام لا تستحق شئ من العبادة، الذي يستحق العبادة
 كلها من تفرد بخلق هذه الأشياء، ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ (١٢)
 [البقرة: ٢١-٢٢]، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أي: شركاء في العبادة، ﴿ وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا خالق لكم غير الله، هذا هو معنى الآية، ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾:
 أي: تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله.

قال: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ
 الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِئُكَ ﴾ (٨٧) [المؤمنون: ٨٥-٨٧]
 أي: ألا تتقون الله ﷻ بترك الأنداد والبعد عن اتخاذ الشركاء وأنتم تقرون أن الله ﷻ
 وحده رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ﴿ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ

شَيْءٌ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

قال ﷺ: «وغير ذلك من الآيات»، قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي: كي صرفون عن طاعته -ﷺ- وتوحيده مع إيمانكم وإقراركم واعترافكم بأنه المتفرد بخلق هذه الأشياء وتدبير هذه الكائنات لا شريك له؟!، «وغير ذلك من الآيات» أي الآيات الدالة على إيمان المشركين وإقرارهم بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله -ﷻ- وحده.



[المتن]

قال ﷺ: «إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدخلهم في التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)، كما كانوا يدعون الله - ﷻ - ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله ﷻ ليشفعوا لهم، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل: اللات، أو نبي مثل: عيسى».

[الشرح]

قال: «إذا تحققت» أي: كان عندك علماً متحققاً وأمرًا ثابتاً راسخاً «أنهم مقرون بهذا» أي: مقرون بربوبية الله، وخلقه للمخلوقات، وإيجاده للكائنات، إذا تحققت من ذلك، وأقول هنا مُنبهاً: ومن الذي لا يتحقق من ذلك وآيات الله تُتلى بينة في تقرير هذا الأمر وبيان هذه الحقيقة، قال: «إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدخلهم في التوحيد» أي: هذا الإقرار منهم لله بالربوبية لم يدخلهم في التوحيد، لم يكونوا موحدين بذلك؛ بل وُصفوا مع وجود هذا الإقرار عندهم بأنهم مشركون، ولا يوصفون بأنهم من أهل التوحيد، مع إقرارهم بأنه وحده الخالق، وحده الرازق، وحده المُحيي المميت، يوصفون بأنهم من أهل الشرك، لأن هذا الإقرار وحده لا يُدخل الإنسان في التوحيد، الإقرار لله بالربوبية في الخلق بالإحياء بالإماتة وحده لا يدخل الإنسان في التوحيد، قال: «إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ» والمراد بالتوحيد الذي دعاهم إليه

رسول الله ﷺ «هو توحيد الله في العبادة الذي كان عندهم خلل فيه، فكان يدعوهم إلى ذلك، وكان يقول لهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا»^(١) أي: وحدوا الله ﷻ في العبادة، اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره، اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، قال: «وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة» وهذا أمر ينبّه عليه ويؤكد عليه كثيراً ﷺ فالتوحيد الذي جحدته المشركون هو توحيد العبادة، ليس التوحيد الذي جحدته المشركون توحيد الربوبية؛ بل الشواهد والدلائل كثيرة على أن المشركين مُقَرِّين بتوحيد الربوبية، مُعترفين بأن الرب الخالق الرازق المُنعم هو الله - ﷻ -، مع أن بعض المُنظِّرين لعبادة القبور في زماننا هذا وقبله، يقولون: إن قول المشركين عندما يُسألون من الذي خلقكم من الذي رزقكم، من الذي يحييكم؟ قولهم: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، هذا لا يقولونه على وجه الإقرار، وإنما على وجه المجادلة! وأن المشركين في الحقيقة لا يُقرّون بالربوبية، لماذا؟ لأن التوحيد عند هؤلاء القبوريين هو: الإقرار لله بالربوبية وهو معنى لا إله إلا الله!، وإذا ثبت أن المُشركين مُقَرِّين أصبح توحيدهم وتوحيد المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ سواء، إقرارهم في الربوبية وأما جانب العبادة فهو مُضَيِّع عندهم وعند أولئك، ولهذا حاول بعض مُنظِّري هؤلاء أن يحرفوا في معاني هذه الآيات ودلالاتها؛ من أجل أن يوجدوا فرقاً بينهم وبين أولئك، مع أن الأمر الذي عليه هؤلاء هو الذي

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

عليه أولئك، يقرون الله بالربوبية؛ ولكن جانب العبادة يجعلون مع الله - ﷻ - فيه الشركاء، قال: «وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)» أي: الاعتقاد في الأولياء، الاعتقاد في من يسمونهم بالسَّادة، الاعتقاد في الأشياء؛ في الصالحين، ف«التوحيد الذي جحدوه» أي جحد المشركون هو: «توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)»، مثل أن يقول قائل هؤلاء: «أنا أعتقد في الشيخ فلان، أو أعتقد في الولي الفلاني، أو أعتقد في السيّد الفلاني، أعتقد أنه رجائي وأملّي ومنجدي ومنقذي وشفيعي وواسطي أعتقد ذلك، وبناء على هذا الاعتقاد يوجد التقرب، التقرب إليه بالنذور، بالذبائح بالقرابين، بالبكاء، بالعكوف عند قبره، عند ضريحه بالمناجاة بالطلب، بالتوسلات إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي، إن لم تُنقِني!!، تبدأ هذه الأمور التي تترتب على هذا الاعتقاد، «الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)» أي: الاعتقاد في الأولياء، أو في السادة أو في المقبورين أو في الأضرحة أو نحو ذلك، والذي يُبنى عليه أنواع التقربات كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً، قوله: «كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً» أي: المشركين الذين بُعث فيهم ﷻ «كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً» أي: من الأعمال التي يقومون بها أنهم يدعون الله، يسألون الله، يطلبون حاجاتهم من الله - ﷻ -؛ ولكن هل هذا الدعاء يخلصونه الله؟ أم أنهم يدعونه ويدعون معه غيره؟ يسألونه ويسألون معه غيره؟، يلتجئون إليه ويلتجئون معه إلى غيره؟، ما شأنهم في هذا الباب، قال: «كما كانوا» أي: المشركون الذي بُعث فيهم ﷻ: «يدعون الله ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله ﷻ، أو يدعو

رجالاً صالحاً مثل: اللات، أو نبياً مثل: عيسى، فهنا المشكل: «يدعون الله ليلاً ونهاراً» يتوجهون إلى الله بالدعاء بالسؤال بالطلب بالالتجاء؛ لكنهم لا يُخلصون دعاءهم لله؛ بل يدعون معه إما: ملكاً من الملائكة لأجل صلاحه وقربه من الله، أو رجالاً صالحاً من أجل صلاحه ومكانته، أو نبياً من الأنبياء، هذا الدعاء الذي يوجد عندهم لهؤلاء سببه الاعتقاد، يعتقد في النبي أو الولي أو الملك، ويعظمه تعظيماً لا يليق إلا بالله - ﷻ -، ثم يلتجئ إليه في سؤاله وطلبه ودعائه ورجائه ورغبه ورهبه، قال: «كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً» يدعون الله ليلاً ونهاراً؛ لكنهم لا يُخلصون لله الدعاء، ولهذا نبّه المصنّف قال: «ثم منهم من يدعوا الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله أو يدعوا رجالاً صالحاً مثل اللات»، اللات بالتشديد، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١١) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، اللات بالتشديد، قيل في التفسير: أنه رجل كان المشركون يعتقدون فيه الصلاح؛ لأنه كان من صنيعه أن يُلْتَّ (أصل) العجين، يُلْتَّ السويق للحجاج؛ حجاج بيت الله، فكان يعجن العجين ويلت السويق ويصنعه ويهيأه ويقدمه قِرَىً وضيافةً للحجاج، نوع من الكرم، فكانوا معجبين بهذا الرجل لكرمه وسخائه وبذله، فلما مات عكفوا على قبره وأخذوا يجعلونه وسيطاً وشفيعاً لهم عند الله لقربه بزعمهم عند الله ﷻ^(١).

(١) قال الإمام ابن كثير ﷻ: «وكانت (اللات) صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وحكي عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا

قال: «أو يدعون رجلاً صالحاً مثل: اللات، أو نبياً مثل: عيسى ﷺ» قد قال الله -ﷻ -: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].



(اللات) بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلاً يَلْتُمُ للحجيج في الجاهلية السوق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٥).

[المتن]

قال: «وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى الإخلاص، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]».

[الشرح]

قال: «وعرفت» أيضاً إضافةً إلى ما سبق، وهذه الأمور التي ينبه عليها الشيخ ﷺ إذا عرفت كذا وعرفت كذا، وعرفت كذا، هذه لا بد أن تُضبط، ويُحَبَّذ على طالب العلم أن يحفظها، يحفظ هذه المقدمات، إذا عرفت كذا وعرفت كذا وعرفت كذا؛ لأنها أمور نبّه الشيخ أنه لا بد أن يتحقق الإنسان منها، ويكون متحققاً بها، ويكون منها على يقين وثبات وعلم بها وبأدلتها؛ لأنها إذا ضُبطت هذه الأمور ضبطاً تاماً وعُرفت بدلائلها كانت عمدةً وأساساً لإبطال ما سيأتي من شبهات أهل الشرك والباطل، فهذه أمور ركائز ودعائم وأسس لا بد أن تُعرَف في الكتاب في «كشف الشبهات»، فهذه الشبهات لأجل أن تُكشف وتُبطل لا بد أن تعرف كذا وتعرف كذا وتعرف كذا وتتثبت من كذا وتكون على يقين من كذا، فهذه أمور لا بد منها، ولهذا أُكِّد أن هذه الأمور لا بد أن تضبط ضبطاً جيداً من طالب العلم مع أدلتها، وإذا ضبطت هذه الأمور مع أدلتها، والشيخ لم يستقص الأدلة وإنما أشار إلى البعض، فأنت إذا ضبطت هذه الأمور وضبطت أدلتها تجد أنك محتاجاً إليها فيما بعد في كل كشف شبهة لهؤلاء المشركين؛ لأنك تحتاج فيما بعد في كشف

الشبهات أن تقول: أن من الأمور المتقررة في القرآن كذا، ومن الأمور المتقررة كذا، ومن الأمور المتقررة كذا، والدليل كذا، فيصبح الحق واضحاً وبيّن وشواهد واضحة، وماذا بعد الحق إلا الضلال، فإذا ظهرت هذه الأمور واتضحت ما سواها شبهات لا قيمة لها وقد يُكتفى في إبطالها بتقرير هذه القواعد - كما سيظهر لك هذا فيما بعد - قد يكتفى في إبطال الشبهات بتقرير هذه القواعد؛ لأنه سيتبين من تقرير هذه القواعد وإظهارها وإبرازها بأدلتها أن ما سواها قطعاً باطل، ولكن ما وجه بطلانه؟ وكيف يُكشف؟، تبقى هذه المسألة تفصيلية يتناولها أهل العلم كأن يقول العالم: هذا حديث موضوع لأن في سنده فلان فلا حجة فيه، أو يقول: هذا الحديث ضعيف، أو الذي فهمتموه من هذا الحديث غير مُسلم، ولا يفهم من الحديث كذا، أمور تفصيلية تأتي فيما بعد؛ لكن هذه القواعد هي الأساس في كشف شبهات أهل الباطل، فهذه القواعد لا بد أن تُضبط وأن تكون عند طالب العلم أمور راسخة ثابتة بدلائلها وشواهداها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

قال: «وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى الإخلاص، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]» أي: أن هؤلاء المشركين مع ما كانوا عليه من الإقرار لله بالربوبية وما كانوا عليه من الدعاء؛ دعاء الله وعبادته - لكنهم لا يخلصون لله - مع ذلك قاتلهم النبي ﷺ على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله، فإذا كانت هذه الأمور التي كانوا عليها وأشار إليها الشيخ لم تكن كافيةً ولا منجية لهم؛ بل قاتلهم النبي ﷺ ووصفهم بأنهم كفار وأنهم مشركين - صلوات الله وسلامه عليه -

، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده في آيات كثيرة جداً، دعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ﴾: أي المبنية التي بُنيت لأن تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها الله، ﴿لِلَّهِ﴾: أي: بُنيت لله وحده، يعبد فيها وحده -ﷻ-، ولا يُجعل معه فيها شركاء، وقيل ﴿الْمَسْجِدَ﴾ أي: مواضع السجود، وأعضاء السجود لله، فلا يُصرف شيء من السجود والذل والخضوع إلا لله -ﷻ-، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، و﴿أَحَدًا﴾ جاءت نكرة في سياق النهي فتفيد العموم؛ أي: أي أحدٍ كان، لا تدعوا مع الله أحداً أي أحدٍ كان، لا ملكٌ مقرب ولا نبي مُرسل ولا ولي من الأولياء ولا غيرهم، وكما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿لَهُ﴾ أي: لله، وهذه الآية في سورة الرعد بعد أن ساق -ﷻ- من أول السورة البراهين على تفرد -ﷻ- وحدانيته؛ تفرد بخلق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك، وسعة علمه وإحاطة ملكه وغير ذلك مما ذكر -ﷻ-، ختم ذلك بقوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: المتفرد بهذه الأشياء وخلق هذه الأشياء وإيجادها هو وحده الذي له دعوة الحق، وهو -ﷻ- الحق -ﷻ-، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، والحق اسم من اسمائه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] فالله ﷻ هو الحق، ودعوة الحق ﷻ -ﷻ- فلا يُدعى إلا الله، ولا يُلجأ إلا إلى الله، ولا يصرف شيء من العبادة إلا لله، وصرف شيء من العبادة لغيره شرك بالله ﷻ، وهو أبطل الباطل وأظلم الظلم وأشد الضلال، ﴿لَهُ﴾

دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴿ فِدَعَاؤُهُ وَصَرَفُ الدَّعَاءِ لَهُ، وَالذَّلُّ وَالْخُضُوعُ لَهُ وَحْدَهُ، هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لَذَلِكَ وَحْدَهُ - ﷻ -، وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُ فَلَا يَسْتَحِقُّونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْبِغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤] (١).

(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: فائدة في بيان معنى الرب والإله:

الله ﷻ في القرآن ذكر الرب في مواضع، وذكر الإله في مواضع. خذ مثلاً سورة الناس، يقول ﷻ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣) ﴿النَّاسِ﴾ [الناس] فما الفرق بين رب الناس وإله الناس؟ هل هما بمعنى واحد؟ إذاً يكون الكلام مكرراً أو أنهما بمعنىين فلا بد من معرفة الفرق بينهما، وكثيراً ما يأتي ذكر الرب كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧]، فتكرر لفظ الرب وتكرر لفظ الإله فما معنى كل منهما؟

فالرب معناه المربي لخلقه بنعمه ومغذيههم برزقه تربية جسمية بالأرزاق والطعام، وتربية قلبية روحية بالوحي والعلم النافع وإرسال الرسل.

ومن معاني الرب أنه المالك للسموات والأرض فرب الشيء مالكة والمتصرف فيه، ومن معاني الرب المصلح الذي يصلح الأشياء ويدفع عنها ما يفسدها، فالله ﷻ هو الذي يصلح هذا الكون وينظمه على مقتضى إرادته وحكمته ﷻ.

أما الإله فمعناه المعبود من أله يأله بمعنى عبد يُعْبَدُ فإنه معناه معبود وليس معناه الرب وإنما معناه المعبود والإلهية هي العبادة والوله هو الحب لأنه ﷻ يحبه عباده المؤمنون ويخافونه ويرجونه ويتقربون إليه.

هذا هو معنى الإله فبتبين الفرق بين معنى الرب ومعنى الإله وأنهما ليسا بمعنى واحد ومن قال إنهما بمعنى واحد فقد غلط، والعلماء يقولون إذا ذكراً جميعاً صار الرب له معنى والإله له معنى، وإذا ذكر واحد دخل فيه معنى الرب أما إذا ذكراً جميعاً مثل ما في سورة الناس فإنه يكون للرب معنى وللإله معنى آخر «شرح كشف الشبهات» (ص ٣٦).

[المتن]

قال: «وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون».

[الشرح]

يقول الشيخ رحمه الله إذا عرفت كذا وعرفت كذا وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتل هؤلاء المشركين الذي يقرون بهذه الأشياء ويعبدون الله ويدعونه، قاتلهم النبي ﷺ، وقتاله لهم أمرٌ معلوم، في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفي كتب التاريخ قاتلهم، ودارت بينه وبينهم معارك طاحنة وشديدة، وذهبت أرواح كثيرة من المسلمين ومن الكفار لماذا قاتلهم؟، مع أنهم كانوا يقرون أن الخالق الله الرازق الله المحيي المميت الله المدبر للأمر الله، وكانوا يدعون الله، ويدبحون لله وينذرون لله، قال: «وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله»، ما يُجعل مع الله فيها شريك ولا مقدار ذرة، لأجل ذلك قاتلهم، فهم يقرون أن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، يقرون بذلك ويعبدونه ويدعونه ويسألونه، فالمشرك إذا قيل له هل الله معبود؟، هل الله يُدعى؟ يُسأل؟، هل تدعوه؟ هل تذبح له؟ هل تنذر؟، يقول:

«نعم»؛ لكن لو قلت له: «أنف هذه الأمور عن غير الله»، لا بد أن تنفي هذه الأمور عن غير الله، ولا تكون من أهل الإيمان إلا إذا نفيتها عن غير الله، «لا إله...»، لا بد من النفي، لا توحيد إلا بالنفي، نفي العبودية عن كل من سوى الله، عندما يطلب منه نفي هذه الأمور عن غير الله هنا يقف، لا يتردد المشرك في أن الخالق الله الرازق الله المحيي المميت، ولا يتردد أيضاً في أنه معبود وأنه يُدعى ويُسأل ويطلب منه ويُذبح له ويُنذر، هذا أيضاً لا يتردد فيه؛ لكن إذا قيل له هذه الأمور يجب أن تنفيها عن غير الله هنا يقع، ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]، هُنا الخصومة، ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ﴾ أجعل المعبودات معبوداً واحداً لا ندعوا إلا الله وحده، لا نسأل إلا الله وحده، لا نذبح إلا لله وحده، لا ننذر إلا لله وحده، هُنا الخصومة التي كانت بينهم، ولهذا يقول الشيخ: «قاتلهم - أي النبي ﷺ ليكون الدعاء كله لله^(١)، والذبح كله

(١) وللعلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: تفصيل بديع في شرحه لهذه العبارة:

«الدعاء على نوعين:

الأول: دعاء عبادة بأن يتعبد للمدعو طلباً لثوابه وخوفاً من عقابه، وهذا لا يصح لغير الله وصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج عن الملة، وعليه يقع الوعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: ٦٠].

النوع الثاني: دعاء المسألة وهو دعاء الطلب، أي: طلب الحاجات وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: دعاء الله ﷻ بما لا يقدر عليه إلا هو، وهو عبادة الله تعالى؛ لأنه يتضمن الافتقار إلى الله تعالى، واللجوء إليه، واعتقاد أنه قادر كريم واسع الفضل والرحمة، فمن دعا غير الله ﷻ بشيء لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر سواء كان المدعو حياً أو ميتاً.

القسم الثاني: دعاء الحي بما يقدر عليه مثل يا فلان اسقني فلا شيء فيه.

القسم الثالث: دعاء الميت أو الغائب بمثل هذا فإنه شرك؛ لأن الميت أو الغائب لا يمكن أن يقوم بمثل هذا فدعاؤه إياه يدل على أنه يعتقد أن له تصرفاً في الكون فيكون بذلك مشركاً» [شرح

الله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله» إذا عرفت هذا، وتحققت منه، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام كما سبق إيضاح ذلك، وهذه معاني مهمة جداً ولهذا الشيخ يُبدي ويعيد في هذه الحقائق: «وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام» وعرفت أيضاً: «وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون»، وكأن الشيخ يقول ﷺ لا يمكن أن تفهم التوحيد إلا بمعرفة هذه الحقائق، فلا بد من العلم بهذه الحقائق، وبها تعرف التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون، وهو مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، قال: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله».



[المتن]

قال: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرةً أو قبراً أو جنياً، لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدّمتُ لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)، فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: (لا إله إلا الله)، والمُراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجُهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله»، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].»

[الشرح]

قال ﷺ: «وهذا التوحيد» أي: التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى المشركون من قبوله والإذعان له، «هو معنى قولك: لا إله إلا الله»، فالتوحيد هو مدلول (لا إله إلا الله)، و(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، ولا توحيد إلا بتحقيق هذه الكلمة، و(لا إله إلا الله) قائمة على ركنين: النفي والإثبات، نفي العبودية عن كل من سوى الله أيّا كان، نفيّاً عام للعبودية عن كل من سوى الله، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده، هذا هو التوحيد، ولذلك يجب أن يُعلم أنه لا توحيد إلا بالنفي والإثبات، ولا يكون الموحّد موحداً إلا بهما، وهما: النفي في أول هذه الكلمة والإثبات في آخرها، النفي في أولها للعبودية عن كل من سوى الله، والإثبات في آخر هذه الكلمة

للعبودية بكل معانيها لله وحده، فمن نفى ولم يُثبت لا يكون مَوْحِّدًا، ومن أثبت ولم ينف لا يكون مَوْحِّدًا، من نفى ولم يُثبت يكون ملحدًا، ومن أثبت ولم ينف يكون مشركًا، ولا يكون المرء موحِّدًا إلا إذا نفى وأثبت، إذا جاء بالنفي والإثبات معًا، أرايتم من قال: «أنا أُقِرُّ بأن الله معبود وأعبد وأدعوه وأسجد له وأركع وأذبح له وأنذر، أعتقد ذلك وأفعل ذلك؛ لكن لا أنفي هذه عن غيره»، هل يكون مَوْحِّدًا؟ حاشا وكلاً، لا يكون مَوْحِّدًا، لا بد في التوحيد من النفي، من لم ينفي العبودية عن غير الله لا يكون مَوْحِّدًا، ولو أثبت أن الله معبودا وعبدته دون نفي للعبودية عن غيره لا يكون موحِّدًا، التوحيد لا بد فيه من النفي والإثبات؛ ولهذا يقول الشيخ: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله» ثم أخذ يشرح معنى الإله، ومن وقعوا فيه أو المنظرون في عُبَاد القبور حصل منهم عبث؛ محاولة للتغيير في المعاني، فقالوا: «معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا خالق إلا الله، أو لا رازق ولا مدبر للأمر إلا الله»، يقول الشيخ رحمته: «وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور»، «فإن (الإله) عندهم»، من هم؟ أهل اللسان الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ، أهل اللسان العربي الذين بعث فيهم الرسول ﷺ لما قال لهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا»^(١)، يعرفون معنى (لا إله)، ويعرفون معنى (الإله)، يعرفون معناها جيداً باللسان العربي المبين الذي خوطبوا به، ولو قال لهم: قولوا لا خالق إلا الله تَقْلِحُوا، المسألة تختلف في

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

فهمهم للسان العربي، عن قوله لهم: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»؛ لأنهم يعرفون معنى الإله، (الإله) معناه عندهم -يعني عند أهل اللسان الذي يُقصد بهذه الأشياء- يُقصد بالذل بالخضوع بالدعاء بالرجاء بالانكسار بالتأله،

لِلَّهِ دُرُّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّهِى سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأْهِى

-أي تعبدى- التأله: التعبُّد، والمألوه هو المعبود، ﴿وَيَذَرَكْ وَءَالِهَتَكْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، أي: عبادتك، فأهل اللسان يعرفون ذلك، ولهذا يقول الشيخ رحمته: «فإن (الإله) عندهم -أي عند أهل اللسان العربي الذين بُعث فيهم ﷺ هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور»، هو الذي يُقصد بالذبح والنذر والدعاء والرجاء والسجود والركوع ونحو ذلك من الأعمال لأجل هذه الأمور التي هي طلب الشفاعة والتقرب إلى الله -ﷻ، قال: «هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان مَلَكًا أو نَبِيًّا أو وَلِيًّا [أو شجرة] أو قَبْرًا أو جَنًّا» والمعنى: أن من دعا مَلَكًا أو ذبح له أو نذر له، أو شجرة أو نبيًا أو وليًا فقد اتخذها إلهًا، ولم يصبح من أهل (لا إله إلا الله)، وليس من أهل التوحيد؛ لأنه لا يكون من أهل التوحيد إلا إذا نفى هذه الأشياء عن غير الله -ﷻ، قال: «لم يريدوا» أي: أهل اللسان العربي الذي بعث فيهم ﷺ «لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده»، ولو كانوا يريدون بالإله: الخالق، ولو كان معنى الإله في اللسان العربي: الخالق الرازق لكان الأمر مختلفًا عندما قال لهم ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تَفْلِحُوا»، سيقولون: «لا إله إلا الله»، إذا كان معنى (لا إله إلا الله) أي: لا خالق أو لرازق إلا الله؛ لأنهم هم يعتقدون هذا الأمر، ولا يكون منافيًا لشيء يعتقدونه، قال: «لم يريدوا

أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)» الشيخ يوضح هذه المعاني من خلال وقائع، معاناة ومشاهدة، لأن المشركين في الأزمنة المتأخرة يطلقون على المعبود الذي يصرفون له الدعاء والذبح والنذر: (السيد)، وعندما يقال فلان سيّد أو السيّد فلان أصبح مرتبطاً في قلوبهم -بسبب الباطل الذي اكتنفها- أن له حق في الذل؛ حق في الدعاء؛ حق في الخضوع والرجاء؛ حق في الانكسار والخضوع؛ له حق في هذه الأشياء، سيّد، فالسيد هذه الكلمة أصبح منصباً عند هؤلاء الذين يعبدون القبور ويعبدون الأضرحة والقباب ونحو ذلك وأن السيّد له الأحقية؛ بل ارتقى الأمر ببعض هؤلاء إلى حدّ لم يبلغه المشركون في زمن الرسول ﷺ؛ اعتقدوا في بعض من يسمونهم بالسيد أو السادة أن عندهم تصرف في الكون!، وهذا أمر ما بلغه المشركون!؛ تدبير؛ وإحياء وإماتة، حتى قال بعض المشاهير من دعاة القبور في زماننا، قال: «من الذي يقول أنه المتفرد بالخلق هو الله؟»! يعني معنى كلامه في قول الله -ﷻ-: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] يفهم من الآية، يقول: «الأولياء عندهم قدرة»!، ويقول: «إن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم؛ ولكنهم لا يفعلون ذلك حتى لا تختلط الأنساب»!، من أجل المصالح وإلاّ يقدرّون!! والعياذ بالله، ويقول الله ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يقول: «هذا يدل على أن مع الله خالقين»، هذا ما قاله المشركون، ولو قال هذا القائل هذا الكلام لأبي جهل لأنكر عليه، لأن هذه الأمور متقررة وراسخة وثابتة أن الله -ﷻ- متفرد بها والآيات واضحة في هذا المعنى، فبلغ في بعضهم الأمر مبلغاً لم يبلغه حتى

المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ، وسيأتي عند الشيخ لاحقاً قوله: «تباً لمن كان أبو جهل أعلم منه بالتوحيد».

قال: «فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد)»، و(السيد) هذه الكلمة أصبحت عند أهل القبور تعني ما أشرتُ إليه أن من يُطلق عليه هذا اللقب له حق في الدُّل؛ له حق في الخضوع؛ في الانكسار، حتى إن بعضهم إذا وقف عند قبر من يُسمَّى بالسيد يخضع خضوعاً لا يكون منه في صلاته!، ويبكي بكاءً لا يكون منه عند قيامه بين يدي ربه في الصلاة!، يخضع خضوعاً وذلاً، وهذا مبني على هذا الاعتقاد في هؤلاء، قال: «فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد -أي إلى (لا إله إلا الله) - وهي: (لا إله إلا الله)»، قال: «والمُرَاد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها» المراد من هذه الكلمه معناها لا مجرد لفظها مجرد اللفظ لا يكفي ولا يكون به الإنسان من أهل التوحيد، لا بد من تحقيق الشهادة بلا إله إلا الله، وهذا لا بد فيه من العلم كما قال الله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، في «صحيح مسلم» من حديث عثمان -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، الحق: لا إله إلا الله، ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: معنى ما شهدوا به، فلا بد من العلم بمعناها، «المُرَاد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها»، فمن قال هذه الكلمة وهو لا يفهم معناها لا تفيده، ومن قال هذه الكلمة وهو يفهم منها معنى لا تدل عليه لا تفيده كذلك، فلو قال قائل

معنى لا إله إلا الله أي: أن الله قادر على الاختراع، فلا يكون بهذا الفهم من أهل لا إله إلا الله، أو: «لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله»، لا يكون بهذا الفهم من أهل لا إله إلا الله حتى يفهم معناها ومدلولها الذي دلّت عليه؛ وهو عبادة الله ﷻ وعدم الإشراك به، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] هذا هو معنى لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هذا هو معنى (لا إله إلا الله)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، هذا هو معناها، قال الله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، هذا هو معناها، هذا هو معنى (لا إله إلا الله): أن يُعبد الله ﷻ وحده وأن لا يُتخذ معه شركاء^(١).

(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «وفي وقتنا هذا وجد من يفسّر لا إله إلا الله بأن معناها هو أفراد الله بالحاكمية وهذا غلط؛ لأن الحاكمية جزء من معنى لا إله إلا الله وليست هي الأصل لمعنى هذه الكلمة العظيمة، بل معناها لا معبود بحق إلا الله بجميع أنواع العبادات ويدخل فيها الحاكمية ولو اقتصر الناس على الحاكمية فقاموا بها دون بقية أنواع العبادة لم يكونوا مسلمين، ولهذا تجد أصحاب هذه الفكرة لا ينهون عن الشرك ولا يهتمون به ويسمونهم الشرك الساذج، وإنما الشرك عندهم الشرك في الحاكمية فقط وهو ما يسمونه الشرك السياسي، فلذلك يركزون عليه دون غيره، ويفسرون الشرك بأنه طاعة الحكام الظلمة» «شرح كشف الشبهات» (ص ٤٦).

وَقَالَ الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْعُثَيْمِينَ ﷺ: «هَذَا قِسْمٌ بَاطِلٌ؛ مُبْتَدَعٌ، فَلَمْ يَكُنْ مِمَّا ذَكَرَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَلَوْ كَانَ صَحِيحًا لَقُلْنَا: لَا مُشَاحَّةَ فِي الاضْطِلَاحِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ، لِأَنَّ تَوْحِيدَ الْحَاكِمِيَّةِ يَدْخُلُ ضَمَنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِاعْتِبَارِهِ حُكْمًا لِلَّهِ، وَفِي تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْعَبْدَ مُتَعَبِّدٌ بِهِ، وَمَفْرُوضٌ عَلَيْهِ، إِذَنْ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نَجْعَلَهُ قِسْمًا بِرَأْسِهِ، لِأَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَى كَوْنِهِ قِسْمًا بِرَأْسِهِ أَشْيَاءٌ مُخَالِفَةٌ لِلشَّرْعِ، وَمِنْهَا التَّسْرُعُ بِتَكْفِيرِ الْحُكَّامِ، فَيَقُولُونَ: إِذَا خَالَفَ فِي مَسْأَلَةٍ

قال: «والكفار الجُهَّال يعلمون أن مُراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه»، «الكفار الجُهَّال» أي: الذين بُعث فيهم ﷺ كانوا «يعلمون أن مُراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه»، والدليل على أنهم كانوا يعلمون أن معنى (لا إله إلا الله): إفراد الله بالتعلُّق - يعني بالذل بالخضوع بالذبح بالنذر بالرجاء -، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه يقول الشيخ: «فإنه لما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله»، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تَفْلِحُوا»، فالجواب؟ ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؛ بل أخذوا يتواصون على الصبر على عبادة الآلهة: ﴿وَأَنْطَلَقَ أَلْمَأُ مِّنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]؛ يعني يُدَبِّرْ بكم ويخطط ويُمَكِّر بكم حتى تُحَرِّفُوا عن هذا الدين فانتبهوا وتواصوا بالصبر على عبادة الآلهة، وأيضاً أخذوا يتفاخرون: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبْرَنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢] لولا أن كنا مُتَحَلِّين بالصبر لحرفنا محمد ﷺ عن هذه الآلهة، كل ذلك قالوه عندما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تَفْلِحُوا»، فهموا أن (لا إله إلا الله) إبطال عبادة هذه الأصنام وإخلاص العبادة لله - ﷻ -؛ ولهذا قال ﷺ في آية أخرى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آلَ الْهَتِنَا لَشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) [الصافات: ٣٥-٣٦]؛ لأن (لا إله إلا الله) تعني ترك الآلهة وإخلاص

وَاحِدَةٍ - قَدْ تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ - يَقُولُونَ هَذَا كَافِرٌ، لِأَنَّهُ أَخْلَى بِالتَّوْحِيدِ؛ لِهَذَا وَضَعُوا هَذَا الْقِسْمَ الرَّابِعَ «شَرْحُ الْكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ» (٣/ ٣٤).

العبادة لله - ﷻ -، وأيضاً خذ الدليل على ذلك في قصة النبي ﷺ مع عمه أبي طالب وقد أوردها الشيخ ﷺ في كتابه «التوحيد» في باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لما حضرت أبا طالب الوفاة دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِي حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْهُ».

فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أُولَىٰ لِلَّهِ عِلًّا قُلُوبًا﴾ ﴿وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(١).

إذاً لما قالوا له هنا في هذا المقام: «بل على ملة عبد المطلب»؛ لأن قول النبي ﷺ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تعني إبطال الأصنام وإبطال عبادة ودعاء غير الله - ﷻ -؛ ولهذا قالوا له: «بل على ملة عبد المطلب».

فهل ملة عبد المطلب إنكار وجود الله؟

وهل ملة عبد المطلب إنكار أن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر لهذا الكون هو الله؟

وهل ملة عبد المطلب، جحد أن الله معبود يُعبد ويُصلى له ويُركع ويُسجد
ويُدعى؟

الجواب: ملة عبد المطلب الإقرار بالأشياء المتقدمة واتخاذ الشركاء مع الله
في العبادة، في الدعاء، في الذبح في النذر، ولهذا لما قالوا له هنا في هذا المقام: «بل
على ملة عبد المطلب» أي: في دعاء الأصنام مع الله والذبح لها والنذر لها والتقرب
إليها والمحافظة على هذا الأمر الذي تُنافيه وتبطله (لا إله إلا الله)، ولهذا لما قال
له: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، قالوا له: «بل على ملة عبد
المطلب»، ومات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب، فأبى أن يقول (لا إله إلا
الله)، قال: «فإنه لما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله [تفلحوا]»، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ
إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥].



[المتن]

قال: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكَفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الْكَفَّارِ؛ بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لَشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَالْحَاقِظُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: «لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَدْبِرُ الْأَمْرَ إِلَّا اللَّهُ»، فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالِ الْكَفَّارِ أَعْلَمَ مِنْهُ بِمَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)».

[الشرح]

قال - رحمه الله تعالى -: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكَفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ» جُهَّالُ الْكَفَّارِ - أي الذين بعث فيهم نبينا ﷺ، «يعرفون ذلك» أي: يعرفون معنى (لا إله إلا الله) وأنها تعني: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه: والبراءة منه «فالعجب مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الْكَفَّارِ»، ثم هنا أمرٌ يُستفاد من قول الشيخ: «بَلْ يَظُنُّ... إلخ»، من لم يعرف معنى هذه الكلمة حقيقةً معناها الصحيح الذي دلَّ عليه الكتاب ودلت عليه السنة ويُعرف باللسان العربي وقد فهمه الكفار الذين بُعث فيهم ﷺ، فهو في أحد طريقتين:

- قال: «بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لَشَيْءٍ مِنَ الْمَعَانِي»، هذا مسلك بعضهم يظنُّ أن تحقيق (لا إله إلا الله) هو أن يتلفظ بحروف، هذا هو تحقيقها أن يتلفظ بحروفها دون أن يعتقد القلب بشيء من المعاني!، هذا مسلك من المسالك، (لا إله إلا الله) كلمة تُقال وتردد؛ لكن لا يعتقد القلب لشيء من المعاني!، هذا مسلك من المسالك.

- المسلك الآخر: قال: «والحاذق منهم -أي: الذي يدعي الحذق والفهم والدراية بالأمر- يظن أن معناها: «لا يخلق ولا يرزق إلا الله»».

فمن يجنح عن المعنى الصحيح لـ (لا إله إلا الله) له أحد مسلكين:

(١) إما أن يظن أنها كلمة تُقال دون أن يُعتَقَد أو يعتقَد القلب بشيء من المعاني التي تدل عليها.

(٢) والمسلك الآخر: وهو من يدعي الحذق والفهم من هؤلاء، يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله.

فيقول الشيخ آسفًا على حال هؤلاء، يقول: «فلا خير في رَجُلٍ جُهَّال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله)»؛ جهال الكفار أعلم منه بـ (لا إله إلا الله) لأن الشيخ وضح قريبًا أن جُهَّال الكفار المشركين الذين بعث فيهم ﷺ كانوا يعرفون معنى هذه الكلمة، ولهذا امتنعوا من قبولها واستكبروا عن النطق بها وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ فيتعجب الشيخ ثم يختم بقوله: «فلا خير في رَجُلٍ جُهَّال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله)».



[المتن]

«إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتَ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشُّرْكَ بِاللَّهِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا؛ أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ؛

الأولى: الْفَرْحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تَقَرَّبُهُ إِلَى اللَّهِ كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ، خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللَّهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى -ﷺ- مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

[الشرح]

قال رحمه الله تعالى: - «إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتَ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ».

«مَا قُلْتَ لَكَ»: أي: فيما تقدّم في هذه الرسالة من تمهيدات مهمة وتقديّمات عظيمة، بيّن فيها -رحمه الله تعالى- دين المرسلين، وأنه قائم على توحيد الله ﷻ، إخلاص الدين له، والبراءة من الشرك، وبيّن فيها حقيقة دين المشركين، وأنهم يُقَرُّون بأنّ الخالق الرازق المُنعم المُتصرّف في هذا الكون هو الله، وأيضاً يعبدون

الله ﷻ، ويذكرون الله كثيراً، ويتصفون بصفاتٍ فاضلة؛ كصلة الأرحام وإطعام الطعام وغير ذلك؛ لكنهم لا يُخلصون لله ﷻ العبادة، فلا يُخلصون له الدعاء، ولا يُخلصون له الذبح والنذر؛ بل يجعلون مع الله -ﷻ- في ذلك الأنداد والشركاء، ويزعمون أن اتخذهم لهذه الأنداد من أجل أن تقر بهم إلى الله وأن تكون شافعاً لهم عند الله -ﷻ-، إلى غير ذلك من المُقدّمات والتمهيدات العظيمة التي بدأ ﷻ هذه الرسالة بها.

فيقول هنا: «إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةً قَلْبٍ»، ومعرفة القلب: هي التي يكون فيها قلب الإنسان حاضراً واعياً ضابطاً للأمر، لا أن يكون عند حظ الإنسان من العلوم مجرد السماع دون أن يكون القلب حاضراً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ ولهذا أكد ﷻ على هذا الأمر بقوله: «مَعْرِفَةُ قَلْبٍ»؛ أي: تضبط ذلك بقلبك.

«وَعَرَفْتَ الشُّرْكَ بِاللَّهِ ﷻ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾» [النساء: ٤٨]؛ أي: أن حقيقته اتخاذ الأنداد مع الله، وتسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه، وصرف شيء من العبادة لغيره -ﷻ-، من مات وهو يدعو من دون الله ندّاً دخل النار، فالشرك هو: اتخاذ نِدٍ مع الله ﷻ يُدعى مع الله؛ يُذبح له؛ يُنذر له؛ تُصرف له أنواع العبادة.

«وَعَرَفْتَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاهُ»؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ كما قال ﷻ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ كما قال

- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وهو دين الرسل من أولهم إلى آخرهم: وهذا أمر سبق البيان عليه عند الشيخ -رحمه الله تعالى-.

قال: «وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ فِيهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا» أيضاً إذا عرفت هذه الأمور ثم تتأمل في الوقت نفسه حال غالب الناس وكثير منهم، وأن غالبهم في جهل لهذا الأمر، يجهلون؛ لا يعرفونه؛ ولا يفهمونه، فإذا عرفت ذلك كله؛ أفادك فائدتين، عرفت دين الأنبياء والمرسلين؛ وعرفت الشرك الذي هو ضاده، وعرفت دين المشركين الذي بُعث فيهم النبي ﷺ، ثم بعد ذلك نظرت إلى واقع كثير من الناس وأنهم في جهل من هذا الأمر، لا يعلمون به ولا يعرفونه، إذا عرفت هذه الأمور معرفة جيدة، وألممت بها إلماماً طيباً، يقول الشيخ: هذا يفيدك فائدتين.

قال: «الْأُولَى: الْفَرْحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»، الفائدة الأولى: أن قلبك يفرح بهذا الخير الذي ساقه الله إليك ومنَّ عليك به؛ مع أن أكثر الناس يجهلون، وهنا تظهر قيمة هذا الأمر الذي منَّ عليك به، لو كان هذا الأمر الذي منَّ عليك به أُعطي لكل الناس لكان حقيقاً بك أن تفرح به فرحاً عظيماً فكيف والحال أن هذا الأمر أكثر الناس في جهل عنه وعدم علم به ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، فإذا فهمت هذا الأمر وعرفته وعرفت دلائله وشواهد؛ ورأيت حال كثير من الناس في جهلٍ عظيمٍ به وعدم علمٍ به تفرح بفضل الله وبرحمته، وهنا الفرح لا يُذم ولا يتعارض مع قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]،

هذا فرح بالدين، فرح بنعمة الدين؛ الإيمان؛ التوحيد، ليس فرح أشر وبَطَر وتعال؛ وإنما فرح اغتباط بنعمة الله - ﷻ - وسعادة بها.

قال: «الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ. فِذَلِكَ فَلِيفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]»، وهذا الفرح يُبَاشِر القلب عندما يعي المسلم ويستحضر هذه الأمور الذي مَهَّد بها الشيخ وقَدَّمها، أما من لا يعي تلك الأمور لا يُبَاشِر هذا الفرح قبله، ولا يُخَالِط قلبه؛ لكنَّ من وَعَى هذه الأمور وفهمها ودخلت قلبه وضبطها ثم نظر إلى واقع كثيرٍ من الناس وأكثر الناس وجدهم في جهلٍ بهذا الأمر وعدم علمٍ به يفرح من جهة منه الله عليه - ﷻ - بأن جعله من هؤلاء الذين هُدُوا للطريق القويم والجادة السَّوِيَّة؛ دين الله - ﷻ - الذي رَضِيه الله لعباده.

أرأيت لو أنَّ مُجْتَمَعًا من المجتمعات تعيش أنت فيه سرى فيهم مرضُ فتاك وأضرَّ بهم ضرراً بالغاً وأصبح أكثر الناس طريحي الفراش ويُعانون أنواع الآلام والأسقام من ذلك المرض، ونظرت إلى الناس وإذا بأكثر الناس أَلَمَّ بهم هذا المرض وأضرَّ بهم؛ ثم وجدتكَ في عافية، وجدت أنك عُنِيت وسَلِمْتَ ولم تُصَب من هذا المرض بشيء ولم تتلوَّث منه بشيء فتدرك نعمة الله - ﷻ - عليك، ولهذا يقولون: «بِضِدِّهَا تَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ»، ربما لا تشعر بقيمة الصحة التي تتمتع بها؛ لكنك إذا رأيت المرضى في المستشفيات وأنواع المعاناة التي يُعانون بها تُحس بقيمة الصحة، فقد لا تُحس بقيمة النور وأنت كل ليلة تقرأ كتابك في إضاءةٍ جيدة؛ لكن لو طَفِءَ النور عنك ليلة وأحببت أن تقرأ كتابك كعادتك تُحس حينئذٍ بقيمة النور، ولهذا نبَّه الشيخ على هذا

المعنى بقوله: وعرفتَ حال كثيرٍ من الناس، بعد أن تعرف هذا الخير وهذا الفضل بأدلتِه وبراهينه؛ تعرف حال أغلب الناس وأنهم في جهلٍ من هذا الأمر؛ فتفرح فرحاً عظيماً بأن الله ﷻ صرف عنك هذه الشرور، وهداك لهذا الخير، وله المَنُّ وله الفضل - ﷻ -، وله الحمد أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا، نحمده - سبحانه - حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربنا ويرضى، ونسأله - ﷻ - أن يثبتنا على دينه.

قال: «وَأَفَادَكَ أَيضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ»، تفرح وفي الوقت نفسه تخاف، «وَأَفَادَكَ أَيضًا» هذه الفائدة الثانية، «الْخَوْفَ الْعَظِيمَ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ...»، «أَفَادَكَ أَيضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ» أي: الخوف على هذا الشيء الثمين الذي فزت به ونلتَهُ وأكرمك الله ﷻ بالظفر به وصرت من أهله؛ فأصبحت تُحس أن معك كنزٌ هو أثمن كنز، فيبدأ مع الفرح الذي يُبَاشِرُ قلبك أيضًا يكون معك خوفٌ على هذا الكنز أن يذهب؛ ألا يبقى؛ أن يتبدَّل، والخوف من الشرك من المطالب التي دلَّت عليها النصوص، وأرشدت إليها الأدلة، وفي «كتاب التوحيد» للشيخ - ﷻ - بابٌ عنوانه «الخوف من الشرك»، أورد فيه قول إمام الحنفاء إبراهيم الخليل الذي حطَّم الأصنام بيده وكسرها بيده قوله في دعائه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي ﷺ: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم؟!»^(١).

عن شهر بن حوشبٍ قَالَ: قُلْتُ لِأُمِّ سَلَمَةَ ؓ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟

قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَأَكْثَرَ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟
قَالَتْ «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ»^(١).

فإذا أكرم الله - ﷺ - عبده ومنَّ عليه بمعرفة التوحيد ومعرفة براهينه ودلائله ومعرفة حال الناس وأكثر الناس وإنصرافهم عنه يُفيدة هذا الفرح ويُفيدة أيضاً الخوف العظيم، «الْخَوْفَ الْعَظِيمَ»: أي على توحيده وعلى إيمانه أن يذهب؛ أن يتغير؛ أن يتبدل؛ أن يُبتلى - والعياذ بالله - بشبهاتٍ تخدش توحيده، أو تنقص توحيده، وهي كثيرة جداً في الحياة الدنيا، الشبهات كثيرة؛ الصارفة عن التوحيد والصَّادة عنه، وخاصة في زماننا، مع وسائل الانفتاح الكثيرة التي حصلت، مثل وسائل الاتصال ومواقع التواصل، فكثُرَت الشبهات على الناس؛ مع قلة علمهم بالتوحيد، وقلة فهمهم له، وقلة بصائرهم بدلائله وبراهينه، وجاءتهم شبه جارفة، فهنا يُقال بشكل أكبر ما قيل قديماً: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟! ولكنَّ العجب ممن نجا كيف نجا؟!»^(٢)، الصوارف كثيرة ولا عاصم منها إلا الله - ﷻ -، ولا مُنْجِي منها إلا الله - ﷻ -: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١]، فيكون الإنسان خائفاً على توحيده وعلى إيمانه، وإذا وُجِدَ عنده هذا الخوف على توحيده فإنه لا

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٧٢/٣).

يصنع صنيع كثير من الناسالذي عنده من أسهل ما يكون أن يُخاطرَ بدينه، فيجعل دينه على خطر، وذلك من خلال عدم مبالاته؛ بالسماع لكل أحد؛ ومشاهدة كل شيء؛ والتنقل في المواقع والقنوات ولا يُبالي، وهذه مُخاطرة بالدين، قد قيل قديماً: «إن كنت مخاطراً بشيء فلا تُخاطرَ بدينك»، فدينك أغلى شيء عندك، وأثمن شيء عندك، ومن كان خائفاً على دينه من الذهاب أو التغير أو التبديل لا يُخاطر به، كيف يُخاطر بدينه من عرف قيمته؟! وعرف مكانته وذاق طعمه وحلاوته وفرح به واغتبط، «دخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء؛ فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، قال: تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرأ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرأ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي»^(١).

أي: تبقى تتردد في نفسي الشبهة إلى أن أموت وما خَرَجْتُ، شبهة واحدة!، وهو الإمام الجليل، ثم ترى الأحداث وصغار الأسنان وقليلي العلم والجهال بدين الله يُخاطرون بدينهم ويسمعون لكل أحد!، ويسمعون لكل ناعق!؛ ولهذا تُبتلى كثير من القلوب برُكَّامٍ من الشبهات؛ ورُكَّامٍ من الوسوس والشكوك، والسبب أن صاحبها خاطر بنفسه!، وفتح قلبه لكل أحد يُلقى فيه من الشبهات ما شاء!.

الشاهد: أن مَنْ عرف قيمة الدين والتوحيد وفضل الله - ﷻ - عليه به وهدايته له وانصراف أكثر الناس عنه وجهلهم به يفرح به فرحاً عظيماً وفي الوقت نفسه يُخاف عليه، وَمَنْ كان عنده كَنْزٌ ثمين يخاف عليه فإنه يكون في حياته في مُجاهدة

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢٤٢)، والأصبهاني في

«الحجة في بيان المحجة» (٥٤٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٠).

ببقاء هذا الكنز وعدم ذهابه، ولا ينبغي للإنسان أن يلتفت إلى الأسباب؛ بل يلتفت قلبه ويعتمد ويتوكل على الله - ﷻ -؛ لأنَّ التثبيت بيد الله، والتوفيق بيد الله، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن؛ فيلجأ إلى الله صادقاً أن يُثبَّت قلبه وألاً يُزيغهُ ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]، «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»؛ كان هذا أكثر دعاء نبينا ﷺ، وجاء في وجاء في «الصحيحين»^(١) أن نبينا ﷺ كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»، فيلجأ إلى الله - ﷻ -، ويُجاهد نفسه على معرفة الأسباب الصحيحة، وبذل الأسباب الصحيحة؛ كما قال ﷺ: «أَحْرِضْ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»^(٢)؛ كما قال ﷺ: «اعْمَلُوا فِكْلاً مُيسِراً لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٣)؛ كما قال - ﷻ -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ كما قال - ﷻ -: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

قال: «فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ»، وقد جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَبِينُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ»^(٤)، إذا عرفت ذلك، وعرفت خطورته،

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

وأنه يهوي بالإنسان إلى النار، وربما كلمة قالها الإنسان بلسانه هوى بها في النار سبعين خريفاً -والعياذ بالله-، وأدرك خطورة هذا الأمر؛ يبدأ الخوف يزيد عنده من المخاطرة بالدين والمسارة أو الوقوع في الكلمات التي تخدش في التوحيد أو تنقصه أو تناقضه.

قال: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِالْجَهْلِ»، «يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ»: أي: لا يدري ما تبليغ به الكلمة، أو أنها لا تصل به إلى هذا الموصِل أو هذا الأمر أو هذا القعر من النار أو هذا القدر من العقوبة، قال: «وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعَذِّرُ بِجَهْلِهِ»؛ وذلك لكونه مُفَرِّطاً؛ مُهْمِلاً؛ مُضِيعاً؛ غير مُبَالٍ بدينه؛ ولا مُهْتَمٍّ به؛ ومُخَاطِرٍ؛ ومُعْرِضٍ.

قال: «وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللَّهِ كَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ»، أليس المُشركون حالهم قامت على هذا الظن؟! ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ما قالوا نحن عبدناها لتدخلنا النار! ولنذوق بها عذاب الله وعقوبته! ولنصلى ناره! ولنحظى بسخطه علينا!؛ ما قالوا ذلك؟!، قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، نحن مُرادنا بهذه العبادة وبهذا الدعاء وبهذا الإلتجاء للأصنام من أجل أن تُقَرِّبَنَا إِلَى اللَّهِ!، قد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن المشركون.

«خُصُوصًا إِنَّ أَلْهَمَكَ اللَّهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨]، إذا تذكرت مثل هذا القصص فإنها تزيد الخوف عندك، إذا تذكرت مثل هذه القصص

تزيد؛ ولهذا قال الشيخ: «خُصُوصًا إِنَّ أَلْهَمَكَ اللَّهُ»: يعني عرفت واستحضرت وفهمت، «مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ» كانوا أهل صلاح وعلم، وكانوا مَضُومًا مع موسى ﷺ وصبروا على البلوى معه، «أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ» بعد أن مروا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم، مروا على قوم عندهم أصنام وهم عاكفون عليها فنظروا إليهم ومروا بهم فجاءوا إلى موسى ﷺ يُطَالِبُونَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، كانوا أهل صلاح وأهل علم وعرفهم التوحيد وشرحه لهم وبينه لهم ويمشون مع نبي!، ثم مروا بأصنام عليها قوم عاكفون فأعجبهم هذا الأمر!؛ ولهذا طالبوا قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، مثل هذا حُذَاء الإسلام في قصة حديث أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلَّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرَكُبَنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(١)، ولعلك هنا تدرك أن المرور على عبَاد الأصنام والأوثان والأضرحة والقباب قد يؤثر على الإنسان الذي عنده شيء من العلم بالتوحيد، وقد يؤثر عليه ويلوث قلبه ويدخل عليه شيئًا من الشبهة، وهكذا الحال فيمن يمر من خلال المواقع الانترنت والقنوات الفضائية على مثل هذه الأعمال والصنائع، وربما زُخرف الأمر وزُيِّن وأُظهِرت المحاسن والثمار المُدَّعات فينصرف قلب الإنسان عن التوحيد إلى مثل هذه الأعمال الشركية والعياذ بالله، وكم من إنسان

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)،

وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

حصل له مثل ذلك أو شيء منه بسبب مثل هذه المخاطرة؛ ولهذا يجب على كل إنسان ناصح لنفسه أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن يغلق على نفسه باب خطورة القنوات ومواقع الانترنت على نفسه وعلى أهله وعلى ولده وأن يكون من ذلك على حيلة وحذر، قال: «فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ» إذا استحضرت مثل هذه الأمور «يَعْظُمُ خَوْفُكَ» أي: على توحيدك وعلى إيمانك، قال: «وَحِرْصُكَ» أي: يعظم حرصك؛ لأنه كلما زاد الخوف على الشيء الثمين زاد الحرص عليه، وكلما رُخِصَتْ قيمة الشيء الثمين في نفس الإنسان قلَّ حرصه عليه، قال: «يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ»، وهنا ينبه الشيخ أنك لا تكتفي بمجرد الخوف؛ بل ينبغي أن يكون لهذا الخوف ثمرة وهي: الحرص، وينبغي أن يكون لهذا الحرص ثمرة وهي: بذل الأسباب في كل ما يخلصك من هذه الأمور وينجيك منها؛ ولهذا أقول: ينبغي عليك أن يكون أحرص ما ينبغي أن تحرص عليه في هذه الدنيا التوحيد، وأخوف ما ينبغي أن تخاف منه في هذه الحياة الدنيا الشرك، فليكن التوحيد أعظم أمر تحرص عليه، وليكن الشرك أعظم أمر تخاف منه؛ لأن صلاحك في دنياك وأخراك في التوحيد، وخسران الإنسان في دنياه وأخراه: الشرك بالله، قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤] أي: في دورهم الثلاثة في الدنيا والقبر ويوم القيامة^(١).

(١) كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط؛ بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب؟» [الجواب الكافي] (ص ٥١).

[المتن]

قال: «وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ- مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ».

[الشرح]

ثم قال -رحمه الله تعالى-: «وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ- مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً»، وهذه مسألة مهمة وعظيمة في هذا الباب ينبغي على طالب العلم وطالب الهدى والحق أَنْ يَعِيَهَا وَأَنْ يَفْهَمَهَا، لم يبعث الله نبيًّا في هذا التوحيد إِلَّا جعل له أعداء، ليس جَعَلَ الأعداء للأنبياء من هَوَانِ الأنبياء عند الله؛ ولكن لِيَتَلِيَ أنبياءه ولتعلوا مقاماتهم عند الله ﷻ وترتفع درجاتهم بصبرهم على دين الله وصبرهم على الدعوة إلى توحيده ومكابدتهم في هذا الأمر، وبذلهم الجهود المتواصلة والتضحيات البالغة والجهد العظيم في نصرته التوحيد وحماية حماه والسعي في نشره، ورد الشرك بما يكون لهم علو المرتبة ورفعة الدرجة وعلو المنزلة.

الله ﷻ ابتلاهم بتسليط الأعداء عليهم من أجل رفعة درجاتهم عند الله وذلك بالصبر والمصابرة؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْرِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

الشيخ رحمه الله ينبه على هذه المسألة العظيمة أنه ما بعث الله نبيًّا بهذا التوحيد إِلَّا

جعل له أعداء، وكلما كان الإنسان أقرب للأنبياء وأتبع لهم وألزم لطريقهم أصيب من هذه المُعاداة بقريب مما أصيب به الأنبياء، وأعظم الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

قال: «كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]»، قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ هذا فيه أن ما من نبي بعثه الله إلا وله أعداء، من هم أعداؤه؟ قال رب العالمين: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، قال بعض أهل العلم: «قُدِّمَ ذكر شياطين الإنس على شياطين الجن في هذه الآية الكريمة؛ لأن شيطان الإنس يأتي بهيئة واضحة بهيئة ظاهرة هيئة الناصح المشفق المُحب للإنسان الخير، مما يكون سبباً لانخداع كثير من الناس»، أليس فرعون قال لقومه وهو الذي يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]؟، أليس قال لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]؟، حتى إن أحد الوُعَاظ ذكر أنه عَلِقَتْ في ذهنه هذه الكلمة: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقال للناس وهو يعظهم: «لا أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح!»: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، عَلِقَتْ في ذهنه ورودها في القرآن وهي كلمة جميلة ولا يقولها إلا إنسان صالح ناصح؛ لكنه نسي وهو يُوردها للناس أنها من قول الطاغية فرعون!، يذكر أنها في القرآن هذه الآية: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، من الذي يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إلا الإنسان الصالح الناصح، ولهذا هذا الواعظ علق في ذهنه ورودها في القرآن فقال

للناس في موعظته لهم: «ما أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح!»: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، فشياطين الإنس يأتون بمثل هذه الهيئة، ولهذا قال الله عن فرعون: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، يستخف الناس بمثل هذه الكلمات؛ بمثل هذه الألفاظ؛ بمثل هذه الزخرفة - كما سيأتي في تمام الآية - قال: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] «هذه بضاعتهم؛ بضاعة مُبْطِلَة في كل زمان وأوان الزخرفة؛ زخرفة الباطل، والزخرفة هي تزيين الشيء وتنميقه وهي إظهاره بالصورة الجميلة، وزخرفة الباطل: بأن يُظْهَر للناس في صورة الحق وبالصورة الطيبة الجميلة.

قال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: الذي يَغُرُّ الإنسان ويوقعه في الهلكة بسبب ما احتَفَّ به من تزيين وزخرفة وتنميق وتجميل؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يحرص على الحق وأن يحذر من الباطل وإن زخرفه المبطلون.



[المتن]

قال: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتِبَ وَحُجِّجَ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣].»

[الشرح]

قال: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ»، وهذه أيضاً مسألة ينه عليها الشيخ رحمه الله مهمة، فقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، فليس من الضروري أن تلقى في من يعادي التوحيد أناساً لا علم عندهم؛ بل ربما تلقى من يعادي التوحيد من هو صاحب علم: إما علم باللغة وأساليبها ودرايةً وعلماً بها أو بالبلاغة والفصاحة وما إلى ذلك، أو يكون عنده علوم عصرية وأمور من ظاهر الحياة الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧]، أو يكون عنده شيء من العلم الذي جاء به المرسلين، كأن يكون عنده علم بالقرآن أو علم ببعض الأحاديث؛ ولكنه ليس من أهلها؛ وإنما حفظها وقرأها ودرسها ليُشَبَّهَ على أهلها، حتى قيل في بعض المستشرقين أنه من شدة حرصه على التلييس على أهل الإيمان حفظ القرآن! حتى يكون مستحضراً له ويحاول أن يثير على طريقة أهل الزيغ كما ستأتي الآية عند المصنف: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] ولهذا ينه الشيخ رحمه الله على ذلك يقول: «وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ» -مثل ما أشرت إليه- إما: علم اللغة، أو علم أمور ظاهرة من هذه الحياة الدنيا، أو أيضاً علم بأشياء من الوحي يتعلمها من أجل أن

يلبس على الناس أو يشكك الناس في دينهم، «عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ»، أحد السلف يقول في الحذير من صاحب البدعة يقول: «لَا تُجَالِسْ ذَا بِدْعَةٍ، فَيَمْرُضُ قَلْبَكَ، وَلَا تُجَالِسْ مَفْتُونًا، فَإِنَّهُ مُلَقِّنٌ حُجَّتَهُ»^(١).

بمعني أنه يأتي مُحَمَّلًا بالشبهات العاصفة والشبهات الجارفة، فقد يأتي ومعه شيء من الكتب أو العلوم أو الحُجَج التي يُدلي بها؛ ولكن هذه التي يحملها هؤلاء في ميزان التحقيق وعند أهل البصيرة في دين الله والرسوخ حقيقتها: ﴿كَرَّابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]؛ ولكنها عند الجهال وقليلي العلم قد تُخْلِل وتُلَبِّس وتُحَرِّف وتُغَيِّر وتُبَدِّل.

قال ﷺ: «كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]»، وهذا هو الشاهد من الآية: ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي عندهم علم!، ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾، قد يكون عنده علم يُجادل به ويُحَاج ويُخَاصِم.



[المتن]

قال: «إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ، تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدِّمُهُمْ لِرَبِّكَ - ﷺ -: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٦ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ١٧ [الأعراف: ١٦-١٧]؛ وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَضْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وَالْعَامِيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جُنَدَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، فَجُنْدُ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسَّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُؤَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ.

وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[الشرح]

قال ﷺ: «إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ» أَي: مَا قَدَّمَ الشَّيْخُ ﷺ ذَكَرَهُ وَتَقْرِيرَهُ، «وَعَرَفْتَ أَنَّ

الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ،
 نعوذ إلى المثال السابق الذي أشرت إليه قريباً: لو كان بيدك كنز ثمين جداً وأنت
 تمشي بهذا الكنز وتعلم أن الطريق الذي تسير فيه وتحمل هذا الكنز فيه أعداء
 كثيرون، وكل واحد منهم يريد أن ينهبه منك وأن يخطفه منك وأن لا يبقيه في يدك
 لحظة!، تمشي وأنت مخاطر بها وإلا تكون شديد الحرص؟، فتوحيد الإنسان أثمن
 شيء، وأمامه أعداء أكثر يريدون خطف هذا التوحيد منه؛ بل قال الإمام ابن القيم
 رحمه الله: «وإذا أردت لذلك مثالا مطابقا: فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع وبينك
 وبينه لحم أو خبز وهو يتأملك ويراك لاتقاومه وهو أقرب منك فأنت تزجره
 وتصيح عليه وهوي يأبى إلا التحوم عليك والغارة على ما بين يديك فالأذكار
 بمنزلة الصياح عليه والزجر له ولكن معلومه ومراده عندك وقد قربته عليك فإذا لم
 يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فراك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه
 فيذهب وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر»^(١)، والأعداء
 الذين يريدون خطف التوحيد من الإنسان منهم: أعداء ظاهرون، وأعداء أخفياء،
 كما قال بعض السلف: «عدو يراك ولا تراه شديد المؤنة» أي الشيطان، فإذا عرف
 الإنسان أن هناك أعداء يمكرون به وقاعدون له في طريقه، قال رحمه الله: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ
 لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرَقِهِ»^(٢)، قاعدٌ لهم في طريقه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ

(١) «البيان في أقسام القرآن» (ص ٢٦٢).

(٢) رواه النسائي (٣١٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٥٢).

فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ إِنْ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

قال: «وَعَرَفْتُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ»، العدو إذا كان مدجج بالسلاح أخطر من العدو الذي ليس معه سلاح، إذا كان عدوك الذي يريد خطف الإيمان منك والتوحيد صاحب فصاحة وعلم وحُجَج فإن هذا أخطر من الإنسان العادي الذي لا علم عنده ولا حجة، والناس يخافون من العدو المحمل بالسلاح أكثر من خوفهم من العدو الذي لا سلاح معه فهذا مما يزيد الحذر والحيطه، قال: «أَهْلٍ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ».

ثم قال - رحمه الله تعالى - ناصحاً ومحذراً قال: «فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ»، هذه نصيحة عظيمة جداً من هذا الإمام - رحمه الله تعالى - : «أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ»؛ لكن إذا مشيت بدون سلاح فأنت على خطر، لاسيما أن طريقك مليء بالأعداء، وسلاحك الذي يشير إليه الشيخ هنا: العلم، العلم: قال الله قال رسوله، تعرف التوحيد وأن تفهمه أن تحفظ أدلته وأن تعتني بدراسته، ودَعَكَ ممن يهونون من شأن التوحيد ومن دروس التوحيد، دَعَكَ منهم، أعط من وقتك التوحيد الشيء الكثير، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْأَيَّتَيْنِ مِنْ آخِرِ ﴿سُورَةِ الْبَقَرَةِ﴾ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»^(١)، قراءتك للآيتين من ﴿سورة البقرة﴾ ولاسيما الآية الأولى منهما تجديد للإيمان،

استذكّاراً له كل ليلة، قراءتك ﴿آية الكرسي﴾ مرات وكرات هذا تجديد للإيمان والتوحيد، فلا يزال المسلم يجدد إيمانه ويجدد توحيده.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيراً: مالي شيء ولا مني شيء ولا في شيء وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت: أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً»^(١)، فيحتاج الإنسان إلى تجديد إيمانه والسعي في تحقيق توحيده وتكميله وتقويته، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(٢).

والشيخ رحمه الله ينصحك أن تكون ذا عناية عظيمة جداً بأمر التوحيد والفقه فيه، وقد جاء في «الصّحيحين» من حديث معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٣)، وقوله ﷺ: «فِي الدِّينِ» يشمل الفقه في التوحيد الذي هو الفقه الأكبر والفقه أيضاً في الأحكام، قال: «فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللَّهِ مَا يَصِيرُ سَلَاَحًا لَكَ، تُقَاتِلَ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ» أي: شياطين الإنس والجن الذين

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٤).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٧٠).

ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة لطيفة بعنوان: «تجديد الإيمان».

(٣) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

مر الإشارة إليهم في الآية، «الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدِّمُهُمْ رَبَّنَا - ﴿٣٦١﴾ - لَا تَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَنْتَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]»، وتأمل هنا قول عدو الله الذي ذكره الله: ﴿لَا تَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فهو أين يقعد وأين يحرص في قعوده؟ في الصراط المستقيم، ولهذا قيل لابن عباس ؓ: أن اليهود تزعم أن الشياطين لا توسوس لهم في صلاتهم، لا تأتيتهم وساوس في صلاتهم!، فقال ؓ: «وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب؟!»^(١)، فقال: ﴿لَا تَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإذا كان الإنسان ماضياً على الصراط أو تائباً مقبلاً على الصراط مثل: الكافر يريد أن يسلم أو العاصي يريد أن يتوب؛ يقعد له ليُشْنِيه عن الدخول فيه إن كان يريد الدخول أو ليُشْنِيه عن الاستمرار فيه إن كان من أهله.

قال: ﴿لَا تَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَنْتَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ... ﴿١٧﴾ وهذا فيه أن مجيء الشيطان للإنسان ودخوله عليه من كل جهاته، فأنت على خطر من جميع الجهات، وينبغي أن تكون على حذر وحيطة في كل الأوقات، عن عبد الله بن عمر ؓ قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمَسِّي وَحِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي،

وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»^(١)، قال: ﴿وَلَا تَحِدْ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِي﴾
وهذا فيه أن أكثر الناس يكونون صرعى لمكر الشيطان وكيدِه ووساوسه، ويسلم
منهم القليل ممن كتب الله - ﷻ - لهم السلامة وكتب لهم النجاة، جعلنا جميعاً
منهم.

قال: «وَلَكِنْ» واسمع هذه الوصية العظيمة: «وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَصْغَيْتَ
إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ»، «إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ» بقلبك وقالبك
صادقاً مع ربك - ﷻ - تَرجو رحمته وتخاف عذابه وتسلم أمرك إليه وتفوض أمرك
إليه وترجو نجاتك وسلامتك منه - ﷻ -: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾
[هود: ٨٨].

«إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ» - ﷻ - صادقاً «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ» جمع لك
في هذه الوصية ﷻ في قوله: «أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَصْغَيْتَ» جمع لك ما جاء في قوله:
«أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»^(٢)، «أَقْبَلْتَ عَلَى اللَّهِ» أي مستعيناً
به متوكلاً عليه ملتجئاً إليه طالباً مده وعونه وهدايته وتوفيقه، «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِهِ
وَبَيِّنَاتِهِ» أي: بذلت الأسباب التي هي تعلم العلم الشرعي ودراسة العلم الشرعي
والفقه في دين الله وملازمة القرآن والسنة علماً وتعلماً تلاوةً واستذكّاراً ومدارسةً،
«فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ» الخوف والحزن إذا جُمعا فإن: الحزن يتعلق بالشيء

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه»
(٣١٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

الماضي، والخوف يتعلق بالشيء المستقبل، فأنت إذا كنت على هذا الطريق ماضياً مستعيناً بالله ﷻ ومقبلاً على حُججه وبيِّناته لا تخف ولا تحزن، وهذا هو شأن أهل الإستقامة الذين نُفي عنهم الخوف والحزن في آيتين من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] أي: أن أهل الإقبال على الله وحسن الإلتجاء إليه وملازمة كتابه وسنة نبيه ﷺ لا سبيل للشيطان عليهم، ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [٦٤] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥].

قال: «وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ»، «الْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ» الذي عرف التوحيد ولزمه «يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ»، قد كانوا قديماً يلقنون العوام في المساجد التوحيد، ويلتزم إمام المسجد تلقين العوام توحيد الله، يلقنونهم التوحيد بحيث أن الإمام في كثير من الصلوات يسأل، يلتفت إلى أحدهم يقول: «اقرأ الدين»، فيبدأ يقرأ، يلقنونه، وإذا وجدوه غير حافظٍ يُعاودونه، كانوا يحفظونهم هذا في الصغر، يحفظونه العوام، فتجد أمور الدين؛ الأصول الثابتة التي جمعها الشيخ -رحمة الله عليه- في كتاب سماه: (ثلاثة الأصول)، وكتبها بعدة صيغ: صيغة للأطفال وصيغة للعوام وصيغة

لطلبة العلم، حتى إن الصيغة التي كتبها للعوام كتبها باللفظة العامة: «إذا قيل لك وش ربك؟ قل: ربي الله» بهذ الصيغة مكتوبة، ويحفظونها العوام؛ لكنهم يفهمون الدين، والذي حفظه في الصغر يكون في عمره الكبير ضابطاً له.

جدِّي -رحمة الله عليه- كنت عنده قبل وفاته بأكثر من شهر، فقال: «الطواغيت كثيرون» وهو كبير في فراشه في فراش المرض، قال: «الطواغيت كثيرون -لا كثرهم الله- ورؤوسهم خمسة: أولهم إبليس -عليه لعنة الله-، وثانيهم كذا وبدأ يعد، قال لي الخامس: نسيت، ذكرني إياه»، قلت له: «من عبد من دون الله وهو راضٍ»، قال: «نعم، هذا طاغوت مُدَلِّدٌ»، طاغوت مدلل يعنى مكشوف، الشيء المدلل: مكشوف من جميع الجهات واضح للناس من جميع الجهات، الحفظ هذا الذي في الصغر وتلقينه للعوام وغيرهم يبقى معه حتى وهو كبير، حتى إذا خرف وكَبُرَ تبقى هذه المحفوظات معه دين ثابت، دين ثابت يبقى معه؛ لكن إذا كان مُهْمَلًا لا يُعَلِّم ولا يُلَقِّن ولا يُدَرِّس تجد قلبه خاويًا من هذه الأشياء وفارغا منها، بينما إذا حَفِظَ لها وَلَقِّنَ إياها وضبطها فمثل هؤلاء العوام -بإذن الله- يُحَفِّظُونَ بحفظ الله -ﷻ- من ضلالات المشركين؛ لأن معه دين يحفظه ويضبطه من صغره، ثابت عنده لا يُساوَم فيه ولا يُنَازَع؛ فأَيُّ أشياء ثابتة يحفظها ويحفظ شيء من أدلتها ولا يُنَازَع فيها، يمشي عليها حياته كلها.

فهنا يقول: «الْعَامِّيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ» العوام الذين حفظوا الدين بتوفيق الله ﷻ وضبطوه وأصبح دينًا ثابتًا عندهم لا يُساوَمون عليه، إذا جاءه أحد من علماء المشركين ويُرِّين له عبادة قبر أو توجهًا إلى

ضريح، يقول له: «هذا من الطواغيت: من عبد من دون الله وهو راضٍ، العبادة لله»؛ لكن إذا كان جاهلاً ولُبِسَ عليه ببعض الشبهات حرفته -والعياذ بالله- عن دين الله ﷻ.

قال: «وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُؤَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [الصافات: ١٧٣]» وهنا ينبغي أن يلاحظ أيضاً تأييد الله لعبده المؤمن ونصره له من كان صادقاً في إيمانه وفي توحيده وفي عقيدته، فإنه يحظى -بإذن الله ﷻ- بتأييد الله له وحفظه له ونصره، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٥١]، فيؤيده الله وينصره ويحفظه، قال: «وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]؛ لأن وليهم الله، وأعداء الدين وليهم الشيطان، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومن كان الله وليه كفاه وأيده ونصره ووقاه.

قال: «فَجُنْدُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسَّانِ»؛ لأن معهم نصر الله وتأييد الله ﷻ وحفظه -سبحانه-.

قال مُحَذَّرًا -رحمه الله تعالى-: «وَأِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُؤَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ»، إذا العامي إذا حَفِظَ الدين ولو شيء مختصر مثل: (الأصول الثلاثة) التي كتبها -رحمة الله عليه- بلهجة مبسطة وبكلمات مختصرة، إذا حَفِظَ وكرّرت معه وأصبحت ثابتة عنده معها شيء من الأدلة -بإذن الله ﷻ- تكون سبب لحفظه وسلامته، «وَأِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُؤَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ

وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ» فهذا فيه تحذير من التخلي عن العلم الذي هو السلاح، «وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»، ونلاحظ هنا ملاحظة مهمة جداً: خصوم الشيخ ﷺ وأعداؤه يزعمون ويدّعون كثيراً أنه جاء بدين خامس وبمذهب جديد واخترع إلى آخره، ونحن نلاحظ الشيخ -رحمة الله عليه- في كل كتاباته لم يربط الناس بشيء اخترعه، ولم يربطهم بشيء أنشأه؛ وإنما كل ربطه لهم بالكتاب والسنة، الآن لما أكد على مسألة السلاح وأن الإنسان معه يكون سلاح، رأساً ربط بالقرآن، ليكون معك سلاح، ما قال: «حافظ على مبادئنا -مثل بعض الطرق-، ولا تضع كلام أسيافنا، ولا تخرج عن (رسومنا)» إلى آخره هكذا يقول دعاة البدع، ما قال ذلك؛ لأنه ليس عنده شيء أنشأه هو، أما أولئك الأشياء التي عندهم هم أنشؤوها أو أسيافهم؛ ولهذا وصاياهم ربط برسومهم وطرائقهم وأسيافهم ومبادئهم إلى غير ذلك، فالشيخ هنا لما أوصى بحمل السلاح، لو كان يحمل مبدئاً أو يحمل أمراً هو أنشأه أو اخترعه لقال في مثل هذا الموضع لما أوصى بحمل السلاح أوصى به؛ لكن قال: «وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا -لما أوصى بالسلاح- بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ»، أي: فحافظ على كتاب الله وحافظ على سنته نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، ولهذا رأيت في هذا الكتاب وفي عامة كتبه لا يذكر شيئاً إلا ويتبعه بالآية والحديث.

قال: «فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيَبَيِّنُ بُطْلَانَهَا»، وهذا قاعدة وتأسيس من هذا العالم المبارك: «لَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي

الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهَا»، ما هناك شبهة تُثار يُناقَضُ بها التوحيد أو يُشَوِّشُ بها على أهل التوحيد إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها؛ لكن هل كل أحد يستحضر ذلك؟ حتى في الأشياء الواضحة، لا فقد لا يستحضرها الإنسان.

أضرب لكم مثلاً: لقيت بعض الطلبة قديماً قبل أكثر من عشر سنوات في الجمهوريات الإسلامية؛ إذربيجان والمناطق التي هناك، فكنت معهم في بعض الدروس فذكرت لهم فائدة وقفت عليها في كتاب (الحُجَّة) للتمييز؛ وهي «قيل: إن بعض الملحدة قال يوماً: أنا أخلق، فقيل: فأرنا خلقك فأخذ لحمًا فشرحه، ثم جعل بينه روثًا ثم جعله في كوز وختمه ودفعه إلى من حفظه عنده ثلاثة أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم، وإذا الكوز ملآن دوداً فقال: هذا خلقي، فقال له بعض من حضر: فكم عدده، فلم يدر، فقال: فكم منه ذكور وكم منه إناث. وهل تقوم برزقه؟ فلم يأت بشيء فقال له: الخالق الذي أحصى كل ما خلق عدداً وعرف الذكر والأنثى ورزق ما خلق، وعلم مدة بقائه وعلم نفاد عمره»^(١)، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] هذا في القرآن، فالخالق يعلم، من لوازم الخلق أن يعلم بمخلوقاته، أما يخلق ولا يعلم ما يمكن!، فأبِن لنا ذلك؟ كم عدد مخلوقاتك؟ السؤال الأول، كم عدد الذكور من الإناث؟ كل واحدة من هذه الدود متى تموت؟ كل واحدة من هذه الدود ما هي أرزاقها وأقواتها؟ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾!.

وهذا موضع الشاهد: ذكرت هذه الفائدة في أحد الدروس، فجاءني أحد الطلبة يُعَظِّم هذه الفائدة تعظيماً ما سمعته! تعظيم شديد، «سبحان الله ما أعظم هذا

الكلام! قال: «هذا أحد الشيوعيين فعله عندنا في الفصل!» يقول: «ونحن نعرف أنه خطأ؛ لكن ما نعرف هذا الكلام، ما هدينا لهذا، ثم يقول: «ليتني عرفت هذا الكلام حتى أقوله!»، إذاً الحجة موجودة، فقد تكون تحفظ أنت الآية حفظاً متقناً؛ لكن ما يحضرك الاستدلال بها، ومعرفة دلالتها، لذلك يقول الشيخ: «فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بَطْلَانَهَا» والشيخ لا يذكر شيئاً إلا بدليله، فقال: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]» ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحجة أو شبهة أو نحو ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهي تفسيره وبيانه»^(١)، وهذا كله في كتاب الله ﷻ قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة أو شبهة أو نحو ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٢).

فإذاً القرآن الكريم كفيلاً بإبطال شبهات المبطلين وأضاليل المضلين، وهذا يقوله الشيخ رحمه الله لك حتى تعتني بالقرآن، ليس المراد بالعناية بالقرآن: حفظ حروفه

(١) «الصواعق المرسله» (١/ ٣٣٠).

(٢) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلًا آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سُور، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٢٢) ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٢٣) [الفرقان: ٣٢، ٣٣]، ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام» «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٩٢).

فقط؛ بل المراد مع الحفظ الفهم؛ فهم معانيه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال أهل العلم: «لا يكون تالياً له حق التلاوة إلا بالحفظ والفهم والعمل»، بهذه الأمور الثلاثة.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فمثلاً: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التزم مع خصومه؛ ومع أعداء التوحيد وأعداء الإيمان أن لا يحتجوا على باطلهم بآية من القرآن إلا ويرد عليهم بالآية نفسها التي احتجوا بها!، وقال: «أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله»^(١)، أي: غير الآيات الأخرى الكثيرة!؛ لكن التزم التزاماً أن أي مبطل يحتج بآية على باطله بآية من القرآن أن يرد عليه بالآية نفسها، وأن يبين بطلان ما هو عليه بالآية نفسها.

ومن تطبيقه العملي لهذا الأمر في صغره رحمه الله: أنه لقي أحد المتصوفة، وقال ذاك المتصوف: «إن من أسماء الله (هُوَ)! هذا اسم من أسماء الله»، قال: «دليل ذلك في القرآن قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]»، فقال رحمه الله: «وَأَغْرَبُ مِنْ هَذَا مَا قَالَهُ: لِي مَرَّةً شَخْصٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْغَالِطِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قَالَ الْمَعْنَى وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ (هُوَ أَيْ اسْمُ «هُوَ» الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: «هُوَ هُوَ» وَصَنَّفَ ابْنُ عَرَبٍ كِتَابًا فِي «الهُوَ» فَقُلْتُ لَهُ - وَأَنَا إِذْ ذَاكَ صَغِيرٌ جِدًّا - لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ: لَكُنْتُ فِي الْمُصْحَفِ مَفْصُولَةً تَأْوِيلُ هُوَ وَلَمْ تُكْتَبْ مَوْصُولَةً وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ هَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالْاضْطِرَارِ، وَإِنَّمَا كَثِيرٌ مِنْ غَالِطِي الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ

(١) نفعه عنه تلميذه الإمام ابن القيم في كتابه «الروح» (ص ٢٠٢).

مِثْلَ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ^(١)؛ لَأَن هَذَا رَسْمُهَا، (هو): هَكَذَا تُرْسَمُ: هَا - وَاو، قَالَ: «لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ لَرَسَمْتُ بِالْوَاوِ»، فَأَبْطَلَ قَوْلَهُ بِالْآيَةِ نَفْسَهَا، وَهُوَ مُلْتَزِمٌ ﷺ هَذَا الْإِلْتِزَامِ أَنَّهُ لَا يَسْتَدِلُّ بِمَبْطُلٍ عَلَى بَاطِلِهِ بِآيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا يَرُدُّ عَلَيْهِ بِالْآيَةِ نَفْسَهَا، فَضْلاً عَنِ الْآيَاتِ الْأُخْرَى، ثُمَّ إِنَّهُ فِيمَا بَعْدَ التَّزَمِ التَّزَامًا آخَرَ مَعَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَنَّهُمْ لَا يَتَحْجُونَ عَلَى بَاطِلِهِمْ بِحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ إِلَّا رَدَّ عَلَيْهِمْ بِبَاطِلِهِمْ بِالْحُجَّةِ نَفْسَهَا، وَالتَّزَمَ هَذَا الْإِلْتِزَامَ؛ لَأَنَّ الْعَقْلَ الصَّحِيحَ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى حَقٍّ، فَإِذَا قَالُوا شَيْئًا يَحْتَجُونَ عَلَيْهِ بِالْعَقْلِ يُبَيِّنُ لَهُمُ بِالْعَقْلِ مِنْ خِلَالِ الْإِحْتِجَاجِ نَفْسَهُ أَنَّهُ أَمْرٌ بَاطِلٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.»

ثم بعد ذلك دخل - رحمه الله تعالى - في أساس الموضوع بعد أن مهد بهذه التمهيدات، دخل في أساس الموضوع وهو (كشف الشبهات).

وكان في طريقته - رحمه الله تعالى - في كشف الشبهات أن ذكر أولاً إجابة مُجْمَلَةٍ في رد كل شبهة، ثم ضرب أمثلة لبعض الشبه التفصيلية وأجاب عنها تفصيلاً، ويكون الكتاب - بإذن الله ﷻ - سلاحاً عظيماً لطالب العلم في باب الشبهات، ولا يكون هذا سلاحاً لك إلا إذا ضبطت هذه المقدمات التي انتهت ضبطاً مُتَقَنّاً وعرفتها

وعرفت دلائلها، ثم عرفت الجواب المُجمل، وتضبطه ضبطاً جيداً، ثم بعد ذلك الأجوبة التفصيلية، وهذه كثيرة جداً قد لا يتهياً لك العلم بكل التفاصيل؛ لكنك إذا أخذت أمثلة من التفاصيل وطريقة أهل العلم في الإجابة عليها تُصبح معك سلاح -بإذن الله ﷻ- تقطع به دابر كل مبطل، جعلكم الله أجمعين من أنصار دينه وحماة التوحيد.



[المتن]

قال: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواب لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا.

فنقول: جواب أهل الباطل من طريقين: مُجْمَل، ومفصل.

أما المِجْمَل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابهه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم».

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- بعد مقدمات تمهيدية عظيمة صدر بها كتابه المبارك (كشف الشبهات)، بعد تلك المقدمات التي لا بد منها في هذا الباب شرع في مقصود الكتاب وهو كشف الشبهات، بأن يذكر الشبهة ويبيّن ما يكشفها ويُعرِّفها ويبيّن زيفها ووهاءها، وأنها لا تقوم إلا على الباطل، ولا تُفْضي إلا إلى الباطل.

ولعلك أيها الأخ الموفق عرفت بتلك المقدمات التي بدأ بها الشيخ أن الجانب التأصيلي في طالب العلم -أعني فهمه للعقيدة ودلائلها وبراهينها من كتاب الله ﷻ

ووضوح أمرها عنده- هو الأساس الذي لا بد منه، وإن لم يكن عند طالب العلم أصول ثابتة وأمور راسخة يقوم عليها دينه وإيمانه وتوحيده فإن الشبهات تُؤثر عليه وتدخل عليه، وربما أثرت في نفسه؛ ولهذا كان كتاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي عنوانه (كشف الشبهات).

ولعلك لو كنت تقرأ هذا الكتاب لأول مرة تتوقع أن مُصنّفه من أول ما يبدأ في كتابه يُعدد الشبهات ويوجب عليها، وتظن أن هذا الذي سيصادفك في الكتاب من أول وهلة؛ ولكنّ الشيخ -رحمة الله تعالى عليه- لحصافة علمه وحُسن نصحه وتمام بيانه وحسن درايته في هذا الباب العظيم ودخوله في المُعترك مع خصوم التوحيد وأعداء العقيدة؛ قرّر لك في بداية الكتاب جملةً من الأصول والقواعد والأسس التي لا بد من ضبطها، وكان يُنبّه -رحمة الله تعالى عليه- على أن هذه الأمور لا بد أن تعرفها معرفة قلب، ولعلك تنبّهت لنصحه الذي تكرر معك فيما تقدم من كتابه رحمه الله، حيث يقول تارة: «إذا تحققت من ذلك»، وتارة يقول: «إذا عرفته معرفة قلب» إلى غير ذلك من أنواع التأكيدات وصيغ العناية والاهتمام التي مرّت معنا في مقدمة هذا الكتاب، كل ذلكم يُؤكّد أنّ طالب العلم لا بد له في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل أن يكون على قدرٍ من الإلمام بأصول الدين وقواعده ودلائله؛ فيبدأ مُؤصّلاً نفسه بفهم الحق وضبطه ومعرفة دلائله وحُججه وبراهينه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلةٍ أخرى تتعلق بكشف الشبهة وبيان عَوَارِها، وعندما يدخل طالب العلم دخولاً أولياً في باب الشبهات والنظر فيها ومحاولة كشفها فإنه يُضربُ بنفسه من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر!، وليست هذه هي جادة أهل العلم.

ثم إن الشيخ رحمه الله لما بدأ بموضوع الكتاب ألا وهو (كشف الشبهات) ودخل في صميم الموضوع؛ بدأ بقوله هنا: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا» وهذا أيضاً من دقة الشيخ رحمه الله، فالاهتمام كما تلاحظ بـ«القرآن»، والاحتفاء بالقرآن وأدلة القرآن لا بالشبهات.

ولعلك تتصور والموضوع في كشف الشبهات أنه إذا بدأ في صميم الموضوع أن يقول لك: «وأنا أذكر لك بعض الشبهات وأذكر جوابها من القرآن» لم يقل ذلك، وهذا من دقة علمه وحسن التفاته إلى كتاب الله ﷻ واحتفائه بالأدلة وعنايته بها، ففرق بين العبارتين، فرق بين قوله -رحمة الله تعالى عليه- «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا». فرق بين هذه العبارة وبين أن يقول القائل: «وأنا أذكر لك شبهاتٍ قالها المشركون في زماننا وأذكر لك أدلة من القرآن تكشف زيفها أو تبين وهاءها»، فرق بين العبارتين، والشيخ -رحمة الله تعالى عليه- لما ذكر لك هذا البدء بهذا الأسلوب يُنبهك تنبيهاً في غاية الأهمية ألا وهو أن يكون اهتمامك من حيث الضبط والإتقان هو بالأجوبة التي هي من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، فهذه التي عليك أن تعتني بضبطها وإتقانها والإهتمام بها، أما الشبهة إياك أن تحاول أن تُمكنها من قلبك؛ لأنها قد تتمكن من القلب ولا تخرج، فإذا نظرت في الشبهة أو اضطرت إلى النظر في الشبهة لا تجعل قلبك يمتص الشبهة، ولهذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله «وقال لي شيخ الاسلام رضى الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للآيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر

الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا اشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات، أو كما قال^(١)، ومن المعلوم أن الإسفنجة تشرب الماء وتمتصه ويكون الماء واصلًا إلى كل جزء من أجزائها، بينما المرأة تعكس الشيء ولا تمتصه ولا يصل إلى داخلها وإنما تعكسه عكسًا مباشرًا، فقال: اجعل قلبك للشبهة كالمرأة، ولا تجعل قلبك للشبهة كالإسفنجة.

وهذا البدء من الشيخ -رحمة الله عليه- هنا ينبهك إلى أن الاهتمام هو بضبط الأدلة، فأنت الآن وأنت تقرأ ما سيأتي اهتم من حيث الضبط والإتقان والعناية والاهتمام بالأدلة، وليكن نظرك لهذه الشبهات النظر السريع الذي تعرف وجه بطلانه؛ لأنك قد تحتاج يومًا من الأيام بأن تُثار في مجلس تكون أنت حاضره أو في موطن أنت لك شأن فيه أو نحو ذلك فتحتاج إلى هذه الأجوبة.

قال: «وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه»، وتقديم الـ(كتاب) هنا من باب تقديم ما حقه التقديم وما حقه العناية والاهتمام، وهذا -كما قدّمت- من حصافة علمه وجميل نصحه وحسن بيانه -رحمه الله وغفر له وأسكنه الجنة-.

قال: «جوابًا لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا»، الشيخ -رحمة الله عليه- لما انتدب -بعون الله ومدّه وتوفيقه- لنصرة التوحيد وبيانه تصدى له عباد القبور وأهل الشرك والضلال وأخذوا يصفونه بالصفات ويتهمونه بالاتهامات ويثيرون حوله الدعايات المغرضة حتى لا يسمع له أحد، وهذه الطريقة التي صنعها أعداء

التوحيد معه هي صنيع أعداء التوحيد وأعداء الأنبياء في قديم الزمان، فكانت طريقتهم إثارة الدعايات والالتهامات وإلقاء الكلام جزافاً.

نبينا ﷺ أفضل عباد الله أُنْهِمَ بأنه ساحر وبأنه كاهن وبأنه شاعر وبأنه مجنون، وكان الغرض من إثارة هذه الاتهامات حتى ينفِضَ الناس عنه ولا يسمِعُوا إلى كلامه، فالشيخ -رحمة الله عليه- في زمانه بُلي بأعداء كانوا يُشككون في دعوته ويُثيرون شبهات حول أدلة التوحيد التي يُبرزها ويُبَيِّنُها ويدعو إليها -رحمة الله عليه-، وكان حصيلة دخوله هذا المُعترك والخصومة مع أعداء التوحيد والمناقشات والردود أن أعطاك هذه العُصارة والخلاصة العظيمة التي هي أعظم سلاحٍ لطالب العلم في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل؛ وذلك لأن الشبهات التي أجاب عنها الشيخ -رحمة الله عليه- بالأجوبة المُسددة في هذا الكتاب المبارك هي أبرز الشبهات التي أثّرت ولا تزال تُثار من أهل البدع والأهواء.

وأريد أن أنبهك على أمرٍ ألا وهو أنك إذا ضبطت أجوبة الشيخ -رحمة الله عليه- الآتية، سواء منها الجواب المجمل وهو الأهم والأعظم، ثم الأجوبة التفصيلية، فإنه -بإذن الله ﷻ- سيكون ما بعد هذه الشبهات أمرها أيسر، وسيكون في الأجوبة التي تمر عليك تقعيداً لك في رد كل شبهة -بإذن الله ﷻ-، أقول ذلك استدعاءً لاهتمامك بأجوبة الشيخ ﷺ المُسددة الآتية في هذا الكتاب المبارك.

قال ﷺ: «نقول: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقين: مُجْمَلٍ، ومفَصَّلٍ»، جواب أهل الباطل: أي فيما يُيرونه من شبهاتٍ على التوحيد والدعوة إليه والتحذير من الشرك والخرافة والباطل؛ من طريقين: طريقٍ مجمل، وطريقٍ مفصل.

ويعني ﷺ بالجواب المُجْمَل: ذكر تقعيد عام وتأصيلٍ كليّ يفيدك في الجواب على أي شبهة تُثار ضد التوحيد، هذا هو الجواب المجمل؛ ولهذا أكّد الشيخ ﷺ تأكيداً قوياً على ضبط الجواب المجمل والعناية به وحسن فهمه؛ لأنه بمثابة التأصيل العام والتقعيد الكليّ الذي إذا ضبطته فإنك - بإذن الله ﷻ - تستطيع أن تُجيب به على أي شبهة يُثيرها مُشرك.

بدأ بالجواب المجمل وأكّد على الاهتمام به لقوله: «فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها»، لمن عقلها، فمن عقل هذه الإجابة المُجْمَلَة التي تصلح جواباً لكل شبهة تُثار ضد التوحيد فهي الفائدة الكبيرة والعظيمة بالنسبة له.

قال: «وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]»، سيأتي تقرير الشيخ للجواب في ضوء هذه الآية؛ لكن أُبَيِّنُ أولاً شيئاً من معاني هذه الآية المباركة ودلالاتها، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ قَسَمَ - ﷻ - دلالات أي الكتاب؛ أي القرآن إلى قسمين، قَسَمَ الأدلة السمعية إلى قسمين: مُحْكَم، ومُتَشَابِه.

فأخبر ﷻ أن كتابه القرآن الكريم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾، والمراد بالإحكام هنا: الوضوح؛ وضوح الدلالة وظهورها وبيانها وعدم خفائها، ﴿آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أي: بيّنات واضحات جليّات دلالاتها ظاهرات، قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وأم الشيء أصله الذي عليه يُبنى وإليه يُرجع وعليه يُعوّل، قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: الآيات

المحكمات هنّ أم الكتاب، أي: هنّ الأصل وهنّ المرجع وعليهنّ المعلول، قال: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، والآيات المحكمات واجبتنا نحوها أن نؤمن بها وأنها من عند الله ﷻ وأن نفهمها ونعيّ دلالاتها وأن نعمل بها، هذا واجبتنا نحوها. قال: ﴿وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، ﴿وَأُخْرُ﴾ أي: من آيات القرآن شأنها أنها متشابهة، والتشابه المراد به: خفاء المعنى وعدم ظهوره لكل أحد، هذا هو المراد بالتشابه هنا، أي: أن المعنى فيها ليس ظاهرًا بيّنًا؛ بل فيه شيء من الخفاء وعدم الظهور، ولهذا فإنّ المتشابه - تشابه المعنى - من آيات الكتاب لا يظهر معناه واضحًا إلا للراسخين في العلم الذين طريقتهم ومن رسوخهم في العلم ردّوا متشابه آي القرآن إلى مُحْكَمِهِ، لهذا قال الله - ﷻ - في تمام الآية: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

والمراد بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ على قول لأهل العلم وهو على قراءة الوصل في الآية: أي لا يعلم معناه وتفسيره إلا الله والراسخون في العلم؛ أي: أن الراسخين في العلم يعلمون معنى المتشابه لرسوخهم في العلم، ولهذا جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: «أنا ممن يعلم تأويله»^(١) أي: تأويل المتشابه، وعليه فإنّ قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ التشابه هنا في المعنى، وهو ليس تشابهًا مطلقًا كليًا بحيث لا أحد يفهمه؛ حاشا أن يكون كلام الله - ﷻ - فيه طلاسم

لا تفهم وأمور لا يُدرى ما هي؛ بل المتشابه هنا هو التشابه النسبي وليس المُطلق في المعنى.

أما إذا أُريدَ بالتشابه من حيث الحقيقة وهذا في قول في تفسير الآية من حيث الحقيقة والكيفية فهو تشابه كلي لا يعلمه إلا الله، في كفيات الأمور المُعَيَّنة لا يعلمها إلا الله - ﷻ -، وهنا يلزم الوقف في القراءة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ تقف هنا، إذا كان المراد بالتشابه: التشابه من حيث الحقيقة والكيفية فهذا أمرٌ لا يعلمها إلا الله.

أما من حيث المعنى؛ معاني القرآن فإن الآيات المتشابهات يعلم الراسخون في العلم معانيها، وقد قال مُجاهد ﷺ: «عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاث عَرَضَاتٍ، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها»^(١).

﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ الآيات المتشابهات ما هو واجبنا نحوها نحن طلاب العلم؟ ما وجابنا نحو الآيات المتشابهات؟ وقد عرفنا قريباً الواجب نحو الآيات المُحْكَمَات.

الآيات المتشابهات يجب علينا نحوها أمران:

الأمر الأول: أن نؤمن أنها من عند الله، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، نؤمن أنها من عند الله وأنها كلامه وتنزيله - ﷻ -.

والأمر الثاني: أن نتبع المُحْكَم من آي القرآن الكريم ونرد إليه ما تشابه علينا من

آي القرآن، نتبع المُحكّم ونرد إليه ما تشابه علينا من آي القرآن، فتكون الطريقة نحو الآيات المتشابهات:

أولاً: أن نؤمن بها وأنها من عند الله وأنها تنزيله وكلامه، نؤمن بذلك.

والأمر الثاني: أن نرد ما تشابه علينا من آي القرآن إلى المحكم، لأن الله قال عن الآيات المحكمات ﴿هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ﴾، وأم الشيء أصله الذي إليه يُرجع وعليه يُعوّل، فنرد ما تشابه من آي القرآن علينا إلى المحكم من آي القرآن، وبهذا يكون الاهتداء، وهذه طريقة أهل الحق وأهل العلم مع الآيات المتشابهات، إذا تشابهت على الإنسان آية في كتاب الله ﷺ رأساً يُعيدها إلى الآية المُحكّمة، رأساً يُعيدها إلى الآية المُحكّمة والنصوص المُحكّمة التي ظاهرٌ دلالتها وظاهرٌ الحُكم منها ومتقرّرٌ واضحٌ بيّن، فإذا تشابه عند الإنسان شيء من الآيات أعاده للمحكم وحينئذٍ يتبين الأمر.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدّاً في رد المتشابه إلى المُحكّم فيزول الالتباس ويذهب الاشتباه ويتضح الأمر، وأضرب على ذلك مثلاً من خلال قصةٍ حصلت من أحد رؤوس المعتزلة وكبارهم، قال ابن قتيبة رحمه الله: «حدثنا قريش بن أنس قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول: يؤتى بي يوم القيامة فأقوم بين يدي الله، فيقول لي: لم قلت إن القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلت ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، قلت له: وما في البيت أصغر مني أرايت إن قال لك: قد قلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] من أين علمت أني لا أشاء أن أغفر؟

قال: فما استطاع أن يرد علي^(١)، إلى هذا الحد عندما يُطرح مثل هذا الكلام على عوام الناس وجُهاً لهم تُؤثّر فيهم، مثل إثارة هذا المعنى في مثل هذه الآية التي يشتهب معناها على كثير من الناس، ولما كان المعنى مشتبهاً على كثير من الناس ولم يُوفقوا لردها إلى المحكم من أي القرآن تجد أن هذه الآية أبرز ما يحتج به الخوارج والمعتزلة في عقيدتهم، والسبب إتباع المتشابه وترك المحكم، فكان في المجلس شاب اسمُه أنس وهو أصغر من في المجلس فقال وأجرى الله ﷻ الجواب المُسدد على لسانه، قال: «فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقد شئتُ أن أغفر له، فماذا تقول؟»، لاحظتم الجواب، رد هذه الآية المتشابه معناها إلى الآية المحكمة، قال: «فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] يعني دون الشرك، ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ لأن الله ﷻ جعل كل أمرٍ دون الشرك تحت مشيئته، قال: «وإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦، ٤٨] وقد شئتُ أن أغفر له، فماذا تقول؟» فبُهِت! ولم يجد جواباً!، وفي هذه الآية التي هي مثار الشبهة عند القوم وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] هي في ﴿سورة النساء﴾ ومسبوقة وملحوقه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، جاء في ﴿سورة النساء﴾ قبل هذه الآية

بآيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ وَغَفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿ [النساء: ٤٨]، وجاء بعدها بآيات في ﴿سورة النساء﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ وَغَفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿ [النساء: ١١٦]، ويأتي هؤلاء الخوارج والمعتزلة إلى هذه الآية في أثناء السورة ويتركون ما قبلها وما بعدها من الآي المحكم الذي يوضح معناها مما يدل على أنهم أصحاب أهواء، وإلا لو كان صاحب حق لمرّ في طريقه وهو يقرأ ﴿سورة النساء﴾ قبل أن يصل إلى هذه الآية إلى آية مُحْكَمَة في الباب ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨]، وإذا فرغ من قراءة هذه الآية التي ثارت عنده الشبهة فيها سيأتي بعدها بآيات ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ وَغَفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿ [النساء: ١١٦]، أليس واضحاً بيّناً قوله: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ داخل تحت قوله ﴿ وَغَفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أو ليس واضحاً؟ واضح؛ لأنه دون الشرك وما دون الشرك جعله رب العالمين تحت المشيئة، فلماذا نجزم نحن في أمر جعله الله رب العالمين تحت المشيئة نجزم جزماً أنه ليس تحت المشيئة وأنه لابد من الخلود؟!.

وبهذا يتضح لك أن ما تشابه على الإنسان من الآيات أو من الأحاديث مثل حديث أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»^(١).

هذا الحديث ترده إلى المحكم من القرآن الكريم يتضح لك الأمر ويستبين.
فإذن طريقة أهل العلم هي: رد ما تشابه من النصوص إلى المحكم منها فيزول
الإشتباه.

وطريقة أهل الزيغ اتباع المتشابه وترك المحكم، يتركون المحكم ولا يلتفتون
إليه ولا يُعُولون عليه ويتبعون المتشابه.

قال: ﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ﴾، ثم ذكر - ﷺ - منهجين للناس، قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: انحراف، الزيغ هو الانحراف والعدول عن الجادة السوية
والسنن القويم، قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾، ﴿مِنْهُ﴾ أي:
القرآن، ﴿مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أي: من آيات القرآن، فيتبعون الآيات المتشابهات، لماذا؟،
ما السبب؟، لأجل ماذا؟، قال: ﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَأَبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: طلباً لإثارة الفتنة على الناس في دينهم وعقائدهم وإيمانهم
وتوحيدهم، تشكيكاً وإثارةً للشبهات والشكوك تلييساً على الناس، ﴿أَبْتِغَاءَ
الْفِتْنَةِ﴾ أي: فتنة الناس في دينهم وإيمانهم.

﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: تأويل القرآن بصرفه عن معناه ومقصود القرآن ومراده إلى
أهوائهم وعقائدهم وآرائهم وتصوراتهم، ﴿أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: صرفه عن ظاهره
إلى ما يريدونه وما تقرر عندهم بسبب الأهواء؛ ولهذا قالوا عن أهل البدع والأهواء
أنهم أولاً يعتقدون ثم يستدلون، وعندما يعتقد أولاً ثم يستدل ثانياً يبدأ بهذه الطريقة
يبتغي تأويل القرآن، بحيث يكون موافقاً لما يهوى، وموافقاً لما يعتقد بالبحث عن

مُسْتَكْرَه التَّأْوِيلَاتِ وَغَرِيبَ اللُّغَاتِ وَوَحْشِيَّ اللُّغَاتِ؛ حَتَّى يَجْعَلَ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَوْ يَطْوِعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ لِتَكُونَ دَالَّةٌ عَلَى مَا يَعْتَقِدُ، هَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الزَّيْغِ.

قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾، ما المراد بتأويله هنا؟ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾؟، هنا على ما سبق تحتل أحد أمرين:

- ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ أي: معناه، وهذا إذا قُصِدَ بالمتشابهة - فيما تقدم - أي من حيث المعني، وعليه فإنه يجوز الوصل، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون معناه، قد نقلت لكم كلام ابن عباس ؓ ترجمان القرآن وَحَبْرُ الْأُمَّةِ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

- ويحتمل أن ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ المراد به: حقيقة ما يؤول إليه، حقيقته وما يؤول إليه، وهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله.

إذا أُريدَ بالمتشابهة: الحقيقة والكُنْه والكيفية، فهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله.

والتأويل: تارة يُراد به التفسير، وتارة يُراد به حقيقة الشيء وما يؤول إليه.

قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ على القول الأول: لا يعلم معناه - أي معنى المتشابهة - إلا الله والراسخون في العلم، أي: الراسخون في العلم يعلمون معناه.

وطريقة الراسخين في العلم تجاه المتشابهة أنهم يؤمنون به أنه من عند الله، ويردونه إلى المُحْكَمِ، على خلاف طريقة أهل الزَّيْغِ، قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، كله حق، وكله من الله، وليس في القرآن

تناقض ولا اضطراب، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولا يستقيم الأمر للإنسان في هذا الباب إلا إذا كان على هذا النهج، يرد المتشابه من آي القرآن إلى المُحَكَّم.

أما إذا كان بمعزلٍ عن آيات القرآن ودلالاته، ويجتز من النصوص أشياء يُشَبَّه بها على الناس؛ فهذه طريقة أهل الزيغ، مثل طريقة الجهمية الذين يقولون أن الله في كل مكان، يقرؤون مستدلين على قولهم «إن الله في كل مكان»، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

والإمام ابن القيم -رحمه الله- يقول:

يَا قَوْمَنَا وَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا أَلفًا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَلْ أَلْفَانِ

يعني الآيات التي في القرآن والأحاديث التي بالسنة التي تدل على علو الله ليست مئة ولا مئات ولا ألف؛ بل بالآلاف، تُترك هذه الآيات الواضحات البيِّنات المُحَكَّمات والأحاديث الواضحات ثم يأتي إلى جزء من آية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ويحتج به على أن الله في كل مكان، هل هذه طريقة أهل العلم؟، حاشا والله. ولهذا الإمام أحمد رحمه الله لما أراد أن يردَّ عليهم، قال: «بدأ الله الخبر بالعلم وختم الخبر بالعلم»، يعني هذا السياق في العلم؛ لكنَّ القوم لا يقرؤون النصوص كاملة؛ بل يجتزؤون من وسط النصوص آية، أو من وسط الآية جزء آية، ولعله ظهر لكم مثالان على ذلك، إما أن يجتزأ من وسط الآية جزء آية، أو يجتزأ من الآيات آية مع أن السياق بتمامه يُوضح المعنى ويبيِّنه.

فإذا طريقة أهل الرسوخ وأهل العلم رد المتشابه إلى المُحَكَّم.

فموضوع توحيد العبادة مثلاً، الشيخ يُنبهك هنا - كما سيأتي في كلامه ﷺ أنه يجب أن يكون راسخاً في قلبك ثابتاً عندك أن العبادة حق لله، وأن الله خلقك لتوحيدهِ؛ لتُفردَ بالعبادة، واحفظ على هذا الأصل جزءاً من أو طرفاً من الأدلة، وهذا أمرٌ مُحَكَّم، العبادة حق لله، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]،

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الأحقاف: ٥]، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تجعل الأمر مُحَكَّمًا بيِّنًا ظاهراً عندك أن العبادة حق لله، ليس لله - ﷻ - شريكٌ فيها، فإذا رسخ الأمر وضبطه بأدلتِهِ، إذا جاءك إنسان بآيةٍ أو بحديثٍ يُريد من خلاله أن يُقرر لك أنه يسوِّغ أن يدعى غيرُ الله، فهذا الآن يُنازعك في أصلِ راسخ، ويأتيك بأمرٍ قد يكون مشتبهاً عليك ولا يكون مشتبهاً على أهل العلم؛ لكن إذا ضبطت هذا الأصل المُحَكَّم وأتقنته فإذا أثار عندك شيئاً من هذه الشبهات أعدته إلى المُحَكَّم، وإذا لم يكن عندك جوابٌ حاضر تفصيلي على الآية المُعَيَّنة التي ذكرها أو الحديث المُعَيَّن الذي ذكره

تكتفي بجوابه المُجَمَّل وإعادته إلى المُحَكِّم، وتقول له: «أما جوابك التفصيلي على شبهتك هذه فتجده عند أهل العلم الراسخين، أما أنا لا أقبل كلامك، وأعتقد تماماً أن كلامك باطل، وأنت على ضلال، وهذا هو المُحَكِّم من آيات القرآن تدل على بطلان هذا الأمر الذي أنت عليه»، فرددت ما تشابه عليك وعليه أو ما تشابه عليه وواضح لك ولكن لا تعرف عليه جواباً تفصيلياً رددته إلى المُحَكِّم.

فإذاً الجواب المُجَمَّل أن يكون راسخاً عندك في هذا الباب، الأمر المُحَكِّم في أمور الاعتقاد بأدلتها، فإذا ما أُثِرت شبهة رددت المتشابهة إلى المُحَكِّم، وبهذا يكون الجواب الإجمالي على تفاصيلٍ فيه يأتي تقريرها عند الشيخ -رحمه الله تعالى-.

لما أورد ﷺ الآية قال بعدها: «وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»، انتبه هنا -رعاك الله- إلى قول نبينا ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»^(١)، وهذا آية من آيات النبوة، أنه سيوجد في أمتي ﷺ أقوامٌ شأنهم اتباع المتشابه، وفي الوقت نفسه نصح ﷺ وهو الناصح الأمين -صلوات الله وسلامه عليه- في الطريقة التي ينبغي أن يكون عليه الإنسان نحو هؤلاء، قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ» يعني: إذا ابتليتم بمن هذا شأنهم، «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»: سماهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، بهذا سماهم الله، قال: «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ» أي: في هذه الآية، قال: «فَاحْذَرُوهُمْ» أي: إياكم وإياهم، اجتنبواهم، ابتعدوا عنهم، هنا قال: «فَاحْذَرُوهُمْ» أي: ابتعدوا عنهم، احذروا من

الإصغاء إليهم، والركون إلى شبهاتهم، واستماع زخرفاتهم للقول وتزيين العبارات وتنميق الكلمات، احذروهم.

وإن لم يعمل المسلم بهذه النصيحة التي نصح بها النبي ﷺ يورط نفسه، قال: «فَاَحْذَرُوهُمْ» أي: كونوا منهم على حذر.

ومراد الشيخ - رحمه الله ﷺ - بذكر الحديث بعد الآية أن ينبهك - يا طالب العلم - لتكون على حذر من أهل الشبهات.

والآن في زماننا وقد عاينتُ من هذا الصنف كثيراً من الشباب ومن تلوث بعضهم ببعض الأفكار السيئة والشبهات المُرَدِّية، والسبب عدم عملهم بهذه النصيحة النبوية: «فَاَحْذَرُوهُمْ»، تجد الشاب خلو من العلم ثم من باب ما يُسمى حب الإطلاع والفضول يبدأ يدخل على ما يقوله الجهمية وما يقوله الرافضة وما يقوله المتصوفة، يقول: «أريد أن أرى ماذا عندهم»، ويدخل في المواقع، ويدخل في القنوات، ويدخل ثم يُفاجأ بعد فترة من الزمان وإذا عقله وفكره مُلوث، ويود أن يتخلص من تلك الشبهات فلم يستطع؛ بل بعضهم يكون لا علم عنده ويأتي عند بعض كبار هؤلاء المُبْطِلَة وهو بزعمه يريد أن يناقشه وينظره ويبطل ما عليه من باطل!، ثم يُفاجأ أنه خرج وقد ابتلي ببعض الشبهات التي استقرت في قلبه، ومتى يتخلص منها؟!، فهذه نصيحة مهمة وعظيمة يجب أن تكون عند طالب العلم الذي يريد حفظ إيمانه ودينه، قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاَحْذَرُوهُمْ» أي: كونوا منهم على حذر.

وكأني بالشيخ - رحمه الله تعالى - يريد أن يؤكد عليك ألا تحتفي بالشبهات،

احتفاؤك بالقرآن؛ بالآيات؛ بالأدلة؛ بالحجج؛ بالبراهين؛ بكلام أهل العلم الراسخين، والشبهة إذا عرضت لك دون طلب منك لها وبحثٍ عنها فردّها إن كنت ذا علمٍ تفصيلي بجوابٍ تفصيلي، وإن كنت لست على علمٍ تفصيلي فردّها بالجواب المُحكّم وبالجواب المُجمل مباشرةً ولا تقف مع تفاصيل صاحب الشبهة.

قال: «مثال ذلك»، قوله: «مثال ذلك» الإشارة في «ذلك» إلى الجواب المجمل، «مثال ذلك»: أي مثال الإجابة المُجملّة لبعض شبهات المشركين، قال: «إذا قال لك بعض المشركين ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، يقولون لك: «لا تؤمنون بالأولياء، بمكانة الأولياء؟، هذه آية في كتاب الله ﷻ، فيها ثناء الله على أوليائه، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا يدل على مكانة الأولياء، أنتم لا تعرفون قدر الأولياء، ولا مكانة الأولياء، ولا ما خصّ الله ﷻ به أولياءه من الفضائل، ويريدون أن يصلوا بك من خلال هذه الآية إلى تعظيم الأولياء تعظيماً لا يليق إلا برب الأولياء - سبحانه جلّ وعلا-، فيبدأ من خلال هذه الآية ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وربما استشهد كثيرٌ منهم بقصص يخلقونها، «نحن نعرف السيد فلان، والولي الفلاني عنده قدرة على التأثير، وعنده كذا، وعنده كذا، وشاهدنا، وعائناً، وجربنا... إلى آخره، فأنتم لا تعرفون قدر الأولياء، ولا تعرفون مكانة الأولياء، ولا تعرفون منزلة الأولياء، وجاهم عند الله، والأولياء من شأنهم ومن شأنهم»، وهكذا يُثير هؤلاء هذه الشبهة.

فقال: «إذا قال لك بعض المشركين ﴿أَلَا إِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، أمر آخر أيضاً: «أو أن الشفاعة حق»، يقول لك: «هل تنكر الشفاعة؟»، النبي ﷺ في الحديث الصحيح قال: «وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ»^(١)، كيف تنكرونها؟!، الشفاعة حق وثابتة، والأدلة عليها كثيرة، والنبي ﷺ الشافع المُشَفَّع، والأدلة في القرآن وفي السنة على ثبوتها كثيرة، هل تنكرون الشفاعة؟، لا تؤمنون بها؟»، وإذا أيضاً قال لك أو قال لك: «أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله»، الله ﷻ قال عن عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقال عن موسى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ونبينا ﷺ خاتم النبيين جاهاه عند الله أعظم جاها، ومنزلته أعظم منزلة، ألا تؤمنون بذلك؟، وهذه الآيات واضحة تدل على ذلك، ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ألا تؤمنون بجاه الأنبياء وأن لهم جاه عند الله؟!.

«أو ذكر لك كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله»، وهم عندما يذكرون كلاماً للنبي ﷺ، يعني عندما يذكرون أحاديث النبي ﷺ تارة يذكرون أحاديث تكون صحيحة، وتارة يذكرون أحاديث تكون ضعيفة أو موضوعة، وإذا ذكر لك حديثاً صحيحاً أو حديثاً لا تعرف صحته من ضعفه وشبهه عليك الأمر مثل أن يقول لك: «وأنت لا تعرف»، ولأول مرة تسمع لو قال لك: «النبي ﷺ قال: (توسلوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم)!!»، وأنت أول مرة تسمع بهذا، وهو يريد أن يصل من خلال هذا الحديث معك إلى أن يُشَبَّه عليك بجواز طلب

الشفاعة من الأنبياء وطلب الإلتجاء إلى الأنبياء في أن يشفعوا عند الله، وأن يتوجّه إليهم متذللاً طالباً راجياً، «يا رسول الله اشفع لي»، «يا رسول الله خذ بيدي»، «يا رسول الله أدركني»!

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ونحو ذلك، فيأتي لك بأحاديث إما صحيحة: «أُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ»، أو أحاديث غير صحيحة لا أصل لها، فإذا أعطالك مثل هذه الأشياء وأنت لا تعرف جواباً تفصيلياً على هذه الأشياء التي ذكر لك، الحديث لا تدري أهو صحيح أو ضعيف، ما هو بيان أهل العلم، ما معناه عند أهل العلم، والآية أيضاً ما تعرف معناها، ما تستذكر تفسيرها، ما وقفت على تفسيرها، كيف تجيب؟، رأساً تُعيد المتشابه إلى المُحَكَّم، يُفترض أن تكون ضابطاً للتوحيد بأدلته، فإذا أتاك بشبهة تُناقض التوحيد وتصادم أصل الإيمان تردها بالمُحَكَّم.

فكيف تردها بالمُحَكَّم؟، تابع الجواب.

يقول الشيخ: «وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك»، انتبه لهذه النقطة، «وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك»، وهذا يحصل لكثير من الطلبة عندما يُتلى برأس من رؤوس أهل البدع يُثير له كلاماً، ما يدري ماذا يقول!، يأتي له بآيات ويأتي له بأحاديث، وما يدري [أيش يقول]، وربما بعضهم التبس عليهم الأمر وقال: «والله صحيح كلامك!، كلام واضح!، كيف العلماء ما ردُّوا!، هذا فعلاً كلام...!!»، بعضهم عوام أهل السنة يصل بهم الأمر إلى مثل هذا الموصِل، وهو يَنْمُّ عن جهله هو، وعدم علمه، وعدم وجود أصول راسخة ثابتة عنده يعيد إليها

مثل هذه الأمور المتشابهة، إذاً كيف تجيب وأنت لا تفهم هذه الأشياء التفصيلية التي ذكر لك؟، إن كان آية لا تعرف تفسيرها وعناها عند أهل العلم الراسخين، وإن كان حديثاً لا تدري هل هو صحيح أو ضعيف، ولا تدري معناه ولا دلالته، ماذا تصنع؟، رأساً تجيبه بالنقاط التي ذكرها الشيخ.

وهنا أنبهك -والشيخ يذكر لك الجواب المُجمل- أن تتابع مع الشيخ بدقة أجوبته؛ لأن هي عبارة عن نقاط، تقريباً أربع نقاط ذكرها الشيخ ﷺ، لابد أن تتابعها بدقة وتضبطها ضبطاً دقيقاً حتى يتسنى لك من خلالها إبطال كل شبهة يعرضها مَنْ يُناقض التوحيد بإثارته لشبهته، وهي سهلة وميسرة:

قال: «فجاوبه بقولك: إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتَرَكُونَ الْمُحَكَّمَ وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ»، نبهك الشيخ على الآية والأصل الذي ذكره الله -ﷻ- فيها والمنهج الذي ينبغي أن يكون عليه صاحب الحق، وأنت إذا بدأت بهذه البداية وبهذه الآية وَضَّحْتَ لخصمك ومن أمامك أن آيات القرآن أخبر ربنا أنها على قسمين: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وأنت بعد قليل ستذكر له الآيات المُحكّمات الواضحات البَيِّنَات في هذا الباب، ستذكرها له، بحيث تقطع عليه الطريق؛ لكن تبدأ بالآية، تقول له: «إن ربنا -ﷻ- ذكر في كتابه أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتَرَكُونَ الْمُحَكَّمَ وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ»، أقرأ عليه الآية، وقل: «اللَّهُ ﷻ ذكر في القرآن أن الآيات منها ﴿ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾»، وأن أهل الحق يُعيدون المتشابه إلى المحكم، وأهل الزيغ يَتَّبِعُونَ المتشابه، وأنت الآن تأتين بأشياء متشابهة تريد أن تقرر الشرك وعبادة غير

الله - ﷻ -، مع أن القرآن إنما أنزل لأجل: ﴿أَفَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ١ ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ٢ ﴿[النحل: ١-٢]، وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ٣ ﴿[الأنبياء: ٢٥]، القرآن والرُّسل والكتب كلها أنزلت لأجل أن نعبد الله وأن نُخلص العبادة لله، فكيف تأتيني بآية مُتشابهة وتطالبني أن أتبع المتشابه، وأترك هذا المُحكَم الذي أنزل القرآن لأجله، وهو واضح في آيات القرآن ودلالاته، فهذه النقطة الأولى التي تبدأ بها معه بأن تذكر الآية الكريمة التي ذكر الشيخ وأن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المُحكَم ويتبعون المُتشابه.

ثم تنتقل له إلى نقطة ثانية في الجواب على شبهته: وهي في قوله ﷻ: «وما ذكرته لك» أي: ياطالب العلم، «من أن المشركين يقرُّون بالربوبية وأنه كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]»، يُشير إلى الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فأيات القرآن فيها تقرير أن المشركين الذين بُعثَ فيهم النبي ﷺ يقرُّون بالربوبية وأن الرب الخالق الرازق النافع الضار المُعطي المانع إلى آخره هو الله لا شريك له، يُقرُّون بذلك، وقد مر معنا سياق الشيخ -رحمة الله عليه- لجملة من الآيات الدالة على ذلك، وأيضاً آيات القرآن دلت على أنهم

يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء، وليس الأولياء فقط، ففي الآية التي ذكر ﴿
 أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، ويشير الآية
 يريد أن يطلب التعلق بالأولياء، فأنت تقول: «الله ﷻ ذكر أن المشركين في آيات
 كثيرة يقرون بأنه الرب الخالق الرازق المُنعم، وفي الوقت نفسه ذكر - ﷻ - عنهم
 أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء، وأيضاً ذكر أنهم يقولون: ﴿هَتُوْلَاءَ
 شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فأيش الفرق بين الذي تقول أنت وتطالبني به
 وبين ما ذمَّ الله ﷻ المشركين عليه في آياتٍ كثيرة في القرآن الكريم؟!، هذا شيء
 مُحكَم واضح في القرآن، وهذا هو الذي بُعث النبي ﷺ لأجل إنكاره وإبطاله على
 المُشركين، فأيش الفرق بين ما تُحدثني عنه الآن وأنت تريد أن تصل إليه من خلال
 ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وبين ما
 بُعث النبي ﷺ لإبطاله على المُشركين، فالمشركون أخبر الله عنهم أنهم يُقرُّون
 بأن الله الخالق الرازق المُنعم المُتصرِّف المُدبِّر إلى آخره، وأيضاً أخبر عنهم أنهم
 أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء ويقولون: ﴿هَتُوْلَاءَ شَفَعْتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾
 [يونس: ١٨]، وأنت الآن عندما تقول لي: «هل تنكرون الشفاعة؟»، الله ﷻ ذكر
 عن المشركين هذا الأمر وذمهم عليهم، وأنت تطالبنا أن نتوجه إلى الأولياء ونعلّق
 قلوبنا بهم ونجعل التجاءنا إلى الأولياء بأمرٍ أنكره الله - ﷻ - على المشركين؟!،
 فإذاً هذه نقطة ثانية في الجواب، تقول له: «هذا أمر مُحكَم بَيِّن لا يقدر أحد أن يُغير
 معناه».

فقوله ﷻ: «هذا أمر مُحكَم بَيِّن لا يقدر أحد أن يُغير معناه»، فالأمر المُحكَم

البَيِّن، هو بيان الله لحال المشكرين وذمهم على تلك الحال وتحذيرهم من تلك الحال، فكيف تطالبني بعمل أنما أنزل القرآن وبُعث الأنبياء لأجل إبطاله وهدمه؟!، والنبي ﷺ إنما قاتل المشركين لأجله، فكيف تُطالبني بأمر وتسوق لي هذه الأدلة وتقول لي أنها تدل على جواز الالتجاء إليهم أو طلب الشفاعة منهم أو التعلُّق بهم أو نحو ذلك من معان؟!.

فعندنا آيات مُحكَّمة كثيرة واضحة بيِّنة في القرآن الكريم تدل على هذا الأمر الذي ذكره الشيخ رحمه الله، قال: «هذا أمر مُحكَّم بيِّن لا يقدر أحد أن يُغيِّر معناه»، أنت هكذا تقول له، بعد أن تذكر له هذا الأمر وتسوق بعض الأدلة عليه، والأدلة على ذلك مرت قريباً عند الشيخ رحمه الله، تقول: «هذا أمر مُحكَّم بيِّن لا يقدر أحد أن يُغيِّر معناه»، فأنت الآن أعدته إلى المُحكَّم.

أيضاً تذكر له نقطة ثالثة تتعلق بالشيء الذي أثاره، الشيء المُعيَّن أو الشبهة المُعيَّنة التي أثارها: تقول: «وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه»، لا أعرف معناه، أيش مقصودك لأعرف معناه؟، أي: لا أعرف له جواباً تفصيلياً، إن كانت آية ما يحضرني تفسيرها، أو لم أقف على تفسيرها، أو ما أطلعت على تفسير الآية؛ لكن لها معنى حق صحيح لا يناقض هذا المحكم يعرفه أهل العلم فتقول له: هذا الذي احتججت به من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه والمراد بعدم معرفة معناه أي بما يستدل به الآن هذا المشرك أو المُلبَّس يستدل به على الشرك وأنت عندك يقين راسخ في قلبك أخذته من الآيات المحكمات أن الآية لا تدل على هذا الأمر الذي احتج عليها به عندك يقين بذلك.

لكن الجواب التفصيلي ليس عندك لأنه ليس عندك رسوخ في العلم ولا عندك معرفه تفصيليه فتقول له بإجابة مجمله: وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه ولا تلام في كونك ليس عندك أجوبة تفصيلية على كل ما يذكر أو يحتج به المحتج على باطله.

هذا أمر يكون لأهل الرسوخ وأهل التبع وأهل الدراية والبصيرة والاستقراء للنصوص والأدلة وهذا لا يتسنى لكل أحد. وهذا يبين لك قيمة الجواب المحكم وشدة احتياج كل طالب علم إليه.

النقطة الرابعة في جوابك له أن تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله ﷻ.

أقطع أنا بذلك أنا عندي يقين وجزم أن كلام الله لا يتناقض.

وهذه الآية ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، لو كانت دليلاً كما يزعمه هؤلاء الزاعمون أنه يجوز أن نقول: مدد ياشيخ فلان الحقني ياشيخ فلان أدركني ياشيخ فلان لأصبح الكلام في القرآن متناقضاً والعياذ بالله، لأن الله ﷻ يقول في الآيات المحكمة: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، ويقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾، ويقول: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

فالآيات كثيرة جداً تحذر من دعاء غير الله أيّاً كان ومهما كان.

فهل قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[يونس: ٦٢] تدل على جواز التعلق بالأولياء والالتجاء إليهم والطلب منهم؟ هل تدل على ذلك؟

إن قيل: نعم؛ أصبح في القرآن آيات متناقضة وآيات تدعو إلى عدم التعلق بغير الله وعدم الالتجاء إلى غير الله وآيات تدعو إلى الالتجاء إلى غير الله والتوكل على غير الله ودعاء غير الله كما يزعم هؤلاء.

فأنت تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأنت عندما تقول له هذه الكلمة تريد أن تبين له أنك على يقين أن ما احتج به من آية أو حديث لا يدل على جواز التعلق بغير الله ولو كنت لست على علم بجواب تفصيلي على الآية والحديث يكفيك أنت أن تخبره هذا الإخبار وأن تبين له هذا الأمر.

قال: «ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله» وحاشاه ﷺ أن يأتي بكلام يناقض كلام رب العالمين ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ٤.

فهذه أربعة نقاط ذكرها الشيخ ﷺ في الجواب.

النقطة الأولى: مستفادة من الآية التي ذكرها: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أَمْ أُلْكِبْنَ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] فتقول للمخالف: إن طريقة أهل الزيغ الذين ذمهم الله أنهم يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ثم تمهد له بهذا التمهيد.

وتقول له: انتبه أنا أحذرك الله ﷻ قال في آية عظيمة جداً في ﴿سورة آل عمران﴾: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أَمْ أُلْكِبْنَ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾

[آل عمران: ٧] «احذر أن تكون من هؤلاء الذين حذرنا الله منهم لا تتبع المتشابه لا ترك المحكم وتذهب تتبع المتشابه.

ربما أنت إذا قلت له هذا الكلام وكان فيه شيء من الخوف ربما تحرك فيه شيء من الخوف وقال لك: فما المحكم في هذا الباب؟

فتبدأ تنتقل للخطوة الثانية التي يذكرها لك الشيخ وهي أن تقول له:

ما قرره الشيخ سابقا عندما بين دين المرسلين ودين المشركين، فأنت تبين له دين المرسلين ودين المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ وأنهم كانوا يعتقدون أن الله الخالق الرازق المنعم المتصرف وأنهم أيضا كانوا يتعلقون بالملائكة وبالأنبياء وبالأولياء وأيضا يقولون ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ تذكر له هذه التأصيلات التي سبقت أن مرت.

فالشيخ ﷺ يعيدك إلى التأصيل السابق لكي تضبطه وتبدأ بعرضه مع المخالف خطوة خطوة حسب ما مر عليك حتى تبين له الأصول الثابتة الراسخة عندك.

بعد ذلك تنتقل للنقطة الثالثة تقول له: وما ذكرته لي من آية أو من حديث أنا لا أعرف معناه أو جوابه التفصيلي، وما عندي جواب لكن الذي ذكرته، وتطالب أن نفعله مستدلاً على الآية به أو الحديث بهمُصادم لهذه الآيات المحكمات

فما هي الطريقة التي أرشدنا ربنا إليها ويجب أن نكون عليها؟

هل نتبع المتشابه الذي تُريده أو الآيات المحكمات التي ذُكرت لك، وبُينت لك؟

ثم تذكر له أمراً رابعاً تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي

ﷺ لا يخالف كلام الله ﷻ منها إياه أن هناك أجوبة تفصيلية على هذا الذي أثرته لكنك ستجدها عند أهل العلم الراسخين، لكن حدُّنا الآن أن نكف عن هذا الأمر ونحقق التوحيد الذي خُلِقنا لأجله وأن ندع هذه الأمور المشتبهة علينا وأن نعمل بالأشياء المحكمة الواضحة التي ذكرت لك وينتهي حديثك وإياه عند هذا الحد تقول: أتريد أجوبة تفصيلية؟ انتهينا هذا حدي معك، وإذا كنت تريد أجوبة تفصيلية فلنرجه لأهل العلم المعبرين.

قال الشيخ ﷺ مؤكداً على ما مضى قال: (وهذا جواب جيد سديد).

أي: هذا الجواب الذي عرضته لك وأبنته لك هذا جواب جيد سديد ولكن مع ما قدم الشيخ وبين قال: (ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى)، ولهذا هذه الكلمات القليلة التي مرت معك في أسطر أو في صفحات قلائل يؤكد لك الشيخ أنه ليس كل أحد يفهمها ولكن لا يفهمها إلا من وفقه الله ولهذا الجأ إلى الله ﷻ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﷻ هذه الكلمات التأصيلات القوية المتينة إن لم يوفقك الله ﷻ لضبطها قد تبثلى في يوم من الأيام بمن يثير عليك هذه الشبهات، والله المستعان.

فإذا كتب الله لك التوفيق وأمدك بالعون هديت إلى صراطه المستقيم ولهذا ما أجمل بيان الشيخ رحمة الله عليه وهو يقول لك هنا (ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى) فالجأ إلى الله ﷻ واسأله بصدق وإلحاح أن يوفقك ولا تستهن به ولا تقول هذه والله أشياء معروفة واضحة وبينه «فلا تستهن به» لأن هذه أشياء عظيمة وأصول مهمة وهذه أساس ما خلقت لأجله ووجدت لتحقيقه وأساس ما

أوجدت للانتصار له والذب عنه والحماية له هذا هو الأساس وأكثر الناس ظلوا عنه وانحرفوا عنه.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تستهن بهذا الأمر ولهذا ما سبق أعدده مرات وكرات واسأل الله ﷻ أن يوفقك لضبطه لفهمه لإتقانه وراجعه مراجعة تلو الأخرى.

قال ﷺ: (إلا من وفقه الله تعالى فلا تستهن به فإنه) أي: هذا الأمر الذي ذكرته لك منزلته كمنزلة الدفع بالتي هي أحسن لأن لما أقول لك مذكرا لك بالآية الكريمة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ لما تأتي للناحية التطبيقية العملية للدفع بالتي هي أحسن أين حظك من الآية ؟ ولما تأتي في معترك الناس والاحتكاك بهمثم تحتاج إلى الدفع بالتي هي أحسن فماذا يكون؟

لأن بعض الناس في أدنى احتكاك بينه وبين شخص من الأشخاص يفعل ويغضب وقد يكون حافظا للآية والله ﷻ قال: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

فالدفع بالتي هي أحسن في الناحية النظرية وأنت تدرس سهل، فأى أحد يخاصمه شخص ما لا يتخاصم معه، بل يكلمه بهدوء، ولكن لما تأتي الناحية التطبيقية فكثير من الناس لا يلقى هذا الأمر ولا يوفق له ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وكان الشيخ رحمة الله عليه ينبه إلى أنه ينبغي الصبر للطلب والصبر لضبط هذه الأمور، والإتقان لها، وحسن ضبطها وسؤال الله ﷻ التوفيق، وأن يكون المرء من

أهل هذا الحظ العظيم والخير الكبير وهو ضبط هذه الأصول، حتى تكون سلاحاً للمسلم وهي أعظم سلاح.

وهذا الذي ذكره الشيخ في هذه الصفحات أعظم ما يحتاج إليه كل مسلم هذه المقدمات التي بدأها الشيخ خاصة في زماننا هذا والناس ابتلوا ابتلاءات كثيرة بشبهات أهل الضلال فهذه الأشياء التي سبق وقررها الشيخ لا تستهن بها، فهذه وصية الشيخ لا تستهن بها ولا تقل هذه أشياء هينة معروفة لا داعي لضبطها وتكرارها.

ولتكن سلاحاً معك وزاداً مستمسكاً به محافظاً عليه فهذا أعظم ما يكون وأعظم أمر ينبغي أن تعتني به فلا تستهن بها فإنه كما قال الله تعالى ﴿وَمَا يُلْقِنَّهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَّهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ:

فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَهُمْ اعْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ؛ مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ؛ وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاءَ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ.

فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ؛ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَمُقِرُّونَ أَنَّ أَوْثَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحْهُ».

[الشرح]

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ»؛ عرفنا أَنَّ الشَّيْخَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- اسْتَهْلَ هَذَا الْكِتَابَ النَّافِعَ بِمُقَدِّمَةِ بَيِّنٍ فِيهَا حَقِيقَةُ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمَا كَانُوا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَنَبْذِ الشَّرِكِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ حَالِ أَهْلِهِ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى كَلِمَةٍ سِوَاءٍ قَائِمَةٍ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ).

وَبَيَّنَ أَيْضًا -ﷺ- حَقِيقَةَ دِينِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ اتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالشَّرَكَاءِ وَالْوَسَطَاءِ، زَاعِمِينَ أَنَّ تِلْكَ الْأَنْدَادَ تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ -ﷻ- -زُلْفَى، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَنْدَادَ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ وَلَا تَحْيِي وَلَا تَمِيتُ وَلَا تُعْطِي وَلَا

تمنع؛ بل ذلك كله بيد الله؛ لكنهم اتخذوها وسطاء وشفعاء بينهم، وبين الله - ﷻ -: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، لم يقولوا ما نعبدهم إلا لأننا نعتقد أنهم يملكون نفعا وعطاء ودفعاً ورفعاً وحياةً وموتاً ونشوراً، لم يقولوا ذلك؛ بل هم يُقرون أن تلك الأنداد لا تملك من ذلك من شيئاً، وأن المالك لذلك كله هو الله - ﷻ -.

فبدأ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - كتابه (كشف الشبهات) بمقدمة قرر فيها حقيقة دين الأنبياء والمرسلين وما كانوا يدعون إليه من التوحيد، وبين أيضاً فيها حقيقة دين المشركين، وما كانوا عليه من اتخاذ الأنداد والوسطاء والشفعاء والأولياء، يصرفون لهم من العبادة والذل والخضوع ما لا يُصرف إلا لله - ﷻ -، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، وهذا هو أساس ضلال المشركين؛ ثم على هذا الضلال بنوا كثيراً من الشبهات التي ضلوا، وأضلوا بها كثيراً عن سواء السبيل.

ولا تزال شبهات هؤلاء متكررة عبر التاريخ وبامتداد الزمان؛ فترى الشبهة التي قيلت في قديم الزمان تعاد من المشركين عبدة غير الله - ﷻ -؛ ولهذا قال الله - ﷻ -: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فما عند أولئك.. عند هؤلاء، وما عند هؤلاء من الأعمال عند أولئك، وما عند هؤلاء من الشبهات عند أولئك، اللهم إلا أن العبارة أحياناً تتغير، أما الحقيقة والمضمون فواحد.

ثم بعد أن بين - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - في هذه المقدمة هاتين الحقيقتين: حقيقة دين الأنبياء وحقيقة دين المشركين؛ بدأ يبين - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - كيف أن المشرك يحاول

أن يجمع لنفسه ما ينصر به دينه الباطل وضلاله المبين، وأنَّ مثل هذه الشبهات ينبغي أن يكون كل مسلم على حيطَةٍ وحذرٍ منها، يحذر منها في نفسه ويحذر منها من يُخشى عليه أن يتضرر بتلك الشبهات؛ فبدأ - رحمه الله - بموضوع الكتاب والإجابة على الشبهات أو كشفها وبيان زيفها ووهائها، وقرَّر أنَّ كشف شبهات هؤلاء من طريقتين:

طريق مُجمل؛ وهو ما سماه - رحمه الله تعالى - (الجواب المُجمل) أي: الجواب الصالح لكشف كل شبهة أيًّا كانت في العقيدة أو في العبادة أو في أي باب من أبواب الدين؛ فهي بمثابة القاعدة الكلية في باب كشف الشبهات، صالحة لأن يرد بها المسلم كل شبهة تُثار.

فالجواب المجمل؛ أي: الجواب الذي لا يختصُّ بكشف شبهة معينة؛ بل هو جواب لكل الشبهات.

وأيضًا نبّه - رحمه الله تعالى - في مضامين كتابه إلى ضرورة التدرج في هذا الباب خلافاً لما عليه بعض الناس من خطأ في هذا الباب وعدم الإتيان للأمور من أبوابها؛ فمن الخطأ بمكان أن يدخل الإنسان غمار الشبهات بدون قاعدة.

ومما يُقَعَّد لطالب العلم في هذا الباب:

أولاً: معرفة حقيقة دين الأنبياء بالأدلة والبراهين، ثم يعرف حقيقة دين المشركين بالأدلة والبراهين؛ وعندما نقول بالأدلة والبراهين؛ أي: من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ثم بعد ذلك ينتقل إلى المرحلة الأخرى وهي معرفة الجواب المجمل الصالح لكشف كل شبهة يثيرها مشرك أو مبتدع، ثم بعد ذلك يدخل في الأجوبة التفصيلية؛

والأجوبة التفصيلية هي التي تختص بالإجابة عن الشبهات تفصيلاً، وما من شك أن المشركين لهم شبهات كثيرة؛ فمعرفة الإجابة التفصيلية عن تلك الشبهات تأتي مرحلةً ثالثةً في هذا الباب، كما هو التدرج الواضح في تقرير هذا الأمر وتثبيت هذا المنهج في هذا الكتاب المبارك؛ كتاب: (كشف الشبهات)؛ ولهذا بدأ هنا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بقوله: (وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ).

ولمَّا كانت الشبهات -شبهات المشركين- التي يثيرونها لتقرير باطنهم لا خطام لها ولا زمام، وهي متعددة ومتنوعة، وكثيرة وليست بقليلة، لمَّا كانت كذلك؛ أراد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أن يُبين لطالب العلم طريقة الإجابة على شبهات هؤلاء بذكر أبرز وأهم ما عندهم من شبهات، ومن ثَمَّ الإجابة عليها بإجابة مختصرة كافية وافية بالمقصود؛ فإذا عرف طالب العلم طريقة كشف الشبهات والمنهج العلمي الرصين في بيان زيفها؛ أصبح الأمر بعد ذلك عليه يسيراً بتيسير الله -ﷻ-؛ ولهذا أؤكد أننا ينبغي أن نراعي هذه المنهجية الدقيقة المتينة التي قررها -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في كتابه (كشف الشبهات) لبيان المسلك الصحيح الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في هذا الباب.

قال: (وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفْصَّلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَهُمْ اعْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسْلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ).

(عَنْهُ)؛ أي: عن دين المرسلين؛ إذا كان الأمر كذلك فإنَّ أول ما ينبغي أن يُعنى به طالب الحق في هذا الباب أن يعرف دين المرسلين معرفة صحيحة بالأدلة، فإذا عرف دين المرسلين معرفة صحيحة بالأدلة فإن ما سواه باطل، وكل شبهة تُثار

لتقرير خلافه فهي باطلة، وهذه قاعدة في ردِّ كلِّ باطل؛ أن يعرف دين المرسلين؛ أما من كان لا يعرف دين المرسلين أو معرفته بدينهم فيها ضعف؛ فإنه يُخترق بشبهات أهل الباطل.

قال: (لَهُمْ اغْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ).

هذه الشبهات لو أمعنا الناظر فيها لوجدناها لا تخرج إلا من هو: إما سيئ فهم أو سيئ قصد أو شخص جامع بين السوءين؛ أما مع سلامة الفهم وسلامة القصد فإن مثل هذه الشبهات لا تثار بإذن الله - ﷻ -.

بدأ بعد ذلك - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - يذكر أمثلة تفصيلية لشبهات هؤلاء، بدأها - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - بثلاث شبهات صدر بها الكلام على الأجوبة التفصيلية لشبهات هؤلاء، ونَبَّه في خاتمتها أن هذه الشبهات الثلاث هي أكبر ما عندهم، ونبه أيضًا طالب العلم أنك إذا عرفت هذه الشبهات واتضح لك كشفها وفهمتها فهمًا جيدًا؛ فما بعدها أيسر منها، وهذا تنبيه من الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - إلى الاهتمام بالأمر؛ فأكثر ما عند هؤلاء القوم من الشبهات، هذه الشبهات الثلاثة التفصيلية التي يبدأ بها - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - كشفه لشبهات هؤلاء تفصيلًا.

بدأ بالأولى منها؛ قال: (مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ) يتبرَّؤون ويتنصَّلون من الشرك، وهذه حال صاحب كلِّ باطل؛ ليس هناك صاحب باطل يقول عن نفسه أنا صاحب باطل، أو يقول أنا صاحب بدعة، أو يقول أنا صاحب إلحاد أو أنا صاحب شرك؛ بل:

وَكُلُّ يَدْعِي وَضَلًا بِلَيْلَى وَلَيْلَى لَا تُقَرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

فكل يدَّعي أنَّ ما عنده هو الحق؛ فليس هناك صاحب باطل يقول إنني صاحب باطل أو داعية ضلال؛ فرعون كان يقول لقومه: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ما قال: «وما أهداكم إلا سبيل الضلال»، وهو أكبر دعاة الضلال. إبليس ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾ [الأعراف: ٢١]، ما قال: «من المضلين»؛ قال: ﴿لِنَاصِحٍ﴾، وهكذا صاحب كل باطل يدعي لنفسه أنه داعية حق وينفي عن نفسه أنه من أهل الباطل؛ ولهذا لاحظ كيف يبدأ هؤلاء بنفي ذلك عنهم؛ قالوا: (نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ) تراه متلطخًا بالشرك، متلوثًا به، صريعًا لشبهاته؛ ثم يقول: لا أنا لست من أهل الشرك.

يقولون: (نَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ)، عبد القادر -أي: الجيلاني- وهو من علماء المسلمين ومن الأئمة المصلحين - كان معروفًا بحسن السيرة وحسن العقيدة؛ لكن كثيرًا من أتباعه والمتسبين إليه انحرفوا انحرافًا مبينًا، وضلوا ضلالًا كبيرًا، واتخذوا عبد القادر وليًا من دون الله، يُنزلون به من الحاجات والرغبات والطلبات ما لا يُنزل إلا الله -ﷻ-، ونسبوا إليه كذبًا وزورًا أنه يدعو إلى ذلك وأنه يرضى بذلك ويرغب بذلك، وحاكوا حول ذلك كثيرًا من الأكاذيب والقصص والتجارب المُدَّعات، وأنواعا من المنامات والخوارق التي أضلوا بها كثيرًا من الناس عن سواء السبيل؛ فأصبح يدعى من دون الله ويُدَّبح له من دون الله، ويُتَقَرَّبُ إليه بأنواع من التقربات التي لا تكون إلا إلى الله -ﷻ- والعياذ بالله.

فيقولون نحن نعتقد (أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ) لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ، (فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ)؛ أي: فضلًا عن من دون النبي ﷺ من الصالحين والأولياء، أو أيضًا من الطالحين الذين لَا يُعرفون بصلاح أو استقامة ممن اتَّخَذُوا أُنْدَادًا من دون الله.

قال: (وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ)؛ أي: أعتقد أن هؤلاء أهل صلاح وأهل مكانة عند الله - ﷻ -؛ ولهذا لَا أطلب من الله مباشرة؛ وإنما أطلب من الله - ﷻ - بواسطة هؤلاء، فأَتُخَذُهُمْ شَفْعَاءَ لِي عِنْدَ اللَّهِ - ﷻ -، وهذا عين ما ذكره الله - ﷻ - عن المشركين الأول: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: وسطاء لنا عند الله؛ فإذا قال لك هذا الكلام، وانتبه لتبيين الشيخ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أن هذه أكبر ما عندهم من الشبهات، نحن ما نشرك ونحن نعتقد أَنَّ الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله، ونعتقد أَنَّ النبي ﷺ وعموم الأولياء والصالحين لَا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؛ ولكننا ندعوهم ونستغيث بهم ونلتجئ إليهم ونطلب منهم المدد والعون والعافية والشفاء وغير ذلك؛ لأنَّ لهم جَاهًا عِنْدَ اللَّهِ - ﷻ - ومكانة عليَّة عنده؛ فنحن نطلب من الله بهم - أي: بواسطة هؤلاء - فنجعلهم بيننا وبين الله - ﷻ - شفعاء ووسطاء؛ فكيف تجيبه إذا ذكر لك هذه الشبهة؟

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: (فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ)؛ أي: بما تقدم معك في هذا الكتاب من تقرير لحقيقة دين المشركين، وقرأ عليه الآيات التي قررت حقيقة دين المشركين، وأن المشركين لا يعتقدون في الأصنام المتخذة من دون الله أنها تنفع وتضر وتمنع وتخفض وترفع؛ بل يعتقدون أن ذلك كله بيد الله -ﷻ-، ومَرَّ معنا آيات عديدة ساقها المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-؛ مثل قول الله -ﷻ- ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ ماذا يقول المشركون إذا سئلوا هذه السؤالات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ أي: سيقولون هذه الأمور كلها بيد الله -ﷻ-، لا يقولون إنها بيد الأصنام.

وإذا سئل المشركون الأول لِمَ تعبدون هؤلاء وأنتم تعتقدون أنها لا تنفع ولا تعطي؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فتقول لهم: ما الفرق بين حقيقة دين المشركين التي بينها الله -ﷻ- في القرآن، وبين هذا الأمر؟ وضحوالي الفرق، بعد أن تبين لهم أن هذا الذي ذكره هو نفس الكلام الذي قرره الله -ﷻ- في كتابه عن المشركين الأول، وقرأ عليهم الآيات التي تبين حقيقة دين المشركين.

قال: (فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ) عرفت أنت ما المراد بقوله: (مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ)؛ أي: من أن الخالق الرزق المنعم المدبر هو الله، وأن الأنبياء والأولياء لا يملكون نفعاً ولا دفعاً ولا عطاءً ولا منعاً ولا حياةً ولا موتاً ولا نشوراً.

(وَمُقَرُّونَ أَنْ أَوْثَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ)؛ أي: المشركون الأول إنما أرادوا بتلك الأصنام الجاه والشفاعة.

(وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ)، وضَّحه له؛ يعني اقرأ عليه الآيات التي قرر الله - ﷻ - فيها حقيقة دين المشركين ووضح له هذه الآيات حتى يعرف معناها، ثم قل له: ما الفرق بين هذا الذي تقول وبين الذي كان عليه هؤلاء الذين بين الله - ﷻ - حقيقة دينهم في القرآن الكريم؟! هنا تنتهي الشبهة الأولى بجوابها.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيهِمْ يَعْْبُدُ الْأَصْنَامَ، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟ فَجَاوِبُهُ بِمَا تَقَدَّمَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَقْرَأَ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرَّبُّوبِيَّةِ كُلِّهَا لِلَّهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِمَّنْ قَصَدُوا إِلَّا الشُّفَاعَةَ؛ وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ؛ فَادَّكَّرَ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية. [الإسراء: ٥٧].

وَيَدْعُونَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤَفَّكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة ٧٦: ٧٥].

وَادَّكَّرَ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِنَّا كَرَّمْنَاكَ أَنْتَ سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِئِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِئْتِي إِلَهُي مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ كَفَرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُضِرَّ بَيْنَهُمْ».

[الشرح]

ثمَّ بعد ذلك انتقل -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- إلى ذكر الشبهة الثانية والجواب عليه؛ لكن قبل ذلك فيما يتعلق بالشبهة الأولى والجواب عليها أريد أن تنبّه إلى أن قول الشيخ -رحمه الله- في تمام جوابه على الشبهة الأولى: (واقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ) أراد -رحمه الله- أن تقرأ عليه نوعين من الآيات:

النوع الأول: الآيات التي تُقرّر أن المشركين يُقرّون بأن الخالق الرازق المنعم المعطي المحيي المميت هو الله لا شريك له، وهي كثيرة، وأنهم لا يعتقدوا فيمن اتخذوهم من دون الله أولياء شيئاً من ذلك، فهم لا يعتقدون في الأنداد أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وتعطي وتمنع، لا يعتقدون فيها ذلك، فاقرأ عليه الآيات التي تبين هذا الأمر.

النوع الثاني من الآيات: أن تقرأ عليه الآيات التي تبين أن عبادة المشركين للأصنام والأوثان واتخاذهم للأنداد؛ إنما هو من أجل أن تقرّبهم إلى الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، فتقرأ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، تقرأ عليه الآيات في هذا الموضوع، والآيات التي تقرّر أن العبادة حق لله -رحمه الله- ليس مع الله فيها شريك كائناً من كان.

بعد ذلك ذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الشبهة الثانية؛ قال: (فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ

نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ)، متى يقول لك من اتخذ مع الله شركاء هذه الكلمة؟ (هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ) تسمعها منه إذا تلوت عليه الآيات؛ ولهذا من لا يعتني بالآيات وتلاوتها في مقام الجواب على المشركين لم يصبح مؤهلاً لدعوتهم وكشف شبهاتهم؛ لأن أساس كشف شبهات المشركين تلاوة آي القرآن الكريم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]؛ فإذا تليت عليه هذه الآيات سيقول لك -في الغالب-: هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، أي: هذه الآيات التي تتلوها عليّ نزلت فيمن يعبد الأصنام، نزلت فيمن يدعو اللات والعزى ومناة، ومن يعبد أحجاراً وصخوراً، (كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟) وهذه طريقة عند هؤلاء للتشنيع على أهل الحق وإثارة الشوشرة على أصحاب الحق؛ (كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟) نحن لم ندعُ اللات -يقولون- ولا العزى ولا مناة ولا غيرها من الأصنام، نحن دعونا الأنبياء ودعونا الأولياء ودعونا من لهم مكانة عند الله -ﷻ- فكيف تقرأون علينا الآيات التي أخبر الله -ﷻ- بها حال من يعبدون الأصنام؟! فهذه الآيات لا علاقة بها بموضوعنا وبأمرنا لا من قريب ولا من بعيد، لأنها تتعلق بقوم كانوا فبانوا، نزلت في أقوام يعبدون الأصنام وحاربهم النبي ﷺ وانتهى أمرهم، أما نحن مالنا ولهؤلاء وما أبعد حالنا عن حال هؤلاء؟ نحن ندعو

الأنبياء وندعو الأولياء وندعو الصالحين ممن لهم المكانة العلية عند الله - ﷻ -
فكيف تتلون في حقنا آيات إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام؟

هكذا سيقول، فكيف يُجاب عن هذه الشبهة؟ أحبُّ أن أنبهك أنَّ الشيخ -رحمة الله عليه- عندما يبين لك مثل هذه الشبهات والأجوبة عنها، بيَّنها بعد أن دخل معتركا طويلاً مع خصوم كثر مشافهة ومكاتبة وجاهد في الله جهاداً عظيماً في تقرير التوحيد ونصرته وإبطال الشرك وبيان زيفه؛ فنفع الله - ﷻ - بما كتب نفعا عظيماً، ولهذا يعطيك عُصرة عن خبرة وتجربة واسعة جداً في هذا الباب العظيم، وإذا خضت هذا الغمار نفعا لعباد الله - ﷻ - سترى أنه أحسن في صنيعه أيما إحسان -رحمة الله تعالى-.

قال: (فجوابه بما تقدّم) لازلنا باقين مع الأساس الذي يُبنى عليه الموضوع (فجوابه بما تقدّم) بما تقدم في صدر الكتاب من تقرير لحقيقة دين الأنبياء، وحقيقة دين المشركين، وأنَّ الأنبياء دعاة لله - ﷻ - وإخلاص التوحيد له، وأنَّ المشركين دعاة لاتخاذ الأنداد والأولياء من دون الله - ﷻ -، وتذكر له أنَّ المشركين الأول كانوا يقرون بالربوبية ويقولون أنَّ الله هو الخالق الرازق النافع الضار المعطي المانع، وأنَّ هذه الأصنام التي اتخذوها من دون الله لم يتخذوها إلا لغرض أن تقربهم إلى الله؛ لأنها بزعمهم لها مكانة عند الله - ﷻ -، فهم اتخذوها من أجل أن تقربهم إلى الله - ﷻ - زلفى.

(فإنه إذا أقرَّ أنَّ الكفار يشهدون بالربوبية كُلِّها لله، وأنَّهم ما أرادوا مما قصدوا إلا الشفاعة؛ ولكن أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر)؛ يعني: إذا كان يُقرُّ

لك بأن المشركين الأول يقرون بالربوبية، وأن الربوبية أمرها لله وحده وليست بيد الأصنام والأوثان شيئاً من ذلك، ولكنه أراد أن يفرق بين فعله وهو دعاء الأنبياء والأولياء والصالحين وبين فعل أولئك الذين يتخذون الأصنام الأحجار من دون الله، فماذا تصنع معه حينئذ؟ إذا أراد أن يفرق بين الآيات التي تلوتها عليه وبين صنيعه بأن الآيات التي تلوتها عليه إنما هي مُنْصَبَةٌ في حق من دعا صنماً من حجر أو شجر أو نحو ذلك، وأنها لا تشمل من دعا نبياً أو دعا ولياً، يقول الشيخ: إذا أراد ذلك (فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ) ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]؛ منهم من يعبد الأصنام، منهم من يعبد الشمس، منهم من يعبد القمر، منهم من يعبد الأحجار والأشجار، (وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ) القرآن دَلَّ عَلَى ذَلِكَ، قل له: القرآن دَلَّ عَلَى أَنَّ المشركين الذين كانوا خصوصاً للأنبياء والمرسلين؛ منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد غير ذلك، وقل له: عندي آيات من القرآن الكريم تدلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّ المشركين الذين ذَمَّ الله باطلهم وضلالهم في القرآن ليسوا فقط من كان يعبد الأحجار والأصنام؛ بل منهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الأنبياء، ومنهم من عبد الأولياء، ومنهم من عبد الملائكة، هكذا قل له؛ فإذا قال لك: أعطني الآيات، هاتِ الآيات التي تدلُّ عَلَى أَنَّ المشركين منهم من كان يعبد الأنبياء وأن منهم من يعبد الأولياء، وأن منهم من يعبد الملائكة، هاتِ الآيات التي تدلُّ عَلَى ذَلِكَ، اقرأ عليه الآيات.

قال - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ما هي حال المدعوين هؤلاء؟ فتأمل في حال المدعوين من دون الله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ما هي حالهم؟ أصنام؟ أحجار؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ هؤلاء أولياء الله من أرفع وأعظم أولياء الله ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

بل عندهم أساس الولاية التي عليه تُبنى وهو أن يكون مُحبًّا لله - ﷻ - متقربًا إليه وحده، راجيًا رحمته، خائفًا من عذابه، وهذه أركان التعبد القلبية الثلاثة؛ فهؤلاء عباد الله من أولياء الله المقربين وكانوا يُدْعَوْنَ من دون الله، وقد قيل في معنى هذه الآية: إنها نزلت في نفر من الإنس كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم هؤلاء الجن وصلحت حالهم مع الله، واستمر أولئك على عبادتهم لهم من دون الله، وقيل: إنها كانت نزلت فيمن يدعو العزير وعيسى من دون الله - ﷻ -.

فإذن هذه الآية من ﴿سورة الإسراء﴾: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ نزلت فيمن يعبد وليًا من الأولياء أو نبيًا من الأنبياء؛ على قولين: إما أنه في الأولياء أو في الأنبياء، وهي على كلا القولين حجة على أولئك القائلين أن أولئك إنما كانوا يعبدون الأحجار والأصنام.

(وَيَدْعُونَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَنَهُ) أيضًا؛ قل لهم: من المشركين من كان يدعو

الأنبياء والأولياء، عيسى نبي وأمه وليّة من أولياء الله، ليست من الأنبياء، الأنبياء ليسوا إلا رجالاً، فهي من أولياء الله، أمه من أولياء الله، وعيسى نبي من أنبياء الله ومن الرسل المقرّبين، عبد من دون الله، وأمه عبّدت من دون الله، هو نبي وأمه وليّة، وعُبدًا من دون الله - ﷻ - ؛ إذن المشركين الأوّل لم تكن عبادتهم مختصة بعبادة الأصنام، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، والآيات جمعت لك الأمرين، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ الآية.

هذا السياق الآن إنكار على من عبد صنماً من الأصنام؟ أم هو إنكار على من عبد نبياً من الأنبياء أو ولياً من الأولياء؟ هذا السياق إنكار على من عبد نبياً من الأنبياء ووليّاً من الأولياء، عيسى ﷺ نبي وأمه وليّة من الأولياء وعُبدًا من دون الله - ﷻ - وأنكر الله - ﷻ - ذلك على من فعله ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ولو قرأت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ربما قال لك هذه نزلت في من عبد صنماً، قل له: اقرأ ما قبلها، فيمن عبد عيسى وأمه.

قال: (وَإِذْ كُنَّا لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ

أَهْوَلَاءَ إِيَّاكَ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ
بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِجَنِّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴿سبأ: ٤٠-٤١﴾
هذه الآية تدل على أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ عِبَدَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
-، ولهذا الملائكة تتبرأ يوم القيامة من هؤلاء وأَنهم لَا يَرْضُونَ بِذَلِكَ.

(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ
عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦])
إِذْنِ هَذِهِ الْآيَاتِ تَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ الْمَشْرِكِينَ الْأَوَّلَ الَّذِينَ ذَمَّ اللَّهُ شَرَكَهُمْ فِي
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الصَّنَمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ النَّبِيَّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْوَلِيَّ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَيَكُونُ بِذَلِكَ اتِّضَاحُ جَوَابِ هَذِهِ
الشَّبَهَةِ؛ عِنْدَمَا يَقُولُ: هَذِهِ الْآيَاتُ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي مَنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ
الْأَصْنَامَ، نَحْنُ فَقَطْ اتَّخَذْنَا الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَسُطَاءَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ -، فَفَرَّقَ بَيْنَا
وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ، فَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ تَقْرَأُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ.

قَالَ الشَّيْخُ: (فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الْأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ
الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ) نَبِينَا ﷺ لَمْ يَفَرِّقْ بَيْنَ كُفْرِ
مَنْ عِبَدَ صَنْمَ وَكُفْرِ مَنْ عِبَدَ نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا؛ بَلْ كُفِّرَ هَؤُلَاءِ بِأَبْوَابٍ وَاحِدَةٍ كُلُّهُ شَرَكٌ بِاللَّهِ
-، وَاتَّخَاذُ لِلْأَنْدَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْوَسُطَاءِ يَصْرِفُونَ لَهُمْ مِنَ الْعِبَادَةِ مَا لَا يُصْرِفُ
إِلَّا اللَّهُ -.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ؛ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ؛ فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وَأَعْلَمُ: أَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَحَهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهِمْتَهَا فَهَمًّا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا».

[الشرح]

ثم ذكر - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هنا شبهة هؤلاء الثلاثة.

قال: (فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ)؛ إِنْ قَالَ الْكُفَّارُ؛ أَيِ: الْكُفَّارِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ، وَنَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَاتُ، قَدْ مَرَّ مَعَنَا شَيْءٌ مِنْهَا، وَتَكُونُ أَنْتَ أَيْضًا قَدْ تَلَوْتَ شَيْئًا مِنْهَا، فَإِذَا قَالَ لَكَ: (الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ) يَرِيدُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ أَيِ: يَقْصِدُونَهُمْ رَاجِينَ مِنْهُمْ طَالِبِينَ مِنْهُمْ حَظوظًا وَحَاجَاتٍ دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً، (وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ)؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَكَ: أَنَا مُجَرَّدٌ اتَّخَذْتُ هَؤُلَاءِ وَسَائِطَ، أَنَا لَا أُرِيدُ مِنْهُمْ ابْتِدَاءً؛ وَإِنَّمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ شَفَاعَةَ وَوِاسِطَةَ عِنْدَ اللَّهِ، فَأَنَا أُرِيدُ مِنَ اللَّهِ؛ لَكِنْ هَؤُلَاءِ جَعَلْتَهُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ وَاسِطَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْرَبُونِي إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنِّي مُذْنِبٌ وَمَقْصُرٌ وَهُمْ لَهُمْ مَكَانَةٌ عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ

- ومنزلة رفيعة عنده، فأنا لا أريد منهم مباشرة ولا أطلب منهم مباشرة؛ لأنهم لا يملكون من ذلك شيئاً؛ لكنني أريد أن يكونوا واسطة بيني وبين الله - ﷻ -.

(فَإِنْ قَالَ: الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الصَّارُ الْمُدَبِّرُ لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ) فهذا الكلام الذي يقوله هو الآن، هل تجد بينه وبين عمل المشركين الأول فرقاً؟ المشركون يقولون: نحن لا نريد إلا من الله - ﷻ - وهذه لا تنفع ولا تعطي ولا ترفع ولا تملك، والآيات مرت معنا - غير مرة - دالة على ذلك، إذن لماذا تدعونهم وتطلبون منهم؟ قالوا: من أجل أن يقربونا إلى الله - ﷻ - ويكونون وسطاء بيننا وبينه - سبحانه -، ولهذا قال الشيخ: (فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ)؛ أي: شبراً شبراً، ذراعاً ذراعاً، هذا نفس العمل الذي عمله الكفار الأول وهذا نفس قول الكفار الأول، حتى إنهم عندما يُسألون يجيبون بذلك؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ما قالوا: ما نعبدهم إلا لكوننا نعتقد فيهم أنه ينفعونا أو يدفعونا أو يرفعون أو غير ذلك، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

قال: (فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وَأَيْضًا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾) الآية من أولها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أي: وسائط بيننا وبين الله - ﷻ -، اقرأ عليه مثل هذه الآيات.

وبهذا يكون الشيخ قد أجاب باختصار عن أكبر الشبهات هؤلاء، ولا تزال هذه الشبهات هي أكبر ما عند القوم وتكرر منهم عند أي انتقاد يكون منهم على ما هم عليه من شرك وضلال وباطل.

قال - ﷺ -: (وَاعْلَمَ: أَنَّ هَذِهِ الشُّبَّةَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ)؛ أي: أكبر ما يحتج به هؤلاء هذه الشبه الثلاث.

وتأكيداً لما سبق، فإن الشيخ -رحمة الله عليه- عندما يقول لك: إن هذه أكبر ما عندهم؛ يقوله عن بصيرة وعلم بحال هؤلاء، ودخل معهم معتركا طويلاً في حياة مديدة في الجهاد والنصح بدين الله - ﷻ -، فهذه أكبر ما عندهم، فأكثر الشبهات التي واجهت الشيخ - ﷻ - وواجهت أيضاً المصلحين دعاة التوحيد والحق أكبر الشبهات التي يثيرها هؤلاء هي هذه الشبهات الثلاث.

قال: (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَحَّهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهَّمْتَهَا فَهَمًّا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا) إذا كان أكبر ما عند القوم أطيح به بهذه السهولة واليسر من خلال كلام الله وكلام رسوله ﷺ وفهم القرآن والسنة؛ فما بعدها من شبهات القوم أيسر من ذلك.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ،
وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ.

فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تَقْرَأُ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؟ فَإِذَا قَالَ:
نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ
وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ.

فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ وَلَا أَنْوَاعَهَا، فَبَيِّنْهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فَإِذَا
أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا، فَقُلْ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ هَذَا عِبَادَةً لِلَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ،
وَالدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ.

فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقَرَّرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللَّهَ لَيْلًا وَنَهَارًا خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ
دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ غَيْرَهُ؟ فَلَا
بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: فَإِذَا عَمِلْتَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحَرَّ﴾ [الكوثر: ٢]،
وَأَطَعْتَ اللَّهَ وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: إِذَا
نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ نَبِيٍّ أَوْ جَنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللَّهِ؟
فَلَا بُدَّ أَنْ يَقْرَأَ وَيَقُولَ: نَعَمْ.

وَقُلْ لَهُ أَيْضًا: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ، هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ
الْمَلَائِكَةَ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَلَاتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالْإِلْتِجَاءِ
وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَهُمْ مُقَرَّبُونَ أَنَّهُمْ عَبِيدُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ
الْأُمُورَ؛ وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ، وَالتَّجَنُّوا إِلَيْهِمْ لِلْجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جَدًّا.

[الشرح]

هذه شبهة يطرحها المُشَبَّه الذي ابتلي بغير عبادة الله - ﷻ - من حجر أو شجر أو
ولي أو غير ذلك، وسبق أن ذكر الشيخ - رحمه الله تعالى - ثلاث شبه، ذكر أنها أكبر
ما عند القوم من الشبهات التي يطرحونها مخاصمةً منهم للتوحيد ومعاندةً منهم
للحق، والشبه الثلاثة التي بدأ ﷻ بذكرها والإجابة عنها تتلخص في:

الشبهة الأولى: هي حصرهم أو ادعائهم أو زعمهم انتفاء الشرك مع إقرار
توحيد الربوبية، الشبهة الأولى: زعمهم انتفاء الشرك مع الإقرار بتوحيد الربوبية،
وسبق أن أجاب الشيخ ﷻ عن هذه الشبهة ووجه ﷻ أن يُتلى عليهم من آي القرآن
ما يكشف ذلك ويزيله، وسبق أيضا البيان أن الآيات التي تتلى عليه في هذا الباب
نوعان من الآيات:

أولاً: الآيات التي تُبَيِّنُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقْرَءُونَ بِتَوْحِيدِ الرَّبُّوبِيَّةِ، وَأَنَّ هَذَا
التَّوْحِيدَ وَحْدَهُ وَالْإِقْرَارُ بِهِ لَا يَكْفِي وَلَا يُنْجِي، لَا يَكْفِي فِي حَصُولِ التَّوْحِيدِ، وَلَا
يُنْجِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ - ﷻ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

والنوع الثاني: من الآيات التي تتلى عليهم هي الآيات التي تقرر توحيد العبادة وإخلاص الدين لله - ﷻ -.

والشبهة الثانية: حصرهم الشرك في عبادة الأصنام، عندما يُخَصِّمُونَ أو يُتَّقِدُونَ في عبادتهم لغير الله - ﷻ - يزعم بعضهم أن الشرك محصور في عبادة الأصنام، وسبق أيضاً جواب الشيخ على ذلك، ومن أجوبته على ذلك أن تتلوا عليهم آيات التي تقرر أن المشركين الأول منهم من عبد الأصنام ومنهم من عبد الملائكة ومنهم من عبد الأنبياء ومنهم من عبد الأولياء ومنهم من عبد غير ذلك.

والشبهة الثالثة: زعمهم أن الكفار الأول كانوا يريدون ممن يدعونهم وأنه لا يريد منهم إلا الشفاعة، ومضى أيضاً الجواب على هذه الشبهة وأن هذا هو عين فعل المشركين، فإنهم كانوا يتخذون الأنداد والوسطاء لا يريدون منهم إلا الشفاعة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فهذا ملخص ما مر معنا من شبهات ثلاث وأجوبة الشيخ ﷻ عن ذلك مختصراً. ثم ذكر هذه الشبهة لهم وأجاب عنها من وجهين: أجاب عنها أولاً: بجواب وافٍ كافٍ في الإقناع وإقامة الحجة، ثم بعد ذلك ذكر جواباً آخر عن هذه الشبهة وهو جواب قوي، وهذه أيضاً من طريقة الشيخ ﷻ في هذا الكتاب، من طريقته - رحمه الله تعالى - في هذا الكتاب أنه يجيب على الشبهة بما هو كافٍ في كشفها وبيان زيفها ووهائها، ثم يعيد الكرة بجواب آخر، وهو يشير بهذا إلى أن شبه القوم يمكن كشف زيفها من وجوه كثيرة، فيكون ذكره للوجه أو الوجهين أو الثلاثة في

هذا المختصر تنبيهاً منه ﷺ أن كشف مثل هذه الشبهات يكون من وجوه عديدة وبأجوبة متنوعة سديدة.

قال ﷺ: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْإِلَٰهَ إِلَهُهُمْ، وَدَعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ»، هذه الشبهة، إذا قال أنا لا أعبد إلا الله، معنى «لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ» أي: أن عبادتي كلها لله خالصة، لا أجعل معه شريكاً في شيءٍ منها، هذا زعمٌ يزعمه، ودعوى يدعيها، والدعوى لا بد أن يُقام عليها البيّنة، فمن يدّعي أنه لا يعبد إلا الله فإنه يجب عليه أن يكون كذلك حقاً وصدقاً، وقول القائل: لا إله إلا الله هذه معاهدةٌ وعهدٌ وميثاقٌ، أن يُوحّد الله - ﷻ - في العبادة وأن يُخلص الله - ﷻ - الدين، لا أعبد إلا الله؛ أي: أخلص الدين كله لله ولا أجعل مع الله شريكاً في شيء من ذلك، وهذا هو معنى لا إله إلا الله؛ لكن بعض من يقول هذه الكلمة لا إله إلا الله أو أيضاً يقولها: بهذا اللفظ الذي ساقه الشيخ عنهم: «أنا لا أعبد إلا الله»، يقولها ولا يعرف حقيقة معناها، فبعضهم يقول: لا إله إلا الله، وهو لا يعرف ما نفته هذه الكلمة ولا يعرف ما أثبتته، لا يعرف الشرك الذي نفته هذه الكلمة، ولا يعرف أيضاً الإخلاص والتوحيد الذي أثبتته هذه الكلمة؛ ولهذا بعضهم يقول: «لا إله إلا الله» ويثبت ما نفى وينفي ما أثبتت مناقضاً لهذه الكلمة ومُراغماً لما دلت عليه من التوحيد والبراءة من الشرك والخُلوص منه، فإذا نزل قول القائل من هؤلاء: «أنا لا أعبد إلا الله» هذه دعوى لا تكفي بحد ذاتها حتى يقيم عليها برهاناً من حاله وواقع أمره بأن يقيم وجهه لله - ﷻ - مخلصاً، فلا يجعل مع الله - ﷻ - شريكاً في شيءٍ من العبادة.

ومن يقول: لا أعبد إلا الله يُفترض لكي يكون صادقاً في دعواه: أن يكون على

علم بحقيقة العبادة التي قال عن نفسه أنه لا يصرفها لغير الله، «لا أعبد إلا الله» أي: لا أصرف شيئاً من العبادة لغير الله - ﷻ -، فإذا كان من يقول: «لا أعبد إلا الله» يصرف شيئاً من العبادة لغير الله؛ فيكون بحثك معه وكشفك لخطئه بالطريقة التي ستأتي عند المصنف ﷻ في جوابه لهذه الشبهة: ألا وهو أن تبحث معه في حقيقة العبادة، وأن تعرّفه بحقيقتها؛ ليتضح له أن في أفعاله ما هو مناقض لقوله ودعواه بسبب عدم فهمه لحقيقة العبادة التي ادعى بقوله أنه لا يصرف شيئاً منها لغير الله - ﷻ -، يقول: «أنا لا أعبد إلا الله» أي: لا أصرف شيئاً من العبادة إلا لله - ﷻ -، هذا الكلام توحيد، «لا أعبد إلا الله» لا أصرف شيئاً من العبادة إلا لله هذا توحيد؛ لكنها من هؤلاء دعوى لا يصدقها واقع حال هؤلاء؛ ولهذا أنظر ماذا يقول بعد قوله أنا لا أعبد إلا الله: «وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ، وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ»، إذن هو يلتجئ لغير الله ويدعو غير الله، ويُخرج الإلتجاء لغير الله ودعاء غير الله - ﷻ - يخرج من مفهوم العبادة، ويزعم أنه ليس داخلا في العبادة.

فمثل هذه الشبهة إذا طرحها أحد هؤلاء كيف يكون جوابك له وكشفك لشبهته؟، يقول الشيخ - رحمه الله تعالى - : «فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تَقْرَأُ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ؟»، تقرأ بذلك؟ ماذا سيقول؟

هو بين أحد جوابين:

إما أن يقول: نعم، أنا أقرّ بإخلاص العبادة لله - ﷻ -، وللکلام معه حينئذ مجال.

أو أن يقول: لا، أنا لا أقرّ بإخلاص العبادة لله - ﷻ -، وأنه يجوز أن يُصرف شيء

من العبادة لغيره - ﷻ -، فهذا أيضا للكلام معه مجال آخر: وهو أن عدم إقراره لإخلاص العبادة لله نقض لقوله: «أنا لا أعبد إلا الله».

فيقول: إذا قال نعم، إذا قلت له أنت تقرّ أن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله فإذا قال: نعم، أي: نعم أنا أقر بأن الله افترض عليّ إخلاص العبادة له ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ و يقول ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ و معنى الخالص الصافي النقي، و معنى إخلاص العبادة لله أن يفرد وحده ﷻ بالعبادة فلا يجعل معه شريك في شيء منها ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ هذا هو معنى الإخلاص في العبادة أن تجعل العبادة كلها لله، و الخالص هو الصافي النقي فتكون العبادة من العابد صافية نقية لم يرد بها و لا بشيء منها إلا الله ﷻ فتبدأ معه الحديث بقولك: هل تقر بأن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله ؟ و يمكن أن تتلو عليه بعض الآيات السابقة، أو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ تقر بذلك ؟ أن العبادة حق لله و أنها يجب أن تخلص له ﷻ و أن لا يصرف شيء منها لغيره، تقر بذلك ؟ فإذا قال لك: نعم، فتنتقل معه لبيان حقيقة العبادة، و نلاحظ هنا أن الشيخ ﷻ يقرر طريقة بديعة جدا في مناقشة الخصم و إلزامه إلزامات قوية لا مفر له منها، فهنا أتى الشيخ ﷻ في جوابه للخصم من شيء يقر به، فإذا قال لك: نعم؛ معناه فيه قاعدة يقر بها الخصم و تكون منطلق لك في مناقشته، وهذا الذي طرحه الشيخ لا يمكن للخصم أن يرفضه أو ينفيه، فعندما تقول له: هل تقر أن العبادة يجب أن تخلص لله و أن الله افترض علينا إخلاصها له ؟ و تقرأ عليه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فما يقول

لك: أنا لا أقر بذلك، بل في الغالب - والله تعالى أعلم - أنه سيقول: نعم أنا أقر، فإذا أصبح بينك وبينه أمر يقر به فتنتلق من خلاله لإقامة الحجة عليه وإزالة الشبهة عنه، فقل له: بين لي هذا الذي فرضه الله عليك، وهو إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك، فطالبه أن يبين لك هذه العبادة التي هو يقر بأن الله افترض عليه أن يخلصها له سبحانه، قل له: إن عرفت العبادة وبيّنت لي حقيقتها فمعرفتكم بها وبحقيقتها هو الذي في ضوئه يمكن أن نعرف إمكانية الإخلاص من عدمه لأن فاقده الشيء لا يعطيه وكيف يتحقق منه أن يخلص لله وهو لا يعرف هذا الشيء الذي سوف يخلصه أو يجعله خالصا لله فإذا تبحت معه حيثئذ في حقيقة العبادة.

قال: فقل له بين لي هذا الذي فرضه الله عليك وهو إخلاص العبادة لله، وهو حقه عليك.

فرضه الله عليك وهو إخلاص العبادة، هذا دليله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وقوله ﷺ: «وهو حقه عليك» دليله: حديث معاذ ﷺ: «هَلْ تَذَرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(١)، ومنه سمى رحمه الله تعالى كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد».

قال ﷺ: «فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها»، لو قلت له بين لي العبادة، عرّف العبادة، ما هي العبادة؟ ستجد أنه لا يعرف العبادة، إمّا أن يعرفها تعريفا

خاطئاً أو أن يعرفها تعريفا ناقصاً أو أنه سوف يخرج في تعريفه لها ما هو داخل في حقيقتها مثل ما هو واضح في كلامه كلام الخصم، أنا لا أعبد إلا الله والالتجاء ليس عبادة فسترى فيه خللاً في هذا الجانب وهو فهم معنى العبادة، فما هي الطريقة التي تناقشه فيها من أجل إلزامه لأنه قال لك أنا ألتجأ إلى غير الله، أدعو غير الله وهذا الالتجاء وهذا الدعاء ليس عبادة، فأنت من خلال هذا عرفت أن مفهوم العبادة عنده فيه خلل،

فتبدأ تبحث معه بهذه الطريقة، يقول الشيخ رحمه الله: «فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها فيبين له بقولك قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾».

أتى الشيخ بهذه الآية لأنها دليل صريح واضح يبين أن الدعاء عبادة، لأن الخصم يرى أن دعاءه ليس بعبادة، فأنت تأتي بآيات صريحة في أن الدعاء عبادة، وهذه الآية واضحة أن الدعاء عبادة من جهة أمر الله ﷻ به ودلالة الآية على حبه لأهل الدعاء المخلصين له ورضاه عنهم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فمفهوم الآية أن من يدعو الله مخلصاً له ﷻ يحبه الله ﷻ لأنه يقوم بطاعة عظيمة وفي الحديث: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»^(١) وفي الحديث الآخر: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»^(٢) فالله ﷻ يحب الدعاء ويحب عباده الداعين، «الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمُ

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٨٦).

جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»^(١)، و لك
أيضا أن تتلو عليه آيات أخرى في الباب مثل قول الله ﷻ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ سمي الله عز و جل الدعاء عبادة،
وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «الدَّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(٢).

أيضا قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ
(٦) ، فسمى تبارك و الدعاء عبادة، و الأدلة على هذا المعنى كثيرة، فأنت أورد
له الآيات و كلما جمعت له أكبر قدر من الآيات فهذا فيه شفاء بإذن الله ﷻ، و لهذا
تحرص على أن تأتي له بعدد من الآيات التي تقرر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ
ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ. فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ (٥٦) أُولَئِكَ
الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ و قوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ
نَدَعُوا مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴾ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ
سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ ﴾ سمي ﷻ صرف الدعاء
لغيره شركا أيضا في قوله: ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في

«صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٦).

مُثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿١﴾ وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْمَسَ جِدَ اللَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، فأيات كثيرة في هذا المعنى اقرأ عليه ما يتيسر لك من الآيات التي تحفظها في هذا الباب.

ولا أنسى قصةً مرّت عليّ مع شخصٍ كان جالساً إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات، وكنت أقرأ القرآن وكان مادّاً يديه يدعو، ثمّ ازداد في اجتهاده بالدعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه؛ فأثر فيّ خشوعه، ثمّ رفع صوته قليلاً في دعائه فإذا به يقول في دعائه متذللاً: (يا رسول الله)، ويعرض حاجاته، مستغيثاً مستنجداً! فتحدثت معه طويلاً: بدأت حديثي معه أولاً بسؤاله عن صحته وعن بلده وعن أولاده وعن سفره وعن أمور عديدة، ثمّ لما اطمأنّ للحديث معي انتقلتُ إلى جانب آخر وهو أهميّة الدعاء ومكانته في الدين، وأخذتُ أسوقُ له آيات وأحاديث عديدة في فضله، ففرح بها لأنّه كان يدعو، ثمّ التفت إليّ وكأنّ الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويبيكي يريد من الرسول عليه الصّلاة والسلام أن يكشفها عنه ويجليّها، ثمّ انتقلتُ إلى حديث آخر أبين فيه أنّ الدعاء حقٌّ لله ﷻ وحده، وأنّ هذه المسألة بيّنت في القرآن بياناً واضحاً لا خفاء فيه، وأخذتُ أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْبِتُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ

وقوله ﷺ: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) ﴿سبأ﴾.
وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ (٥) ﴿الأحقاف﴾.

وآيات في هذا المعنى عديدة، ثُمَّ انتقلتُ إلى السُّنَّةِ وبدأتُ أذكر له أحاديث نبوية في ذلك، وكل ذلك وهو يصغي إليّ، ثُمَّ ذكرت له أمثلة من أدعية النَّبِيِّ ﷺ، قلت له: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(١).

وكان إذا خرج ﷺ من بيته قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»^(٢).

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلًا فَقَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مِتُّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(٣).

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

وذكرت له نماذج واضحة لا لبس فيها يفهمها العامي فضلاً عن غيره، أنهيت وهو يسمع بكل إصغاء وإنصات، فأحبيت أن أطمئن هل فهم الرجل أم لا؟ وهل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحْتُ عليه سؤالاً: ما رأيك؟

فقال لي: تقول لي ما رأيك؟! وأنت تقرأ عليَّ آيات وأحاديث؟!!

فقلت: لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل استوعبت وفهمت وعقلت معاني هذه الآيات والأحاديث أم لا؟ فقال لي كلمة عجيبة: أنا من بلد كذا وكذا - سمى لي بلده - ما أعقل أن أحدا قال لي هذا الكلام! أي أنه نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات، وإذا حضر درساً أيضاً عرضت عليه شبهات، وإذا قرأ كتاباً من الكتب التي حوله تعرض عليه كذلك، ثمَّ ينشأ ويكبر ولا يسمع إلا هذا الكلام الباطل، وأما آيات التوحيد التي هي واضحة حُجبت وغيبت عنه، وحُذِر أيضاً من فهمها بقواعد باطلة.

فيقول الشيخ رحمه الله: «فبينها له بقولك: قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فإذا أعلمته بهذا»، أي: إذا بينت له وفهمته ووضحت له أن الدعاء عبادة وأنه حق لله و تلوت عليه من الآيات ما تقيم عليه بها الحجة و واحدة من هذه الآيات كافية في ذلك مثل ما قرر الشيخ رحمه الله اكتفى بآية واحدة، فإذا أعلمته بهذا «فقل له: هل علمت هذا عبادة الله؟» أي: الدعاء عبادة لله، و يجب إخلاصها له و أن لا يجعل معه شريك فيها، «فلا بد أن يقول: نعم»، لا بد أن يقول: نعم، وإن قال لك: لا، في هذا المقام فقله: لا في هذا المقام مصادمة صريحة لكلام الله ﷻ و للآيات البينات و الحجج الواضحات، «فلا بد أن يقول: نعم. والدعاء

مخ العبادۃ» أي: خالصها، كما قال نبينا ﷺ «الدَّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(١)، أي: خالص العبادۃ ولبها، «فقل له: إذا أقررت أنها عبادۃ ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادۃ الله غيره ؟ فلا بد أن يقول: نعم»، فلو قلت له مثلا: لو أقررت أن السجود عبادۃ و سجدت لله و أقمت السجود لله و حصل منك السجود في الليل و النهار، لكنك سجدت أيضا لغير الله، ماذا يكون عملك هذا ؟ فإذا أقررت أن الدعاء عبادۃ و أن العبادۃ حق خالص لله و دعوت الله ليلا و نهارا ثم دعوت مع الله غيره تكون بذلك جعلت مع الله شريكا، ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ﷻ أي: لا تجعلوا مع الله شريكا، «إذا أقررت أنها عبادۃ ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادۃ الله غيره ؟ فلا بد أن يقول: نعم» فلا بد أن يقول: نعم،، هذا الآن تعريف للعبادۃ و استدلال على هذا التعريف بالقرآن بذكر فرد من أفرادها فلا بد أن يقول نعم، ولك حينئذ أن تتلو عليه بعض الآيات التي تنهى عن الشرك: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ الْإِلَهِينَ أَتْنِينَ﴾ ﷻ ما دمت تقر أن الدعاء عبادۃ و أنها حق لله فلا تجعل إلهين، لا تتخذ معبودين، الله ﷻ تدعوه أيضا نبيا أو وليا أو غير ذلك تدعوه مع الله ﷻ ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ الْإِلَهِينَ أَتْنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ ﷻ أي: معبود واحد، يجب أن يصرف له وحده ﷻ العبادۃ بجميع أنواعها.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعريف للعبادۃ آخر بذكر فرد من أفرادها وهو النحر، والنحر

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٦).

عبادة و قربى لله كما يدل على ذلك الآية التي ذكر و أيضا قول الله ﷻ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ﷺ: «فقل له: فإذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم»، فاقرأ عليه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ اقرأ عليه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقل له لو اشتريت إليك ذبيحة و جئت و قلت باسم الله و ذبحتها متقربا بها إلى الله و أكلت منها و تصدقت، هذا العمل عبادة أو ليس عبادة؟ و الله أمرك به فقال ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ أي: لربك، و ضم ذكر النحر إلى الصلاة، فكما أنه لا تجوز أن تصلي إلا لله لا تسجد و لا تركع إلا له فكذلك لا يجوز أن تذبح أو تنحر إلا له ﷻ، و النحر أعظم العبادات المالية^(١)، قال فإذا عملت بقول الله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ و أطعت الله و نحرت له هل هذه عبادة؟ فلا بد أن يقول: نعم، فقل له: فإن نحرت إلى مخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ لا بد أن يقر و يقول: نعم، إن لم يقل: نعم، فقد ناقض هذه الآيات البينات، أيضا العبادات الأخرى، ونضرب بمثال ثالث إضافة إلى ما ذكر الشيخ و هي عبادة الالتجاء، لأن السائل أو المخالف يقول و هذا الإلتجاء إليهم و دعاؤهم ليس عبادة، الالتجاء: هو طلب عون من الله، واللجوء إلى الله عبادة يطلب فيها عونه ﷻ، وهو فرار إلى الله تعالى، و هذه عبادة، ثبت في «الصحيحين»

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷻ: «وَأَجَلُ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَةِ النَّحْرُ وَأَجَلُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةُ» «مجموع الفتاوى» (١٦/٥٣٢).

من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَحِجْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسَلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْبَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتُّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ»، قال: فَردَدْتُهُنَّ لَأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: «لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

فهذا توحيد لا ملجأ إلا إلى الله أي: أنه ليس هناك من يلجأ إليه ويعتمد عليه ويتوكل إليه ويفوض الأمر إليه إلا الله، فقله لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك هذا توحيد، وضده ما هو ؟

هذا الذي يقوله القائل و اللجوء ليس عبادة هذا مناقضة لقول النبي ﷺ المتكرر كل ليلة عندما يأوي إلى فراشه: «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ» وإذا كان يلتجئ إلى النبي ﷺ لك أن تقول له هذا الذي تلتجئ إليه كل ليلة إذا أوى إلى فراشه يقول «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ» يخلص اللجوء إلى الله، فكيف تجعل من يخلص لجوءه إلى الله ندا لله تلجأ إليه؟! فاللجوء عبادة ولا يجوز أن يصرف إلا لله ﷻ، ولهذا ينبغي أن تلاحظ في مثل هذه الأجوبة أن تكون مرتبطة بالقرآن والحديث التي تكشف ضلال هؤلاء و تبين زيف شبهاتهم، فهذا الجواب الذي مضى مقنع و كاف في إزالة الشبهة لكن أعاد الكرة بجواب آخر مسدد في كشفها،

وهو ينبّه طالب العلم أن كشف الشبهات متيسر و متهيؤ لمن ارتبط بالقرآن من خلال وجوه كثيرة و أجوبة عديدة.

قال ﷺ: «وقل له أيضا: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم».

قل له: المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم، إن قال لك: لا؛ فماذا تفعل؟ يقول الشيخ: لا بد أن يقول: نعم، إن قال لك: لا؛ لم يكونوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين فتقرأ عليه الآيات التي ذكرها الشيخ ﷺ قريبا وتقرر أن المشركين الأول منهم من كان يعبد الملائكة ومنهم من كان يعبد الأنبياء ومنهم من كان يعبد الصالحين، فيقول الشيخ قل له: «هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ لا بد أن يقول نعم»، فقل له حينئذ: «وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح، والالتجاء ونحو ذلك؟» هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك؟ «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره»، افرض أنك قلت له هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك وقال لا لم تكن عبادتهم في الدعاء ماذا تصنع؟ تقرأ عليه الآيات التي تدل دلالة واضحة صريحة أن عبادتهم لهم كانت في الدعاء وكانت أيضا في الذبح وكانت أيضا في الالتجاء، مثل ما مر معنا: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلًا﴾ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا

أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٤٣٨﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٤٣٩﴾ وهذه الآيات صريحة أن من ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الدعاء، ومن ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الذبح، فكانوا يذبحون لله و يذبحون لغير الله ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغَمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ فكانوا يذبحون لله و يذبحون أيضا لغير الله و لهذا قال ﴿لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾^(١) فتقرأ عليه الآيات التي تدل أن هؤلاء كانوا يعبدون غير الله بالدعاء و يعبدون غير الله بالذبح و يعبدون غير الله بالالتجاء، يقول الشيخ فقل له: «هل كانت عبادتهم إياهم إلا بالدعاء و الذبح و الالتجاء و نحو ذلك؟» فهو ﴿بين لك أن الخصم إما أن يقول لك: نعم أو يقول: لا، فإن قال: نعم؛ خصمته بذلك و كشفت باطله، و إن قال: لا؛ فإنك تقرأ عليه من الآيات ما أشرت إلى بعضها.

قال ﴿وإلا فهم مقرون أنهم عبيده و تحت قهره﴾ أي: المشركون الأول مقرون أنهم عبيده، لأن العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته و عبودية لألوهيته، فقلوه أنهم مقرون أنهم عبيده أي: لربوبية الله بمعنى أنه ربهم خالقهم رازقهم محييهم مميتهم، والمتصرف فيهم، مقرون بذلك، أي: ممالك له، بل يقرون أن من يعبدونهم من دون الله أيضا ممالك لله و عبيد له مثل ما في تلييتهم (لييك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك)، تملكه أي: مملوك لك تحت قهرك و تصرفك و تدبيرك، فيقرون أنهم عبيد لله و تحت قهر الله و يقرون أن من يدعوهم من دون الله أيضا كذلك عبيد لله و تحت قهره ﴿وَالْعَبودية هنا للربوبية

و ليس المراد بها العبودية الألوهية في مثل قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ و إنما المراد بعبيده هنا في مثل قوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ أي: ذليلاً خاضعاً لله.

قال ﷺ: «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجؤوا إليهم للجاء والشفاعة وهذا ظاهر جداً».

هذا الإقرار هو توحيد الربوبية الذي كان يقر به المشركون لكنه لا يكفي و لا ينجي: لا يكفي في كون العبد موحداً، و لا ينجي، أي: من النار و عذاب الله ﷻ، فهو لا يكفي ليكون به العبد موحداً و لا ينجي أيضاً من عذاب الله ﷻ يوم القيامة، «وإلا فهم مقرون أنهم عبيده و تحت قهره و أن الله هو الذي يدبر الأمر و لكن دعوهم و التجؤوا إليهم للجاء و الشفاعة، ولكن دعوهم» أي: المشركون الأول، «والتجؤوا إليهم»، دعوا هذه الأصنام و لتجؤوا إليها من أجل ماذا «للجاء و الشفاعة و هذا ظاهر جداً» من حالهم، فإذا ما الفرق بين حال هذا الذي يقول أنا لا أعبد إلا الله و هذا الالتجاء إليهم و دعاؤهم ليس بعبادة ما الفرق بين حاله و بين حال المشركين الأول، فإذا بهذين الجوابين انكشفت هذه الشبهة و زال و ظهر عوارها.

[المتن]

قال رحمه الله تعالى: «فإن قال أتتكر شفاعَةُ رسولِ الله ﷺ وتتبرأُ منها ؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرأُ منها. بل هو الشافع المشفع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعَة كلها لله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولا يُشفع في أحدٍ إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فإذا كانت الشفاعَة كلها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد؛ تبين لك: أن الشفاعَة كلها لله، وأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفّعه في، وأمثال هذا».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله تعالى شبهه أخرى لهؤلاء: «فإن قال: أتتكر شفاعَة رسول الله ﷺ وتتبرأُ منها؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرأُ منها، بل هو الشافع المشفع، وأرجو شفاعته».

هذه الآن شبهه أخرى للقوم، وأريد التنبيه قبل الدخول في هذه الشبهه والجواب عليها إلى أمرين:

الأمر الأول: الشيخ ﷺ يذكر لك هذه الشبهات بعد المقدمات التي نفعك الله بها، على افتراض أن تُطرح عليك أو يطرح عليك قريب منها لكن لا يلزم أن يطرح عليك كل واحد من هؤلاء المبتلين بهذا الباطل مثل هذه الشبهات.

فكثير منهم يكون دخل في الباطل وليس في ذهنه عندما دخل هذا الباطل إلا شبهة أو شبهتين أدخلته في الباطل، وبعضهم ممتلئ بالشبهات ولهذا من يقع في هذا الباطل بعضهم عنده شبهه وبعضهم بعض الشبهات فأدخلته في الباطل فإذا كشفتها عنه زال عنه الاشتباه بإذن الله، وبعضهم قد يكون ممتلئاً بالشبهات الكثيرة فمثل هذا ربما يستمر معك في المناقشة الوقت الطويل إلى أن ينقطع، أما بعض هؤلاء فبعض الأجوبة مما مر كاف بإذن الله إلى الحصول على الاقتناع والرجوع إلى الحق والهدى.

لكن طالب العلم يحتاج أن يكون مسلحاً بهذا العلم الرصين والكلام المتين في أي حال من الأحوال فيكون عنده نفس في كشف شبهات القوم، وإذا ضبطت هذا الكتاب ضبطاً متقناً تستطيع بإذن الله أن تجيب على جُل الشبهات التي يطرحها هؤلاء القوم لأنها إما أن يكون وضعها مجرد اختلاف العبارة وطريقة الطرح، أو أشياء من هذا القبيل، فالشيخ يذكر لك هذه الأنواع ويجب عليها لتكون سلاحاً لك، ولا يلزم من ذلك أن كل من تلقاه ممن يقع في هذا الشرك أن يكون على معرفة بهذه الشبهات.

وبعضهم قد يكون معانداً ومكابراً يعرف أن الذي عندك هو الحق لكنه لا يقبله

منك، إما خشيه ضياع رئاسة أو ضياع جاه أو ضياع أشياء من هذا القبيل، ولا يلزم من ذلك أن يكون الأمر مشتبهاً عليه.

الامر الثاني مما انبه إليه هو: ارتباط الشيخ ﷺ الواضح بالقرآن الكريم وبكتاب الله ﷻ وبسنة النبي ﷺ ولهذا تراه في كشف الشبهات كلما أقدم على كشف شبهة يذكر الآيات القرآنية، آية أو آيتان فهي كافية في إزالة الشبهة وهذا من علاج الأمراض التي قد تكون في بعض الناس فشفأوها بالقرآن، والله ﷻ وصف القرآن بأنه شفاء، شفاء لكل الأمراض، وأعظم الأمراض الشرك، ولهذا يحتاج هؤلاء إلى الاستشفاء بالقرآن الكريم، فتقرأ عليهم آيات وتبين لهم معانيها، وتوضح تفسيرها، ولعل الله ﷻ يجعل فيها شفاء لأمراض هؤلاء.

قال ﷻ: (فإن قال: أتنكر شفاعة النبي ﷺ وتبرأ منها؟) وهذه طريقه معروفة عند هؤلاء أنهم يحاولون إظهار الشناعة على أهل التوحيد والتشنيع عليهم فيأتي في مثل هذا المقام ويقول: أنت تنكر شفاعة النبي ﷻ ! أو ربما قال لك: أنت تنكر جاهه ومكانته عند الله! أو ربما قال لك: أنت تنكر فضل الأولياء! ومكانة الأولياء عند الله، ومنزلة الأولياء عند الله!

ربما يقول لك هذا الكلام فبماذا تجيبه؟ قال ﷻ: «فقل: لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل هو ﷻ الشافع المشفع وأرجو شفاعته» معنى تبرأ منها: تقول إنني ابرأ من كون النبي ﷻ شافعاً.

ولا ينكر الشفاعة إلا ضلال الخلق ولا ينكر أن النبي ﷻ إلا الكفار من اليهود والنصارى أو ضلال الفرق المبطله من أهل البدع والضلال.

قل: لا أنكرها وإذا تريد أن أقرأ عليك من الآيات والأحاديث التي تقرر كونه
 شفيعا قرأت عليك مما تعرفه وما لا تعرفه تريد أن أذكر لك من الآيات التي
 تثبت أنه ﷺ أعطي الشفاعة ؟ وأنه الشافع المشفع هذا أمر لا ينكره من يعرف
 القرآن والسنة ولا يتبرأ منه من يعرف القرآن والسنة وحاشا أن ننكر ذلك.

والمخالفون فعلهم هذا نوع من المغالطة لإظهار الشناعة على أهل الحق، فهو
 عندما يقول لك تنكر الشفاعة؟ يقولها لأن مفهومه للشفاعة خاطئ. ولما رآك لا
 تفهم الشفاعة على فهمه أظهر الشناعة بقوله تنكر الشفاعة!

ما الذي يفهمه هو من الشفاعة ؟ يفهم من الشفاعة المعنى الذي أنكره الله على
 المشركين ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
 هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

الذي يفهمه من الشفاعة هو هذا المعنى اتخاذ الأنداد من الأنبياء أو الأولياء أو
 الملائكة ودعائهم وسؤالهم وإذا قيل له لماذا ؟ يقول: هؤلاء شفعاء لنا عند الله
 وسطاء لنا عند الله يقربونا الى الله ﷻ.

فلما كان مفهومه للشفاعة مغلوطا قال هذه المقالة قال: (تنكر الشفاعة وتبرأ
 منها) فقل له: أنا لا أنكر الشفاعة ولا أتبرأ منها بل الشفاعة ثابتة وحق وأثبتها الله ﷻ
 في القرآن وأثبتها النبي ﷺ في السنة وهو ﷺ أعطي الشفاعة وهو أعظم شافع ﷺ
 وهو الشافع المشفع صلوات الله وسلامه عليه فلا أنكر ذلك وله الشفاعة العظمى
 يوم القيامة ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وله شفاعات

اختص بها يشفع لأهل الجنة في أن يدخلوا الجنة وله شفاعات يشاركه فيها الانبياء والملائكة والصالحين لا انكر ذلك.

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ) هذا للتكثير. ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] فالشفاعة ثابتة لا أنكرها ولا أتبرأ منها «بل هو ﷺ الشافع المشفع وأرجو شفاعته» وأرجو: أي: من الله ﷻ، لأن شفاعته ﷻ لمن يشفع له بإذن الله ويبد الله وهي ملك لله ﷻ. «وأرجوا شفاعته»: أي أسأل الله ﷻ أن يجعله شفيعا لي يوم القيامة.

فبهذه الكلمتين «لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل هو ﷻ الشافع المشفع وأرجو شفاعته» تكون قد أزلت ما أراده من الشناعة على صاحب الحق، ولو قال لك: تنكر جاهه ﷻ؟، فتقول له: أبرأ الى الله أن انكر جاهه من ذا الذي ينكر هذا؟! فإذا كان الله ﷻ قال عن موسى ﷺ: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال عن عيسى ﷺ: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] ونبينا ﷺ جاهه عند الله أعظم جاه ومكانته عند الله أعظم مكانة ومنزلته عند الله أعظم منزلة.

من الذي ينكر مكانه وجاهه ومنزلته؟!، «ولكن الشفاعة كلها لله». - انظر الى التوحيد - ما معنى الشفاعة كلها لله؟ أي: ملك لله، الشفاعة كلها لله ملك لله.

نبينا ﷺ لما قال في الحديث: «(وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ)»^(١) من الذي أعطاه إياها؟ مالکها رب العالمين ﷻ.

«أعطيت الشفاعة»: يعني أعطاني الله ﷻ الشفاعة.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(١)

فَقَوْلُهُ ﷺ: «ولكن الشفاعة كلها لله» ضع عليها رقم واحد لأنه سيأتي أجوبه متسلسلة مترابطة بمجموعها هي تعري شبهه هؤلاء، وكل واحدة مبنية على ما قبلها.

«ولكن الشفاعة كلها لله» أمر أول تبيينه له الشفاعة كلها لله كلها أيا كانت ولمن كانت لله سبحانه تعالى ومعنى لله أي: ملك له كما قال تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وباتفاق المفسرين من أهل الحق والبصيرة بكتاب الله اللام لام الملك لله الشفاعة جميعا أي: ملك لله مثل قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي: هو المالك ﷻ لما في السموات والأرض فكل ما في السموات والأرض ملكه. فله الشفاعة جميعا أي: الشفاعة كلها ملك لله هذا واحد، الدليل ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] هذه الآية وردت في سياق قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا [الزمر].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ الآن المقام إبطال ما عليه المشركين من اتخاذ الشفعاء والأنداد ففي هذا السياق قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] أي: الشفاعة كلها ملك لله ﷻ قال الله ﷻ ذلك في إبطال دعوى

المشركين في اتخاذ الأنداد مع الله زاعمين أنهم شفعاء لهم عند الله فأبطل الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

فمن اتخذ ندا مع الله تعالى يدعوه ويلتجئ إليه أيا كان هذا الند ثم قال: أنا أريد بذلك أن يكون شفيعا لي عند الله، فاقراً عليه قول الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]: أي: الشفاعة كلها ملك لله هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني قل له: «ولا تكون إلا من بعد إذن الله» أي: لا يمكن لأحد كائنا من كان أن يشفع عند الله ابتداءً لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي ولا غيرهم؛ بل لا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له ولهذا نبينا ﷺ كما في «الصحيحين»، قال النبي ﷺ: «فَأَسْجُدْ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيَقَالَ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ»^(١). فهل يشفع ابتداءً؟ لا؛ ليس لأحد أن يشفع عند الله حتى أكرم الشفعاء وأعظمهم نبينا ﷺ لا يشفع عند الله إلا من بعد إذن الله.

قال ﷺ: «ولا تكون إلا من بعد إذن الله، كما قال ﷺ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾» [البقرة: ٢٥٥] هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث: «ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه»؛ بعد أن يأذن الله فيه: أي في هذا المشفوع له؛ والمراد أن يرضى الله عنه أن يرضى الله عن المشفوع له قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

إذا مر علينا أمور ثلاثة في الشفاعة:

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

الشفاعة ملك لله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]

ولا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الأمر الثالث: أنه لا أحد يُشفع له عند الله إلا إذا رضي الله عنه رضاه عن المشفوع له ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وجمع الله بين الإذن والرضا في قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] يأذن الله: أي للشافع ويرضى: أي عن المشفوع له.

الأمر الرابع: قال الله: «وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]: الصحابة كانوا يدركون هذه الحقيقة في باب الشفاعة وأن شفاعة النبي لا ينالها كل أحد. ولهذا جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(١)، لأن التوحيد أساس لا بد منه ليكون العبد بذلك مؤهلاً لأن يشفع له الشفعاء يوم القيامة ومن يأتي يوم القيامة مشركاً متخذاً الأنداد والشركاء بأي اسم كان، وبأي صفة كانت ليس أهلاً لأن يشفع له، لأن الله لم يرض قوله ولا عمله.

والأدلة دلت ان الله ﷻ «لا يرضى إلا عن اهل التوحيد والدليل: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

كذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ واعتبر في هذا الباب من قصة ابراهيم الخليل ﷺ في «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، يَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعَصِنِي يَقُولُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»^(١). فالشاهد أن الله ﷻ لا يرضى إلا عن أهل التوحيد فكيف تطلب الشفاعة بفعل ما يناقضها ويضادها؟

قال ﷻ: «وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قال ﷻ: «إذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد».

هذا تلخيص لما سبق يقول الشيخ: فإذا كانت الشفاعة كلها لله: هذا واحد ولا تكون إلا من بعد إذنه: اثنين، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه هذا الثالث والرابع ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد.

النتيجة: «تبين لك أن الشفاعة كلها لله فأطلبها منه»: فلا يلجؤ في طلبها إلا من الله وبهذا يظهر فساد شبهة الخصم.

فهذا حال الموحد تقول له: (واطلبها منه فأقول) وهذا من دقة بيان الشيخ رحمه الله لأنه يبين حال الموحد الذي يمشي على المنهج الصحيح والنهج السديد في باب الشفاعة أنا لا أنكر الشفاعة ثم تبين له حقيقة الشفاعة ثم تبين له حالك يا من وفقك الله في هذا الباب بعيدا عن ضلال أولئك تقول: «فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه في، وأمثال هذا»: أما من لم يفهم هذه النقاط المبينة في القرآن والسنة فيقول: (يا رسول الله اشفع لي) فيكون قد طلبها من غير المالك والمالك هو الله ﷻ وهي ملك لله والنبي ﷺ لا يشفع لأحد إلا إذا اذن الله له ولا يشفع إلا لمن رضي الله قوله والله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد فالذي يريد الشفاعة يطلبها من المالك ولهذا يقول: (فأطلبها منه فأقول)، لم يقل له: (تبين لك أن الشفاعة كلها لله فأطلبها منه) وإنما قال (تبين لك أن الشفاعة كلها لله فأطلبها منه) ؛ أي هذا حال الموحد الذي يفهم هذه الحقيقة فإن فهمت هذه الحقيقة واستقرت في قلبك كنت من أهل التوحيد

«فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه في، وأمثال هذا»: أي: أمثال ذلك من العبارات التي تصدر من أهل التوحيد الذين لا يلجؤون إلا إلى الله ﷻ ولا يدعون إلا الله تعالى ولا يطلبون إلا من الله ﷻ.

[المتن:]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ؟

فَاجْزِبْ: أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ فَاطْعُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمْ الشَّفَاعَةَ فَاطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ. وَإِنْ قُلْتَ: لَا، بَطَلَ قَوْلُكَ، أَعْطَاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ.»

[الشرح]

هنا ذكر الشيخ رحمه الله شبهة أخرى من الشبه التي يتعلق بها من يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويلتجئ إلى غير الله، وذكر رحمه الله هذه الشبهة بعد شبهة أخرى، قبل هذه الشبهة تتعلق بالباب نفسه (باب الشفاعة)، حيث ذكر قول هؤلاء عن الموحّد، قولهم: (أَتُنَكِّرُ الشَّفَاعَةَ وَتَتَبَرُّ مِنْهَا؟)، وأجاب رحمه الله عن ذلك بأن أهل الإيمان والتوحيد ليسوا منكرين للشفاعة؛ بل هم مؤمنون بها، وأن شفاعة النبي - ﷺ - حق، وشفاعة الملائكة حق، وشفاعة الصالحين حق، كل ذلك يؤمنون به؛

لكن دلت دلائل الكتاب والسنة على أمور بينها ﷺ هي تُعد ركائز في باب الشفاعة لا بد من ضبطها:

الأولى: أن الشفاعة ملك لله، والثانية: أنها لا تكون إلا بإذن الله، والثالثة: لا تكون إلا برضا الله عن المشفوع عنه، والرابعة: أنه - ﷺ - لا يرضى إلا عن أهل التوحيد: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فلما ذكر ذلك، انتقل إلى ذكر شبهة أخرى، قال: (فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ؟)، النبي ﷺ أُعطي الشفاعة وهذا حق كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «وَأُعْطِيَتِ الشَّفَاعَةُ»^(١) ومعنى أُعْطِيَتِ الشَّفَاعَةُ أي: أعطاني الله الشفاعة؛ لأن الشفاعة ملك لله ولا سبيل لأحد أن يشفع عند الله، إلا إذا أذن له المالك ﷺ؛ قال: «أُعْطِيَتِ الشَّفَاعَةُ» أي: أعطاني الله الشفاعة، ويوم القيامة يقول الله له: «يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، وَسَلِّ تُعْطَهُ»^(٢)، فهو - ﷺ - أُعطي الشفاعة وهو الشافع المشفع - صلوات الله وسلامه عليه -.

قال: (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) يعني هذا شيء أعطاه الله - ﷺ - لنبه ﷺ وأنا أطلب مما أعطاه الله، «أطلبه» أي: أطلب النبي ﷺ، والطلب هنا أن يكون النبي ﷺ شفيعا له يوم القيامة وهذا عبادة والتجاء، والالتجاء لا يكون إلا لله والشفاعة ملكه - ﷺ -؛ فقلوه (أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) أي: أطلب النبي ﷺ، وهذا الطلب منه

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

﴿والتوجه إليه والالتجاء إليه في هذا الباب عبادة هي حق لله - ﷻ -﴾، قال: (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) فبِمِ يُجَاب؟ قال - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فالجواب: (أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أعطاه الشفاعة، قال ﷻ: «أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ» (وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أي: عما عبرت عنه بقولك (أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) نهاك عن هذا في أي كثيرة، نهى فيها - ﷻ - عن دعاء غير الله وسؤال غير الله والالتجاء إلى غير الله، ومن شفع له النبي ﷺ يوم القيامة فاز فوزاً عظيماً ونجا من عذاب الله وفاز بدخول الجنان، والفوز العظيم والنجاة من النار ودخول الجنة كل ذلكم بيد الله، فلا يُطلب إلا من الله - ﷻ -، فقوله (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) هذا باطل ومناقض للتوحيد، ومناقض للإخلاص الذي أمر أن يكون عليه العبد ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الإسراء: ٥٦] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥] والآيات في هذا الباب كثيرة؛ فقوله (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) فهذا مخالفة ومناقضة للتوحيد.

قال: (وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أي: عن هذا التوجه والطلب والالتجاء إلى غير الله - ﷻ - فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ و﴿أَحَدًا﴾ جاءت نكرة في سياق النهي فأفادت العموم أي: أي أحد كان، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأً ولا ولياً من الأولياء، لا تدعو مع الله أحداً؛ بل ليكن دعاؤك وتوجهك والتجاؤك إلى الله - ﷻ - وإذا كنت تريد شفاعته ﷻ وترجو أن تكون ممن يشفع لهم ﷻ فتفوز فوزاً عظيماً فاطلبها من الله المالك، قل مخلصاً موحداً ملتجئاً إلى الله: «اللهم شفع في نبيك» أو «اللهم اجعل نبيك شفيعاً لي» أو «اجعلني ممن يشفع لهم نبيك ﷻ» أو نحو

هذه العبارات التي يكون فيها الالتجاء إلى الله - ﷻ - ولا تُنال شفاعته النبي ﷺ إلا بالإخلاص، كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(١)، وقول هذا القائل (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ) هذا مناقضة للإخلاص الذي تُنال به الشفاعَة^(٢).

قال: (﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فَيْكَ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾).

(إِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ) لعل المراد - كما قال الشيخ محمد بن ابراهيم - ﷻ - «إِذَا كُنْتَ تَرْجُو اللَّهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فَيْكَ»، تَرْجُوهُ أَوْ تَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ ﷻ شَفِيعًا فَيْكَ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَطِعْهُ، إِذَا كُنْتَ تَرْجُو اللَّهَ أَوْ تَطْمَعُ مِنَ اللَّهِ - ﷻ - أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷻ شَفِيعًا لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، الَّذِي أَعْطَى النَّبِيَّ ﷻ الشَّفَاعَةَ هُوَ الَّذِي قَالَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فَإِذَا كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷻ شَفِيعًا لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ نَهَاكَ عَنْ ذَلِكَ وَحَرَّمَهُ عَلَيْكَ وَتَوَعَّدَ فَاعِلَهُ بِأَشَدِّ الْوَعِيدِ وَأَشَدِّ الْعِقَابِ فَلَا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا؛ بَلْ أَخْلِصِ الدَّعَاءَ لِلَّهِ، وَفِي هَذَا الْبَابِ بَابُ الشَّفَاعَةِ أَخْلِصْ أَيْضًا الدَّعَاءَ لِلَّهِ، قُلْ «اللَّهُمَّ

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز ﷻ: «طلب الشفاعَة إنما هو من الله، وأنت تأخذ بالأسباب، تتقي الله، تؤمن به، توحده سبحانه، تترك الإشراك به، تجتهد في ترك المعاصي، ومع هذا تقول: اللهم شفّع في نبيك، اللهم شفّع في عبادك الصالحين، اللهم شفّع في أفراطي، ومع هذا كله مع الطاعة والاستقامة لا تدا بنفسك وعملك، ولا تأمن، ولا تمن على الله، ولا تعجب بعملك..» «شرح كشف الشبهات» (ص ٦٣).

لا تقل «يا نبي الله» ولا تقل «يا ملائكة الله» ولا تقل «يا أولياء الله» ولا تقل «يا ولي فلان» أو «يا شيخ فلان»؛ إنما قل: «يا الله»، «اللهم»، «يا رب اجعلني ممن يشفع لهم نبيك وملائكتك» أو نحو ذلك، ولا تتوجه لغير الله - ﷻ - بسؤال أو طلب لأن هذا مخالفة صريحة لما نهاك الله عنه بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، هذا جواب من الشيخ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - على هذه الشبهة وهو كاف في كشفها.

ثم زاد - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - جواباً آخر، قال: (وَأَيْضًا) أي: أيضاً في الجواب على هذه الشبهة نفسها يقالك (فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ) أي: دلت الدلائل في الكتاب والسنة على أن غير النبي ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ، مثل الملائكة ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وأيضاً الأفرط يشفعون، وفَرَطَ الإنسان من يموت من ولده صغيراً فيسبقه إلى الدار الآخرة، يشفع لوالديه، الأفرط يشفعون. قال: (فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ)، من كان مؤمناً تقياً من أولياء الله - ﷻ - فإنه يشفع يوم القيامة، قال: (فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمُ الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟) إذا قلت له هذه الكلمة هو بين أمرين:

إما أن يقول: لا، لا أطلبها منهم، مع أنهم أعطوا الشفاعة لا أطلبها منهم؛ بل أطلبها من الله، فحينئذ ناقض نفسه وظهر فساد مذهبه من خلال كلامه وتناقضه.

وإما أن يقول: بل أطلبها منهم أي: من الملائكة ومن الأفرط ومن الأولياء، ويكون بهذا دخل في الشرك من أوسع أبوابه والعياذ بالله.

قال: (فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ) يعني إن قلت أنا أطلبها منهم أي: أطلبها من الملائكة والأولياء ومن الأفراط، ألتجئ إلى هؤلاء كلهم في طلبها، رجعت إلى عبادة الصالحين وشرك الأولين شبراً شبراً، ذراعاً ذراعاً، التي ذكرها الله -ﷻ- في كتابه، أي في مثل قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] يعبدون من دون الله أي: يلتجئون إلى غير الله ممن لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً؛ فالولي ومن فوقه ومن دونه لا يملك لأحد ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا جنة ولا ناراً ولا سعادة ولا شقاء لا يملك ذلك، لأن ذلك كله ملك الله -ﷻ-؛ فمن طلبها من الأولياء ومن الملائكة طلبها ممن لا يملك ذلك، وجعل من لا يملك ذلك شريكاً للمالك، فرجع إلى عبادة الصالحين التي كان عليها المشركون الأول، قال: (فَإِنْ قُلْتَ هَذَا) أي: إن قلت أنا أطلبها منهم (رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَإِنْ قُلْتَ: لَا، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ).

وأيضاً مما يجاب به على هذه الشبهة والأجوبة كثيرة قول النبي ﷺ لفاطمة بنته: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّينِي مَا شِئْتُ مِنْ مَالِي لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً»^(١). ويجاب عنها أيضاً بقول النبي ﷺ للرجل الذي قال: «يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة»، فعن ربيعة بن كعب الأسلمي، قَالَ: كُنْتُ أَبِيْتُ مَعَ رَسُولِ

اللَّهُ ﷻ فَأَتَيْتُهُ بِوُضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١).

أي لله، إذا كنت تريد مرافقتي للجنة أكثر من السجود لله، وعندما يسجد لله يطلب من؟ عندما يضع جبهته لله ساجداً وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فالذي يريد مرافقة النبي ﷺ في الجنة عليه أن يكثر من السجود لله ﷻ أي تسجد له متذللاً له خاضعاً داعياً طالباً منه - ﷻ -، أرشده ﷻ إلى الطريق.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا حَاشَا وَكَلَّا، وَلَكِنْ
الْإِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشُرْكَ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ
الشُّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزُّنَا، وَتُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ؛ فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ
اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي.

فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ
عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ
يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟».

[الشرح]

ثم ذكر الله تعالى هذه الشبهة لهؤلاء (فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا) يعني نفى
عن نفسه الوقوع في الشرك كله، (لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا) هذه نكرة تفيد العموم في قوله
(شَيْئًا)؛ فإذا نفى عن نفسه الشرك (قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا) أبرأ من الشرك
ومن أن أكون من أهل الشرك أو أكون من المشركين (لَا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا حَاشَا
وَكَلَّا) حاشا أن أكون من أهل الشرك وكلا، أي: لست منهم ولا على طريقتهم،
(وَلَكِنْ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشُرْكَ) لا أعدّ هذا شركاً، أنا لا أشرك وأرى
أن الشرك محرم، حرمة الله وأن الله يعاقب عليه يوم القيامة أشد العقوبة، مُقر بذلك
وأنا لست من أهل الشرك (وَلَكِنْ الْإِلْتِجَاءُ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشُرْكَ) الالتجاء
أي: اللجوء إليهم طلباً وتذلاً وطمعاً ورجاءً ورغبة، يلجأ إليهم في نوائبه وفي
حاجاته؛ بل بلغ الحال ببعض هؤلاء في باب الالتجاء أنه عند الشدائد والكربات،

لا يلجأ إلا إلى غير الله، ممن تعود الالتجاء إليهم في رخائه وشرائه، فصار الحال عنده سواء في الشدة والرخاء والسراء والضراء، لا يلجأ إلا إلى غير الله، وبعضهم يلجأ إلى الله ويلجأ أيضاً إلى غير الله، وقد كان المشركون الأول في مثل هذه الحال لا يلجؤون إلا إلى الله، فإن قال (وَلَكِنَّ الْاِلْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ)، الآن أخرج هو من الشرك ما هو داخل فيه، وما هو نوع من أنواعه فكيف تعالج هذه المشكلة؟ يقول لك: الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك؟ سواء قال لك الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك أو قال لك الدعاء ليس بشرك أو قال لك الذبح ليس بشرك أو أخرج لك نوع من أنواع الشرك من الشرك، فكيف تكون المعالجة لذلك؟ قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: (فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشُّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزَّنا وَتُقِرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ) حَرَّمَ الشرك أعظم من تحريم الزنا لأنه أشد المحرمات، ولهذا في القرآن والسنة في باب النواهي يُقدَّم الأشد تحريماً على ما دونه في الحرمة كما في قوله -ﷺ-: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] ثم بعدها بآيات قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ﴾ [الإسراء: ٣٢] كما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ ففي باب النواهي في القرآن يُقدَّم الأشد والأخطر، وهكذا في السنة: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ»^(١) بدأ بالشرك ثم ذكر بقية المحرمات ومنها رمي المحصنات؛ أيضاً في باب الأوامر يُبدَأ بالأمر بالتوحيد، فالتوحيد أعظم شيء أمر الله به والشرك أعظم شيء نهى الله -ﷻ- عنه فهو أشد،

أشد حُرمة من الزنا ومن القتل ومن عموم المحرمات ولهذا قال الله - ﷻ :-
﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف ٥: ٦] وهذا أمر ربما بعض العوام أو الجاهل لا يدركه أو لا يستشعره، ولهذا يُذكر أن أحد أهل العلم أراد أن يمتحن فهم الناس للتوحيد ومكانته، فذكر لهم حال رجل اعتدى على بيت وانتَهك عرض امرأة في البيت، ومارس معها الفاحشة ووصف لهم هذه الحال فضجّ من حوله مستنكرين، في يوم آخر ذكر لهم حال رجل بنى بيتاً وأراد أن يسكنه فقبل له: لكي تُحفظ وتوقى في بيتك اذبح لك شاة أو دجاجة للجن أو شيئاً من هذا القبيل من أعمال أهل الشرك في التقرب إلى غير الله، فما رأى عليهم استنكاراً؛ فبعض الناس ربما يجهل ذلك وربما بعضهم لا يستشعر ذلك، يعني يتغيّظ لرؤية فاحشة زنا وتغيّظه في محله؛ ولكن لا يتغيّظ لحصول الشرك الذي هو أعظم العدوان وأظلم الظلم وأكبر الإجرام.

قال: (وَتَقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ) أي: كما قال - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] أي: من مات على ذلك، أي: على الشرك فلا مطمع له في مغفرة الله، كما قال - ﷻ - في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافٍ﴾ [فاطر: ٣٦] يقول له الشيخ: (إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِنْ تَحْرِيمِ الزَّنا، وَتَقَرُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ؟) ما هو الشرك

الذي حرمه الله؟ عَرَفَ لي، بَيَّن لي حقيقته (فَمَا هَذَا الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) لماذا قال الشيخ -رحمه الله- (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي)؟ وقالها قبل أن يَسْمَعَ الجواب؛ لأن قوله المسبق: أنا لا أشرك بالله، والالتجاء لغير الله ليس بشرك، هذا يدل دلالة واضحة أنه لا يدري ما هو الشرك، ولهذا قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) لأنه لو كان يدري ويعرف حقيقة الشرك لما قال تلك المقالة، ولهذا إذا قلت له عَرَفَ لي الشرك ستري أنه إما لا يجيب بشيء، يعني سيقول لك هذه العبارة بلفظها «لا أدري» أو «لا أعرف»، أو يجيب بأجوبة خاطئة من جنس جوابه الأول؛ قال: (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) يعني لا يدري، ستكتشف أنه لا يعرف الجواب، قال (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي) أي: لا يدري ما هو الشرك، وقد قيل قديما «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي»^(١) الذي لا يدري ما هو الشرك كيف يتقيه؟ ولهذا قوله السابق هو فرع عن عدم معرفته بالشرك وبحقيقة الشرك، قال: (فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي).

قال: (فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟) لاحظ أنك من أجل أن تقول له هذه الكلمة (كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟) ربما قبلها تمر ببعض المحاورات معه، حسب حال الرجل؛ لأنه إما أنه سيقول لك «لا أدري» مباشرة أو «لا أعرف» أو أنه سيبدأ يخوض في تعريفات خاطئة للشرك، فماذا ستصنع؟ تبين له الخطأ في كل مرة يُعَرِّفُ الشرك تُبين له الخطأ وتستدل له، في بيانك الخطأ تستدل مبيناً خطأه بالدليل إلى أن يصل إلى حال لا يستطيع أن يُعَرِّفَ الشرك؛ فحينئذ تقول له هذه الكلمة: (كَيْفَ تُبْرِئُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّرْكِ وَأَنْتَ لَا

تَعْرِفُهُ؟)، (كَيْفَ تَبْرِيءُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّرْكِ) الذي حَرَّمَهُ اللهُ وأخبر أنه لا يغفره وأنت لا تعرفه في ضوء الدلائل من الكتاب والسنة، وعندما تتكلم في تعريفه تتكلم بفكر قاصر وفهم سيء ضعيف، ليس قائماً على دلائل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ف(كَيْفَ تَبْرِيءُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ).

(كَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟) هذه مشكلة أهل الضلال، حَرَّمَ اللهُ عليهم الشرك؛ فقاموا وأتوا بالعبادة ولم يسألوا ولم يعرفوا، ولهذا ترى كثير من هؤلاء إذا سمع آيات الشرك ينفر منها ويرى نفسه ليس من أهلها، ليس من أهل هذه الخصال؛ لكن لما كان لا يعرف الشرك وحقيقته وقع فيه، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ، إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ»^(١)، وأعظم الجاهلية الشرك بالله - ﷻ -، لهذا من لا يعرف الشرك يقع فيه، لهذا قيل:

عرفت الشر لا للشرك لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فلا بد من معرفة الشرك من أجل أن يُحذَر ويَتَّقَى، والله يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥] إذا استبان سبيل المجرمين كان الناس منها على حذر، أما إذا لم تستبِن ربما وقع الناس في سبيلهم من حيث لا يشعرون ولا يدرون.

قال: (وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ)، قل مثل هذا أيضاً في حال كثير من الناس في المحرمات الأخرى، حَرَّمَ اللهُ ﷻ الربا وباع كثير من الناس واشترى ولم يسأل

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٣٠١)، و«الفوائد» (ص ١٠٩).

ولم يعرف الربا، وحرم الله ﷻ أكل مال اليتيم فأكل ولم يسأل، وحرم أموراً عديدة فتعامل بها ولم يسأل.

قال: (كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) هذا الكلام عظيم جداً: (أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) أي: يترك أمر بيانه لعقول الناس والآراء والأفهام، يتركه دون بيان؟ حاشا وكلا، فالله ﷻ أمرنا بالتوحيد وبينه ونهانا عن الشرك وبينه، بينه في كتابه في أي كثيرة من القرآن، اقرأ في بيان الشرك قول الله -ﷻ-: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، هذا بيان للشرك، ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ لأن دعاء غير الله شرك، أيضاً اقرأ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقرأ أيضاً قول الله -ﷻ-: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ دعاء غير الله هذا شرك، أيضاً اقرأ قوله: ﴿قُلْ إِن صَلَاحِي وَنُصْحِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿[الأنعام ١٦٢: ١٦٣] فمن جعل شيئاً من ذلك لغير الله اتخذهُ شريكاً مع الله، والشرك هو تسوية غير الله بالله، في شيء من خصائصه أو حقوقه -ﷻ-، والعبادة حق لله وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فمن سوى غير الله بالله

في هذا الحق أعني العبادة، فقد اتخذه شريكاً مع الله، من دعا غير الله أو التجأ إلى غير الله أو استعاذ بغير الله أو توكل على غير الله أو نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فقد أشرك بالله واتخذ الأنداد والشركاء مع الله - ﷻ -.

قال: (أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) أيضاً هذه الكلمة تحتها من التوجيه والبيان أن بيان الشرك ومعرفة حده يُرجع فيه إلى الكتاب والسنة، كذلك بيان التوحيد وبيان المحرمات يُرجع فيها لمعرفة حدودها إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فإن الله - ﷻ - لا يحرم عليه أمراً ويتركه دون أن يبينه.

عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ قَالَ: فَقَالَ: أَجَلٌ «لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَايِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن ذكر هذا الحديث: «وَمُحَالٌ مَعَ تَعْلِيمِهِمْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ فِيهِ مَنَفَعَةٌ فِي الدِّينِ - وَإِنْ دَقَّتْ - أَنْ يَتْرَكَ تَعْلِيمَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ بِالْإِسْتِثْنَاءِ وَيَعْتَقِدُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي رَبِّهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي مَعْرِفَتُهُ غَايَةُ الْمَعَارِفِ وَعِبَادَتُهُ أَشْرَفُ الْمَقَاصِدِ وَالْوُصُولُ إِلَيْهِ غَايَةُ الْمَطَالِبِ»^(٢).

فمحال هذا، توحيد رب العالمين أعظم شيء في الدين، فمحال أن يكون علم الأمة كل شيء الآداب والأخلاق والتعاملات ودقائق الأمور بينها مفصلة صلوات

(١) رواه مسلم (٢٦٢).

(٢) «الفتوى الحموية الكبرى» (ص ١٧٨)، و«مجموع الفتاوى» (٧/٥).

الله وسلامه عليه ثم يترك التوحيد الذي هو أعظم شيء في الدين دون بيان، هذا محال، فالتوحيد بُيِّن في الكتاب والسنة أتم بيان وأيضاً الشرك بُيِّن وعُرفت حقيقته في الكتاب والسنة أتم بيان، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: الشُّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ. فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ أَتَطُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ.

وَإِنْ قَالَ: هُوَ مِنْ قَصْدِ خَشَبَةٍ، أَوْ حَجَرٍ، أَوْ بَنِيَّةٍ عَلَى قَبْرِ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيُدْفَعُ عَنَّا اللَّهُ بِبَرَكَتِهِ وَيُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ.

فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّذِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا أَقْرَأُ أَنْ فِعْلُهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: قَوْلُكَ: الشُّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشُّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا، وَأَنَّ الْاعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوْ الصَّالِحِينَ. فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشُّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَشْرِكُ بِاللَّهِ.

فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشُّرْكُ بِاللَّهِ؟ فَسِّرْهُ لِي.

فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ.

فَقُلْ: وَمَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ؟ فَسَرَّهَا لِي.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ.

فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ؟ فَسَرَّهَا لِي.

فَإِنْ فَسَرَّهَا بِمَا بَيَّنَّهُ الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ.

وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئاً وَهُوَ لَا يَعْرِفْهُ؟

وَإِنْ فَسَّرَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنَّتْ لَهُ الْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ
وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ؛ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصِيحُونَ فِيهِ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ
حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- هذه الشبهة الأخرى لهؤلاء، قال: (فَإِنْ قَالَ: الشَّرِكُ
عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ) الشيخ رحمته الله وهو يعدد هذه الشبهات لهم
قد سمعها أو سمع كثيراً منها من هؤلاء وناقشهم فيها وأقام عليهم - رحمته الله - الحجة،
وحال هؤلاء كالغريق، يُقال أن الغريق يتمسك بكل شيء حتى بالقشة، يتمسك بما
لا متمسك به ويتعلق بما لا مُتعلق به، وإنما محاولة للنجاة من الغرق أو التخلص
من الأمر الذي هو فيه، وهذه حال هؤلاء، يتخبطون في باب الاحتجاج ويتمسكون
بأشياء واضحة تماماً أنها ليست بمُتمسك.

واقرأ في هذا المعنى قول الله - رحمته الله - ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ
كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ﴾ الآية.

[العنكبوت: ٤١] وهذا بيان لحال المشرك ومن اتخذته نداً مع الله؛ فمثل المشرك مثل العنكبوت، ومثل من اتخذته نداً مع الله - تبارك وتعالى - كمثل بيت العنكبوت، وبيت العنكبوت - كما لا يخفى - لا يق حراً ولا برداً ولا يق من عدو ولا يق من مطر، وهو بيت واه، متهالك ضعيف، أوهى البيوت، فمثل الذي يتعلق بغير الله التجاءً ورجاءً وطمعاً مثل العنكبوت اتخذت بيتاً، ثم إن من حكمة الله - ﷻ - أن العنكبوت وبيتها موجودة في كل مكان، حتى الأماكن التي تُقصد ليعبد أهلها أو تُعبد من دون الله، فيها بيت العنكبوت وتوجد العنكبوت، لهذا أقول لو أنه هؤلاء الذين يذهبون إلى تلك الأماكن يلتفتون إلى الأركان والزوايا يرون العنكبوت التي تصف حالهم وحال من تعلقوا بهم ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾؛ فالمشرك المتعلق بغير الله - ﷻ - يتخبط ويتعلق بكل شيء في تقرير باطله، صاحب الحق إذا أراد أن يستدل تجده يحسب للاستدلال ألف حساب ويتنبه ويراعي، إذا أراد أن يذكر حديثاً يتأكد، أما الذي يتعلق بغير الله، ما عنده مشكلة تسمع منه ولا يبالي، تسمع منه أن يقول لك: النبي ﷺ قال: «القبور ترياق المجربين» أو يقول النبي ﷺ قال: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه»، وقالوا ذلك، لهذا الإمام ابن القيم رحمه الله لما بين ضعف هذا الحديث، أنه موضوع ومكذوب عن النبي ﷺ؛ قال: «وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام وضعها المشركون وراجت على أشباههم من الجهال الضلال»^(١)، ولهذا لا يبالي هؤلاء بأن يضعوا حديثاً أو

يستدلوا بموضوع مكذوب عن رسول الله أو يلفقوا مناماً أو خبراً أو قصة أو تجربة أو غير ذلك من الأشياء التي يوردونها مستدلين بها في تقرير هذا الباطل .

قال: (فَإِنْ قَالَ: الشُّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؟ أَتَطْنُ أَنْتُمْ؟) أي: الذين كانوا يعبدون الأصنام (يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها؟) هل تعتقد ذلك؟ (فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ) يعني القرآن دلّ في مواضع عديدة وذكر بعضها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فيما سبق أن المشركين لم يكونوا يعتقدون في الأصنام ذلك، أي: أنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت، لا يعتقدون فيها ذلك؛ بل يقولون الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله -ﷻ-، قل له (فَهَذَا يُكَذِّبُهُ الْقُرْآنُ).

(وَإِنْ قَالَ) في بيان حقيقة عبادة الأصنام (إِنْ قَالَ: هُوَ مِنْ قِصْدِ خَشَبَةٍ، أَوْ حَجَرٍ، أَوْ بُنْيَةٍ عَلَى قَبْرِ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بَرَكَتَهُ وَيُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ) إن قال لك ذلك، وهذا هو فعلاً الذي كان يفعله المشركون الأول، كانوا يقصدون الخشبة أو الحجر أو البناء الذي على القبر أو غيره، يدعون ذلك ويعكفون عنده ويذبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، (وَيَدْفَعُ اللَّهُ عَنَّا بَرَكَتَهُ أَوْ يُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ) إن قال لك ذلك (فَقُلْ لَهُ: صَدَقْتَ) هذا عمل المشركين الذي أنكره الله عليهم في القرآن وذمهم عليه أشد الذم وتوعدهم عليه أشد الوعيد، (فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا أَقَرُّ أَنْ فِعْلُهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ

المطلوب) إذا أجاب بهذا الجواب فإنه يكون بذلك أقر أن فعلهم -أي عند القبور- هو فعل عبّاد الأصنام عند الأصنام وهو المطلوب.

قال ويقال له أيضاً: (قَوْلُكَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ)، هذا جواب آخر غير الجواب الأول، إذا قال: (الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ)، قل: (هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا) أي: لا يكون شركاً إلا إذا كان توجهاً لصنم؟ لا يكون شركاً إذا توجه إلى ملك، إلى كوكب، إلى نبي، إلى ولي، هذا لا يكون من الشرك؟ يعني الشرك محصور في عبادة الأصنام؟ (هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا) أي: لا يتجاوزه ولا يتعداه؟ (وَأَنَّ الْأَعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يُرَدُّهُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرٍ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوْ الصَّالِحِينَ)، وسبق أن ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- الآيات الدالة في ذلك.

(فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ).

ولاحظ أن الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في كشفه للشبهات، وهذا نبهت عليه وسأؤكد عليه في كشفه للشبهات، مرتبط كلياً بالقرآن والسنة، ودائماً يكشف الشبه بالآيات والقرآن، بكلام الله.

قال: (فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ) أي: أنه يتبين أن من عبد صنماً أو عبد ولياً أو عبد ملكاً أو عبد نبياً كل ذلك شرك بالله وهذا فيه بيان لبطلان قوله: (الشِّرْكُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ).

وبهذا يكون الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كشف هذه الشبهة وبيّن بطلانها من وجهين.

ثم قال ملخصاً ما سبق: (وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ) أي: حاصل الأجوبة المتقدمة وخلاصتها (أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللّٰهِ، فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بِاللّٰهِ؟ فَسَّرُهُ لِي) إن قال لك: أنا لا أشرك بالله قل له: فسر لي الشرك.

(فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ. فَقُلْ لَهُ: وَمَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ؟ فَسَّرَهَا لِي) فسر لي عبادة الأصنام؛ إن قال لك عبادة الأصنام أن يُعتقد في الأصنام أنها تخلق وترزق، قل له: لم يكن المشركون الأول يعتقدون في الأصنام ذلك، هذا أمر يكذّبه القرآن، وإن قال: عبادة الأصنام هو جعلها واسطة بين العابد وبين الله تقربه إلى الله زلفى، يرجو بركتها، فقل له: هذا هو نفس الممارسة التي يمارسها من يعبد الأولياء والصالحين.

(فَسَّرَهَا لِي. فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَقُلْ: مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؟ فَسَّرَهَا لِي) فهذه ثلاثة أمور قد يقولها وتطلب منه تفسيرها، وأخطاء هؤلاء وانحرافاتهم مبنية على جهلهم بهذه الحقائق، لا يعرف حقيقة الشرك ولا يعرف حقيقة عبادة الأصنام ولا يعرف أيضاً حقيقة إخلاص العبادة لله -ﷻ-.

قال الشيخ ﷺ: (فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَّهَ الْقُرْآنُ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ) يعني هذه الأشياء بما بينه القرآن فهو مطلوب، وماذا تصنع حينئذٍ؟ إذا فسر لها لك بما بينه القرآن؟ توضح له أن الحال التي يمارسها تخالف القرآن وتخالف الآيات التي استدل بها من القرآن الكريم.

(وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ) يعني لم يعرف هذه الأشياء (فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟) وفاقدا الشيء لا يعطيه.

وَإِنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنَّتْهُ لَهُ (تَلَخَّصَ لَكَ أَنَّ الْخَصْمَ إِذَا قُلْتَ «فَسره لي» أي: فسر لي الشرك أو فسر لي العبادة أو فسر لي معنى (لا أعبد إلا الله)، لا يخلو من ثلاث حالات كما بين لك الشيخ، لا يخلو في تفسيره لها من ثلاث حالات:

إما أن يفسرها بتفسير صحيح مطابق للقرآن، هذا هو المطلوب، فإن فسرها تفسيراً صحيحاً مطابقاً للقرآن حينئذ تبيّن له أن الحال التي يمارسها تناقض ذلك. الحالة الثانية: أن يفسر ذلك بغير معناها، يعني يفسرها بمعنى آخر، فماذا عليك في هذه الحال؟ قال: بَيَّنَّتْ لَهُ الْآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ فِي مَعْنَى الشَّرِكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ. والحالة الثالثة: أن يقول لك: لا أدري أو لا أعلم أو لا أعرف؛ فأيضاً تبين له وتُعرفه حقيقة ذلك من خلال الآيات الواضحات.

قال ﷺ: (وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟ وَإِنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنَّتْ لَهُ الْآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ فِي مَعْنَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا).

الخصوم ينكرون على أهل التوحيد من جهات عديدة: مثلاً يقولون ينكرون الشفاعة أو ينتقصون الأولياء، أو يقولون لا يعرفون مكانة الصالحين أو جاههم عند الله أو غير ذلك من أنواع الكلام الذي يقصدون به التشنيع على أهل الحق.

قال: (وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصِيحُونَ فِيهَا

كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] المشركون الأول لما قال لهم النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، قالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؛ بل بلغ حالهم إلى ما ذكره الله ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦] وأيضاً يتفاخرون يقولون: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢] أي: لولا أننا كنا مُتَحِلِّينَ بالصبر وإلا كاد ليضلنا عن الآلهة.

قال: يصيحون علينا كما صاح الأولون في إنكار التوحيد ﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ هذا إنكار للتوحيد. وأيضاً هؤلاء لما يتعلقون بغير الله من الأولياء والصالحين وغيرهم ويُنكِر عليهم فيصيحون، هذا إنكار للتوحيد ومنافعة ومدافعة عن الشرك بالله - ﷻ -.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله، ونحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره ابن الله، والجواب: أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢)﴾ [الإخلاص: (٢، ١)]، والأحد: الذي لا نظير له الصمد: المقصود في الحوائج، فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورة ثم قال تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ۝ (٣)﴾ [الإخلاص: ٣]، فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد أول السورة وقال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ففرق بين النوعين وجعل كلا منهما كفراً مستقلاً وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ففرق بين الكافرين والدليل على هذا أيضاً أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجالاً صالحاً لم يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك، وكذلك العلماء أيضاً وجميع المذاهب الأربعة، يذكرون في باب حكم المرتد أن المسلم إذا زعم أن لله ولداً فهو مرتد، وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفرقون بين النوعين، وهذا في غاية الوضوح، وإن قال: ﴿أَلَا

لا يُعبدون، ونحن لا نتكر إلا عبادتهم مع الله وإشراكهم معه، وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات، ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضاللتين، وحق بين باطلين».

[الشرح]

ثم ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هذه الشبهة التي يثيرها المشبه والمراد بالمشبه: أي الذي يثير الشبهات التي يناقض بها التوحيد، ويخالف فيها أو بها الحق والهدى قال: «فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله» إن قال -أي المشبه- الذي يبرر لأعماله الشركية وأفعاله الكفرية، ويقرر أن ما يعمل من الشرك لا تنزل عليه آي القرآن التي نزلت في ذم المشركين بجملة شرك المشركين وتكفير الله -سبحانه- لهم لأنهم ادعوا لله الولد وأن الملائكة بنات الله، وأن الله -سبحانه- إنما كفرهم بذلك، ولهذا ربما يقول بعضهم أنهم -أي المشركون الأول- لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء، أي: لم يكن كفرهم وشركهم لكونهم دعوا الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله و«إنما» هذه من أدوات الحصر، وقوله: «إنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله»، حصر بكلامه هذا الكفر في هذا الجانب وحده، وهو أن الذي يكفر إنما هو من يدعي لله الولد أو يقول الملائكة بنات الله، أو عزيز ابن الله، أو المسيح ابن الله، قال: «وإنما كفروا -أي المشركون الأول- لما قالوا الملائكة بنات الله» أي: أن هذا هو الأمر الذي كفروا به، ونحن لم نقل ذلك قال: «ونحن لم نقل أن عبد القادر

ولا غيره ابن الله»، قال: «لم نقل أن عبد القادر» لأنهم يعبدون عبد القادر الذي هو الجيلاني فيعبدونه من دون الله، ويذبحون له وينذرون ويستغيثون به، وإليه يلتجئون بالملامات والحاجات والنوازل والطلبات، فيقول: «نحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره» أي: من الأولياء والصالحين ومن ندعوهم من دون الله لم نقل أنهم أبناء الله، فإذا نعتهم مرادهم بذلك أن الآيات التي نزلت في ذم المشركين، وتقييح أفعالهم وصنائعهم لا تنزل علينا، لأن المشركين يقولون بأن الملائكة بنات الله، ونحن لا نقول ذلك فيمن ندعوهم أو نسألهم، فهذه شبهة ربما أثارها بعض المشبهة من هؤلاء؛ فما الجواب؟ قال -رحمه الله-: «فالجواب» وأجاب عن هذه الشبهة بأربعة بأربعة أجوبة مسددة، كل واحد منها كافٍ في كشف هذه الشبهة وبيان بطلانها:

الجواب الأول: قال: «أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل» أي: هذا في حد ذاته كفر مستقل، والكفر أنواع، وأفراد الكفر كثيرة، ومن قال إن الله ولداً سواء الملائكة أو عزيزاً أو عيسى أو غير هؤلاء، هذا في حد ذاته كفر بالله قال: «نسبة الولد إلى الله كفر مستقل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ [الإخلاص: ١، ٢]، والأحد الذي لا نظير له» الأحد أي: الممتوحد بصفات الجمال ونعوت الكمال، فليس له شبيه ولا مثال، «والصمد: المقصود في الحوائج أي: الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها وطلباتها، فتفزع إليه وتبتهل إليه وتلتجئ إليه» فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورة»، وهو قوله: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ [الإخلاص: ٢، ٤] ثم قال -أي الله جلّ وعلا-: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، «فمن جحد هذا فقد كفر

ولو لم يجحد أول السورة» إذن من جحد أول السورة أن الله أحد صمد فهذا كفر مستقل، ومن جحد آخر السورة: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا كفر مستقل، وهذا فيه نقض لدعوى هؤلاء أن الكفر إنما في ادعاء الولد ونسبة الولد إلى الله والقول بأن الملائكة بنات الله، فالشيخ يقول: من جحد أول السورة الأحد الصمد، وأثبت آخرها لم يلد ولم يولد، يكون بذلك كافراً مع أنه لم ينسب الولد إلى الله - ﷻ -؛ فهذا تقرير منه - ﷻ - في رد هذه الشبهة ببيان أن نسبة الولد إلى الله - ﷻ - هذا بحد ذاته كفر مستقل، وما جاء في أول السورة أيضاً كفر مستقل.

-الجواب الثاني على هذه الشبهة؛ قال ﷻ: «وقال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]»، ذكر الله - عز وجل - شيئين نفاهما ونزه نفسه عنهما - جل وعز - قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ ومن ادعى لله الولد فقد كفر ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ ومن ادعى أن مع الله إله آخر فقد كفر، وهذا فيه إبطال لدعوى هذا المدعي بأن الكفر إنما هو في ادعاء الولد، لأن الله ذكر شيئين أو نوعين فرق بينهما، قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، «ففرق بين النوعين، وجعل كلا منهما كفراً مستقلاً» فرق بين النوعين فرق بين ادعاء الولد أن الله اتخذ ولدًا وبين ادعاء أن الله معه إله آخر فهذان الكفران أو أمران فرق الله - ﷻ - بينهما، وهذا فيه بيان لبطلان دعوى من ادعى أن الكفر إنما هو في ادعاء اتخاذ الله - جل وعلا - الولد «وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠]، ففرق بين كفرين» قال ﷻ: «ففرق بين

الكافرين» فرق بين نسبة الولد إلى الله -جلّ وعلا-، وأيضاً ادعاء أن مع الله -جلّ وعلا- شريكاً، فإذا الوجه الأول الذي ذكره الشيخ -رحمه الله- وقرره هو بيان أن ادعاء الولد هذا كفر مستقل للوجه الثاني: أن الله -عزّ وجلّ- في عدد من آي القرآن فرق بين الأمرين اتخاذ الشركاء مع الله يُدْعَوْنَ ويستغاث بهم ويذبح لهم وينذر لهم، وبين نسبة الولد إلى الله -رحمه الله-، ومثل على ذلك بآيتين، الأولى: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] ففرق فيها بين الأمرين، والثانية: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾، هذا نوع من الكفر ﴿ وَحَرَّفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٠]

هذا نوع آخر من الكفر، فرق الله -عزّ وجلّ- بينه وبين النوع الأول، فهذا الجواب الثاني على هذه الشبهة.

-الجواب الثالث؛ قال -رحمه الله-: «والدليل على هذا أيضاً أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلاً صالحاً لم يجعلوه ابن الله» فالله -جلّ وعلا- كفر الذين دعوا اللات وغيره مع الله، ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ آلَ لَتٍّ وَالْعُزَّىٰ ﴾ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ ﴿ ٢٠ ﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿ ٢١ ﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿ ٢٢ ﴾ [النجم: ١٩-٢٢]، فهؤلاء الذين عبدوا اللات من دون الله، واللات رجلٌ كان معروفاً بالبذل والإحسان والصدقة، كان يلتُ العجيين للحجاج، ويحرص على إكرامهم واستضافتهم والإحسان إليهم، فلما مات صنعوا له حجراً، وقيل نفس الحجر الذي كان يلتُ عليه السويق عبدوه من دون الله، فقول القائل: «إنما كفر أولئك بكونهم نسبوا الولد إلى الله وقالوا الملائكة بنات الله»، هل هؤلاء الذين كفرهم الله -عزّ وجلّ- بعبادة

اللات هل ادعوا أن اللات ابن لله؟ أبداً ما قالوا ذلك، لكن كفرهم الله لأنهم عبدوه مع الله، وصرفوا له ما لا يُصرف إلا لله - ﷻ - فهذا وجه ثالث للجواب على هذه الشبهة، قال: «أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلاً صالحاً لم يجعلوه ابناً لله والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك - أي ابناً أو أبناء لله -»

-الوجه الرابع في الجواب على هذه الشبهة:

قال ﷻ: «وكذلك العلماء أيضاً، وجميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب: (حكم المرتد) أن المسلم إذا زعم أن لله ولداً فهو مرتد».

يعني مما يرتد به من كان مسلماً ادعاء أن الولد لله، وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفرقون بين النوعين، يعني من ادعى الله الولد ارتد بذلك، ومن أشرك مع الله غيره ارتد بذلك، ومن أعطى غير الله من خصائص الله - عز وجل - في ربوبيته أو أسمائه وصفاته ارتد بذلك، ومن سب الله أو دينه أو نبيه ﷺ ارتد بذلك، يذكرون أموراً كثيرة يرتد بها الإنسان ويتنقض بها إسلامه، ولم يحصروها في نسبة الولد أو دعوى اتخاذ الله الولد، فلم يحصروها في ذلك، فهذه وجوه أربعة ذكرها - رحمه الله تعالى - في إبطال هذه الشبهة، قال: «وهذا في غاية الوضوح» أي: أن وضوحه وضوحاً بيّناً في إبطال هذه الشبهة، وكشف زيفها.

قال ﷻ: «وإن قال» - وهذا أمر آخر - انتهى الجواب على الشبهة الأولى.

«وإن قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾» أي: إذا تلا هذه الآية مستدلاً بتلاوته لها على أن الآية تدل على أن للأولياء مكانة عند الله ومنزلة، وهذا كافٍ في تسويغ اللجوء إليهم، والالتجاء إليهم ودعائهم لمكانتهم

(۱) «مجموع الفتاوی» (۲/ ۲۲۴).

الآية أن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى، الذين يطيعون الله بفعل أوامره ويتقون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم - ﷺ -.

ولما كان عند القوم انحراف في هذا الباب وشَطَطُ فيه، أصبحت الولاية تطلق على من لا يُعرَف لا بإيمان ولا بتقوى، تطلق على من يضيع الأوامر ويرتكب المحرمات، ويُدعى فيه أنه من أولياء الله، وكل هذا الباطل - أعني ترك الأوامر وفعل المحرمات - أُطلق على أصحابه أنهم أولياء الله، زعمًا أن هذا الترك هو من كراماتهم! وهذا من أعجب العجب، يمارسون فعل المحرم وترك الطاعة تحت باب الكرامة؛ وهذا قد يعجب له من يسمعه، لكن مثلاً - والأمثلة على ذلك في واقعهم كثيرة - مثلاً في باب ترك العبادة، يقولون: الولي مكانته وكرامته عند الله ألا يطوف بالبيت بل البيت هو الذي يطوف به!، وهذا مقرر في كثير من كتب هؤلاء، حتى كتب لأناس معاصرين، هنا الكعبة هي التي تطوف به، كرامته ومكانته عند الله الكعبة هي التي تطوف به، ولا يطوف بالبيت، سيد الأولياء وسيد ولد آدم طاف مرات وكرات بالبيت ذليلاً خاضعاً لله - ﷻ - منكسراً لجنابه؛ يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وهؤلاء يقولون الولي مقامه أكبر من أن يطوف بالبيت، بل البيت هو الذي يطوف به، ولهذا في أحد كتب الفقه المشهورة عُقدت مسألة في كتاب الصلاة مبنية على هذه الخرافة، قالوا إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس؟ قال لأهل العلم في هذه المسألة قولان:

القول الأول: يصلون إلى مكانها الأصلي ولأن متابعة الكعبة إلى أين ذهبت هذا أمر غير مستطاع، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

والقول الثاني: قال يلزمهم أن يبحثوا عنها أين ذهبت، إن كانت في أفريقيا فالصلاة إلى أفريقيا، وإن كانت في الهند فالصلاة إلى الهند وهكذا يتابعونها في كل فرض، قولان قال في المسألة، هذا مبني على خرافة هؤلاء وضلالهم فيما يعتقدونهم في الأولياء، فلاحظ أن ترك الطاعة والذل لله - ﷻ - أدخل تحت نوع من الكرامة للولي، وأيضًا ما يدعونه للأولياء أنهم يصلون إلى مرحلة تسقط عنهم التكاليف، ويتلون في ذلك قول الله - تعالى -: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] يعني إذا وصل إلى درجة اليقين، واليقين يفسرونه في مراتب السلوك عندهم، إذا وصلوها توقفوا لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي لله طاعة لأنه من أولياء الله، وفي باب ترك النواهي أيضًا يمارسون النواهي والمعاصي والمحرمات باسم الولاية، ومن ذلكم الزنا والفواحش، يمارسونها باسم الولاية، وقرأت عن هؤلاء في كتب الأخبار القديمة وسمعت من بعض الناس في زماننا هذا، موجود في بعض المناطق يقولون أن المريد - التلميذ الذي عند الشيخ - المُدَّعى فيه الولاية، ليلة زواجه يأتي بزوجه إلى الولي، ويطلب من الشيخ أن يخلو بها وأن يفتض بكارتها بنفسه، من أجل البركة والنسل فتدخل عند الشيخ ويزني بها الزنا الذي حرمه الله - ﷻ - ويفتض بكارتها ثم تخرج من عنده، ثم يرتمي هذا التلميذ على قدمي الشيخ يقبلها، يشكره على هذا الإحسان العظيم!، لأنه زنا بزوجه وافتض بكارتها، انتهاك الأعراض وأكل لأموال الناس بالباطل، تحت اسم الكرامة والولاية وترك

للطاعات والعبادات وفعل للفجور والمنكرات وكل ذلك يدخلونه تحت كرامة الأولياء، وأن هؤلاء أولياء الله.

فإذا جاء بهذه الآية سواء قصد بالأولياء هؤلاء المجرمين أو قصد بالأولياء الصالحين، سواء قصد هؤلاء أو هؤلاء وتلا الآية: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، تقول له أولياء الله المقصودون

بهذه الآية لا من يعينهم هؤلاء من المبطلة، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما أخبر الله، وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كما نعتهم الله - ﷻ - بذلك ووصفهم، قل له: نعم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا حق نُقر بذلك لكن لا يُعبدون، يعني مهما علت مكانة الشخص في الدين والعبادة والتقرب إلى الله - ﷻ - هذا ليس مبرراً أن يجعل ندًا لله وقد أنكر النبي ﷺ ما هو دون ذلك، أنكر ألفاظاً لم تُقصد حقائقها، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهُ عَدْلًا بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»^(١).

قال ﷺ: «ولكن لا يُعبدون» لأن العبادة حق لله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالعبادة حق لله - ﷻ - لا شريك له فيها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

قال ﷺ: «ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله» نحن لا ننكر مكانة الأولياء، ولا

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

ننكر فضل الأولياء ولا ننكر أيضًا كرامات الأولياء، لكن ننكر عبادتهم مع الله، أن يجعل الولي ند لله يذبح له كما يذبح لله، وينذر له كما ينذر لله، ويدعى ويستغاث به كما يدعى الله ويستغاث به، قال: «ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله وإشراكهم معه - أي جعلهم شركاء مع الله ﷻ - وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم» فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم، وهنا يشير - رحمه الله تعالى - إلى الوسطية التي عليها أهل السنة في الأولياء بين الغلو والجفاء، الغلو طَرَفٌ سلكه من رفع الأولياء فوق منازلهم، فأعطاهم من الخصائص والحقوق ما ليس إلا لله - ﷻ -، والجفاء فيمن أنكر مقام الأولياء وقدر الأولياء وحق الأولياء وفضل الأولياء، وجفا في حق الأولياء، والوسط قَوَامٌ بين ذلك، ولهذا قرر - ﷻ - الوسطية بقوله: «نحن لا ننكر إلا عبادتهم» لأن عبادتهم غلو، واتخاذهم شركاء مع الله غلو في الأولياء، «وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم»، حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم تركه جفاء، فعقيدة أهل السنة في هذا الباب وسط بين الغلو والجفاء، الغلو ممن رفع الأولياء فوق أقدارهم ومنازلهم، وأعطاهم من الخصائص والحقوق ما ليس إلا لله، والجفاء من جحد فضائلهم ومكانتهم ومنزلتهم.

قال ﷻ: «ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين»، لاحظنا الوسطية عند أهل السنة في الأولياء، أيضًا الوسطية عند أهل السنة في كرامات الأولياء، كرامات الأولياء الناس فيها أقسامٌ ثلاثة:

قسم غلوا في الكرامة، غلوا شنيعاً وأشرت إلى شيء من نماذج الغلو في كرامات الأولياء حيث عدّ بعضهم من كرامات الأولياء ترك طاعة الله وفعل ما حرم الله، هذا غلو.

وقسم جفا في باب الكرامة فجحدها، وأنكرها مثل المعتزلة جحدوا كرامات الأولياء وأنكروها، وهذا جفاء والحق قوام بين ذلك، أن ثبت للأولياء الكرامة بدون غلو ولا جفاء^(١).

قال: «ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات، ودين الله وسط بين طرفين» طرف الغلو وطرف الجفاء وخير الأمور أوسطها لا تفریطها ولا إفراطها، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

«وهدى بين ضلالتين» أي: ضلالة من غلا وضلالة من جفا.

«وحق بين باطلين» أي: باطل المُفْرِطِينَ والمُفَرِّطِينَ، وبهذه يكون - ﷺ - ذكر هذه الشبهة وأجاب عليها.

(١) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «ألقيت محاضرة قبل قرابة خمسة عشرة سنة بعنوان: كرامات الأولياء بين الغلو والجفاء، وذكرت فيها نماذج كثيرة من إسفاف الطُرُقِيَّة والمُبْطَلَة في هذا الباب، وما يزعمون أنه من كرامات الأولياء، ركام من الأباطيل وأنواع الأضاليل كلها أدخلوها وزجوا بها في باب كرامات الأولياء، حتى فعل الفواحش كما أشرت، وهذا يذكرونه في كتب الكرامات، أشياء من أسوء ما يكون وأشنع ما يكون وأقبح ما يكون، ونقلت نقول كثيرة من كتبهم موثقة».

[المتن]:

قال المؤلف رحمه الله: «إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَسْمِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا
الْإِعْتِقَادَ هُوَ الشَّرِكُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ وَقَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ
عَلَيْهِ فَاعْلَمْ أَنَّ شَرِكَ الْأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شَرِكِ أَهْلِ زَمَانِنَا بِأَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا
أَنَّ الْأَوَّلِينَ لَا يَشْرِكُونَ وَلَا يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَالْأَوْثَانَ مَعَ اللَّهِ إِلَّا
فِي الرِّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشَّدَةِ فَيُخْلِصُونَ لِلَّهِ الدُّعَاءَ؛ كَمَا قَالَ -تعالى-: ﴿وَإِذَا
مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾
[الإسراء: ٦٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ
أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠﴾ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ
وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ
دَعَا رَبَّهُ، مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا
لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، فَمَنْ
فَهِمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي وَضَحَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ
قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَ اللَّهَ -تعالى- وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ فِي الرِّخَاءِ، وَأَمَّا
فِي الضَّرِّ وَالشَّدَةِ فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَيَنْسَوْنَ سَادَتَهُمْ،
فَتَبَيَّنَ لَهُ الْفَرْقُ بَيْنَ شَرِكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وَشَرِكِ الْأَوَّلِينَ، وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ
قَلْبَهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَهَمًّا جَيِّدًا رَاسِخًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الْأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أَنَا سًا مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللَّهِ، إِمَّا

أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل الخشب والحجر، أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهد به».

[الشرح]

ثم قال - رحمه الله تعالى -: «فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا، الاعتقاد هو الشرك، الذي نزل فيه القرآن، وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين».

قوله ﷺ الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد - يسمونه الاعتقاد - يعني الاعتقاد في الأولياء والاعتقاد في من لهم جاه أو مكانة أو نحو ذلك، ويقولون إن المتقرب إلى الولي بالنذر أو الذبح أو نحو ذلك، كلما قوي اعتقاده فيه نفعا ودفعاً ونحو ذلك، حصل له مطلوبه، ولهذا يبررون من لم يحصل مقصوده بدعاء الولي يقول هذا من ضعف اعتقادك في الولي!، وأن لو كان اعتقادك فيه كما ينبغي وكما يليق بمقام الولي لحصلت مقصودك، فيُسمّون هذا التعلق بالأولياء الاعتقاد، يسمونه الاعتقاد وحقيقته الشرك بالله ﷻ، وصرف العبادة والذل والخضوع والرجاء والانكسار لغيره - ﷺ -

«فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخف من

شرك أهل زماننا بأمرين»، شرك الأولين أي: المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ شرك هؤلاء أخف من شرك هؤلاء بأمرين، ويعني ذلك أن شرك الآخرين أغلظ من شرك أولئك بأمرين؛ «أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء» يعني في السعة واليسر والراحة والأمن والطمأنينة والصحة والعافية، في مثل هذه الحال يشركون يتخذون مع الله الشركاء من الملائكة والأنبياء والأصنام والأحجار وغير ذلك، «وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء»، يعني حال الشدة والكربات والدواهي العظام التي تنزل بهم ينسون ما يشركون، ولا تأتي في أذهانهم أصلاً ينسونهم، بل لا يكون منهم إلا الإخلاص، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّهَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فشرك الأولين في الرخاء دون الشدة، لأن الشدة حالهم فيها هو حال الإخلاص كما قال الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لا يدعون معه آلهة أخرى ولا يتعلقون بغيره ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني دعاؤهم له خالصاً صافياً لا يدعون معه غيره، وإذا نجوا نجاههم إلى البر يعودون إلى الشرك ﴿فَلَمَّا بَجَّهَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ قال: «كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]» فقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني الشدة وعاينتم الغرق والموت ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ يعني يذهب عنكم وعن أفكاركم وعن عقولكم من تدعون إلا إياه ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾، هذا يفيد أنهم في حال الرخاء يدعون الله ويدعون غيره، لكنهم في حال الشدة والكربات

يذهب عنهم كل من كانوا يدعونه من دون الله، ويخلصون الدعاء لله - ﷻ :-

﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾، هذا ذكره الله - ﷻ - بعد ذكره لمنه على عباده بنعمة الفلك، قال: ﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَبَنَّوْا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ٦٦ ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾، المراد هنا المشركين ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾، يعني عدتم إلى الشرك والتعلق بغير الله واتخاذ الأنداد والشركاء، ﴿ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ٦٧ ﴿، فانظر بيان الله - ﷻ - لبطلان ما عليه هؤلاء وفساد عقائد هؤلاء بالتعلق بغير الله، قال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ ٦٧ ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ يعني الآن أنتم نجوت من الشدة التي عاينتموها في البحر ولجأتم إلى الله - ﷻ - مخلصين فنجاكم إلى البر، ثم لما وصلتكم إلى البر عدتم إلى الشرك، تنادون غير الله وتستغيثون بغير الله وتصرفون العبادة لغير الله، ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ هذه العودة منكم إلى الشرك هل أمتتم أن يخسف بكم جانب البر مثل ما عاينتم موتاً في البحر، ألا تخشون أن يأتيكم الموت وأنتم في البر؟ ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ هذا نوع من العقوبة التي يتوقع أن تنزل ولا عاصم منها إلا الله - سبحانه - كما أنهم لا عاصم لهم من الغرق إلا الله - ﷻ - قال: ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ أو - هذا أمر آخر في البر أيضاً - ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ حاصباً أي: ريحا شديدة تحمل الحصباء، فتهلككم

وأنتم في البر، هذان نوعان من الهلاك وأنواع الهلاك التي تكون على الناس في البر كثيرة جدًا ولكن هذان نوعان.

ثم أمر آخر ثالث: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ [الإسراء: ٦٩] هل تأمنون أن يعيدكم تارة أخرى في البحر لحاجة من الحاجات ومقصد من المقاصد في يوم من الأيام القادمة ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ نَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٩]، فأنتم في حاجة إلى الله - ﷻ - في الشدة والرخاء، الشاهد أن المشركين الأول كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة، أما المشركون في الأزمنة المتأخرة يشركون في الحالين في الرخاء و الشدة، يشركون في الرخاء والشدة، ويتعلقون بالأولياء في الرخاء والشدة وإذا عاينوا الغرق في وسط البحر يهتف كل من هؤلاء بشيخه، الحقني يا فلان أدركني يا فلان، ولو كان معهم أبو جهل لخطأهم وقال لهم هذا وقت إخلاص هذا وقت شدة ما فيه إلا إخلاص ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، ففي الفلك أيضًا يستغيثون: يا شيخ فلان، أدركني يا فلان، الحقني يا فلان، لأنه غرس في نقوسهم من وقت مبكر التعلق بالأولياء، حتى في مثل هذه الحالات وحكوا لهم مسبقًا قصصًا وحكايات أن الولي إذا هتفت به وأنت في البحر خلصك من الشدة، ويروون في ذلك كرامات ولهذا في أحد كتب هؤلاء المشهورة في الكرامات، كتابًا مطبوع باسم «كرامات الأولياء» وعدد نماذج كثيرة من كرامات الأولياء، قال في إحدى الكرامات في ترجمة رجل يقول: سيدنا -هكذا يقول: الشيخ علي- قال كان من كراماته أنه إذا جاءه رجل غريب عن

البلدة، ومعه حماره قال له امسك لي رأسها حتى أفعل بها؛ يقول له الولي! يقول امسكلي رأسها حتى أفعل بها، فإن أمسك رأسها ليفعل بها أصبح الغريب في حرج أمام الناس يمسك الحماره لهذا يفعل بها، وإن امتنع، الحماره تتسمر في مكانها ما تمشي! هذا الآن مذكور في كرامات الأولياء، قالوا: إن الشيخ علي فعل ذلك، انظر الآن للكرامة التي تغرس في نفوس أولئك الشرك في الرخاء والشدة؛ قال إن الشيخ علي لما فعل بالحماره، ما فعل بها من أجل الفاحشة! قالوا لا، في سفينة في البحر مخروقة فهو رَتَقَ فتق السفينة، لما فعل بالحماره رتق الفتق الذي في السفينة، ونجا الناس الذين في السفينة من الغرق! الله أكبر يكبرون، ثم إذا ركبوا في السفينة يهتفون به حتى يفعل بحماره أخرى فترتق السفينة وينجون من الغرق! مهازل ومصائب وكوارث وجناية على عقول العوام والجهال، فهذه جناية من أعظم الجنایات، ثم يمشي العوام والجهال في شرك عظيم وفي ضلال مبين بمثل هذه الحكايات الملفقة والقصص التي يروج به الباطل، فمثل هذه القصة وأمثالها هي التي تجعل هؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة، ولهذا مما قرأت أن شيخاً كان في سفينة، وعينت السفينة الغرق - قرأتها في إحدى حواشي الكتب - لشيخاً في سفينة وعين في السفينة الغرق، فأصبح كل يهتف بشيخه، أدركني يا فلان، الحقني يا فلان، ما وجد منهم واحد يقول يا الله! فمدّ يديه ورفعها؛ قال يا الله يا رب أغرق أغرق! ما على السفينة من يعبدك! لأن ليس على ظهر السفينة من يعبدك كلهم يعبدون غيرك ويلتجؤون إلى غيرك، فإذا هذا شرك أغلظ من شرك المشركين، ومثل هؤلاء - كما قدّمت - لو كان معهم في السفينة أبو لهب أو أبو جهل أو غيرهم من أساطين الكفر، لأنكروا

عليهم، قالوا لا هذا وقت إخلاص! ما فيه إلا الإخلاص، خلّوا هؤلاء إذا خرجنا إلى البر أما الآن لا، أخلصوا، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فإذا هذا يدل على أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك أولئك من هذه الناحية، والشيخ -رحمه الله- أورد جملة من الآيات تقرر ذلك بدأها بهذه الآية من ﴿سورة الإسراء﴾ ثم قال -رحمه الله-: «وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٠] بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [٤١] [الأنعام: ٤٠]».

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ يعني أنكم أيها المشركون في مثل هذه الحالات لا تدعون إلا إياه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي: وحده دون شريك، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١] ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يعني في الشدائد ينسى المشرك الأنداد والشركاء ويخلص لله -رحمه الله- أما المتأخرين ففي الشدائد (لا ينسون ما يشركون) بل بهم يتعلقون وإليهم يلتجئون وعليهم يتوكلون. قال -رحمه الله-: «وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]».

أي: هذا وصف لحال المشرك، أي: أنه في حال ضرائه لا يدعو ولا يلجأ إلا إلى الله -رحمه الله- قال إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وأورد قول الله -تعالى-: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌّ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وأيضاً قول الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، هذه كلها تقرر أن المشركين الأول

كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة بخلاف هؤلاء فإنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة.

قال ﷺ: «فمن فهم هذه المسألة التي وضحتها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله - تعالى - ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضرر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم فيبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين»، الفرق بين شرك المتأخرين وشرك الأولين الذي يشير إليه الشيخ ﷺ أن أولئك كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة، وهؤلاء يشركون في الشدة والرخاء، وما من شك أن من يشرك في الشدة والرخاء أغلظ ممن يشرك في الرخاء دون الشدة، ولكن انظر ألم الشيخ ﷺ وأسفه: «ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا جيدًا راسخًا، أين هو والله المستعان» فالشيخ ﷺ يأسف لحال يراها ويقرر لذلك نصحًا للناس ومعذرة إلى الله - ﷻ - وبمثل هذا النصح العظيم هدى الله خلقًا، وأخرجهم الله - ﷻ - من الظلمات إلى النور ببركات هذه الدعوة الناصحة الصالحة لكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال ﷺ: «الأمر الثاني: أن الأولين - يعني المشركين الأولين - يدعون مع الله أناسًا مقررّين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة، أو يدعون أحجارًا أو أشجارًا مطيعة لله ليست عاصية»، هذا شركهم وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم - يعني في كتب الأخبار وفي كتب التراجم - هم أنفسهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة، مثل الذي يفعل بالحمارة هذا يعدّونه من كراماته ومن موجبات التعلق به من دون الله، واتخاذ

قبره وثناً يُعبد من دون الله، ولهذا يذكرون في تراجم من يتعلقون بهم أشياء عندما تقرأها أنت صاحب الحق الذي من الله عليك بالهداية تعرف أن هذا مُضِل، يعني يذكرون عن شخص قبره الآن من أكبر القبور التي تُعبد وتُقصد ويذبح لها وينذر، يذكرون أنه ما كان يشهد للصلاة في الجماعة، وذكروا أيضاً في ترجمته أنه دخل مرة واحدة للمسجد وبال فيه، ويذكرون أشياء في ترجمته وأخبار ولما مات عملوا له قبة وضريحاً! بالآلاف المؤلفة يقصدون قبره، متعلقين وداعين وذابحين وإلى آخر ذلك، وكانوا يلقبونه أبو اللثامين السطوحي، أبو اللثامين قالوا أنه جلس تقريباً اثنا عشر سنة فوق سطح البيت ما نزل أبداً، بقي فوق السطح مثلثاً هذه كل المدة، وقالوا: كان مُثلثاً لحكمة، وهي أنه لو كشف وجهه لأحرق وجهه أو نور وجهه من يراه، ومثل الأمور هذه بدأ العوام يأتون قبره وضريحه زرافات ووحدانا، حتى إن أحد الكبار ألف كتاباً في مناقبه؛ قال: ولم أخرج هذا الكتاب حتى أتيت قبره واستأذنته وأذن لي أن أطبع الكتاب! أشياء يعني مؤلمة ومؤسفة، والمسلم يحمد الله على العافية، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولولا منة الله علينا بهذه الهداية وهذا التوحيد وهذه الكتب التي نقرأها ونتعلمها، لكان الأمر آخر لكن هذا فضل الله - ﷻ -.

«الأمر الثاني: أن الأولياء يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجاراً أو أشجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم» انتبه لقوله: (هم الذين يحكون عنهم) يعني ليس خصومهم الذين يحكون عنهم، ولكن

هم الذين يحكون عنهم أمورًا هي من الفجور والزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك يحكونها عنهم في كتبهم هُم، كتب الكرامات كتب الأولياء يحكون عنهم الزنا يحكون عنهم فعل الفواحش، يحكون عنهم تتبع المُردان، يحكون عنهم فعل المحرمات ترك الصلاة ترك الطواف كل هذه يذكرونها في كتب الكرامات وفي مناقب الأولياء، فانتبه لقوله -رحمه الله تعالى-: «الذين يحكون عنهم» ما قال نحكي أو يُحكى، قال (يحكون) أي: هؤلاء الذين يتعلقون بهم ويعتقدون فيهم، يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، وكل هذه الأشياء التي تسمعا الزنا السرقة ترك الصلاة وأعمال أخرى منكرا أكثر من ذلك، كلها تذكر في مناقب الأولياء! وتذكر في كرامات الأولياء عند القوم، «وغير ذلك».

قال ﷺ: «والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل شجرة أو حجر أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهد به» وكل من الأمرين شرك، لكن هذا أهون من هذا، وإلا كله شرك، وكله موجب للنار وسخط الجبار، لكن هذا أهون من ذلك، والنفوس لها شيء من التعلق أو النفوس لها شيء من المحبة للصالحين والمعرفة لأقدار الصالحين، فربما أن الإنسان من هذا الباب مع سوء فهم وقلة علم وبصيرة، ربما عظم الصالحين تعظيمًا لا يليق إلا بالله، لكن أن يعظم هؤلاء الفسقة الفجرة أهل الفواحش أهل المنكرات، ويُصرف لهم من الحقوق والخصائص ما ليس إلا لله -ﷻ- فهذا لا شك أن مثل هذا العمل أغلظ من شرك المشركين الأول، كل من الشُرَكَيْن غليظ، لكن هذا أغلظ من هذا، فإذن هذان أمران يتبين من خلالهما أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك المتقدمين.

وأمر ثالث: وهو أن المتقدمين شركهم في الألوهية، أما الربوبية وخصائص الربوبية لا يعطونها للأصنام ومن يعبدونهم لا يقولون عنها إنها تخلق، ولا يقولون ترزق، ولا يقولون تحيي ولا تميت ولا تدبر الأمر، لا يقولون ذلك، ولا يعطونها خصائص الله في أسمائه - ﷻ - وصفاته، والمشركون المتأخرون كما أنهم يشركون في الألوهية أيضًا يشركون في الربوبية، ويعتقدون في الولي من التصرف والتدبير ما ليس إلا الله - ﷻ -، ولهذا أحد كبار المضلين المخرفين في عصرنا، سمعته في شريط له يقول الولي يخلق، من قال لكم أن الذي لا يخلق إلا الله، قال: الولي يخلق، قال: والقرآن دلّ على ذلك! قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، قال: هذا دليل على أنه فيه خالقين مع الله، وقال: أن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم، يستطيع ذلك ولكنهم لا يفعلون ذلك من أجل أن لا تختلط الأنساب، فقط لهذا وإلا فهم يستطيعون، ويذكرون في أحد كتب هؤلاء أن أحد الأولياء المزعومين كان متزوجًا من امرأة وصفوها بأنها شريفة، وتزوج عليها امرأة فلاحه فقيرة، فغضبت الشريفة ليش ياخذ عليها فلاحه وهي لها مكانة وشريفة، فغضبت وطلبت الانفصال منه، وكانت حاملاً منه في الشهر السادس، قال لها إذا ما تتركين هذه المطالبة سوف أنقل الجنين من رحمك إلى رحم الزوجة الجديدة! فأبت قالوا فنقل الجنين يعني أمر الجنين أن ينتقل من رحمها إلى رحم الزوجة الجديدة وولدت الزوجة الجديدة بعد ثلاث شهور، ولدت الزوجة الجديدة الفلاحه بعد ثلاث شهور، هذه كلها أبو جهل لو سمعها ينكرها، أبو جهل لو سمع هذا الكلام قال هذا منكر، ربما يقول لهم: كبرت كلمة تخرج من أفواهكم، هذا كلام منكر

ما يقال، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فهذا من الأمور التي تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ، وهذا الجاهل ما فهم الآية ولا فهم معنى دلالة هذا الاسم ﴿الْخَالِقِينَ﴾ وإلا لو كان يعرف معناه ويفهم دلالته لما قال هذا القول المنكر، القول الذي لم يصل إليه المشركون الأول، لأنهم ما كانوا يعتقدون مثل هذه العقائد في الأصنام والأوثان والأولياء ومن يدعوهم من دون الله.

وأمر رابع وهو: أن المشركين الأول كانوا يفهمون معنى لا إله إلا الله وأنها تعني إخلاص العبادة لله، ولما قال لهم النبي ﷺ (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) قالوا ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، والمشركون المتأخرون لم يفهموا لا إله إلا الله، وإذا قيل لهم ما معنى لا إله إلا الله فسروها في الربوبية فقط، قالوا معناها لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا الله أو لا مانع ولا معطي إلا الله فهذه وجوه أربعة تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولاً، وَأَخَفُّ شِرْكَاً مِنْ هَؤُلَاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبُهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَّرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبُهِهِمْ، فَأُصْغِ سَمْعَكَ لَجَوَابِهَا، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْراً، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي وَنُصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ، أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ. وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ، كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَجَحَدَ جُوبَ الصَّلَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ جُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ جُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ جُوبَ الْحَجِّ.

وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أَنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمَهُ وَمَالَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ

وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿١٥١﴾ [النساء ١٥٠: ١٥١].

فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْنَا.

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا، وَأَخَفُ شُرَكَاءَ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ لَهُوْلَاءِ شُبْهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبْهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا)، لَمَّا ذَكَرَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - مَا سَبَقَ مِمَّا يَتَبَيَّنُ بِهِ أَنَّ شُرَكَاءَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَغْلَظَ مِنْ شُرَكَاءِ الْأَوَّلِينَ، وَأَنَّ الْأَوَّلِينَ كَانُوا أَصَحَّ عُقُولًا مِنْ هَؤُلَاءِ لِسَلَامَةِ لُغَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِدَلَالَاتِ الْخُطَابِ وَمَعَانِي الْكَلَامِ، لَمَّا قَرَّرَ ذَلِكَ وَذَكَرَهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَنَبَّهَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ شُرَكَاءَ الْأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شُرَكَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ وَجْهِ سَبْقِ بَيَانِهَا عِنْدَهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -، لَمَّا ذَكَرَ ذَلِكَ قَالَ: (اعْلَمْ أَنَّ لَهُوْلَاءِ شُبْهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا) أَي: يَشِيرُونَهَا، (عَلَى مَا ذَكَرْنَا) أَنَّ مَا عِنْدَهُمْ شُرَكَاءَ بِاللَّهِ - ﷻ، وَأَنَّ عَمَلَهُمْ أَغْلَظَ مِنْ شُرَكَاءِ الْأَوَّلِينَ، وَكَمَا قَدِّمْتُ مَرَّةً مَعْنَاهُ عِنْدَهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَجْهَانِ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ.

يقول: (لِهُوْلَاءِ شُبْهَةٌ يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبْهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا) انظر إلى دقة العبارة، لم يقل - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: فَأَصْغِ سَمْعَكَ لَهَا، أَي: لِلشُّبْهَةِ، لَأَنَّ الشُّبْهَةَ لَا يُحْفَلُ بِهَا وَلَا يُهْتَمُّ بِهَا، وَإِنَّمَا يُحْفَلُ وَيُهْتَمُّ بِالْأَجُوبَةِ

السديدة والنقد المفيد المستمد من كتاب الله وسنة نبيه، هذا الذي ينبغي أن يُرعيه المسلم اهتمامه، أما الذي يفتح قلبه للشبهات ويُصغي لها ويُقبل عليها ويُحاول استيعابها فهذا ربما استقرت الشبهة في قلبه ولم تخرج، وربما تجلجلت في صدره إلى أن يموت، ولهذا لا ينبغي لمسلم أن يحفل بشبهة أو أن يُعنى بها أو أن يُصغي لها، ولهذا تكلم السلف -رحمهم الله- قديما في بيان خطورة من أصغى لصاحب شبهة؛ فصاحب الشبهة لا يُصغ له والشبهة لا يصغ لها ولهذا قال: (فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا) اقرأ الشبهة وليكن اهتمامك وعنايتك وضبطك بالجواب، قال: (فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا)، ثم ذكر الشبهة قال: (وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ) يعني المشركين الأول الذين نزل القرآن في ذمهم والتشنيع عليهم وبيان كفرهم وشركهم بالله (لَا يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، لم يقبلوا الشهادة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿[الصافات ٣٥: ٣٦]، لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول ﷺ، يكذبونه ويكذبون بما جاء به ويدعون بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو غير ذلك، (وَيُنْكِرُونَ الْبَغْثَ)، ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧] ينكرون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، (وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا)، قال ﴿فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (٤٤) إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿[المدثر ٢٤: ٢٥]، يقولون: (وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أي: ننتق بالشهادة ونتلفظ بها، نقول لا إله إلا الله، (وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ) أيضا نشهد بأن محمدا رسول الله ﷺ (وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ) نؤمن بأن القرآن من الله ﷻ، وأنه وحي وأنه منزل على محمد ﷺ، لا نقول أنه كتاب سحر كما قال الكفار الأول،



(وَتُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ) نؤمن ونعتقد أننا مبعوثون، (وَنُصَلِّي وَنُصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ؟) ونحن عندنا هذه الأعمال وبيننا وبينهم هذه الفروق، وكأنهم يريدون أن يقولوا إن وجود الشرك الذي كان عليه الأولين عندنا ونفعله ونمارسه هذا لا يؤثر في انتقاض الدين وانهدامه مادام أن عندنا هذه الأشياء، وهي ليست عندهم، هذا حاصل تقريرهم لهذه الشبهة: مادام أن هذه الأشياء موجودة، فكوننا نلجأ إلى غير الله، نذبح لغير الله، نستغيث بغير الله نصرف العبادة لغير الله هذا لا يؤثر طالما أننا نشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ونؤمن بالقرآن ونؤمن بالبعث ونصلي ونصوم، هذه لا تؤثر! وهذه فروقات بيننا وبين أولئك تمنع من أن نُلحق بهم أو نُعدَّ أمثالا ونظراء لهم!

هذا حاصل الشبهة والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- طلب الإصغاء لجوابها ولم يذكر جوابا عليها واحدا؛ بل ذكر تسعة أجوبة -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كل واحد منها كاف لكشفها وتعريتها، فذكر أولاً الجواب الأول (فَالْجَوَابُ: أَنَّ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ، أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ) يقول هذه محل اتفاق بين أهل العلم، أنه إذا صدّقه في شيء وكذّبه في شيء كافر باتفاق أهل العلم، حتى وإن صلّى وإن صام وإن حجّ وإن صدّق بالبعث، إذا كذّب النبي -ﷺ- في شيء فهو كافر باتفاق أهل العلم.

قال: (وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ) هذا كافر باتفاق أهل العلم، من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض أو يؤمن ببعض ما جاء به الرسول -ﷺ- ويكفر ببعض هذا باتفاق أهل العلم يكون كافراً فكيف بمن جحد التوحيد وردّ

التوحيد الذي هو أعظم شيء أتى به الرسول - ﷺ -؟! قال ممثلاً: (كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة) هذا ما حكمه؟ من أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أيضاً اعكس الأمر: من أقر بوجوب الصلاة وصلى وجحد التوحيد؟ هذا كافر باتفاق أهل العلم وذلك كافر باتفاقهم، (أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ) أي: بالتوحيد والصلاة والزكاة (وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وَجُوبَ الْحَجِّ) وذكر هنا - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - مباني الإسلام الخمسة: بُني الإسلام على خمسة شهادة أن لا إله إلا الله وهذا التوحيد، وأن محمد رسول الله ﷺ وهذا الإيمان بالرسالة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، فمن أقر ببعض هذه المباني وكفر ببعض ولو بواحد منها فإنه باتفاق أهل العلم يكون كافراً بالله ﷻ، فتكذيبه بواحد من هذه الأشياء نقض لتصديقه لألوف من الأشياء الباقية، تكذيبه لواحد من هذه الأشياء يُعد نقضاً لألوف من الأمور التي يأتي بها من أمور الإسلام لأنّ التكذيب بشيء مما جاء به الله في كتابه - سبحانه - وما جاء في سنة النبي ﷺ هذا يُعدّ ناقضاً للإيمان.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: «إذا صار جحد فرع من فروع الدين كفراً، فكيف بجحد الأصل وهو التوحيد؟! فبوقدر - وهو لا يكون - أن هذه الفروع كلها - من الصلاة وما بعدها - ليست معصية ولا عزيمة، لكان جحد التوحيد كفراً برأسه، فكيف وهو الأصل»^(١).

قال الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: (وَلَمَّا لَمْ يَنْقُذْ أَنْاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ)

أتوا بأمور الإسلام ولم ينقادوا للحج (أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾)

(وَمَنْ أَقْرَبُ بِهَذَا كُُلِّهِ) أي: أقر بمباني الإسلام كلها (وَجَحَدَ الْبَعْثَ) أي: جحد بعث الناس وقيامهم لرب العالمين (كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿) فسمّاهم الله -تبارك وتعالى- كفارا مع إيمانهم ببعض ما جاء به الرسول -ﷺ-، ومثله قول الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] لكونهم اتخذوا الأنداد مع الله -ﷻ- - فإذا وُجد الأمر الناقل من الملة والناقض للإسلام فمع وجوده لا يُستفَع بالأعمال وإن كثرت والطاعات وإن تعددت.

قال ﷻ: (فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا زَالَتْ هَذِهِ الشُّبُهَة) لأن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا فكيف بمن لم يؤمن بالتوحيد ولم يرضه؟!

قال: (وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأُخْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا)، كان بعض خصومه يرأسونه معترضين على ما يدعو إليه من التوحيد وما يُحذر منه من الشرك والتنديد، وما يبينه من الحال السيئة التي عليها الناس بالتعلق بغير الله -ﷻ- - وصرف العبادة له؛ فكان بعضهم يرأسله، معاندينه مخاصمين للحق الذي يدعو إليه.

[المتن]

قال المؤلف رحمته الله: «وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدِّمِ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلَّهُ، لَا يُجْحَدُ هَذَا وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا. فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ رحمته الله، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ رحمته الله؟ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ».

[الشرح]

ثم ذكر - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هذا الجواب لثاني على الشبهة وبين من خلاله مكانة التوحيد وأنه أعظم شيء أمر الله - رحمته الله - به، وقرر - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - إذا كان باتفاق أهل العلم من يجحد الصلاة ويجحد الصيام ويجحد غير ذلك من فرائض الإسلام يكفر اتفاقاً فكيف بمن يجحد أعظم شيء في الدين وهو توحيد الله - رحمته الله - . قال: (إِذَا كُنْتَ تُقَرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ رحمته الله فِي كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وَجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدِّمِ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ) أي: أنه يكون بذلك كافراً، (وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلَّهُ) أي: أيضاً يكون كافراً باتفاق أهل العلم، (لَا يُجْحَدُ هَذَا) أي: لا يجحده أحد ولا ينكره أحد، (وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا) أي: في

الآيات التي ساقها مقررّة كفر من جحد شيئاً من ذلك أو من فرق بين أمور الإيمان فأمن ببعضها وكفر ببعضها.

قال: (فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ) ولهذا يأتي مقدّماً في النصوص ومنها النص الذي ذكرته قريباً (مباني الإسلام) بُدئ بأعظم المباني وهو التوحيد، وفي الأوامر في كتاب الله يُبدأ به وفي النواهي يُبدأ بالنهي عن ضده، فهو أعظم شيء أمر الله - ﷻ - عباده به، فكيف يكون من جحد الصلاة مع إيمانه بباقي أمور الإسلام كافراً، ومن جحد الصيام مع إيمانه بباقي أمور الإسلام يكون كافراً، ومن يجحد التوحيد مع إقراره بتلك الأمور لا يكون كافراً؟!!

قال: (فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمَلٌ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؟ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ)، يقول الشيخ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ).

ولإلزام الخصم بمثل هذا لك أن تسأله عندما يطرح مثل هذا، ولو تريثت قليلاً ثم فاجأته بسؤال قلت له: ما رأيك برجل يعرف الصلاة ويعرف ما جاء في مكانتها وفضلها؛ ولكن يجحد أنها واجبة ويُنكر ذلك، ماذا تقول فيه؟ تجد أنه سيقول أنه كافر؛ تقول له وإن صام؟ وإن حج؟ وإن وإن، سيقول: كافر لأنه جحد هذه الفريضة المعلومة من الدين بالضرورة، والتي لها من الدلائل الشيء الكثير؛ فقل له: التوحيد أعظم من الصلاة ودلائله أكثر، ومكانته أعلى وشانه أرفع؛ فكيف

يكون كافراً بجحد الصلاة، ولا يكون كافراً بجحد التوحيد؛ بل كما قال أهل العلم:
التوحيد وحده قد يكفي الإنسان في إسلام العبد ودخوله الجنة؛ مثل لو أن شخصاً
تكلم بكلمة التوحيد وشهد بها وأقر ثم قُبِضَتْ روحه قبل أن يقوم بشيء من أعمال
الإسلام تكفيه وتنجيّه من عذاب الله ويكون من أهل الجنة، فالتوحيد وحده يكفي
وهذه الأمور وحدها لا تكفي إلا إذا وُجد التوحيد معها؛ فكيف يُعَدُّ جحد التوحيد
ليس بناقض وجحد هذه الفرائض ناقضاً للإسلام؟!



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «يُقَالُ أَيْضاً لَهُؤْلَاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤَدِّثُونَ وَيُصَلُّونَ، فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ.

قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا فِي رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ وَحَلَ مَالَهُ وَدَمَهُ وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيًّا أَوْ نَبِيًّا فِي رُتْبَةِ جِبَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

[الشرح]

ثم ذكر - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هذا الجواب الثالث على هذه الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضاً لَهُؤْلَاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ) أي: بنو حنيفَةَ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ لكن الصحابة قاتلوهم واستباحوا دماءهم وأموالهم، (وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَيُؤَدِّثُونَ، وَيُصَلُّونَ) وهذه أشياء كانوا هؤلاء قد ذكروها سابقاً في الشبهة، قالوا كيف تسوون بين يجحد القرآن ويكذب بالنبي ﷺ ويشهد أن لا إله إلا الله ويصلي ويصوم وبين أولئك المشركين فيقول - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: (وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيُؤَدِّثُونَ، وَيُصَلُّونَ)؛ لكن ما هي المشكلة عندهم؟ (فَإِنْ قَالَ) يعني يقول لك الخصم (إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ) يعني مع فعلهم لهذه الأشياء يدعون أن مسيلمَةَ نبيا، مع أنهم يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة، ويشهدون أن

لا إله إلا الله ويصلون ويصومون؛ لكنهم يشهدون أن مسيلمة نبي؛ فيقول هؤلاء كفروا لأنهم يشهدون أن مسيلمة نبي، يقول الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - (قُلْنَا: هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ) يعني في الجواب على هذه الشبهة؛ (إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا فِي رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ وَحَلَّ مَالَهُ وَدَمُهُ وَلَمْ تَنْفَعُهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيًّا أَوْ نَبِيًّا فِي رُتْبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟)، إذا كان من رفع شخصا إلى رتبة النبوة يكفر بإقرار هؤلاء الخصوم فكيف بمن يرفع شخصا إلى رتبة الألوهية؟! أليس الأمر أعظم؟ ولهذا أيضا بتقرير هذا الرد ممكن أن تقول للخصم عندما قال هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي ويصوم؛ فيمكن أن تقول للخصم: ما رأيك في شخص يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي ويصوم ويدّعي لشخص من الأشخاص أنه نبي، ما رأيك فيه؟ يدعي أنه نبي، ماذا سيقول لك؟ قطعاً سيقول لك هذا يكفر، حتى وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وصلى وصام، إذا يشهد لشخص أنه نبي هذا يكفر؛ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده؛ فقل له إذا كان يكفر لرفعه لرجل إلى رتبة النبوة مع أنه يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم فكيف لا يكفر من يرفع رجلاً - أي كان مقامه - إلى رتبة الجبار - ﷻ -؛ فيعطيه من الخصائص أو الحقوق ما ليس إلا الله - ﷻ -.

قال: (فكيف بمن رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ) شمسان وكذلك يوسف وسيأتي قريباً أيضاً تاج، هذه أسماء أشخاص كانوا في زمان الشيخ يُعَظَّمُونَ وَيُقَرَّبُ إِلَيْهِمْ وَتُصَرَّفُ لَهُمُ النَّدُورُ، ولهذا ذكر الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - محمد بن إبراهيم في

سؤال له عن هؤلاء، قال: «أما تاج فهو من أهل الخرج تُصرف إليه النذور ويُدعى ويُعتقد فيه النفع والضرر، وأما شمسان فالذي يظهر من رسائل إمام الدعوة -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنه لا يبعد عن العارض -وهي منطقة- وله أولاد يُعتقد فيهم، وأما يوسف فقد كان على قبره وثن يُعتقد فيه؛ فهو هؤلاء شمسان ويوسف وتاج أشخاص كانوا يُعتقد فيهم، تقدم لهم القرايين والنذور ويُلتجأ إليهم؛ فكيف من رفع هؤلاء الأشخاص إلى رتبة الألوهية وأعطاهم من الحقوق ما ليس إلا الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لا يكون كافراً لكونه يُصلي ويصوم ويشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟! ومن ادعى في شخص انه نبي يكون كافراً وإن شهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإن صلى وصام»^(١).

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- (سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْظَمَ شَأْنُهُ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾) وهذا عَمَى في القلوب وضلال من أشد ما يكون لأنهم يدركون أن من يرفع شخصاً إلى درجة النبوة يكفر وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإن صلى وصام ولا يقرون بأن من رُفع إلى درجة الألوهية يكفر لكونه يشهد بهذه الأمور.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ عليه السلام، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ الْاعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وَشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الْاعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالْاعْتِقَادَ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يُكْفِرُ؟».

[الشرح]

ثم ذكر -رحمه الله- هذا الجواب الرابع على تلك الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ عليه السلام) كانوا حوله ويعظمونه ويظهرون محبته وتولييه، (وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ) كانوا يعيشون بين الصحابة وما عرفوه من أمور الإسلام عرفوه من طريق الصحابة - عليهم السلام - وأرضاهم -، لكنهم وقعوا في غلو شنيع فاعتقدوا في علي عليه السلام ورفعوه إلى مقام الألوهية، قال (وَلَكِنْ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ الْاعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وَشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا) يعني اعتقدوا في علي اعتقادات مثل اعتقادات من اعتقد في شمسان أو في تاج أو يوسف أو غيرهم من الذين كان من يتعلق بغير الله يعتقد بهم ويصرف لهم ما لا يصرف إلا لله تعالى.

قال (فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟)، وهذه كلمة كثيرا ما قالها أهل الضلال في حق الشيخ -رحمه الله-

ومن كانوا على نهجه في الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، يقولون أنه يكفر المسلمين، وتبرأ من ذلك في كتابات ورسائل عديدة، وبين كذب هذه الدعوة وأنه لا يكفر مسلماً وإنما يكفر من كفره الله ورسوله ومن كان كافراً بدلالة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ وحاشاه وغيره من أئمة العلم والفضل أن يكفروا مسلماً؛ بل هو - رَحِمَهُ اللهُ - وغيره من أئمة العلم من أشد الناس نهياً عن التكفير، قال (فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةَ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكْفِرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الْاِعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالْاِعْتِقَادَ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يُكْفِرُ؟)، فهذه أمثلة يسوقها - رَحِمَهُ اللهُ - وشواهد من الكتاب ومن السنة ومن أفعال الصحابة رضي الله عنهم يبين من خلالها فساد هذه الشبهة ووهائها.



[المتن]

قال المؤلف ﷺ: «وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدِ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ».

[الشرح]

وها الجواب الخامس لهذه الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدِ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكَوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ)، بنو عبيد القداح هؤلاء تسلطوا على المغرب ومصر مدة من الزمن وكانت المساجد قائمة والأذان يُرفع وتقام الصلاة وتقام الجمعة؛ ولكنهم عظموا هؤلاء الحكام من بني عبيد ويدعون أنهم من الفاطميين، وهذه دعوة كاذبة بينها أهل العلم وأنها نسبة كاذبة لا صحة لها، فأتباع هؤلاء عظموهم واعتقدوا فيهم اعتقادات لا تليق إلا بالله ﷻ، فاتفق أهل العلم على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب مع أن بلادهم فيها إقام الجمعة والجماعة والصلاة، قال: (وَعَزَاهُمْ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ) أي: ولم

يجعلوا الشهادتين والصلاة والزكاة والجمعة والجماعة فرقا مؤثرا عندهم أو مانعا من الحكم عليهم بالكفر وقتالهم واعتبار بلدهم بلاد حرب، لم يعتبروا ذلك مانعا من ذلك.



[المتن]

قال المؤلف ﷺ: «وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشُّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ وَهُوَ الْمُسْلِمُ يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعَ كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكْفَرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ وَاللَّعِبِ».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الجواب السادس على هذه الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشُّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) يعني كما يدعيه صاحب هذه الشبهة ويشير لها، (إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشُّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) وغير ذلك من الأمور التي ذكروها في الشبهة، يقول الشيخ في الجواب: (فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ) ما معنى هذا الباب؟ وفي كل المذاهب يوجد هذا الباب (باب حكم المرتد)، وتحت هذا الباب تُذكر الأمور التي تحصل بها الردة عن الإسلام ويحصل بها انتقاض الإسلام، وتجد من يذكر هذه الأمور التي يحصل بها الردة تجدهم بين مطوّل ومختصر، منهم من يذكر أشياء كثيرة وتفاصيل دقيقة ومنهم من يذكر ما هو دون

ذلك، لكنهم جميعا متفقين على أن المرء يرتد عن دينه بفعل هذه الأمور التي تكون بها الردة عن الإسلام سواء حصل منه أمرا واحدا ينقض الإسلام أو أكثر من واحد، ولهذا يقول الشيخ: (فَمَا مَعْنَى الْبَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ)^(١)، إذا كنتم تقولون أن الكفار الأول لم يُكفروا إلا لأنهم جمعوا بين هذه الأشياء يشركون ويكذبون وينكرون القرآن وينكرون البعث ويكذبون بالنبي ﷺ ولهذا كُفِّروا، إذن ما معنى باب حكم المرتد؟ الموجود في كتب الفقه عموما؟ قال: (وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ) هذا تعريف للمرتد، (ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً) أي: تحصل بها الردة، (ثُمَّ ذَكَرُوا) أي: أئمة الفقه، علماء الفقه من كل المذاهب، (ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكْفَرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا مِثْلَ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ وَاللَّعِبِ). عُدَّتْ نَاقِضًا لِلْإِسْلَامِ وَمَوْجِبًا لِلرَّدَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَإِذَا مَا مَعْنَى ذَلِكَ؟ وما معنى هذا الكتاب الذي في جميع كتب الفقه باختلاف المذاهب، هذا أيضا جواب آخر على هذه الشبهة.

(١) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: «ولهذا عقد العلماء من كل مذهب باب حكم المرتد، قالوا: باب حكم المرتد، ثم فسروه فقالوا: المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، يهني هو الذي يأتي بناقض من نواقض الإسلام، فيكفر بذلك وإن قال: لا إله إلا الله، فلو كان يقول: لا إله إلا الله، ويصلي ويصوم ولكن يقول: الزنا حلال من شاء زنى فلا بأس، كفر عند جميع أهل العلم، أو قال: إن الخمر حلال؛ كفر عند جميع أهل العلم، أو قال: إن عقوق الوالدين حلال؛ كفر عند جميع أهل العلم» «شرح كشف الشبهات» (ص ١١٤).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَيُقَالُ أَيْضًا، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أَمَّا سَمِعَتْ اللَّهُ كَفْرَهُمْ بِكَلِمَةٍ؛ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيُزَكُّونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيُوحِّدُونَ.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿قُلْ أَيْلَ اللَّهِ وَعَائِنَهُ وَرَسُولَهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَحَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْح.

فَتَأْمَلُ هَذِهِ الشُّبُهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكْفَرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ أَنَا سَاءَ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُصَلُّونَ، وَيُصُومُونَ، وَيَحُجُّونَ، ثُمَّ تَأْمَلُ جَوَابَهَا فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ.

[الشرح]

قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا) أي: في الجواب على هذه الشبهة وهو الجواب السابع (الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾) تأمل الآية ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ إسلامهم أي: شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان هذا هو الإسلام الذي كانوا عليه، فأثبت الله - ﷻ - لهم إسلاما وكفرا بعده سببه أنهم قالوا كلمة الكفر ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ

إِسْلَامِهِمْ ﴿ فَإِذَنْ مَنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُصَلِّي وَيُصُومُ ثُمَّ يَحْصِلُ مِنْهُ أَمْرًا يَنْقُضُ الْإِسْلَامَ، أَيْقَى عَلَى إِسْلَامِهِ مَعَ وَجُودِ النَّاْقِصِ؟! أَتَفِيدُهُ الشَّهَادَةَ وَتَفِيدُهُ الصَّلَاةَ وَيَفِيدُهُ الصِّيَامَ مَعَ وَجُودِ النَّاْقِصِ؟! حَاشَا، قَالَ ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾، قَالَ: (أَمَّا سَمِعْتَ اللَّهَ كَفَرَهُمْ بِكَلِمَةٍ؛ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيُزَكُّونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيُؤَحِّدُونَ) مِنْ أَيْنَ لِلشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَنَّهُمْ يَصَلُّونَ مَعَهُ وَيُزَكُّونَ مَعَهُ وَيَحُجُّونَ مَعَهُ وَيُؤَحِّدُونَ مَعَهُ؟ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمْ إِسْلَامَهُمْ، قَالَ ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أَثْبَتَ اللَّهُ لَهُمْ إِسْلَامَهُمْ وَأَثْبَتَ لَهُمْ كُفْرَهُمْ بَعْدَ هَذَا الْإِسْلَامِ، مَا مَعْنَى أَسْلَمُوا؟ أَيْ: شَهِدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ، أَتَوْا بِأُمُورِ الْإِسْلَامِ؛ لَكِنْ لَمَّا قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ انْتَقَضَ هَذَا الْإِسْلَامُ، فَكَيْفَ يَقُولُ هَؤُلَاءِ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أَوْلَئِكَ أَيْ: مِثْلَ الْمُشْرِكِينَ مَعَ أَنَّنَا نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَنَقِيمُ الصَّلَاةَ وَنُؤْتِي الزَّكَاةَ، فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا كَشَفَ لَهُذِهِ الشَّبْهَةَ.

قَالَ: (وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ سَاهُونَ ﴾ ٦٥ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾) كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ الَّتِي قَالُوهَا: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَرَأْنَا هَؤُلَاءِ، أَرْغَبَ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ الْلِقَاءِ!»^(١)، وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَالُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، يَعْنِي مَا قَصَدْنَا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا كُنَّا نُذْهِبُ عَنْ أَنْفُسِنَا عَنَاءَ الطَّرِيقِ وَمَشَقَّةَ السَّفَرِ فَمِنْ

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/١٨٢٩).

باب المداعبة والمزاح قلنا هذه الكلمة، فنزل قول الله ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥) لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿﴾، وكان بعضهم يمسك بخطام الناقة ويعتذر للنبي ﷺ ولا يلتفت عليه النبي ﷺ ولا يزيد على هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فكان هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله ويصومون ويصلون وجاهدوا مع النبي ﷺ ونزلت فيهم هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

قال: (فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللَّهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ) قالوا في حق فضلاء الصحابة: «ما رأينا أجبن من قرائنا هؤلاء ولا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء»، قالوا هذه الكلمة فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ والشيخ يقول: (قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَرْحِ) فكفروا مع أنهم يصلون ويصومون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويجاهدون مع النبي ﷺ وكفروا بذلك.

فمن كان يصلي ويصوم ويشهد أن لا إله إلا الله ويجعل مع الله شريكا ندا يصرف له من الحقوق ما ليس إلا لله ألا ينتقض إسلامه؟ قد قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، قال: (فَتَأْمَلْ هَذِهِ الشُّبُهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكْفَرُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ أَنَسًا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُصَلُّونَ، وَيُصُومُونَ، ثُمَّ تَأْمَلْ جَوَابَهَا فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ) أي: أن هذه الأجوبة السبعة التي ذكرها -رَحِمَهُ اللَّهُ- عظيمة الشأن عليّة القدر كبيرة الفائدة وصفها -رَحِمَهُ اللَّهُ- أنها أنفع ما في هذا الكتاب.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: مَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى عليه السلام: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وَقَوْلُ أَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: اجْعَلْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ فَحَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى عليه السلام: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾.»

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- أيضا جوابين إتماما لما سبق وإضافة إلى سبق، مع أن ما سبق كل جواب من الأجوبة التي ذكرها كاف -رَحِمَهُ اللهُ- في كشف هذه الشبهة؛ لكن لما كانت تُذكر وتكرر وتعاد وتُبدى وأثرت في أناس كثيرين حرص -رَحِمَهُ اللهُ- على أن يجيب عليها بأجوبة عديدة، ولهذا نلاحظ أن هذه الشبهة هي الشبهة التي أجاب عنها بأجوبة كثيرة، وبقية الشبه إما يجيب عنها بجواب واحد أو جوابين أو ثلاثة، أما هذه الشبهة فأجاب عنها بقرابة التسعة أجوبة، هذه السبعة التي مضت وهذين الجوابين هنا، وهذه كلها أجوبة منه -رَحِمَهُ اللهُ- على تلك الشبهة.

قال: (وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: مَا حَكَى اللَّهُ ﷻ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى عليه السلام: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) هؤلاء أناس كانوا على علم وعلى شيء من الصلاح وإلى جنب النبي موسى ﷺ أحد أولي العزم من الرسل ثم طالبه هذه المطالبة قالوا: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، (وَقَوْلُ أَنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: اجْعَلْ لَنَا يَا

رسول الله ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواطٍ) فَحَلَفَ رسول الله ﷺ أَنَّ هَذَا مِثْلُ قَوْلِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(١).



(١) عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ
أَنْوَاطٍ يُعَلَّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ،
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي
بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في
«المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح
الترمذي» (٢١٨٠).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا.

فَالْجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يَفْعَلُوا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ».

[الشرح]

قال رحمه الله: (وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ) أي: عندما نحتج عليهم بهذه القصة يثيرون شبهة وهي أنهم يقولون: (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ) وحاصل هذه الشبهة: إذن لماذا تكفرونا وتستدلون على تكفيرنا بهذه الآية وبهذا الحديث مع أن هؤلاء لم يكفروا بذلك؟ أي: كيف تحتجون بهاتين القصتين على الحكم علينا بالكفر، قال: (فَالْجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا) طلبوا، قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿هم طلبوا ولم يفعلوا، (وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يَفْعَلُوا) قالوا: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ، طلبوا من النبي ﷺ ذلك لما رأوا للمشركين سُدرة يعكفون عندها ويعلقون عليها أسلحتهم تبركا قالوا: يا رسول الله اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ وَكَانُوا

حدثنا عهد بإسلام، فقال ﷺ: «قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة» فيقول الشيخ - رحمه الله - «أن الذين مع موسى ﷺ لم يفعلوا والذين مع النبي - ﷺ - لم يفعلوا (وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ نَهَاَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ)، والشيخ - رحمه الله - طالما نهاهم عن الشرك وحذرهم منه وذكر لهم الدلائل على بطلان ما هم عليهم وبين لهم حق الله وذكر لهم الآيات والحجج والبراهين من كتاب الله وسنة نبيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - ومع ذلك يعاندون ويخاصمون.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ -بَلِ الْعَالِمَ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الْجَهَالِ: التَّوْحِيدُ فَهْمَانُهُ؛ أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ.

وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ كُفِّرَ وَهُوَ لَا يَدْرِي فَتَنْبَهَ عَلَى ذَلِكَ وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لَا يُكْفَرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُكْفَرْ فَإِنَّهُ يُغْلَظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله فوائد تستفاد من هذه القصة يستفيدها المسلم ويتنفع بها، قال (وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ -بَلِ الْعَالِمَ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا) وهذا يدخل في باب الخوف من الشرك؛ بل عقد - رحمه الله - في كتابه التوحيد باب نافعاً عنوانه «الخوف من الشرك» وبدأه بقول الله تعالى ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ونقل عن إبراهيم التيمي رحمه الله: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم !؟»^(١).

قال: (وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ -بَلِ الْعَالِمَ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ

الشِّرْكَ لَا يَذْرِي عَنْهَا) ولهذا أيضا جاء في الاستعاذة وثبتت عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»^(١)، فرق بين من يخاف من الشرك على نفسه وعلى ولده ويدعو الله ﷻ أَنْ ينجيه منه وبين من هو متلبس بالشرك متلطخ به ويدعي أنه بريء منه، قال: (فَتَفِيدُ التَّعَلَّمَ وَالتَّحَرُّزَ) هذه القصة تفيد التعلم والتحرز من جهة ماذا؟ إذا كان هؤلاء أصحابا لموسى من أولي العزم من الرسل يمشون معه ويتعلمون ويرونه ويتفقهون على يديه ثم فجأة يقولون: «اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ»، وأيضا من هم مع النبي ﷺ ومتجهين إلى القتال في سبيل الله ونصرة لدينه ومعهم السلاح ويمرون بسدرة ويقولون: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فيقول ﷺ (الله أكبر! إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)، فإذا هذا يفيد التحرز، إذا كان هؤلاء قالوا هذه الكلمة وهم كانوا يمشون جنبا إلى جنب مع النبي ﷺ في قتال وفي جهاد في سبيل الله، فهذا يفيد التعلم والتحرز، التعلم أي: للتوحيد وأيضا معرفة ضده وهو الشرك، والتحرز من الوقوع في الشرك بالله أي: الاحتياط والبعد والمجانبة للشرك ووسائله وأسبابه.

(فَتَفِيدُ التَّعَلَّمَ وَالتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنْ قَوْلَ الْجَاهِلِ: التَّوْحِيدُ فَهْمُنَاهُ؛ أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ) هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان، بعض الناس لا يفهم التوحيد وإذا أُريد تعليمه التوحيد قال التوحيد نعرفه، لا يخفى علينا التوحيد، من يجهل التوحيد؟ التوحيد فهمناه! ولا يقبل أن يسمع درسا أو كلمة في التوحيد،

(١) رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

أو بعضهم يقول التوحيد لا يحتاج أن يُدرس مرات وكرات وأن تصرف في دراسته أوقات، ممكن في دقائق تنتهي منه، ما يحتاج الأمر إلى ذلك.

فهذه القصة تفيد التعلم للتوحيد ومدارسته والاحتراز منه، وتفيد أن كلمة «التوحيد فهمناه» التي قد يقولها البعض هذه كما قال الشيخ لا تصدر إلا من جهل وهي من مكائد الشيطان، يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله: «هذه الكلمة قد صدرت من بعض الطلبة لما كثر التدريس في التوحيد متنه أو كتب نحوه، سئمو وأرادوا القراءة في كتب أخرى». «سئمو» أي: ملّوا من القراءة، أصابهم السّامة والملل من القراءة في التوحيد وأرادوا أن يقرؤوا في كتب أخرى.

فقالوا هذه الكلمة: خلاص التوحيد فهمناه لا نحتاج إلى دراسة توحيد.

ثم قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله: «هذه الكلمة صدرت من بعض الطلبة وقيل إنها من المراسلين -أي الذين يرسلون الشيخ- فنقم عليه المصنف في هذا القول»^(١): يعني كان يرسلهم بالتوحيد ويذكر لهم شواهد وأدلة فكتب إليه بعضهم لا ترسل لنا التوحيد فهمناه التوحيد مفهوم عرفناه ما نحتاج أن تكتب لنا شيئا في التوحيد، فيقول أن هذه القصة تفيد أهمية التعلم للتوحيد ودراسته وأهمية التحرز من الشرك مهما كان الإنسان في المكانة وأن الاستهانة بدراسة التوحيد هذه من أسباب الجهل وهي مكائد الشيطان.

قال: (وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ) المجتهد بإسلامه وعبادته (إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ كُفِّرَ وَهُوَ لَا يَدْرِي) خرجت منه كلام الكفر وهو لا يدري (فَنَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ

(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ١٣٧).

وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ؛ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ: أَنْ مُوسَى ﷺ لَمْ يَكْفُرْهُمْ بِذَلِكَ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكْفُرْهُمْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَهَا وَهُوَ لَا يَدْرِي ثُمَّ نُبِّهَ مِنْ سَاعَتِهِ وَانْتَبَهَ وَتَابَ إِلَى اللَّهِ وَرَجَعَ عَنْ كَلَامِهِ، هَذَا لَا يَكْفُرُ لَكِنْ شَخْصٌ تَنْبِيهِهُ وَتَأْتِي لَهُ بِالْآيَةِ وَالْحَدِيثِ وَالنُّصُوصِ وَالْأَدْلَةِ وَالْحُجُجِ وَالْبَرَاهِينِ وَيَصِرُ عَلَى أَعْمَالِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ بِاللَّهِ ﷻ».

هذه كلها فوائد مستنبطة من القصة، قال (وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلِّظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) يعني لو لم يكفر لقوله هذه الكلمة الكفرية كونها صدرت عنه وهو لا يدري لا يعني ذلك بأنه يترك؛ بل يغلظ عليه في الكلام ويشدد عليه في القول مثل ما غلظ موسى ﷺ وشدد القول على أولئك وكما غلظ نبينا ﷺ أيضا القول على الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال (وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلِّظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) أي: معهم، الذين قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

ويكون بهذا الشيخ - ﷻ - أجاب عن الشبهة من وجوه كثيرة مسددة موفقة نافعة جدا لطالب العلم، وأيضا ذكر جواب هذا الاعتراض الذي قد يورده البعض على جواب الشيخ الأخير - ﷻ - وغفر له وجزاه خير الجزاء.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، وكذلك قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله».

وأحاديثاً أخر، وأحاديث أخر في الكف عن قالها.

ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قالها - أن من قال لا إله إلا الله - لا يُكْفَر ولا يُقْتَل ولو فعل ما فعل.

فيقال لهؤلاء المشركين الجُهاال: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله. وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويدعون الإسلام. وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب - رحمه الله -.

وهؤلاء الجهلة، وهؤلاء الجهلة مُقِرّون أن من أنكر البعث كَفَر وُقْتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كَفَر وُقْتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الضروع؟ وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟.

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث فأسامة، فإنه قَتَلَ رجلاً ادّعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادّعاه إلا خوفاً على دمه وماله.

والرجل إذا أظهر الإسلام، وَجَبَ الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف

ذلك. وأنزل الله في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] أي: فتشباوا.

فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل؛ لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] ولو كان لا يُقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناه ما ذكرناه؛ أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ الذي قال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله»، وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله». هو الذي قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»، مع كونهم من أكثر الناس عبادةً، وتهليلًا، حتى إن الصحابة أو يحرقون صلاتهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة. وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود، وقاتل الصحابة بني حنيفة. وكذلك أراد ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وكان الرجل كاذباً عليهم. فكل هذه يدل أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

[الشرح]

ذكر المصنّف - رحمه الله تعالى - هنا شبهةً أخرى لمن يتعلقون بغير الله - ﷻ - دعاءً، ورجاءً، وذلاً، ورغباً، ورهباً. وسبق أن ذكر لهم ﷻ شبهةً وجه إلى الإصغاء إلى جوابها، وأجاب عنها من تسعة أوجه، وهي؛ أن هؤلاء يقولون: إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويُنكرون البعث، ويُكذّبون بالقرآن، أمّا نحن فنشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلى آخره. وأجاب ﷻ عن هذه الشبهة من وجوه تسعة، كل واحد منها كافٍ في نقض هذه الشبهة، وهنا قال: ولهم شبهة أخرى، يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة ﷺ قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: «يَا أُسَامَةُ أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»^(١).

فما الفرق بين هذه الشبهة والتي قبلها؟

فالفرق بين هاتين الشبهتين من جهتين:

الجهة الأولى: هي استدلالهم على ما سبق بكلام النبي ﷺ تشبيهاً على الناس وتلبيساً، استدلالهم على ذلك بأحاديث النبي ﷺ، وأن ثمة أحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ فيها الأمر بالكف عمن قال لا إله إلا الله، أو شهد أن لا إله إلا الله، ووظفوا هذه الأحاديث على مذهبهم الفاسد واعتقادهم الباطل.

والجهة الثانية: أنهم قالوا إن النصوص دلت على أن من شهد أن لا إله إلا الله فهو حرام الدم والمال، فأشاروا إلى هذه الأحاديث تقريراً لهذا المعنى، وأن من

ينطق بالشهادتين حَرَمَ دمه وماله، فكيف يقال بأنه يَكْفُرُ وأنه يُقاتل إذا تعلق بغير الله، ولجأ إلى غير الله، ودعا غير الله؟، فهذا محصل مراد هؤلاء بهذه الشبهة، وهذا هو الفرق بينها وبين الشبهة التي قبلها.

وجواب الشيخ رحمه الله عن هذه الشبهة أيضًا كان من جهتين؛ الجهة الأولى: ذكره للنصوص الدالة على أن مَنْ قال: لا إله إلا الله، وشهد بها وأتى بما يناقضها يَكْفُرُ.

وأعاد ذكر بعض الأدلة التي سبق أن ذكرها في الوجه، أو في الجواب على الشبهة السابقة أعادها ملخصة هنا.

والوجه الثاني: في نقضه رحمه الله لهذه الشبهة، بيانه لخطأ هؤلاء في فهمهم لهذا الحديث، ونظائره من أحاديث رسول الله ﷺ الواردة في هذا الباب.

قال رحمه الله: «وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: (لا إله إلا الله). وكذلك قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها».

يقولون إن النبي ﷺ أنكر على أسامة، أي: ابن زيد قَتَلَ مَنْ قال لا إله إلا الله، أنكر عليه قَتَلَ مَنْ قال لا إله إلا الله، وقال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، وكذلك قوله: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

«وأحاديث أخر في الكف عمن قال لا إله إلا الله»: ومراد هؤلاء بالشبهة واضح، وهو أن هذه الأحاديث ونظائرها دلَّت على أن مَنْ قال لا إله إلا الله عُصِمَ دمه

وماله، أو حَرَمَ دمه وماله، فكيف تستجيزون أن يُكفّر وأن يُقاتل مع أنه يقول هذه الكلمة وينطق بها؟.

قال ﷺ: «ومراد هؤلاء الجهلة أن من قال لا إله إلا الله لا يُكفّر ولا يُقتل ولو فعل ما فعل» أي: من استدلالهم بهذه الأحاديث أن من قال لا إله إلا الله لا يُكفّر ولا يُقتل ولو فعل ما فعل: أي من الأمور الناقضة للا إله إلا الله، ولو فعل ما فعل من الأمور الناقضة للا إله إلا الله، فاستدلّوا بهم بهذا الحديث يفيد أنهم يرون أن قائل لا إله إلا الله يَحْرُمُ دمه وماله ولا يُكفّر وإن قال ما قال، أو إن فعل ما فعل، وإن قال ما قال من المكفرات الناقضة من الملة، أو فعل ما فعل من نواقض الإسلام فإنه لا يُكفّر ولا يُقتل، هذا فهمهم لهذه الأحاديث، وحاشا أن يكون مراد النبي ﷺ بهذه الأحاديث هذا المعنى الذي فهمه هؤلاء، وسيأتي بيان الشيخ ﷺ في ختام جوابه على هذه الشبهة ذُكِرَ معنى هذا الحديث ونظائره من أحاديث الرسول ﷺ الواردة في الباب.

قال ﷺ في الجواب عن هذه الشبهة: «فيقال لهؤلاء المشركين الجاهل»: المشركين؛ لكونهم صرفوا حق الله لغيره، وأخذوا يدافعون عن صرف هذا الحق الذي هو الله - ﷻ -، يدافعون عن صرفهم لغيره - ﷻ - ممن لا يملك لهم نفعا ولا دفعا ولا يملك لهم موتا ولا حياة ولا نشورا، وجاهل؛ لأن هذا هو أعظم الجهل، الجهل بالتوحيد، الذي هو أعظم المقاصد، وأجل الغايات وأرفعها.

قال ﷺ: «فيقال لهؤلاء المشركين الجاهل، معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله، قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون: لا إله إلا

الله»، اليهود كانوا في المدينة مع النبي ﷺ، ويُسمع منهم الشهادتان، ويشهدون الصلاة في المساجد، ويعملون أعمال أهل الإسلام، ومن المعلوم أنَّ المنافق هو من يُظهر الإسلام ويبطن النفاق، ومعنى يُظهر الإسلام: يشهد أنَّ لا إله إلا الله، ويشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ويقوم الصلاة، ويؤدي العبادات الظاهرة، ومن المعلوم أنَّ النبي ﷺ قاتل اليهود وسباهم، ليس مرة واحدة، ولا في موطن واحد، بل؛ مراتٍ، وفي موطن، ومتى قاتلهم؟ عندما ظهر منهم ما يكشف عن نفاقهم، ويدل على سوء طويّاتهم، وأنَّهم ليسوا مع أهل الإيمان قلبًا وقالبًا، فعندما يظهر منهم ما يدل على ذلك، ويُبَيِّنُ حالهم قاتلهم ﷺ، وكان قتالُه للمنافقين، وسيئُه لأموالهم ونسائهم، كان في عدة موطن، كما دلَّ على ذلك القرآن، وكما دلَّ على ذلك السنة وسيرة النبي ﷺ، ومن ذلكم ما جاء في ﴿سورة الحشر﴾ في قتال النبي ﷺ لهؤلاء.

فالشاهد أنَّ النبي ﷺ صحَّ عنه قتال المنافقين مع أنَّهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويشهدون الصلاة، ومع ذلكم قاتلهم، وهؤلاء يقولون نحن نشهد أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ونصلي، ونصوم، فلا يحل قتالنا، يعني: طالما أنَّ هذه الأمور نفعلها، أو تُفعل، فمَنْ يفعلها لا يحلُّ قتاله، معنى كلامهم؛ بأي وجه من الوجوه، أليس كذلك؟

ومعنى كلامهم أنَّه لا يحلُّ تكفير، وقاتل مَنْ جاء بهذه الأمور بأيّ وجه من الوجوه، هذا هو المراد باستدلالهم.

ولهذا قال الشيخ رحمه الله في تقرّض مراد هؤلاء، قال: «وإن فعل ما فعل» أي: من أنواع النّواقض للإسلام.

قال: «وأنّ أصحاب الرسول ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ويصلون ويدعون الإسلام»، أي: ومعلوم أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ويصلّون، ويدعون الإسلام، قاتلهم ﷺ، وسبق أن ذكر ﷺ هذا الدليل، وذكر أيضاً اعتراض هؤلاء على هذا الدليل.

قال: «وكذلك الذين حرّقهم علي بن أبي طالب ﷺ مع أنهم كانوا من أصحابه، وكانوا يصلون معه، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله»، لكن لما وُجد فيهم ما ينقض الشهادتين ويبطل الأعمال قتلهم علي ﷺ شرّ قتله، وذلك عندما غلوا في علي ﷺ - وعظموه تعظيماً لا يليق بالمخلوق، ورفعوه بهذا التعظيم إلى رتبة الإلهية، رفعوه بهذا التعظيم إلى رتبة الإلهية، فأجج عليّ ناره وألقاهم في النار وقتلهم هذه القتلة، ولم ينكر عليه الصحابة قتلهم، وإنما أنكر عليه بعض الصحابة التحريق بالنار، أي: أنكروا عليه طريقة القتل، لكن لم ينكروا عليه قتله لهم، فهؤلاء كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وهم كانوا مع عليّ ﷺ - ومن أصحابه، ويدعون أنهم من شيعته، ومن أعوانه، ولكن لما غلوا فيه هذا الغلو، ورفعوه إلى مقام الإلهية، قتلهم ﷺ - هذه القتلة، قال: «وهؤلاء الجاهل مُقِرُّون أنّ من أنكر البعث كفر وقُتِلَ ولو قال لا إله إلا الله»، وهذا وجه في نقض شبهة هؤلاء، يؤتَى لهم من النّواقض ما يقرُّون به ويسلمون، ويحتجُّ

عليهم بذلك، فيقال لهم مثلاً: ماذا تقولون فيمن ينكر البعث؟ يقول: ليس هناك بعث ولا جنة ولا حساب ولا نار ما رأيكم فيه؟ ما قولكم فيه؟ ما رأيكم بمن ينكر اليوم الآخر؟ ويقول ليس هناك يوم آخر، ينكر هذا الركن من أركان الإيمان، ما رأيكم فيمن ينكر النبوات؟ ويزعم أنه لا نبي وليس هناك نبوات يجحد ذلك، ما رأيكم فيمن ينكر وجود الملائكة؟ يقول ليس هناك ملائكة مع أنهم ذُكروا في القرآن وذُكروا في السنة، ما رأيكم فيمن ينكر ذلك؟ فسيقولون: يكفر، وإن شهد أن لا إله إلا الله؟ وإن شهد أن لا إله إلا الله يكفر، وهذه من أركان الإيمان: الملائكة، والكتب، والأنبياء والرسل، والبعث، لكنها ليست أعظم من الإيمان بالله، الذي هو أصل أصول الإيمان وإليه ترجع هذه الأصول، كما قال الله - ﷻ -: ﴿كُلُّ ءَٰمَنٍ بِٱللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فهذه الأصول ترجع إلى هذا الأصل الذي هو أصل أصول الإيمان، وفي باب الكفر قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] فهي ترجع إليها، فكيف يقال في حق من أنكر هذه الأصول أو شيء منها أنه يكفر وإن قال لا إله إلا الله؟ ولا يكفر من جحد أصل الأصول وهو توحيد الله ﷻ وإخلاص الدين له؟!!

قال: «وهؤلاء الجهالة مقرون أن منكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها» فهؤلاء يُقَرَّون أيضاً أن من يجحد شيئاً من أركان الإسلام ومبانيه، مثل: لا يقر بوجوب الصلاة، ولا يقر بوجوب الصيام؛ فيما لو قال قائل: الصيام ليس واجباً، أو الحج ليس واجباً، وجحد ذلك ماذا يقولون هؤلاء فيه؟ يقولون: هو كافر وإن قال لا إله إلا الله.

قال ﷺ: «فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟» أي: كيف لا تنفعه لا إله إلا الله ونطقه بها إذا جحد شيئاً من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟، كيف لا تنفعه عندما يجحد تلك الأصول البعث واليوم الآخر والأنبياء أو يجحد شيئاً من أركان الإسلام، وتكون نافعة له عندما يجحد أصل الدين وهو توحيد الله - ﷻ - وإخلاص الدين له، فهذا واضح تمام الوضوح في كشف هذه الشبهة وإظهار بطلانها.

قال ﷺ: «ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث»، هنا انتقل - رحمه الله تعالى - إلى الوجه الثاني في رد هذه الشبهة، وبيان المعاني الصحيحة لهذه الأحاديث التي استدلوها بها، وردّ المعنى الباطل الذي فهمه هؤلاء من هذه الأحاديث، وأنّ استدلالهم بهذه الأحاديث استدلالاً بها فيما لا تدل عليه وفيما ليس مراداً منها.

قال ﷺ: «فأما حديث أسامة، فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفاً على دمه وماله» أي: إلا خوفاً على دمه وماله، الذي حصل من أسامة ﷺ أنه لما لقي هذا الرجل، وتمكن منه وأراد أن يجهز عليه بسيفه، قال الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله، نطق بالشهادتين في هذه الحالة، فظنّ أسامة - ﷺ - أنه إنما قالها تعوداً، ظنّ أنه إنما قالها أي في هذه اللحظات تعوداً أي ليحمي نفسه من القتل وليقي نفسه من القتل، لا عن اعتقاد ولا عن رغبة فظنّ ذلك فقتله، قتله لأنه - ﷺ - وأرضاه ظنّ وحسب أن هذا الرجل إنما قالها تعوداً من القتل وليقي نفسه بذلك من القتل، قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعاه

إلا خوفاً على دمه وماله، ما ادعاه إلا خوفاً على دمه وماله، أي: لا عن رغبة، ولا عن صدق، في هذه الشهادة مع الله - ﷻ -، ولهذا قال النبي ﷺ: «أَفَلَا شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» يعني هذا المراد لا يظهر لأحد إلا إذا اطلع على ما في قلب الإنسان، الإرادة مكانها القلب والنية مكانها القلب، ونحن لنا الظاهر والله - ﷻ - يتولى السرائر، فالرجل أعلن الإسلام، ادعى الإسلام، نطق بالشهادتين أصبحت عاصمة له، فيبقى على أصل العصمة بنطقه بالشهادتين إلا إذا ظهر لنا منه ماذا؟ ما ينقضها، أمّا إذا قالها عصمته حتى يقول لا إله إلا الله، إذا قالها عصمته، عصمته وحرّم دمه وماله، وحرّم دمه وماله، إذا شهّد وادّعى الإسلام أصبح بذلك معصوماً، معصوم الدم والمال، إلا إذا ظهر بعد ما ينقض ذلك، لكن بمجرد إعلان الإسلام والنطق بالشهادتين ليس لنا إلا الظاهر والله - ﷻ - يتولى السرائر.

وأسماء - ﷺ - قتله لما ادعى الإسلام بناء على ظن منه ﷺ وأرضاه أنه إنما قالها تعوداً، فبناءً على هذا الظن قتله، فقال له النبي ﷺ: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟».

قال ﷺ: «والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكفُّ عنه وَمِنْ إظهار الإسلام النطق بالشهادتين، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكفُّ عنه، حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، حتى يتبين منه ما يخالف ذلك»، معنى قوله: «ما يخالف ذلك» أي: أن يأتي بناقض، بجحد شيء من أركان الإيمان، أو جحد شيء من مباني الإسلام، أو الوقوع في أعظم المكفرات، وهو جحد ما يتعلق بحق الله - ﷻ - على عباده الذي هو أصل الدين ورأسه وأساسه، قال: «وأنزل

الله تعالى في ذلك: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، أي: فتثبتوا» أي: أنزل الله ﷻ في ذلك أي: في هذه الواقعة وفي هذا الأمر أنزل هذه الآية ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] ومعنى تبينوا أي: تثبتوا، والمراد تثبتوا فيمن أردتم قتله وقتاله، حتى لا يكون قتل ولا قتال لمن هو من أهل الإسلام، ومن هو مظهر للإسلام ولم يتبين منه خلاف ذلك، «فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإن تبين منه بعد أو بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل»، ما الدليل؟ قال: «لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]»، هذا هو الدليل، أنه إن تبين منه ما يخالف الإسلام وينقض الإسلام قُتل، والدليل على ذلك قوله ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤]، وجه الاستدلال؛ قال: «ولو كان لا يُقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى» لم يكن للتثبت والتبين معنى، ما معنى فتثبتوا؟ إن كان لا يُقتل مَنْ قال لا إله إلا الله، لا يُقتل أو لا يُقاتل مَنْ قال لا إله إلا الله.

قال ﷻ: «وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه أن مَنْ أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك» أي: فإن تبين منه ما يناقض ذلك كإنكار البعث، وإنكار الملائكة، وإنكار النبوات، وجحد أصل الأصول وأعظمها على الإطلاق وهو توحيد الله، وإنكار شيء من مباني الإسلام أو نحو ذلك من المكفرات فهذا لا يَكْفُ عنه ولا يكون داخلا في هذه الأحاديث. ولهذا جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ».

قال: «والدليل على هذا»، أي: الدليل على أن هذا الذي قرره -رحمه الله تعالى- هو مراد النبي -ﷺ- خلافاً للمعنى الخاطيء، والاستدلال الباطل الذي قرره هؤلاء الجاهل، قال: «والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ الذي قال: «أُقتله بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، وقال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله» هو الذي قال في الخوارج: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

والخوارج أليسوا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ أليسوا يصلون؟ أليسوا يصومون؟ أليسوا يقرؤون القرآن ويجتهدون في العبادة؟، بل؛ قال النبي ﷺ للصحابة: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ»^(٢)، فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويجتهدون في العبادة، ومع ذلك قال ﷺ: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»، وقال: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّاهُمْ قَتْلَ عَادٍ»^(٣)، لأقتلنهم شرَّ قَتْلَةٍ، مع أنهم يأتون بهذه الأشياء، يأتون بالشهادتين، ويصلون، إلخ..

فماذا يقول هؤلاء في مثل هذه الأحاديث؟ وسبق أن قالوا: أن الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلي ويصوم لا يُقتل؟

قال ﷺ: «مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً»، تهليلاً: أي تكراراً لكلمة

(١) رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

التوحيد - لا إله إلا الله -، «حتى إن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم»، يحقرون صلاتهم عندهم، أي: عند الخوارج؛ لأن عندهم اجتهاد في الصلاة، واجتهاد في العبادة، «وهم تعلموا العلم من الصحابة»، أي: الخوارج من أين حفظوا القرآن؟ ومن أين عرفوا الصلاة؟ ومن أين عرفوا الصيام؟ بل الدين من أين عرفوه؟ ما عرفوه إلا من طريق الصحابة، أخذوا الدين وتلقوه عن الصحابة، ولازموا أصحاب النبي ﷺ وجالسوهم، وتلقوا عنهم العلم والدين، ثم انحرفوا والعياذ بالله هذا الانحراف الشنيع، «فلم تنفعهم لا إله إلا الله»، يعني: انظر إلى حال هؤلاء، وأعدادهم ليست بالقليلة، يسر الله لهم لقيا الصحابة، وشاهدوا ذلك الجيل العظيم المبارك -خير القرون-، ورأوا ما هم عليه من الحال العظيمة من العبادة، والجد، والاجتهاد، والنصح لدين الله، والعبادة، وأخذوا عنهم الدين، حفظوا القرآن من طريقهم، وحفظوا السنن من طريقهم، وتعلموا العبادة من طريقهم، ثم انحرفوا بعد ذلك هذا الانحراف، حتى قال النبي ﷺ: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»، وقال: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهِنَّ قَتْلَ عَادٍ»، وهم يحفظون القرآن، ويقرؤونه، ويصلون، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال: «وهم تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم لا إله إلا الله، ولا كثرت العبادة، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة، لما ظهر منهم مخالفة الشريعة»، أي: لما ظهر منهم ذلك، أمر النبي ﷺ، أو عندما يظهر منهم ذلك أمر النبي ﷺ أن يقتلوا قتل عاد، أي: أن يقتلوا أينما وجدوا شر قتلة، فماذا يقول هؤلاء

في مثل هذا الحديث؟، وشبهتهم نذكرها وهي قولهم: الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويصلي، ويصوم، لا يَحِلُّ أَنْ يُقْتَلَ!

قال: «وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة»، فماذا يقول أيضًا هؤلاء في هذه النصوص؟ والذين قُتِلُوا هنا وقوتلوا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويُصَلُّون، وَيَدْعُونَ الْإِسْلَامَ.

قال: «وكذلك أراد ﷺ أن يغزو بني المصطلق، وأمر بالغزو لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة»، فإذا كان ﷺ أراد أن يغزو هؤلاء لكونهم منعوا الزكاة، فكيف بمن جحد التوحيد؟ وامتنع من قبول التوحيد، وأتى بما يَنْقُضُ التوحيد، الذي لا تنفع الزكاة ولا الصلاة ولا أي طاعة إلا مع وجوده، فإذا انتفى التوحيد لم يُتَنَفَّعَ بمثل هذه الأعمال؛ لأنَّه لها كالأساس للبنيان، وكالأصول للأشجار، «حتى أنزل الله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِ الَّذِي كَذَبُوا عَلَيْهِمْ﴾ [الحجرات: ٦]. وكان الرجل كاذبًا عليهم»، أي: في زعمه أنهم منعوا الزكاة، فهم النبي ﷺ أن يغزوهم، لكن أنزل الله عليه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] أي: تثبتوا.

قال: «فكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه».

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي ﷺ؛ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بـعيسى، فكلهم يعتذرون، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ، قالوا: هذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً.

فالجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها؛ كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِالَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب، وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق. ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبت ذلك؛ فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة، يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف.

وهذا جائز في الدنيا والآخرة؛ أن تأتي عند رجل صالح، حي يجالسك، ويسمع كلامك، وتقول له: ادع الله لي، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته، وأما بعد مماته، فحاشا وكلاً أنهم سألوه ذلك عند قبره، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف بدعائه نفسه؟».

[الشرح]

ثم ذكر ﷺ هذه الشبهة لهؤلاء، قال: «ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي ﷺ أنَّ الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بـعيسى، فكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى رسول الله - ﷺ».

قالوا: فهذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شرکاً، هذا يدل أن الاستغاثة بغير الله ليست شرکاً.

وحديث الشفاعة المشار إليه هنا، هذا ثابتٌ في «الصحيحين» وغيرهما عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، والشفاعة حقٌّ، ومضى قول الشيخ ﷺ: عن الشفاعة «لا تُكْرَهُها»، وهو هنا ﷺ يذكُر استدلالهم على هذا الأمر بحديث النبي ﷺ، وحملهم له على الباطل، ونقول: حاشا أن يكون في حديث رسول الله ﷺ، أو في شيء من كلامه - صلوات الله وسلامه عليه - ما يدل على جواز الشرك، والاستغاثة بغير الله، والتعلق بالمخلوقين رجاءً، ورغباً، وطمعاً، حاشا أن يكون في كلامه شيء من ذلك، بل؛ حياته كلها ﷺ أمضاها في نقض ذلك، وإبطاله، فحاشا أن يكون في شيء من كلامه ﷺ شيء من ذلك، ومن استدلل بشيء من حديثه - صلوات الله وسلامه عليه - على تقرير مثل هذا الأمر، وكما قيل في المثل: «أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ؟!»^(١)، فجمع بين تقرير باطل، واستدلالٍ على هذا الباطل بكلام الرسول ﷺ وحاشاة.

(١) «الكَيْلَةُ: فِعْلَةٌ من الكَيْل وهي تدلُّ على الهيئة والحالة نحو الرَّجْبَةِ وَالْجِلْسَةِ؟ وَالْحَشْفُ: أَرْدَأُ التمر أي أَتَجَمَّعُ حَشْفًا وَسُوءَ كَيْلٍ يضرب لمن يجمع بين خَصْلَتَيْنِ مَكْرُوهَتَيْنِ» «مجمع

قال: «فقالوا: هذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً»، ونقول: بل هي عين الشرك، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] أي: أي أحد كائناً من كان، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، وقال: ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] فالاستغاثة عبادة، وصرف هذه العبادة لغير الله - ﷻ - شرك بالله، وهذا المعنى الذي ذكرناه؛ وهو طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أن يشفعوا لهم عند الله هذا ليس عبادة، كما أن طلب الناس في حياتهم من الأنبياء ومن الصالحين الأحياء أن يدعو لهم الله - ﷻ - في حاجاتهم الدنيوية والدنيوية ليس عبادة، لكن؛ القوم أرادوا أن يسووا بين مفترقين.

«فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً»: ولا حظ الخلط الواضح عند هؤلاء في تقريرهم للباطل من جهة، واستشهادهم عليه واستدلالهم عليه بحديث رسول الله ﷺ من جهة أخرى.

وهنا؛ يُتَّبَعُ للفرق بين أمرين؛ بين الاستغاثة الشركية وهي: الاستغاثة بالغائب، أو الميت، أو الحي الحاضر الذي لا يقدر.

استغاثة بالغائب، مثل: أن يكون رجل في سفينة، ويعاين الموت، ويعاين الغرق، ثم يهتف بشيخ أو نحوه، يهتف باسمه: «أنقذني يا فلان!»، «ألحقني يا فلان!»، وهو

حي حاضر، وهذا في البحر، وهذا بعيد عنه في البر، «أنقذني» أو «أعطني»، فهذا شرك لأنها استغاثة شركية؛ لأنه التجاء، واعتصام، وعودٌ بغير الله.

ومثله كذلك الاستغاثة بالميت، مثل: أن يكون الإنسان أصابه ضرٌّ، أو نزلت به نازلة، فيهتف بأحد الأموات، «أدركني يا فلان!»، «إلحقني يا فلان!»، «أنا عائذ بك يا فلان!»، أو «ملتجئ إليك يا فلان!»، فهذه أيضا استغاثة شركية.

أو كذلك أن يستغيث بحيٍّ حاضرٍ أمامه في أمر لا يقدر عليه إلا الله - ﷻ -، مثل: أن يطلب منه شفاءً مرضٍ نَزَلَ به، لا من طريق الأسباب المعروفة (كأن يذكُر له دواء معيناً)، وإنما يطلب منه أن يشفي مرضه، فيقول: «أنا مريض فاشفني!»، فيطلب منه أن يشفي مرضه، لا أن يطلب منه دواء لذلك المرض وأسباب وعلاجات، وإنما يقول: «أرجوك أن تشفيني» أو «أنا لائذ بك أن تشفيني»، وهو أمامه حي، فهذا شرك، أو كذلك أن يطلب منه أن يُدْخِلَهُ الجنة، أو يُنْجِيَهُ من النار، أو أن يهدي قلبه، أو أن يُثَبِّتَهُ على الدين، يقول: «أرجوك أن تثبتني على الدين»، وهو أمامه حي حاضر، فهذا شرك بالله ﷻ، ناقل عن الملة.

فإذا الاستغاثة الشركية هي: الاستغاثة بالغائب، وبالميت، وبالحي الحاضر فيما لا يقدر عليه، وبالحي الحاضر فيما لا يقدر عليه، هذه استغاثة شركية.

أمّا طلب المخلوق من المخلوق في شيء يقدر عليه، مثل: أن يعاونه على عدوٍّ هاجمه أو أراد إيذاؤه ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى﴾ [القصص: ١٥]، هنا؛ هذا الصنيع ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ﴾ [القصص: ١٥]، لم يفعل شركاً لأن الاستغاثة هنا ليست استغاثةً بغائب، ولا بميت، ولا أيضاً بحي فيما

لا يقدر عليه، بل؛ هي استغاثة وطلب من حي حاضر، يسمع كلامه، ويرى حاله في أمر يقدر عليه المخلوق.

قال ﷺ: «فالجواب أن نقول: سبحان مَنْ طبع على قلوب أعدائه»، كلمة «سبحان» تأتي للتزنية، تنزيه الله - ﷻ -، والمقام هنا مقام تنزيه، يُنزه الله - ﷻ - عما يشركون، ويُنزه عن تسويتهم للمخلوقين به سبحانه في حقوقه من الدعاء، والرجاء، والذل، والطمع، والرغب، والرهب.

قال: «فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]»، فيقول الشيخ ﷺ: «لا ننكرها»، وهذا الذي لا يُنكر، ما ضابطه؟ استغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه. ثلاثة أمور: استغاثة بالحي، الحاضر، فيما يقدر عليه. إن كان ميتاً، أو كان غائباً، أو كان حاضراً لا يقدر، هذا كله باب آخر غير هذا الباب، وهنا: ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، كان موسى ﷺ أمامه واقفاً، والله - ﷻ - أيضاً أعطى موسى ﷺ قوةً في بدنه، فهو حي وحاضر وفي أمر يقدر عليه، واستغاثه، قال: «ساعدي»، «أعطني»، «أعني»، هذا جائز، وليس من الشرك، وليس باباً من أبواب الشرك.

قال: «وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب»، هذا لا بأس به عند ملاقة الأعداء. فيقول القائل لأخيه أو صاحبه: «إلحقني»، «أعني»، «ساعدي»، كل هذا لا بأس به، كما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق، مثل: شخص جاء للبحر، أو في مكان يسبح، وبدأ يغرق، وحوله

ناس، وقال: «الحقوني»، «أغيثوني»، «أدركوني».. هل هذا نوع من الشرك؟ الجواب: لا؛ هذا ليس شركاً؛ لأنه ينادي حاضرين أحياء في أمر يقدر عليه المخلوق، فهذا من الأمور المباحة الجائزة.

قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد»، ضع خطأ عند هذه الكلمة قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد»، أي: هذا الذي أنكرناه، -وانتبه لهذه الكلمة فإنها عظيمة جداً- استغاثة العباد: أن يقف المخلوق أمام قبر مخلوق منكسراً متذللاً خاضعاً راجياً طامعاً راغباً خاشعاً داعياً طالباً، هذه عبادةٌ وذُلٌّ لغير الله، وتعلُّقٌ بغير الله.

قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله»، فهذا الذي نُكِرَ: يذهبون إلى القبر، ويستنجدون به، ومنهم من يطلب ولدًا، ومنهم من يطلب عافيةً، ومنهم من يطلب شفاءً من مرض، ومنهم من يطلب هدايةً، إلى غير ذلك من الطلبات والرغبات التي ينزلونها بمخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلاً عن أن يملكوا شيئاً من ذلك. فسيحان من طبع الله على قلبه، وقال: إِنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ نَظِيرُ ﴿فَاسْتَعِذْ بِالَّذِي مِنْ شَيْعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]، هذا لا يقوله إلا من طبع على قلبه، ويسوي بين مباح وبين شرك صراح.

قال ﷺ: «ونحن أنكرنا استغاثة العباد التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم»، في غيبتهم يعني: أن يكون الولي حي غائب، فيهتف به في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله -ﷻ- من هداية، ومن إنجابٍ للولد، ومن عافية، وصحة، ورزق، وثباتٍ، وغير ذلك. هذا كله طلبه من غير الله -ﷻ- شرك بالله.

قال: «إذا ثبت ذلك فلاستغاث بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة»، جائز في الدنيا؛ الصحابة - ﷺ - كانوا يأتون النبي ﷺ ويطلبون منه الدعاء، الدعاء بالغيث، «فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَسْقِينَا»^(١)، الدعاء بالهداية «فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ»^(٢)، الدعاء بالمغفرة والرحمة، وغير ذلك مما ثبت مما كان الصحابة يطلبون من النبي - ﷺ - أن يفعله، أن يدعو الله لهم، وكان يدعو ﷺ. وهو ﷺ أعظم الناس جاها عند الله، وأعلاهم مكانة عنده، فهذا جائز، جائز في الدنيا، وجائز في الآخرة، ولهذا ﷺ لما جاءوه بعد أن اعتذر الأنبياء، قال: «أنا لها»، «أنا لها»، فهذا جائز وهو ﷺ الشافع المُشفّع يشفع للناس يوم القيامة، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند الله، وهذا صحت به الأحاديث، ودلت عليه الدلائل، وهو أمر جائز.

قال: «وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك، ويسمع كلامك، وتقول له: «ادع الله لي»، هذا جائز باتفاق أهل العلم، ولا خلاف فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته» أي: يسألونه أن يدعو الله لهم بالغيث، بالهداية، بالمغفرة، بالرحمة.

«وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره» ولا يُعرف عن أحد من الصحابة أنه سأل النبي ﷺ شيئا من ذلك مما كانوا يسألونه إياه في حياتهم عند قبره، مثلاً: أن يأتي أحد ويقول: «ادع الله أن يغفر لي»، «ادع الله أن يهديني»، «ادع الله أن

(١) رواه البخاري (٩٣٢)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩١).

يغيثنا»، ولما قحط الناس في زمن عمر رضي الله عنه، قال كلمته المشهورة: دعا العباس عم النبي ﷺ، وقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بَنِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»^(١)، فلماذا عدل - رضي الله عنه - عن التوسل بدعاء النبي ﷺ إلى التوسل بدعاء عم النبي العباس - رضي الله عنه -، لم يعدل إلا لكون الأمر غير جائز، وهم الحريصون على كل فضيلة، والسباقون إلى كل خير، وهكذا مضى صنيع السلف الصالح - رحمهم الله ورضي عنهم -.

قال: «بل؛ أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف دعاءه بنفسه؟ دعاءه نفسه ﷺ». أنكر السلف من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان على من قصد دعاء الله عند قبره، يعني؛ من تحرى الدعاء عند القبر، وقال: إن الدعاء عند القبر مستجاب، وأنه أفضل، أو نحو ذلك، بل أنكروا مثل ذلك، فكيف بمن دعاه نفسه ﷺ؟. ومن ذلكم إنكار علي بن الحسين - وهو أعلم أهل البيت في زمانه - على من أتى قبر النبي ﷺ يدعو الله، فنهاه وقال: «أَلَا أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بَيُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ وَتَسْلِيمَكُمْ يُلْغِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ»^(٢) فأنكر عليه هذا، فكيف بمن يأتي إلى قبره ﷺ؟ أو لقبر غيره عائذًا ولائذًا ومستجيرًا ومستغيثًا، قائلاً: «مالي من ألوذ به سواك، وليس لي إلا الالتجاء بحماك، وأنا عائذ ببابك، ولائذ بجنابك، أنا

(١) رواه البخاري (١٠١٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٢٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٢٦)، وانظر «تحذير الساجد» (ص ٨٥) للألباني.

عبدك الفقير الكسير بين يديك، الذليل عندك»، أو نحو ذلك من العبارات التي يقولها المشركون المستغيثون بغير الله - ﷻ -. فهل يقال إنَّ صنيع هؤلاء وعملهم هو من جنس دعاء الصحابة، أو طلب الصحابة من النبي ﷺ أن يدعو لهم، أو يقال إنَّه من جنس طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أن يدعو الله لهم، حاشا وكلا، فرق بين الهدى والباطل، والحق والضلال.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا؛ قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال، ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعّل، ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكان بعيد عنهم لفعّل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعّلوا هذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه، أو أن يهب له شيئاً يقضي به حاجته؛ فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ، ويصبر حتى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد؛ فأين هذا من استغاثة العباد والشرك لو كانوا يفقهون».

[الشرح]

ثم ذكر الشيخ رحمه الله هذه الشبهة وبها ختم ما أورده من شبهات يثيرها من يتعلق بغير الله - عز وجل - ويصرف العبادة لغيره - جلّ وعز -.

قال - رحمه الله تعالى -: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي

في النار، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم ﷺ: أما إليك فلا قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم.

هذا استدلالٌ من هؤلاء أو تشبيه من هؤلاء بتقرير الشرك ودعاء غير الله والالتجاء بغيره - ﷺ - بقصة تتعلق بإمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﷺ الذي جعله الله - ﷻ - للناس إماماً، وذكر الله - جلَّ وعز - في القرآن من قصصه في نصرة التوحيد وإبطال الشرك شيئاً كثيراً، وكل ذلك لم يُقبل عليه القوم ولم يلتفتوا إليه ولم يحفلوا به، وأخذوا يتبعون المتشابه، وهذه طريقة أهل الزيغ والضلال يتبعون المتشابه ويتركون المحكم البين، وإلا ففي قصص إبراهيم ﷺ مما ذكره الله - ﷻ - في القرآن، وجاء في سنة النبي ﷺ من النصرة للتوحيد وإبطال الشرك والرد على من يتعلق بغير الله - ﷻ - ما فيه كفاية وغنية، وما فيه أيضاً الوضوح والشفاء في هذا الباب العظيم، وكل ذلك عند القوم يُترك ولا يُلتفت إليه ثم يتبعون مثل هذه الأمور التي يلبسون من خلالها على الناس!

قال: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم ﷺ لما أُلقي في النار^(١)، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجة؟»

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨ / ٤٦٧)، وقال العلامة الألباني ﷺ: «لا أصل له؛ أورده بعضهم من قول إبراهيم ﷺ وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع، وقد ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيراً لضعفه فقال: روي عن كعب الأحبار: «أن إبراهيم ﷺ.. لما رموا به في المنجنيق إلى النار استقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟»

قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي» «السلسلة الضعيفة» (١ / ٧٤).

استدلالٌ بهذه القصة من هذا الموضع اعتراض جبريل لإبراهيم الخليل في الهواء، وقوله له: «ألك حاجة؟» قالوا -مستدلين على ذلك بجواز الاستغاثة بغير الله- قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل ﷺ شركاً لم يعرضها على إبراهيم ﷺ، فرجعوا هنا بهذا التقرير الباطل إلى عبادة الملائكة، واللجوء إليهم واتخاذهم ألهة مع الله، هذا مُفاد هذا التقرير أنَّ الملائكة يجوز الالتجاء إليهم والاستغاثة بهم والاستنجاد بهم وهذا اتخاذُ لهم آلهة مع الله -ﷺ-، قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم ﷺ؛ ثم شرع ﷺ في الجواب على هذه الشبهة؛ قال: «فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى»، ونحن عرفنا في الجواب على الشبهة الأولى أنَّ الاستغاثة أو الطلب هناك طلبٌ من حيٍّ حاضر قادر، حي أمامهم يخاطبونه، وحاضر عندهم، وأيضاً قادرٌ على هذا الأمر الذي طلبوه منه. قال: «فهو من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه».

فاجتمعت الأمور الثلاثة كونه حياً وحاضراً وأيضاً قادراً بما أعطاه الله -ﷺ- من القوة والشدة، ولهذا قال المصنف ﷺ: «فإنَّه كما قال الله فيه: ﴿سَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]».

جبريل ﷺ عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنه كما قال الله -ﷺ-: ﴿سَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥]، أعطاه الله -ﷺ- قوةً وشدةً؛ ولهذا يقول الشيخ مستدلاً بالآية: «فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال، ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل»؛ لأنَّ الله -ﷺ- أعطاه القدرة على فعل مثل هذا الأمر،

ولو أمره أن يضع إبراهيم ﷺ في مكان بعيد، وهو أيسر من الأول بعيداً عنهم؛ لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء؛ لفعل، فجبريل ﷺ شديد القوى، وعرض على إبراهيم الخليل أشياء هي في مقدوره؛ ولهذا نظر المصنف - رحمه الله تعالى - هذا بمثال قال: «وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً» - يعني: يرى رجلاً فقيراً محتاجاً إلى المال - «فيعرض عليه أن يقرضه»؛ فيقول له: تريد مالاً، تريد أن أعطيك مالاً، تريد أن أساعدك بالمال، «يعرض عليه أن يقرضه أو أن يهب له شيئاً يقضي به حاجته؛ فيأبي ذلك الرجل أن يأخذ ويصبر حتى يأتيه الله بالرزق، برزق لا منة فيه لأحد»؛ فهل مثل هذا يقال أنه فيه دليل على الاستغاثة؟! رجل غني يعرض على رجل فقير مالاً؛ فيعتذر عن قبوله، يريد أن يأتيه رزق من الله - ﷻ - لا منة لأحد فيه.

يقول الشيخ ﷻ: «فأين هذا من استغاثة العباد والشرك لو كانوا يفقهون؟!».

فأين هذا من استغاثة العباد والشرك التي يفعلها أهل الشرك عندما يستنجدون بغير الله من المقبورين وغيرهم، يسألونهم كشف الكربات وإزالة الهموم وتيسير الأمور، ويسألونهم الولد والرزق وغير ذلك مما لا يسأل إلا من الله - ﷻ -؟!!

هذا جواب الشيخ ﷻ على فرض ثبوت هذه القصة؛ وإلا فهي غير ثابتة^(١)، وأعيد ما بدأت به أن القوم تركوا من قصة إبراهيم أو قصص إبراهيم ﷺ في الكتاب

(١) سئل العلامة عبد العزيز بن باز ﷻ: «قصة جبريل مع إبراهيم ثابتة؟»

الجواب: ما أعرف فيها أحاديث، إنما ذكرها المؤرخون أنه قابله في الهواء، وقال: أما إليك فلا، ثم قال: حسبنا اله ونعم الوكيل» «شرح كشف الشبهات» (ص ١٣٤).

والسنة ما فيه تقرير التوحيد وتثبيتته وتدعيمه ونصرته، كل ذلكم تركوه ولم يحفلوا به وأخذوا يتتبعون الأخبار الواهيات وما لا يثبت ويتعلقون به؛ لنصرة ما هم عليه من ضلال وباطل.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «ولنختم الكلام - إن شاء الله تعالى - بمسألة عظيمة مهمة جداً تفهم مما تقدم، ولكن نضرد لها الكلام لعظم شأنها، وكثرة الغلط فيها؛ فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب، واللسان، والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً.

فإن عرّف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما.

وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون: هذا حق ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، وغير ذلك من الأعذار، ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر، يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار؛ كما قال تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات؛ كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، ولا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملت في أسنة الناس؛ ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه، أو مداراة،



وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه».

[الشرح]

ثم ختم -رحمه الله تعالى- بهذه الخاتمة الجامعة لتثبيت ما مضى وتقريره؛ قال: «ولنختم الكلام -إن شاء الله- بمسألة عظيمة مهمة جداً تفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها»

سيتحدث الشيخ رحمه الله عن أصل مفيد وأساس نافع يتعلق بالتوحيد الذي هو أساس السعادة وسبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، فسيتحدث عن أصل نافع في التوحيد عظيم الشأن، وفي الوقت نفسه يكثر فيه الغلط عند الناس؛ قال: «سنقول لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل» فالتوحيد أصل يدل على الإفراد، توحيد الله -سبحانه- هو إفراده بحقوقه سبحانه على عباده وخصائصه -سبحانه- التي لا تليق إلا به، ولا تكون إلا له -سبحانه- لا شريك له في شيء من ذلك؛ فالتوحيد هو إفراد الله بحقوقه سبحانه وخصائصه، ونبذ الشرك والضلال والبراءة منه.

قال: «لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل».

فالقلب يوحد واللسان يوحد والجوارح توحد، توحد بالأعمال، التوحيد لا بد منه بهذه الثلاث.

قال: «فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً»

كما سيأتي توضيح ذلك عند المصنف -رحمه الله تعالى- فهذه فائدة عظيمة

في التوحيد أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب اعتقادًا وإقرارًا واعترافًا بوحداية الله - ﷻ - وإيمانًا بذلك دون شكٍ أو ريب، واللسان: نطقًا بالتوحيد تلفظًا به، وإعلانًا للشهادة به، وبالعمل: بأن يجعل أعماله كلها لله خالصة، ولا يجعل لأحدٍ فيها شيئًا. ثم بيّن الشيخ رحمه الله أمثلة لحصول اختلال في هذه الموازين أو الأصول التي يقوم عليها التوحيد، ضرب شيئًا من الأمثلة على ذلك.

قال: «فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر» معرفة التوحيد توحيد؛ لكن ترك العمل به كفرٌ ناقض لهذه المعرفة مبطلٌ لها، «فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما».

وهذا يسميه أهل العلم كفر الإيذاء والاستكبار، يكفر عن معرفة، عرف ولم يقبل؛ ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَّائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

وقال تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

وفي إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُكَ﴾ [الحجر: ٣٩]

فهذا كفرٌ عن معرفة، وهو يسمى كفر جحود وإيذاء أو استكبار؛ قال: «فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما».

وهذا يغلط فيه كثير من الناس - ثم يُبين وجه الغلط في هذا الباب - قال: «يقولون: هذا حقٌّ ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق ولكن - ثم يذكر لهم أعداء يوردونها يمتنعون بسببها من الإقبال على التوحيد والعمل به، ونحن نعرف أن التوحيد حق بعبارة ذكرها عنهم ﷻ في بعض مصنفاته ورسائله قال: يقولون هذا: «التوحيد

زين»^(١)؛ لكن عندما يأتون إلى جانب العمل يمتنعون من العمل لأعذار يُوردونها لأجلها لا يعملون بالتوحيد الذي قالوا عنه أنه زين وأنَّ ضده -وهو الشرك بالله - ﷺ- شين، قال -في حكاية قولهم- «ولكن لا نقدر أن نفعله» لماذا لا تقدرון على فعله، ما الذي يمنع؟ قال: «لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم» لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم هذا من الأعذار التي يوردها بعضهم مع معرفته بالتوحيد، وأحياناً يحصل أنَّ بعض الناس يأتي إلي مدارس التوحيد التي تقرره ويمكث فيها بعض السنوات ويفهم التوحيد ويقف على دلائله وحججه وبراهينه، وإذا رجع إلي بلده رجع إليهم كما كان! موافقاً لهم على كل ما هم عليه من ضلال وخرافة! ويسايرهم في أعمالهم ويحاكيهم في شريكاتهم، وقد حفظ من الدلائل والحجج ودرسها وفهمها وعرفها وتبين له صحتها؛ لكن مجاراة الأهل والعشيرة والمجتمع الذي عاش فيه؛ صار حاجزاً عنده يمنعه من العمل بالتوحيد. يقول: «لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم»؛ بمعنى أنه إذا لم يكن على ما هم عليهم من الشرك والضلال يعادونه وينابذونه ويسفّهونه إلى غير ذلك فهو لا يريد ذلك؛ فيمضي إليهم موافقاً لهم.

قال: «وغير ذلك من الأعذار»، أعذار هؤلاء في هذا الباب كثيرة؛ مثل أيضاً: اتباع الآباء والأجداد؛ هذه طريقتنا منذ نشأنا عليها في البلاد، هذه عقيدة الآباء والأجداد؛ قال: «ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر، يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذار» يعني: عرف الحق لكن تركه إما مثلاً مجاراةً لعشيرة وقراة، وإما

حفظاً لجاءٍ ورئاسة وزعامة، وإما أيضاً استبقاءً لِمَالٍ وثراء ونحو ذلك؛ فغالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار؛ يعني يبدون أعذاراً لأجلها لا يُقبلون على هذا الذي عرفوه؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، يعني استعاضوا عنها بثمن قليل، يعني من أجل شيء من المال، وتحصيل شيء من المال؛ أثروا ذلك على آيات الله - ﷻ - وحججه - ﷻ - وبَيِّنَاتِهِ؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات؛ كقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إذاً قوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذه الآية تفيد أنهم عرفوا الحق وآيات الله - ﷻ - وحججه؛ لكنهم آثروا عليها دنيا زائلة ومال فاني.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فيه أن: علماء اليهود كانوا على معرفة بأن النبي ﷺ حق وأنه مرسلٌ من ربه، وأن ما يدعوا إليه حق، لكنهم تركوا ما دعاهم إليه حفظاً للرئاسة وإبقاءً للزعامة والمكانة والجاه، هذا مثال للإخلال بأمور التوحيد التي هي القول، والاعتقاد والعمل بالقلب واللسان، والعمل.

مثال آخر: قال: «إن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه، أو لا يعتقده بقلبه» - يعني وُجِدَ من العمل الظاهر لكن لا يفهم التوحيد، ولا يعرفه، أو لا يعتقد التوحيد بقلبه -؛ فهو منافق، وهو شرٌّ من الكافر الخالص؛ لأن المنافق يظهر إيماناً ويبطن خلاف ذلك؛ قال: وهو شرٌّ من الكافر الخالص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿[النساء: ١٤٥]﴾، فجعل -ﷺ- رتبهم في النار أسفل رتبة، وأحط رتبة، هذه فيه دلالة لما ذكره المصنف أنهم شر من الكافر الخالص.

قال: «وهذه المسألة مسألة كبيرة»

قوله: هذه المسألة؛ أي: مسألة أنَّ التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل؛ يقول: «هذه مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملتها في السنة الناس»، يعني إذا اختبرت التوحيد وحقيقته في السنة الناس؛ تبين لك هذه المسألة وعظم شأنها، وأيضاً تبين لك الإخلال الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس في التوحيد بأعذارٍ يبدو أنها يعتذرون بها عن قبول التوحيد والإقبال عليه.

قال: «إذا تأملتها في السنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به؛ لماذا يعرف الحق ويترك العمل به؟!»

«لخوف نقص دنيا»؛ يعني مثل أن يكون له مكانة ومنزلة فيخاف أن تنقص هذه المكانة وهذه المنزلة عند الناس إذا قبل التوحيد وأعلن ذلك.

«أو جاه»؛ الجاه: هو المكانة والمنزلة، ونقص الدنيا؛ أي: المال والثراء.

«أو مداراة» ومقصود الشيخ ﷺ بالمدارة؛ أي: المداينة، مداينة أهل الباطل.

قال: «أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سأله عن ما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه» فباطنه لا يُطلع عليه لكن إذا سأله عما يعتقد تجد أنه لا يعرف التوحيد، لو قيل له: ما التوحيد؟ ما الذي ينبغي أن يعتقد الإنسان في التوحيد؟ بعضهم ربما يقول لك: التوحيد أن تعتقد أنه لا خالق غير الله، أو لا غني عما سواه

إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، هذه حقيقة التوحيد عنده! وهذا حده!
فتجد بعضهم إذا تأملت في حاله وجدته لا يعرف التوحيد.

قال: «تري من يعمل به ظاهراً لا باطناً» من أين عُرِفَ أنه باطناً لا يعمل بالتوحيد؟
عندما يُسأل ما الذي يجب أن يعتقد الإنسان في التوحيد، ويستقر في باطن المسلم؟
يقول مثل هذه الإجابات التي تدل وتنم عن عدم فهم منه بالتوحيد^(١).



(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «فالناس مع التوحيد ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يعرفه ويؤمن به باطناً ويجحده ظاهراً وينكره.

القسم الثاني: من يتكلم به ويعمل به ظاهراً وينكره ويكفر به باطناً. وهم المنافقون.

القسم الثالث: من يعتقد باطناً ويعمل به ظاهراً وباطناً. والقسمان الأولان كافران خاسران

والقسم الثالث مؤمن مفلح» «شرح كشف الشبهات» (ص ١١٩).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله صلى الله عليه وآله كضروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، تبين أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مال، أو جاه، أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفاً، أو مداراةً، أو مشقةً بوطنه، أو أهله أو عشيرته، أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره، والآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يُكره أحد عليها.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو

البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فأثره على الدين، والله - ﷻ - أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين».

[الشرح]

ثم قال - رحمه الله تعالى -: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله - ﷻ -»
يعني: بعد أن ذكر ﷺ أن هذه المسألة وهي مسألة أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، وأنها مسألة كبيرة، وأنت إذا تأملت في حال الناس للنظر في تحقيقهم لهذه المسألة؛ أي: تحقيقهم للتوحيد بالقلب واللسان والعمل؛ تجد أن منهم من وُجِدَ منه بعض دون بعض فلا تكون مجتمعة، والتوحيد لا يكون من الشخص إلا إذا اجتمعت هذه الأمور؛ يعني: كونهم نطقوا بالتوحيد واعتقدوه، نطقوا به بألسنتهم واعتقدوه في باطنهم وعملوا به في جوارحهم، إذا وجدت هذه الثلاثة صح توحيد الإنسان، وإذا اختل شيء منها لم يستقم توحيده.

يقول: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله»؛ أي: يتضح لك بفهمها الأمر وتستبين لك هذه المسألة العظيمة.

قال: «أولاهما - أي: أولى الآيتين - ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعْزِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]».

تأمل في الكفر الذي حصل هنا ما نوعه؟ وبما يتعلق من الأمور الثلاثة التي أشار إليها الشيخ ﷺ؛ قال: التوحيد في القلب واللسان والعمل، قال: «فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها»، الآن

هؤلاء كانوا مع النبي ﷺ ؛ - وكما قال ﷺ: من الصحابة في غزو، والله - ﷺ - ذكر أن كفرهم بعد إيمان؛ قال: ﴿ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]. كفرهم بعد إيمان؛ فهم كانوا على الإيمان وعلى التوحيد ولكن بهذه الكلمة كفروا، كفروا بكلمة قالوها، هذه توضح لك أن التوحيد كما أنه بالاعتقاد، فهو أيضًا بالقول والعمل.

قال: «إذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول صلى الله عليه وآله كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب، تبين - أي: لك من هذا - أن الذي يتكلم بالكفر - أي: يقول بلسانه كلمة الكفر - أو يعمل به - كأن يستغيث بغير الله أو نحو ذلك من الشرك - خوفًا من نقص مال، أو جاه - أي: خوفًا من نقص جاه - أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها، أعظم - أي: كفرًا - ممن تكلم بكلمة يمزح بها»

إذا كان الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أجبن عند اللقاء، وأكذب ألسنًا وأرغب بطونًا، إلي آخر ما قالوه؛ ثم اعتذروا عن هذه المقالة أنهم إنما أرادوا قطع عناء الطريق، وأنهم إنما أرادوا المزح واللعب، ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾؛ يعني: لسنا جادين عندما قلنا هذه الكلمة، وهم يعتذرون، لماذا؟ لأنهم أدركوا أن هذه الكلمة أخرجتهم من دائرة الإسلام، ونزل فيهم هذه الآية الكريمة: ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾؛ فجاءوا معتذرين إلي النبي ﷺ فكان لا يلتفت إليهم ولا يزيد على قراءة هذه الآية: ﴿ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦].

فهذه الآية تبين كما قال الشيخ أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص

مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم؛ أي: كفرًا ممن تكلم بكلمة كهذه على وجه المزاح واللعب؛ فهذه الآية تبين لك هذا المقام العظيم.

والآية الثانية قال: قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]

تنبه لهذين الأمرين الواردين بعد الاستثناء، قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ هذا أمر، الثاني: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ هؤلاء استثناهم الله.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾؛ يعني: من قال كفرًا أو فعل كفرًا فإنه لا يُعذر إلا إذا كانت هذه حاله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

إذا من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب رئاسة؛ أو من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب جاه، أو ذهاب مال أو مذمة الناس فأخذ يداهن، ويجاري أو أن يكون في مجلس معهم ويقررون هذه الشراكيات ويلتفتون إليه فيقول: صحيح، وفي قرارة نفسه يدرك أنه باطلٌ وشركٌ بالله؛ فيقول: صحيح مداراةً أو مداهنة لهم، مجارة لهم؛ فلننتبه للأمرين المذكورين بعد الاستثناء؛ قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال الشيخ في تقرير الاستدلال في هذه الآية الكريمة: «فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان».

فإذا العذر في هذه الآية، يعني من حصل منه الكفر لا يعذر إلا بشرطين: الشرط الأول: أن يكون مُكرهًا، والشرط الثاني: أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان؛ أي: ساكنًا

لم يتغير باقٍ على الإيمان ثابتاً عليه؛ فالله - ﷻ - لم يستثن من هؤلاء؛ أي: الذين قالوا الكفر أو فعلوا الكفر لم يستثن منهم إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

والإكراه كون الشخص وصل إلي حد يخشى على نفسه القتل أو على ولده؛ فمثل هذه الحال يجوز للإنسان أن ينطق الكفر أو يفعل الكفر، إذا خاف على نفسه ووصل إلي درجة يخشى على نفسه أن يُقتل أو على بعض ولده أن يُقتل، فقال كلمة الكفر أو فعل الكفر؛ لكن قلبه في باطنه ثابت على الإيمان، ولهذا الإكراه على القول والعمل، أما الاعتقاد الذي يكون في الباطن هذا لا يكون فيه إكراه، الإكراه إنما يكون على القول والعمل، أما الباطن باطن الإنسان وما يكون في قلبه هذا لا يكون فيه إكراه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ يعني: من أكره على الكفر وخشي على نفسه أو على ولده القتل إن لم يقل الكفر أو لم يفعله؛ فيجوز له أن يقول الكفر وأن يفعل الكفر ولا يخرج بذلك من الإيمان، إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان.

قال الشيخ رحمه الله: «وأما غير هذا - أي: غير المكره المطمئن قلبه بالإيمان - فقد كفر بعد إيمانه، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواءً فعله خوفاً - يعني: خوفاً من ملامة الناس، أو مذمة الناس، أو احتقار الناس -، أو مداراة - يعني: مجاملة للناس ومداهنة لهم - أو مشحّة بوطن أو أهل أو عشيرة أو مال؛ - يعني أثر هذه الأشياء على توحيده لله - ﷻ - وإخلاصه الدين له - أو مشحّة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزاح - يعني: يقول الكفر أو يفعل الكفر ويقول: إنما فعلته مزحاً ولعباً - أو لغير ذلك من الأغراض».

قال الشيخ: «إلا المُكره»؛ كما دلت على ذلك الآية، وكما هو واضح في الاستثناء الذي في الآية: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾؛ لك أن تقول: من كفر بالله بعد إيمانه قولاً أو فعلاً مازحاً أو خائفاً أو مُداهناً أو حفظاً لجاهٍ أو مكانةٍ أو مشحة بوطنٍ أو أهلٍ أو غير ذلك من الأعذار؛ كل هؤلاء يكفرون إلا من أكره، كما قال الشيخ: «إلا المُكره»، ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

قال: «والآية تدل على هذا من جهتين»

قوله: «على هذا»: إشارة إلى أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل.
«فالأية»: أي: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ تدل على هذا-أي: على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل- من جهتين:
الأولى: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المُكره، ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها.
سؤال ونجيب عليه من الآية: هل يكفي لئن يكون الشخص موحدًا أن يعتقد التوحيد في باطنه وفي سره وفي قلبه دون القول والعمل؟

ليس كافٍ؛ الدليل الآية؛ قال: «لم يستثن الله إلا المُكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها».

وتقرير الاستدلال أنه لو كان يكفي في التوحيد مجرد الشيء الذي يكون في القلب، المعرفة القلبية، أو الإقرار الذي يكون في القلب أو الاعتراف الذي يكون في القلب، لو كان هذا يكفي؛ فما معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾؟! لأن الذي في القلب لا أحد يكره عليه؛ فالإكراه إنما يكون على القول والعمل.

فإذا هذا وجه في دلالة الآية على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل؛ فلا يكفي في التوحيد مجرد ما يكون في القلب فقط.

الجهة الثانية - في دلالة الآية على ذلك - : قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، فصرح - جل وعز - أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، - ليس هذا سببه، ليس سبب الكفر والعذاب المترتب على الكفر لم يكن سببه الاعتقاد، من أين عرفنا أنه لم يكن سببه الاعتقاد؟ لأن العقوبة عُلِّقت على شيء لا علاقة للقلب فيه، وهو القول والعمل؛ لأن هذا الذي يكون عليه الإكراه، أما الذي في القلب لا إكراه عليه؛ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، - وهذه أشياء في القلب، والآية ليس الكلام فيها عما في القلب، وإنما الكلام فيها لوجود الكفر وحصول المكفر الذي عليه العذاب، كلها تتعلق بالقول واللسان، أما الاعتقاد، بغض الدين، محبة الكفر؛ هذه أشياء في القلب، والتكفير الذي في الآية ليس منصباً على الشيء الذي في القلب؛ وإنما هو منصبٌ على القول والعمل.

قال: «وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فأثره على الدين»

هذا مأخوذ من قوله: «بأنهم» والباء سببية؛ يعني: بسبب إثارهم للحياة الدنيا على الآخرة؛ أي: على الجنة وثواب الله في الدار الآخرة؛ فصرح أن هذا الكفر والعذاب الذي حُكِمَ على أهله بالكفر لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر؛ وإنما سببه أنه له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا؛ أي: فآثر

هذا الحظ الديني على الحظ الأخرى الذي أعده الله لعباده الموحدين وأوليائه المؤمنين.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمته الله: «فالإنسان الذي يلجئه من يلجئه إلي أن يصدر من الكفر له حالات:

أحدها: أن يمتنع ويصبر عليها؛ فهذه أفضل الحالات، أن يمتنع ويصبر عليها، وهذه الحالة مثل حالة الذي ذكر في الحديث: «دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار في ذباب»^(١) ففيه أن أحدهما قيل له: قرب؛ قال: لم أكن لأقرب لأحد غير الله؛ فقتل فدخل الجنة؛ فصبر على ذلك، أن يمتنع ويصبر عليها، هذه أفضل الحالات.

الثانية: أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه الإيمان فهذا جائز له تخفيفاً ورحمة، قد قال بعض أهل العلم - ومنهم الشيخ الشنقيطي رحمته الله في كتابه «أضواء البيان» وأطال

(١) «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب.

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب.

قال: ليس عندي شيء أقرب.

قالوا له: قرب ولو ذباباً.

فقرب ذباباً، فخلوا سبيله، فدخل النار.

وقالوا للآخر: قرب.

فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد في «الزهد»

(ص ١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٩٢) للألباني.

في تقرير ذلك:- أن هذا التخفيف لأمة محمد ﷺ واستدل لذلك ببعض الأدلة تجدونها في كتابه؛ منها: الحديث: عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ»^(١).

وذكر بعض الدلائل، فهذا التخفيف لأمة محمد ﷺ في قول لبعض أهل العلم، أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه بالإيمان؛ جنانه أي قلبه، مع اعتقاد جنانه بالإيمان، فهذا جائز له.

إذا الحالة الأولى أفضل؛ يعني: أن يصبر فلا ينطق بالكفر ولا يفعل الكفر إلى أن تفارق روحه جسده صبراً على التوحيد هذا أفضل.

فلو قال الكفر بسبب الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان، هذا جائز ولا يكون بذلك قد دخل في الكفر.

الحالة الثالثة: أن يُكْرَهَ فيجيب ولا يطمئن قلبه بالإيمان؛ فهذا غير معذور وكافر، أن يُكْرَهَ فيجيب؛ يعني: يجيب بنطق الكفر؛ لكن في الوقت نفسه لا يكون قلبه مطمئن بالإيمان؛ يعني: يكون عنده شيء من أو يدخله شيء من الارتياب في دينه وفي توحيده وفي عقيدته وفي إيمانه بالله - ﷻ -؛ فهذا غير معذور وكافر.

الحالة الرابعة: أن يُطْلَبَ منه ولا يُلْجَأَ فيجيب ما وصل إلي حد الإكراه؛ فيجيب دون أن يصل لحد الإكراه ولكن يوافق بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان فهذا كافر؛ لأنه لم يُكْرَهَ على الكفر؛ يُقال له: اسجد للصنم، يُقال له: سب الدين مثلاً، يُقال له

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٦٢).

من الأمور الكفرية فيبادر دون أن يصل إلي حد الإكراه، وقلبه مطمئن بالإيمان هذا يكفر؛ لأن الله استثنى من عدم الكفر من كان مُكرهاً، وقلبه مطمئن بالإيمان.

الحالة الخامسة: أن يذكر له ولا يصل إلي حد الإكراه فيوافق بقلبه ولسانه؛ فهذا أيضاً كافر.

ثم ختم الإمام -رحمه الله تعالى- الكتاب بقوله: «والله أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».

يمكن مزيداً للاستفادة في هذا الباب أن يُطالع ويُراجع بعض الكتب المفيدة في هذا الموضوع، والمنطلقة من هذا التأسيس والتفصيل والتقرير الذي قرره الشيخ -رحمه الله تعالى-، في كتاب «تيسير العزيز الحميد» لحفيد الشيخ: عبد الله بن سليمان بن محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله- في شرحه لباب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو أن يدعو غيره، في آخر شرحه لهذا الباب أشار إلى كتاب كشف الشبهات، ونوه بالجهد الذي بذله الشيخ رحمه الله في هذا الكتاب المبارك، ثم أضاف رحمه الله ذكر بعض الشبهات وأجاب عنها بنفس طريقة الشيخ رحمه الله في كشف الشبهات.

فذكر هناك إضافة بعض الشبهات وهي ثلاث شبهات يوردها هؤلاء، وأجاب عنها إجابة مفصلة وافية نافعة، يمكن أن تُراجع في كتاب تيسير العزيز الحميد.

أيضاً يمكن أن يُراجع في الباب كتب أئمة الدعوة التي ردوا فيها على هؤلاء من خصوم الدعوة المنافحين عن الشرك والتعلق بغير الله ﷻ، ومن هذه الكتب على سبيل الإشارة فقط كتاب «تحفة الطالب والجلس في كشف شبه داود بن جرجيس» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وكتاب: «القول

الفصل النفيس في الرد على المفتري بن جرجيس» للشيخ عبد الرحمن بن حسن صاحب الفتح المجيد، وصاحب «قرة عيون الموحدين»، وأيضًا كتاب: «كشف الشبهتين» للشيخ: ابن سحمان، وكتاب: «النبذة الشريفة في الرد على القبوريين» للشيخ: حمد بن ناصر آل معمر، وكتاب: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للسهسواني.

وغيرها من الكتب النافعة المفيدة في هذا الباب، وكثير من هذه الكتب التي أشرت إليها وغيرها من كتب أئمة الدعوة -رحمهم الله تعالى- مشتملة على مادة نافعة جدًا في كشف الشبهات، ومطالعة هذه الكتب والمرور عليها يفيد طالب العلم، خاصة عندما يكون في مجتمع يُبتلى فيه بمثل هذه الشبهات التي تُثار، فمن خلال هذه الكتب يتمكن بإذن الله ﷻ من معرفة الطرائق القويمة والسبل السديدة لرد مثل هذه الشبهات.

وأذكر في وقت قديم فعلت أنا وبعض طلبة العلم واستفدنا من ذلك، استقرأنا هذه الكتب التي ذكرت لكم كلها كتابًا كتابًا، وصنعنا لها فهرسة، يعني نذكر الشبهة ونذكر أجوبتها، نذكر الشبهة كرأس قلم ادعائهم كذا قولهم كذا استدلالهم بحديث كذا ثم نحيل على الردود في هذه الكتب بعد قرأتها وتأملها في هذه الكتب؛ فالشاهد أن مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها ومطالعتها نافعة لطالب العلم.

نحمد الله الكريم حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن يسر لنا هذا الخير، وأكرمنا بدراسة هذا الكتاب والوقوف على مضامينه الطيبة وتقريراته المفيدة.

نسأل الله ﷻ أن يغفر للإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله

تعالى - ولتلاميذه أنصار هذه الدعوة المباركة التوحيد، وإخلاص العبادة لله،
ونصرة سنة النبي الكريم، ونبد الشرك والبدع والخرافة والضلال.


نحمد الله ﷻ على نعمه الكثيرة ومننه العديدة، نحمده على نعمة الإسلام ونعمة
الإيمان ونعمة السنة، نحمده - ﷺ - على كل نعمة أنعمها علينا في قديم أو حديث،
أو خاصة أو عامة، أو سر أو علانية.

ونسأله - ﷻ - أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يثبتنا على دينه، وأن يهدينا إليه صراطاً
مستقيماً.

ونسأله - ﷻ - أن يعيذنا من الضلال، وأن يسلك بنا سبيل الهداية والرشاد، وأن
يسددنا في أقوالنا وأعمالنا، وألا يكلنا إلي أنفسنا طرفة عين.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله على نبينا محمد
وآله وصحبه أجمعين.





فهرس المحتويات

٥	مقدمة الطبعة الأولى
٧	شرح القواعد الأربع
٩	مُقدِّمةُ الْمُغْنِي
١٣	مُقدِّمةُ الشَّارِح
١٧	عُنْوَانُ السَّعَادَةِ
٣١	الْحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ
٤٦	القاعدة الأولى
٥٦	القاعدة الثانية
٦٨	القاعدة الثالثة
٩١	القاعدة الرابعة

٩٩	شرح الأصول الستة
١٠١	مُقَدِّمَةُ الْمُعْتَنِي
١٠٥	مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ
١٠٧	مقدمة المتن
١١٦	الأصل الأول
١٣٠	الأصل الثاني
١٣٨	الأصل الثالث
١٥٠	الأصل الرابع
١٦٢	الأصل الخامس
١٧٣	الأصل السادس
١٨١	شرح واجبنا نحو ما أمرنا الله به
١٨٣	مُقَدِّمَةُ الْمُعْتَنِي
١٨٧	مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ
١٩١	نص المتن
١٩٣	واجبنا نحو ما أمرنا الله به

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: الْعِلْمُ بِهِ ١٩٤

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: مَحَبَّتُهُ ١٩٥

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ ٢٠٠

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ ٢٠١

الْمَرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَى الْمَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا ٢٠٣

الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ فِعْلٍ مَا يُحْبِطُهُ ٢٠٤

الْمَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ ٢١٠

الشرح المفصل مع ذكر أمثلة للتوضيح ٢١٠

شرح نواقض الإسلام ٢٢١

مُقَدِّمَةُ الْمُغْتَنِي ٢٢٣

مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ ٢٢٧

النَّاقِضُ الْأَوَّلُ ٢٣٨

النَّاقِضُ الثَّانِي ٢٤٢

النَّاقِضُ الثَّالِثُ ٢٤٥

النَّاقِضُ الرَّابِعُ ٢٤٧

٢٥٠	النَّاقِضُ الْخَامِسُ
٢٥١	النَّاقِضُ السَّادِسُ
٢٥٣	النَّاقِضُ السَّابِعُ
٢٥٦	النَّاقِضُ الثَّامِنُ
٢٥٨	النَّاقِضُ التَّاسِعُ
٢٦١	النَّاقِضُ الْعَاشِرُ
٢٦٩	شرح كشف الشُّبُهَاتِ
٢٧١	مُقَدِّمَةُ الْمُغْتَنِي
٢٧٥	مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ
٢٨٤	الشرح
٥٧٣	فهرس المحتويات